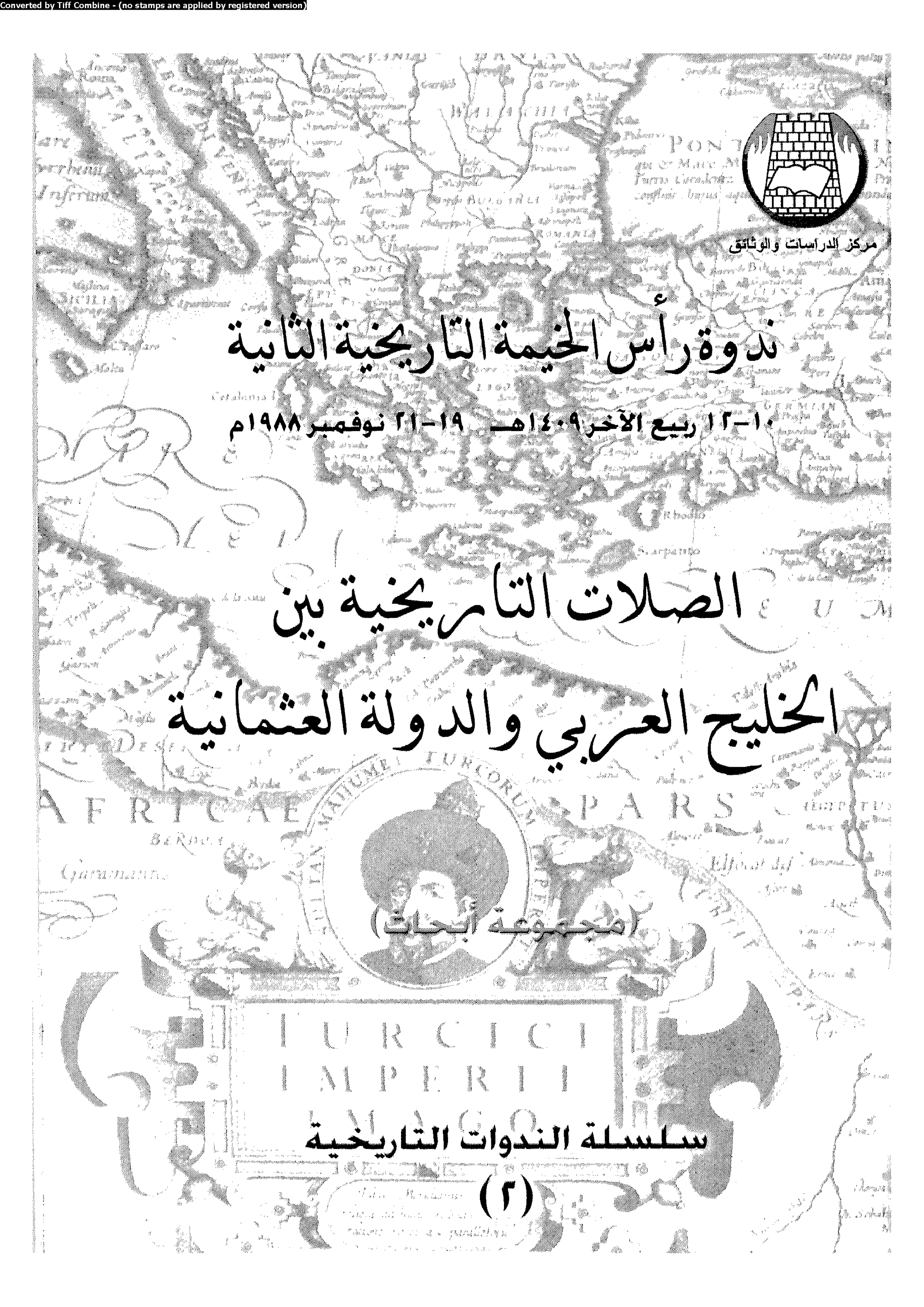

مركز الدراسات والوثائق
ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية
١٠-١٢ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ ١٩-٢١ نوفمبر ١٩٨٨م
الصلات التاريخية بين
الخليج العربي والدولة العثمانية
(مجموعة أبحاث)
TURCICI
IMPERII
سلسلة الندوات التاريخية
(٢)

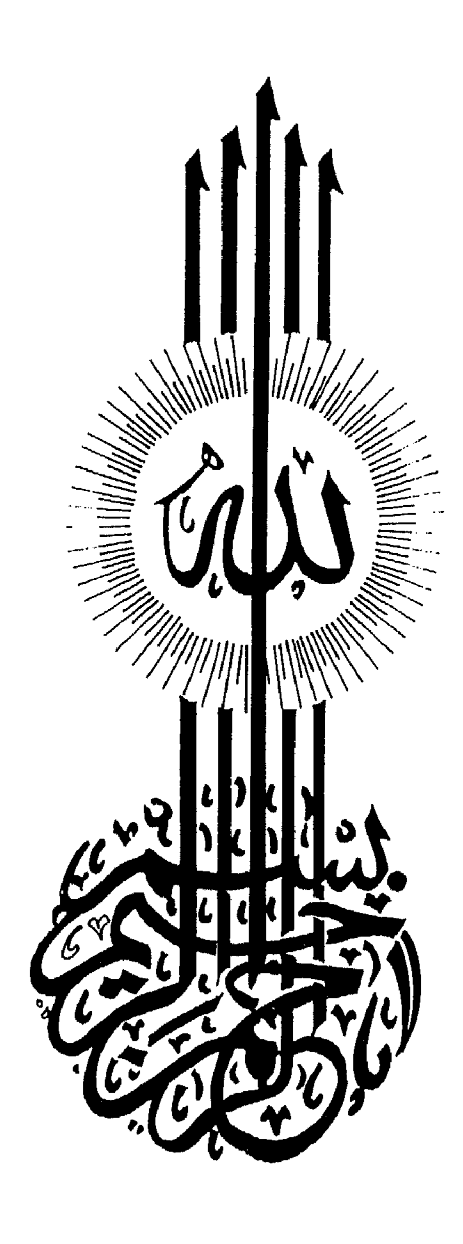
اهداءات ٢٠٠٢

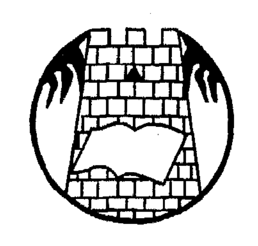
حكومة رأس الخيمة الديوان الاميري

الامارات العربية






بسم الله الرحمن الرحيم



ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية

١٠ - ١٢ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ / ١٩ - ٢١ نوفمبر ١٩٨٨م

الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية

(مجموعة أبحاث)

سلسلة الندوات التاريخية
(٢)

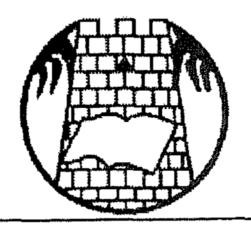
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى وزارة الإعلام والثقافة

٤٥٧ بتاريخ ٢٠/١/٢٠٠١م

م د و ٣٢٧,٩٥٣٠١٦٣	ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية (الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية) (مجموعة أبحاث) إصدار مركز الداسات والوثائق رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة مقاس : ١٧ × ٢٤ ص: ٣٦٤



مـركـز الـدراسـات والـوثـائـق

ص.ب: ١٥٥٩ - رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

هاتف : ٢٣٣١١١١ - ٧ - ٠٠٩٧١ - فاكس : ٢٣٣١٠٠٠ - ٧ - ٠٠٩٧١

DOCUMENTARIES & STUDIES CENTRE

Tel.: 00971 - 7 2331111 - Fax : 00971 - 7 - 2331000

P.O.Box : 1559, Ras Al Khaimah, U.A.E.

E-mail: dscgrak@emirates.net.ae

www.dsc_amiricourt.com

تصدير

بقلم الدكتور / علي عبد الله فارس

عندما أقدم قطب الدين محمد بن أحمد النهراوي الهندي الأصل في كتابه (غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة العربية) المسمى : "البرق اليماني في الفتح العثماني" على اتهام الربان والملاح العربي الجلفاري الشهير أحمد بن ماجد بإرشاده المستكشف البرتغالي فاسكو دي غاما إلى ساحل المليبار الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح، لم يلحظ العديد من المؤرخين العرب والعالميين أن هذا الاتهام قد جاء بعد وفاة ابن ماجد بأكثر من ثلاثة أرباع القرن، ولم يلحظوا أيضاً المغالطات التاريخية والجغرافية التي وردت في النص الحرفي لهذا الاتهام، لكن الأخطر في هذا الجانب، أنهم لم يلحظوا أن النهروالي الذي كان يعمل لصالح الدولة العثمانية في الحجاز، والذي كان يحتل المنصب الثاني بعد شريف مكة، قد قام بتأليف كتابه المذكور أعلاه بأمر من قائد الجيش العثماني سنان باشا، وبموجب النص العثماني الذي كان قد كتبه باللغة العثمانية مصطفى بك الرموزي قبل وفاته، حسب اعترافاته هو، حيث يقول :
(وقد أمرني سنان باشا أن أرقم تلك الأخبار، وأودع صدور الصحف عجائب تلك الآثار والمآثر، وأعطاني حضرة الوزير المشار إليه، أعلى الله تعالى مرتبته لديه، نسخة من تاريخ فتح اليمن، منظومة باللسان التركي، للمرحوم المبرور مصطفى بك الرموزي، أمير اللواء السلطاني، وهو تاريخ في أعلى درجات اللطافة، ليس له نظير في الكياسة والظرافة، أناف على الحسن غاية الإنافة).

وهكذا، وبناء على أوامر سنان باشا، كتب النهروالي (الفتوحات العثمانية للأقطار اليمانية) عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م، والذي أهداه للسلطان سليم خان، ثم زاد عليه، وسماه: " البرق اليماني في الفتح العثماني" وقدمه للسلطان مراد خان بن سليم، وضمنه الأحداث الجارية بين عامي ١٤٩٤م، و ١٥٧٣م، والتي شهدت بدء المرحلة البرتغالية في منطقة الخليج العربي، وانحسار المرحلة العثمانية.

وفي كتابه البرق اليماني، أقدم النهروالي على اتهام ابن ماجد بإرشاده فاسكو دي غاما إلى ساحل المليبار الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح، حيث يعترف النهروالي أنه نقل وقائع كتابه من المؤرخين ابن البديع، وعفيف الدين باخرمة.

وإذا علمنا أن وثائق هذين المؤرخين تخلو تماماً من ذكر أي شكل من أشكال العلاقة بين ابن ماجد، ودي غاما.

وأذا علمنا أن الوثائق البرتغالية التي حسمت الأمر، فحددت مرشد دي غاما إلى ساحل المليبار الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح، وقالت أنه ملاح مسلم من بلدة كوجارات الهندية.

وإذا علمنا أيضاً أن كتاب النهروالي الذي صدر بناء على أوامر قائد الجيش العثماني سنان باشا بعد وفاة بن ماجد بأكثر من ثلاثة أرباع القرن كان زاخراً بالأخطاء التاريخية والجغرافية.

وإذا علمنا أن تاريخ وصول فاسكو دي غاما إلى منطقة رأس الرجاء الصالح كان في عام ١٤٩٨م - وليس في عام ١٤٩٥م كما ورد في كتاب النهروالي - وهو ذات العام الذي انقطعت فيه أخبار ابن ماجد، والذي يعتقد على نطاق واسع أنه توفي فيه، لأدركنا على الفور أن النهروالي في اتهامه هذا، أراد أن يبرر أسباب فشل العثمانيين في أدائهم لدورهم الديني والتاريخي الذي رسموه لأنفسهم في منطقة الخليج العربي، وأن يلصق هذا الفشل الذريع بأبناء المنطقة الذين قام أحدهم - حسب زعم النهروالي - بإرشاد البرتغاليين النصارى إلى طرق المنطقة، وتسبب في انهيار الدور العثماني الإسلامي فيها، وإذا كنا لا نريد هنا في هذه العجالة أن نفند هذه المزاعم والمغالطات التاريخية الخطيرة، فإننا سوف نتيح المجال الواسع للقارئ الكريم للاطلاع على حقائق تاريخ تلك المرحلة، فهم طبيعة العلاقات العربية العثمانية في منطقة الخليج العربي، والتي نعتقد أن قارئنا الكريم سوف يدركها بعد طيِّ الصفحة الأخيرة من أبحاث هذا الكتاب التاريخي الوثائقي، الذي يفخر مركزنا بإصداره.

والله ولي التوفيق.

٢١/٤/٢٠٠٢م

مدير المركز

د. علي عبد الله فارس

مقدمة وتعقيب

العلاقات التاريخية بين الخليج العربي والإمبراطورية العثمانية

بقلم الدكتور أحمد جلال التدمري
مستشار سمو رئيس المركز

ظلت المعلومات التاريخية عن العلاقات بين منطقة الخليج العربي والدولة العثمانية محاطة بالغموض لعدم اهتمام المؤرخين والباحثين بتلك الصلات نظراً لاهتمامهم بالأحداث والصراعات الإقليمية التي قامت بعد انهيار الدولة العثمانية، وما تبعها من نزاعات دولية للسيطرة على مناطق النفوذ التي خلفها العثمانيون، لذلك رأينا من المفيد ونحن بصدد إعادة كتابة تاريخ الخليج العربي من منطلقات وثائقية تتجاوز ما اعتاده الباحثون من التركيز على الوثائق البريطانية فقط، فجاءت دعوتنا لنخبة من علماء التاريخ الأتراك والعرب وبعض المهتمين من الأوروبيين بتاريخ المنطقة للمشاركة في ندوتنا التاريخية الثانية التي خصصناها لإلقاء الضوء على الوثائق العثمانية ذات الصلة بالخليج العربي من خلال مساهمات العلماء المشاركين بالندوة.

وإضافة للجانب الوثائقي جاءت الأبحاث وأوراق الندوة حاوية لمختلف أشكال الرؤى والنظريات التي دارت حول قيام الدولة العثمانية ثم تبنيها نشر الدعوة المحمدية للإسلام حيث أن قبيلة آل عثمان بزعامة أرطغل قدمت إلى آسيا الصغرى مع بداية فتوحات جانكيز خان المغولي لأواسط آسيا، وقد تمتعت تلك القبيلة بتحقيق انتصارات عسكرية دفعتها للتنافس السياسي في عهد أميرها (أتومان) عثمان الذي استطاع تكوين كيان ذاتي خاضع له ضم مجموعات قروية ومدن وقبائل رعوية واستحوذ على بلاد كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية، وأظهر عثمان براعة سياسية في تلك البيئة تجاوز بها التكتلات القبلية والإثنية والدينية، مما مكنه من السيطرة عليها والمضي مع خلفائه في الحفاظ على الدولة والامتداد بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، حيث امتدت دولتهم على أطراف بحر قزوين والخليج العربي ووصلت إلى أبواب فيينا واستطاع آل عثمان برفعهم راية الإسلام وضم بلاد العرب التي كانت قد بلغت من تعدد الكيانات والضعف في أعقاب انهيار وسقوط الخلافة العباسية الحالة التي شجعت القوى الأخرى على استغلال ذلك الضعف ومد نفوذها ليشمل بعض تركات الخلافة العباسية، وبرفع آل عثمان راية الإسلام والدعوة الإسلامية خضعت لهم الكيانات العربية المبعثرة ومعها معظم بقية البلاد التي كانت في رعاية العباسيين، فجمعت أعراقاً وأجناساً وثقافات مختلفة، وفي نهاية القرن السابع عشر توقف الزحف العثماني.

ويؤخذ على الحكم العثماني بأنه لم يكن لديهم مشروع حضاري، ومن الناحية التشريعية يقول بعض المؤرخين بأن العثمانيين أقاموا حكمهم على الشرع الإسلامي في الوقت الذي منحوا فيه الحرية الكاملة لغير المسلمين لتطبيق قوانينهم الدينية، واعتمدت الدولة العثمانية على الأجانب من غير المسلمين في بعض مشاريعها العمرانية، كما اعتمدت على الأرمن والإغريق، وأن التجارة والاقتصاد كانا بيد الطبقات الأجنبية، وفي فترة لاحقة من العهد العثماني تم تشكيل الجيش الإنكشاري الذي أصبح المحور الأساسي للنشاط العسكري للدولة العثمانية ومعظم أصول أفراده من بعض المسيحيين ولكن كثرتهم كانت من اليهود الموريسكيين المعروفين بالدونما الذين أجلاهم الأسبان عن الأندلس فسكنوا منطقة سالونيك اليونانية وادعوا اتخاذهم الإسلام ديناً فتمكنوا من دخول الجيش والدواوين العثمانية حيث تآمروا فيما بعد على الدولة وعلي كل قيمها وثوابت وجودها.

لقد اختلف الباحثون في نظرتهم التحليلية لطبيعة الدولة العثمانية، فمنهم من اعتبرها دولة استعمارية استغلت مقدرات الشعوب التي خضعت لها من ثروات وبشر يستشهدون للبرهنة على صحة نظرتهم هذه بما يشاهده الزائر للمتاحف العثمانية من ترف وبذخ وثراء فاحش في قصور خلفاء بني عثمان وقصور أمرائهم وولاتهم وقادة جيوشهم، يضاف إليها تلك المظالم والقسوة التي ارتكبها الولاة تجاه مختلف الشعوب التي حكموها وفي طليعتها العرب مما خلف شعوراً بالكراهية والنفور والمقاومة لديهم جميعاً.

وظلت الدولة العثمانية في العديد من الأدبيات العربية رمزاً للتسلط والديكتاتوري، كما أن الكتابات في اللغات الأوروبية عن العثمانيين طبعت بطابع القسوة وصورت العثمانيين كأشرار غزاة علي استعداد للقتل والتعذيب فوصفت العثماني بالشرير.

ورؤية معاكسة ترى بأن قيام الخلافة العثمانية في أعقاب انهيار الخلافة العباسية وتشتت حواضرها قد أعاد للمسلمين وحدتهم ولم شملهم، وشد من أزرهم، ورفع راية الإسلام عالياً وعملت الخلافة علي نشر مبادئ الحق والعدل بنشرها الدعوة الإسلامية، وأنها طيلة قرون حققت الازدهار الاقتصادي والنهضة العمرانية والحضارة العثمانية الإسلامية، وأنها أضاءت لرعاياها من أتباع الديانات الأخرى قيم الإسلام وكفالته الحرية الشخصية والدينية لهم، وأن قروناً مضت من الحكم العثماني الإيجابي مما حمل الشعوب والأقوام على إبداء الطاعة والتجاوب مع ذلك الحكم والشواهد منتشرة في كل بلد حكمه العثمانيون، لكن التحول الذي حصل في كيان الدولة العثمانية وقع بتولي جماعات الدونما ذوي الأصل اليهودي مواقع مهمة في الحكم مما نشط الحركات

المعادية للإسلام وفي مقدمتها الحركة الصهيونية التي نشأ معها حزب الاتحاد والرقي العلماني بقيادة كمال أتاتورك، والذي وجد من اندلاع الحرب العالمية الأولي الفرصة السانحة للإجهاز على الدولة العثمانية، ساعدهم في ذلك ارتكاب عدد من القادة العسكريين والحكام مظالم ومفاسد لقيت المقاومة التي جوبهت بالعنف والقسوة ونصب المشانق في الميادين وخاصة في دمشق وبيروت.

لقد ركزت أوراق المؤرخين الأتراك وبعض العرب على الدور الإيجابي للخلافة العثمانية إسلامياً وحضارياً، وعلى مقاومتهم للمؤامرات الصهيونية والحركات اليهودية، ومحافظتها على الأرض الفلسطينية عربية إسلامية تحترم مقدسات الأديان السماوية، مؤكدة عدم وجود أطماع عثمانية ببلدان الخليج العربي طيلة عهود الحكم العثماني، وأن الأساطيل العثمانية عملت علي محاربة الغزوات الأوروبية وفي طليعتها الغزو البرتغالي للمنطقة.

وخرجت المناقشات المتوازنة بين المتحاورين في الندوة بأن الحكم على الدولة العثمانية لا بد أن يرتكز على حقائق الأحداث لكل عهد من عهودها وأنه من الإنصاف أن لا نلصق بتلك الدولة الصبغة الاستعمارية المطلقة فننسى إيجابياتها الكثيرة.

وأشارت بعض بحوث الندوة إلى وجود علاقات حكم محدودة للباب العالي بمنيطقة الخليج، وأن الإحاطة بالصلات التاريخية بين الدولة العثمانية وبلدان الخليج العربي يقتضي من الباحثين والمؤرخين العرب الاطلاع والاستفادة من الوثائق العثمانية الكثيرة المتوفرة في الأرشيفات العديدة في تركيا، ورغم ذلك فقد أثمرت الندوة عن تناول العديد من جوانب العلاقات العثمانية الوثيقة بين الحكم العثماني وبلدان الجزيرة العربية كما أضاءت بمعلوماتها غوامض الأحداث التي مرت بالخليج العربي ودور الباب العالي في معالجتها، وهنا نترك للقارئ الكريم أن يستشف أبعاد الصلات العثمانية الخليجية من خلال الدراسات والأبحاث والوثائق التي يتضمنها كتاب الندوة الذي نقدم له هذه الكلمات.

ولتنسيق التعاون وتوثيق العلاقات الأكاديمية بين الباحثين العرب والأتراك كنا قد أعددنا أثناء تنظيمنا لإقامة تلك الندوة، عقد جلسات ومناقشات على هامشها مع المدير العام للأرشيفات العثمانية السيد / عصمت ميروغلو التابع إدارياً لرئيس مجلس الوزراء التركي مباشرة وبرتبة وزير، حضرها السفير التركي لدى الإمارات والشخصيات العلمية التركية والعربية المشاركة بالندوة، وقد أسفرت مباحثات الندوة ومناقشتها عن إصدار عدد من التوصيات المهمة للباحثين العرب تضمنها البيان الختامي للندوة، الذي نص على ما يلي :

توصيات ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية

تحت رعاية صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة رأس الخيمة، عقد مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري ندوته التاريخية الثانية حول "الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية" في الفترة من ١٩ إلى ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٨م الموافق ١٠ - ١٢ ربيع الثاني ١٤٠٩هـ .

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ١٩/١١/١٩٨٨م تفضل صاحب السمو حاكم إمارة رأس الخيمة بافتتاح معرض الكتب التاريخية والوثائق العثمانية. ابتدأت بعدها الجلسة الأولى الافتتاحية بتلاوة آيات من الذكر الحكيم ثم ألقيت كلمة ترحيبية لصاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم إمارة رأس الخيمة، تلتها كلمة معالي الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وزير العدل والشؤون الإسلامية في البحرين الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية. وعقب ذلك ألقى الدكتور مصطفى عبد القادر النجار الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب كلمة باسم الاتحاد شكر فيها صاحب السمو الحاكم على رعايته للندوة وأشاد بمركز الدراسات والوثائق برأس الخيمة في تنظيم هذه الندوة التاريخية.

وعقدت الندوة جلساتها على مدى ثلاثة أيام متوالية انتظمت في ثماني جلسات عمل قدم خلالها الباحثون الذين يمثلون مختلف الأقطار العربية والإسلامية والأجنبية خلاصة لبحوثهم التي تناولت موضوعات تحيط بمختلف جوانب موضوع الندوة ودارت حولها مناقشات علمية قيمة.

وتمخضت أعمال الندوة عن التوصيات التالية :

١- ضرورة الاهتمام بالوثائق العثمانية في الأرشيفات التركية التي أكد على أهميتها الأساتذة الأتراك المشاركون في أعمال ندوة، وكما جاء في كلمة الدكتور عصمت ميروغلو المدير العام للأرشيفات التركية عن اهتمام الحكومة التركية بتنظيم الأرشيفات وتعميم الاستفادة منها وتقديم كافة التسهيلات للباحثين الأتراك والأجانب.

٢- تشجيع القيام بإعداد البحوث والدراسات التاريخية التي تعتمد على مصادر الأرشيفات العثمانية.

٣- دعوة مراكز البحوث في البلاد العربية المهتمة بالدراسات العثمانية إلى إقامة دورات خاصة لتعليم اللغة العثمانية بالتعاون مع المختصين بهذا المجال لتمكين

الباحث العربي للاستفادة المباشرة من هذه الوثائق. حيث أعرب المدير العام للأرشيفات العثمانية باسطنبول عن استعداده لإقامة مثل هذه الدورات في بلده لمن يرغب في تعلمها.

٤- ضرورة مواصلة عقد مثل هذه الندوة لتحقيق اللقاءات المباشرة بين المؤرخين والمفكرين العرب والأتراك لما لها من نتائج طيبة لإيجاد تقارب وتفاهم بينهم ترسيخاً للعلاقات التاريخية الوطيدة بين الشعبين.

٥- دعوة الجهات الرسمية العربية للتوسط لدى السلطات التركية للحصول على التسهيلات اللازمة للباحثين العرب في الأرشيفات العثمانية.

٦- توجيه الشكر والتقدير إلى صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة رأس الخيمة لرعايته الكريمة لهذه الندوة برفع برقية لسموه بمناسبة اختتام أعمال الندوة.

وكذلك توجيه الشكر لسمو الشيخ خالد بن صقر بن محمد القاسمي ولي العهد نائب الحاكم على اهتمامه بالتاريخ والمؤرخين. وقدم المشاركون شكرهم إلى سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي رئيس الديوان الأميري لحرصه على إنجاح أعمال الندوة، وكذلك تقديم الشكر لمعالي الشخ عبد الله بن خالد آل خليفة الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية علي تشجيعه وحرصه على متابعة أعمال الدورة.

هذا وقد عقدت الجلسة الختامية لإقرار التوصيات وتلاوتها في الساعة السابعة من مساء يوم الاثنين ٢١/١١/١٩٨٨م.

نص برقية المشاركين بالندوة إلى
صاحب السمو الشيخ / صقر بن محمد القاسمي

صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة رأس الخيمة

باسم المؤرخين والمفكرين المشاركين في ندوة مركز الدراسات والوثائق برأس الخيمة الثانية نرفع إلى سموكم أسمى التحيات وجزيل الشكر لرعايتكم الكريمة لهذه الندوة الحيوية في إحياء المعرفة التاريخية وتوطيد العلاقات العلمية والفكرية والثقافية بين المؤرخين والمفكرين العرب والأتراك والأجانب. ويؤكدون بأن هذا اللقاء الكبير لحشد من كبار المؤرخين والمفكرين الذين قدموا من مختلف الأقطار العربية والإسلامية والأجنبية، لهو قفزة نوعية في مجال الثقافة والوعي التاريخي ليس على المستوى المحلي فقط بل على المستوى الخارجي فيما يخص العلاقات العربية العثمانية.

وختاماً يتقدمون مرة أخرى بجزيل شكرهم وأطيب تمنياتهم.

المشاركون بندوة رأس الخيمة
التاريخية الثانية

(سياسة مدحت باشا والي العراق العثماني تجاه الخليج العربي)

(١٢٨٦ - ١٢٨٩ هـ) - (١٨٦٩ - ١٨٧٢م)

بقلم

الدكتور / إسماعيل أحمد ياغي

أستاذ التاريخ الحديث المشارك

كلية الآداب للبنات بالدمام - المملكة العربية السعودية

مقدمة

ترجع علاقة العثمانيين بالخليج العربي إلى عهد السلطان سليمان القانوني الذي كان قد أرسل إلي الخليج العربي حملة بحرية بقيادة محمد فروخ باشا الذي استطاع انتزاع إقليم الإحساء [١] من أيدي البرتغاليين فاحتلت قواته القطيف عام ٨٥٨هـ / ١٥٥٠م ثم زحفت بعد ذلك إلى الهفوف عاصمة الأحساء فاحتلتها ، وعين ذلك القائد حاكماً للإحساء فبنى في عاصمتها مسجداً عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م عرف فيما بعد باسم مسجد الدبس [٢] وتلاه في حكم الأحساء عدد من الحكام الأتراك العثمانيين كان آخرهم عمر باشا الذي أطاحت به ثورة محلية قادها براك بن غرير زعيم بني خالد عام ١٠٨١هـ - ١٦٧٠م . الذي قام بطرد العثمانيين من الاحساء وأسس أسرة حكمت البلاد حتى عام ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م حين تمكن السعوديون من القضاء عليها ، وإدخال الإحساء ضمن أقاليم دولتهم الأولى [٣] واتخذوا منها قاعدة للتوسع في بلدان الخليج وجنوب العراق ، مما أثار حفيظة الدولة العثمانية ، فحاولت استرجاعها من السعوديين أكثر من مرة ولكنها

فشلت في ذلك [٤] . وأخيراً لجأت إلى عاملها على مصر آنذاك (محمد علي باشا) الذي استطاع القضاء على السعوديين ، فاحتل عاصمتهم الدرعية عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٨م ، ثم زحفت قوات ابنه إبراهيم باشا إلى الاحساء فأدخلتها في دائرة النفوذ المصري ، ولكن تلك القوات اضطرت في العام التالي ١٢٣٥هـ / ١٨١٩م إلى مغادرة الاحساء تحت ضغط الدولة العثمانية ، وبتأثير مباشر من والي الدولة العثمانية على العراق الذي كان يعطف على شيوخ بني خالد ، ويحاول إرجاعهم إلى حكم الاحساء نواباً عن الدولة العثمانية والباب العالي . ولقد تم له ذلك ، إلا أن الإقليم شهد بعد ذلك صراعاً عنيفاً بين القوى المحلية حتى عام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م حين عادت القوات المصرية بقيادة ((خورشيد باشا)) فاحتلت الإقليم ثانية وحاولت أن تتخذ منه قاعدة للتوسع في بلدان الخليج ، ولكنها اضطرت أيضاً إلى الانسحاب من الاحساء تحت ضغط بريطانيا التي رأت في الوجود المصري تهديداً للنفوذ البريطاني في المنطقة .

ولقد ساعدت الدولة العثمانية في الضغط على ((محمد علي)) لكي ينسحب من الاحساء لأنها كانت تشعر بأن وجود القوات المصرية فيها يشكل خطراً جسيماً على وجودها في العراق [٥] .

وعلى أثر انسحاب القوات المصرية ، حاول العثمانيون جهدهم أن يحلوا محل الحكم المصري في شبه الجزيرة العربية وخاصة إقليم الخليج العربي ، ولكن بعد عزل والي العراق العثماني آنذاك ((علي رضا)) سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م الذي كان يعطي ذلك الموضوع اهتماماً خاصاً ، قل اهتمام العثمانيين بأمور الخليج العربي ، فتركوا بذلك الباب مفتوحاً لتدخل الطامعين في شؤون هذا الإقليم من أمثال بريطانيا وفارس [٦] ولقد بدا ذلك واضحاً عام ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧م حينما أصدرت الدولة العثمانية ((فرماناً سلطانياً)) يسمح بتفتيش السفن التركية التي يشتبه بأنها تعمل في الاعتداء على السفن الأجنبية .

وكانت الدولة العثمانية قد أصدرت في حينه أيضاً تعليماتها إلى والي العراق ، لكي يعمل ما في وسعه لقمع مثل تلك الأعمال ، وكان ذلك ينذر بأن العثمانيين ربما أرسلوا إلى مياه الخليج أسطولاً لكي يشارك في الإشراف على التفتيش البحري عن المعتدين ، مما دعا ((هنل)) المقيم البريطاني في الخليج إلى أن يحتج على ذلك زاعماً أن الدولة العثمانية تهدف من وراء ذلك إلى تقوية نفوذها على سواحل الخليج . وجاءت معارضة بريطانيا هذه لتكشف لنا تراجع الدولة العثمانية عن الاهتمام بأمور بلدان الخليج ، إذ لم تقابل ذلك الاحتجاج بتنفيذ سياستها التي أعلنت عنها ، بل تركت لبريطانيا القيام بدور البوليس البحري وشرطي المرور في مياه الخليج العربي (٧) .

استراتيجية الدولة العثمانية في الخليج (١٢٨٧ - ١٣٣٢هـ / ١٨٧٠ - ١٩١٣م) :

في أعقاب حرب القرم ١٢٧٣ / ١٨٥٦م ، أعاد العثمانيون بناء جيوشهم على أسس حديثة وزودوها بأسلحة متطورة ، وذلك بفضل المساعدات المالية التي قدمتها بريطانيا لهم . فاختطت الدولة العثمانية سياسة جادة لتوطيد نفوذها في جزيرة العرب في عهد السلطان العثماني عبد العزيز ١٢٧٨ - ١٢٩٤هـ - ١٨٦١ - ١٨٧٦م وتقوم هذه السياسة على الأسس والركائز الآتية :

١- امتلاك الدولة العثمانية لأسلحة وقوة لم يسبق لها مثيل من قبل ، جعل الدولة تقرر إخضاع المناطق النائية من الامبراطورية ، الأمر الذي أدى إلى مضاعفة الدولة العثمانية لحامياتها في كل من الحجاز وعسير واليمن ، مع التركيز على المناطق الساحلية ، وبخاصة مناطق شرقي جزيرة العرب . وكانت فكرة الدولة العثمانية ترمي إلى تطويق جزيرة العرب من جميع سواحلها لتمنع التدخل الأجنبي في شئونها ، وهذا يوضح مدى التطلعات العثمانية في رسم استراتيجية جديدة أقوى في الجزيرة العربية (٨) .

٢- رغبة الدولة العثمانية في وقف تسلل النفوذ البريطاني في منطقة الخليج

العربي . وذلك بعد أن رأى السلطان عبد العزيز اهتمام الدول الأوربية ببلدان الشرق العربي على إثر فتح قناة السويس سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م [٩] .

٣- رغبة السلطان العثماني في إخضاع القبائل على حدود بلاده ، وكذلك إخضاع المناطق النائية من الدولة .

٤- اعتبر السلطان العثماني نفسه وارثاً للخلافة العربية الإسلامية ، الأمر الذي بنى عليه ملكيته لشبه الجزيرة العربية . لذا نجده يجرد حملة على الاحساء في نفس الوقت الذي يجرد فيه حملة على اليمن من أجل إحكام الطوق على الجزيرة لمنع التدخل الأجنبي الدولي في شئونها .

٥- تعيين مدحت باشا [١٠] رجل الدولة القوي والطموح والياً على العراق العثماني مع إطلاق يده بكل حرية في بسط نفوذ الدولة العليا في الاتجاه الذي يراه الوالي مناسباً لاستراتيجية الدولة في المنطقة [١١] .

٦- عودة الأهمية التجارية إلى طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، مما زاد من التنافس الدولي للسيطرة على هذه الطرق الهامة .

وهناك عدة عوامل ساعدت الدولة العثمانية للعودة إلى الخليج وهي :

١- الصراع على السلطة في نجد بين أبناء فيصل بن تركي : عبد الله وسعود ، حيث قدم الصراع فرصة سانحة لمدحت باشا لكي يحقق أهدافه ، خاصة عندما استنجد عبد الله بن فيصل بوالي بغداد لإعادته إلى العرش بعد أن أقصاه أخوه سعود ، فأعد والي بغداد حملة عسكرية لإرسالها إلى الاحساء ونجد ، هدفها الظاهري إعادة عبد الله إلى الحكم لأن الدولة العثمانية اعتبرته حاكماً شرعياً معيناً من قبلها كقائمقام عثمانياً وأن السلطات الانجليزية لم تستطع إنكار ذلك، وهكذا يمكن اعتبار عبد الله وريث فيصل بن تركي تابعاً للدولة العثمانية بالوراثة كقائمقام من وجهة النظر العثمانية ، كما أن فيصل كان يدفع مبلغاً

من المال لشريف مكة الذي كان بدوره تابعاً رسمياً للدولة العثمانية [١٢] .

٢- عمل مدحت باشا منذ توليه ولاية بغداد على تبني فكرة رجال الاصلاح العثمانيين الذين كانوا يدعون إلى التوجه بأنظارهم إلى الأقطار الآسيوية من الامبراطورية لكي يعوضوا ما خسرته الدولة في البلقان . وأخذ مدحت على عاتقه مد السيطرة للدولة العثمانية على بلدان الخليج ، ولكي يحل النفوذ العثماني المباشر محل السعوديين في حكم الاحساء ونجد .

٣- تعتبر الدولة العثمانية نجد وملحقاتها جزءاً من الامبراطورية العثمانية كالحجاز واليمن وعسير ، دل على ذلك احتجاج والي بغداد ((أحمد توفيق باشا)) عام ١٨٦١م إلى ((كمبول)) . القنصل البريطاني في بغداد بشأن مهاجمة الانجليز لميناء الدمام والاعتداء عليه وقد صرح والي بغداد في احتجاجه بأن فيصل بك قائمقام عثماني وأن الدمام أراضي عثمانية لا يحق للبريطانيين مهاجمتها [١٣] .

وكان كمبول قد أرسل نسخاً من تلك الرسالة مع تعليقه عليها إلى كل من السفير البريطاني في القسطنطينية وإلى حاكم الهند ، وقد أكد في رسالته أنه لا يستطيع إنكار أن الأمير السعودي تابع للدولة العثمانية وأن منطقة الدمام تابعة له [١٤] .

٤- في عامي ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ جرت أحداث هامة ، ففي السنة ١٨٦٩ تم افتتاح قناة السويس وبذلك تم ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر وربط قارات آسيا وأفريقيا بأوربا ، كما شهد العام ١٨٧٠ ظهور دولتين أوربيتين استعماريتين هما ألمانيا وإيطاليا ودخلتا الميدان الاستعماري ، لذا فإن الدولة العثمانية رأت أن تعيد سيطرتها في آن واحد على كل من اليمن وعسير في البحر الأحمر والاحساء في الخليج في عام ١٨٧١ لتطويق الجزيرة العربية وحمايتها من الاستعمار الأجنبي .

٥- قيام الدولة بتطبيق الإصلاحات في الدولة وخاصة التنظيمات العسكرية التي قامت بها الدولة في أعقاب حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦م) [١٥] . هذا بالإضافة إلى العناية الخاصة التي أولتها الدولة العثمانية للشئون العامة في ولايتها الشرقية ، بعد أن ساد ولايتها في أوربا جو من الهدوء النسبي على إثر حروب خاضتها الدولة في الداخل والخارج . وندلل على هذا بما ذكره مدحت باشا في منشوره إلى أهالي الاحساء عام ١٢٨٨هـ - ١٨٧١م حين يقول : أن الدولة العثمانية لم يكن لديها وقت تلتفت به إلى الحوادث الجارية في قلب جزيرة العرب وذلك ((لكثرة المحاربات الواقعة في جميع الجهات .... [١٦] .

استعدادت مدحت باشا لاحتلال الاحساء والخليج :

نفذت الدولة العثمانية من خلال واليها على العراق مدحت باشا خطتها لاحتلال الاحساء بمنتهى السرعة للأسباب الآتية :

١- الخوف الشديد من التدخل البريطاني في المنطقة ، وبخاصة بعد قيام بريطانيا بمد يد العون والمساعدة للأمير سعود عن طريق حاكمي مسقط والبحرين . ورأت الدولة العثمانية أن نجاح بريطانيا في مثل هذه المهمة ، يعني تحكمها مستقبلاً في مصير العراق العثماني .

٢- ادعت الدولة العثمانية أن الأمير سعود بن فيصل يعتدي على قوافلها التجارية .

٣- وادعت كذلك أنها تريد وضع حد للفوضى السياسية في نجد [١٧] .

وهكذا بدأ مدحت باشا يعد العدة لاحتلال الاحساء والخليج ، وأجرى استعدادت للحملة بصورة سرية وبتكتم شديد وبسرعة فائقة على غير عادة الولاة العثمانيين ، إذ حذر مدحت أتباعه من وصول المعلومات للانجليز ، فلم يعلم بها قنصل الانجليز في بغداد ، وكانت السلطات البريطانية قد علمت بهذه الاستعدادت

في أواخر عام ١٨٧٠م ، فاستفسرت عن ذلك ، فأكد الصدر الأعظم عالي باشا أن ليست هناك أية نية في احتلال أي مركز في الخليج أو القيام بأي حملة عسكرية [١٨] أرسل مدحت باشا إلى الاحساء بعض عيونه ، واشترى لهم سلعاً ، فذهبوا إلى هناك على هيئة تجار ، حيث أقاموا هناك شهرين ، رصدوا خلالها تحركات قوات ((سعود بن فيصل)) ووقفوا على أخبار مواقعها وقلاعها وتحصيناتها ، وعادوا إلى مدحت باشا يقدمون نتائج رحلتهم تلك ليكون على علم تام باتجاه قواته في سيرها والأماكن التي سترسو فيها سفن الحملة ، والقلاع التي ستهاجمها ، والطرق التي ستسلكها ، وكان بذلك يضمن أنه لا يرسل تلك الحملة إلى المجهول ويتركها فريسة لغارات البدو ، ومجاهل الصحراء ، وكمائن قوات سعود بن فيصل [١٩] .

وهكذا كانت الأمور قد أفلتت من أيدي السلطات البريطانية التي حاولت جهدها أن تمنع إرسال تلك الحملة ، ولكنها عندما تأكدت أن لا مفر من ذلك راحت تستفسر في هذه المرة عن وجهة الحملة وقد انتاب السلطات البريطانية قلق شديد، لأنها كانت قد تلقت في مارس من العام الماضي ١٨٧٠م تصريحاً خطيرا لمدحت باشا اعتبر فيه أن البحرين تابعة لنجد ، وأنها بدورها تابعة للدولة العثمانية [٢٠] .

ولذا أصبحت مهمة السلطات البريطانية أن تعرف قبل كل شيء إذا كانت الحملة ستتعرض للبحرين أم لا ؟ وبالرغم من ردود السلطات العثمانية المطمئنة إلا أن الشكوك ظلت تساور الانجليز تجاه نوايا العثمانيين . وقدموا للصدر الأعظم مذكرة حول كراهية مدحت باشا للنفوذ البريطاني في الخليج [٢١] .

والواقع أن مدحت باشا كان يعتقد جازماً بأن السلطات البريطانية تقدم المساعدات ((لسعود بن فيصل)) لتثبيت أقدامه في الاحساء ونجد ، ولكي يكون لها النفوذ الكامل في مياه الخليج خاصة بعد أن عقدت مع قطر معاهدة ١٨٦٨م . وبذلك أصبحت الإمارات الواقعة على الساحل الغربي للخليج من مسقط جنوباً

إلى البحرين شمالاً ترتبط بمعاهدات مع الدولة البريطانية ، ولم يبق إلا سواحل الاحساء وإمارة الكويت ، حيث كانت هذه الأجزاء غير مرتبطة بالانجليز وبإمكانه أن ينطلق منها لتوسيع نفوذ بلاده في الخليج . وكان مدحت باشا قد أعلن صراحة في أبريل عام ١٨٧١ أن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة لتشمل نجداً ، وأن حملة ستزحف لتثبيت ((عبد الله بن فيصل)) كقائمقام عثماني ، وأكد مدحت أن الهدف من الحملة ليس الاستيلاء على نجد ، بل لتوثيق الروابط القائمة بينها وبين الدولة العثمانية ، وكبح جماح سعود بن فيصل وإنهاء أعماله العدوانية [٢٢].

وسنتناول الآن سياسة مدحت باشا تجاه كل من إمارات الخليج من أجل توطيد نفوذ الدولة العثمانية وإنجاح خطته باحتلال الاحساء وإعلان تبعية الكويت للدولة العثمانية .

مدحت باشا والكويت[٢٣] :

أخذ مدحت باشا يعمل منذ وصوله إلى بغداد على بسط سيادة الدولة العثمانية على كافة أقطار الخليج ومنها إمارة الكويت ، وقد حاول قبله الوالي نامق باشا ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م أن يحول سيطرة الباب العالي الاسمية على الكويت إلى سيطرة فعلية .

وطلب لهذا الغرض سفينيتن من الآستانة ، غير أن ذلك لم يتم لرفض أهل الكويت دفع الضرائب ، هذا بالإضافة إلى رغبتهم في الاستقلال . وقد أكدقبل ذلك عام ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م الشيخ صباح شيخ الكويت للمقيم السياسي البريطاني أن حكام الكويت كانوا دائماً يدفعون الجزية لتركيا [٢٤] وكان معظم أصحاب السفن في الكويت يلجأون إلى رفع الأعلام الأجنبية وبخاصة الأعلام الانجليزية حتى يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة للرعايا الانجليز في ولاية بغداد [٢٥] .

وفي أثناء زيارة مدحت باشا للكويت في العام التالي لولايته على بغداد اتفق مع

الشيخ عبد الله شيخ الكويت عام ١٨٧٠م ، على أن تكون الكويت قائمقامية عثمانية تتبع ولاية البصرة ، ويسمى الشيخ عبد الله قائمقام ، واستصدر مدحت باشا فرماناً من الباب العالي يقضي بإعلان الكويت سنجقاً مستقلاً استقلالاً ذاتياً على أن تتبع ولاية بغداد ، وتشكل في نفس الوقت قضاء عثمانياً تتوارثه أسرة آل صباح. ونص الفرمان على أن يقوم شيخ الكويت الذي يحمل لقب القائمقام بتنظيم شئونه الداخلية وأن ترفع السفن الكويتية العلم العثماني وتعهد لأصحاب هذه السفن بألا يأخذ منهم ضرائب أو جمارك (٢٦) .

وعين في الكويت مأمور للحجر الصحي من قبل الدولة العثمانية اسمه إبراهيم أفندي وظلت الكويت خاضعة للنفوذ العثماني حتى عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م حيث ارتبطت بمعاهدة مع الانجليز وقعها الشيخ مبارك بن صباح شيخ الكويت مع ممثل بريطانيا (٢٧) .

ويبدو أن هناك عدة أسباب دعت الكويت إلى قبول التبعية العثمانية غير المباشرة وراحت بناء على ذلك تشارك مشاركة فعالة في حملة الاحساء وكان لها دور هام في إنجاحها ، وأهم تلك الأسباب هي :

١- أن شيوخ الكويت كانوا لا يرغبون في الانفصال عن الرابطة الإسلامية التي جسدتها الدولة العثمانية .

٢- أن شيوخ الكويت كانوا يملكون أراضي في البصرة ، وكان العثمانيون يهددون بقطع إيراداتها عندما تتعارض سياسة شيوخ الكويت مع سياستهم .

٣- أن الكويت كانت تخشى معارضة الدولة العثمانية ، خاصة أن الكويت آنذاك لم تكن مرتبطة مع دولة كبرى بمعاهدة حماية تجيز لها التدخل لحمايتها عندما تتعرض للخطر .

٤- أدرك مدحت ما لأسطول الكويت من فاعلية ، وما لشيوخها من تأثير على بلدان الخليج ، فاستغل ذلك لإنجاح حملته (٢٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأيا ما كان الأمر ، فإن تبعية الكويت لم تكن مباشرة تماماً كما هي الحال بالنسبة للاحساء ، فلقد ترك مدحت باشا شؤون الكويت الداخلية لشيخها يصرفها حسب تقاليد البلد ، ولقد علل مدحت باشا عدم التدخل في شؤون الكويت بأن هذا البلد ينعم بالاستقرار ، ويطبق الشريعة الإسلامية في أحكامه وأنه ليس بحاجة إلى قوة ضابطة عثمانية [٢٩].

وكان مدحت باشا قد أسقط حق عبد الله بن فيصل من الاحساء بعدما علم بهربه ورفضه العودة لمقابلته ، فقرر مدحت باشا إعادة الاحساء إلى السيادة العثمانية المباشرة فأصدر أوامره بإنهاء حق عبد الله والسعوديين في السيادة على الاحساء [٣٠] راح مدحت باشا بعدئذ يضع تشكيلاً إدارياً جديداً للإقليم أصبحت الاحساء بموجبه متصرفية يطلق عليها اسم ((لواء نجد)) وجعلها تابعة لولاية بغداد ، وعين قائد حملته الفريق محمد نافذ باشا متصرفاً للاقليم ، وقسم ذلك اللواء إلى ثلاثة أقضية هي : الهفوف وهي مركز اللواء ومكان إقامة المتصرف ، ثم قضاء القطيف ، وقضاء قطر ، وجعل من قضاء القطيف مركزاً لتمويل الأقضية الثلاث الأخرى .

وعين على قضاء قطر ((جاسم بن ثاني)) كقائمقام ويساعده قائد عثماني يشرف على الحامية العثمانية هناك [٣١] ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن تلك التشكيلات الإدارية شملت الكويت إذ جعلوها تتبع متصرفية الاحساء ، وأيدهم في ذلك الدكتور / عبد العزيز نوار في كتابه (تاريخ العراق الحديث) إذ قال : وكانت البصرة خلال عهد مدحت باشا متصرفية وكذلك نجد . وكانت متصرفية البصرة تنقسم إلى :-

أ- البصرة .　　　ب - المنتفق　　　ج - العمارة [٣٢]

وأما متصرفية نجد فكانت تضم الكويت والاحساء [٣٣] .

ويبدو أن ضم الكويت إلى متصرفية الاحساء قبل احتلال العثمانيين الأخيرة

يكشف لنا على أن مدحت باشا كان قد خطط مع الباب العالي ، فاستصدر فرمانات خاصة بذلك بعد أن نالت رضا حكومة الآستانة المسبق ، وربما كانت هذه الأنباء هي التي جعلت ((عبد الله بن فيصل)) يهرب من الاحساء قبل أن يصلها مدحت وقبل أن يعلن عن التغييرات الإدارية هذه ، لأن عبد الله كان قد ترك لنافذ باشا خطاباً يخبره فيه بأن العثمانيين قد غدروا به وانتزعوا منه السلطة بدلاً من أن يعيدوها له [٣٤] .

وسنتناول الآن سياسة مدحت باشا إزاء الاحساء وإرساله الحملة العسكرية لاحتلالها وإعادة السيطرة العثمانية عليها .

مدحت باشا والاحساء :

منذ وفاة فيصل بن تركي [٣٥] أمام الدولة السعودية الثانية وتولي ابنه عبد الله بن فيصل الحكم ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م ، حتى بدأت الفتنة بين أولاد فيصل ، فقد شق سعود عصا الطاعة في وجه أخيه عبد الله ، وفي سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م أعلن الحرب على أخيه واستمرت الحروب بينهما فترة طويلة من الزمن وانتهت بانتصار سعود واستيلائه على الحسا ، واحتلت عساكره قلاع ((الهفوف)) و ((المبرز)) و ((القطيف)) . ثم تقدم إلى بلدة الرياض عاصمة نجد ، وكان عبد الله معسكراً فيها فأصبح الأخير في موقف حرج فلم ير لنفسه ملجأ سوى الاستعانة بمدحت باشا والي العراق حيث أرسل له رسالة مع رسول يستنجده ضد أخيه الثائر [٣٦] .

وقد لاقى طلب عبد الله بن فيصل عند مدحت كل ترحيب وقبول ، وذلك أن الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ١٢٧٨ - ١٢٩٣هـ/١٨٦١ - ١٨٧٦م كانت تسعى إلى تركيز دعائم الحكم في شبه جزيرة العرب خاصة بعد فتح قناة السويس سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م مما هيأ للأسطول العثماني الالتفاف حول بلاد العرب للوصول إلى الخليج العربي [٣٧] بعد أن قربت قناة السويس المسافة بين تركيا والجزيرة العربية .

وكان مدحت باشا قد وضع خطة محكمة ترمي إلى ضم جميع الإمارات العربية المستقلة في نجد وسواحل الخليج العربي إلى الدولة العثمانية (٣٨) . لقد رأى في استنجاد عبد الله فرصة مناسبة لتثبيت سيادة الدولة العثمانية على الساحل الشمالي للخليج العربي بحجة إعادة الأمن إلى نصابه في ممتلكات السلطات النائية ، وبحجة أن سعوداً إذا ما تمكن من الانتصار على أخيه فإنه سيعمل على إدخال البلاد تحت حماية حلفائه الانجليز ، مما يؤدي إلى إتاحة الفرصة للحكومة البريطانية للتحكم في العراق ، وتظاهر مدحت أن الهدف من حملته هو تقديم العون لعبد الله الذي حل أخوه سعود محله في الرياض (٣٩) .

كتب مدحت باشا إلى الباب العالي وشرح له هذه المسألة الحيوية فوضعها الصدر الأعظم عالي باشا على بساط البحث في مجلس الوكلاء ، وأخيراً أعطى مدحت باشا التأمينات اللازمة وأرسلت له حكومة الآستانة باخرتين هما لبنان واسكندرية وأمرت آلاياً (لواء) من مشاة الفيلق الخامس بالسير إلى بغداد ليحل محل عساكر فيلقها الذين سيتوجهون إلى نجد طبقاً لإشارة مدحت باشا . وقبل أن يرسل مدحت قواته إلى الحسا أراد الوقوف على قوة أهله وعددهم ومواقفهم فأرسل بعض الجواسيس والعيون بزي تجار ليستطلعوا الأمر ، وأقاموا في الحسا مدة شهرين وقفوا خلالها على قوة سعود الحربية وقلاعه وعدد رجاله والأماكن التي يمكن أن تقف فيها السفن ، وعادوا بهذه المعلومات إلى مدحت باشا (٤٠) .

ورغم السرية التامة التي كان مدحت باشا يحرص عليها في هذا الصدد ، فقد استطاعت كل من حكومة الهند ولندن الإحاطة بتفاصيل تلك الحملة عن طريق القنصل البريطاني في بغداد ، وقد تحرجت بريطانيا من هذه الحملة وأحدث قلقاً شديداً في دوائرها (٤١) .

ويرجع تخوف بريطانيا وقلقها من حملة مدحت باشا على الاحساء إلى العوامل التالية :-

١- خشية بريطانيا من أن تقوم الدولة العثمانية بالسيطرة على طول السواحل الغربية في الخليج وإيصالها بالسواحل العربية للبحر الأحمر من أجل إحكام الحصار حول جزيرة العرب .

٢- خشية بريطانيا من قيام فارس بإبقاء أسطولها في الخليج لتحقيق مطالبها في البحرين أسوة بتركيا .

٣- خشية الحكومة البريطانية من قيام تركيا بمهاجمة فارس من الخليج .

٤- إن نجاح الحملة في القضاء على قوة سعود سيمكن الدولة العثمانية من بسط نفوذها في الخليج ولن تستطيع بريطانيا منع السيادة العثمانية على الخليج [٤٢] وبريطانيا تسعى لسيطرة على الخليج بدون منازع .

وأيا ما كان الأمر ، فبالرغم من قلق بريطانيا أعلن مدحت باشا بصراحة سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م بأن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة إلى نجد ، وأكد مدحت باشا بأن هدف هذه الحملة ليس الاستيلاء على نجد وإنما هو توثيق الروابط القائمة بينها وبين الدولة بإبقاء سيادة الدولة عليها ، وتوطيد دعائم الأمن بالقضاء على أعمال سعود العدوانية [٤٣] .

حملة مدحت باشا على الاحساء :

تحركت قوات مدحت باشا سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م [٤٤] وكانت تتكون من خمسة طوابير من المشاة مع بعض الفرسان ورجال المدفعية تحت قيادة الفريق نافذ باشا [٤٥] وبمساعدة ناصر باشا السعدون شيخ المنتفق ، كما اشتركت الكويت في تمويل هذه الحملة ، بقوات من المتطوعين ، بالإضافة إلى أكثر من ثمانين سفينة من سفنها لنقل اللوازم الحربية ، كما ساعد الكويتيون الحملة بقوتين : الأولى بحرية بقيادة عبد الله بن صباح والثانية برية بقيادة مبارك أخو الشيخ عبد الله [٤٦] واشتركت أيضاً قبيلة بني خالد أنصار عبد الله في هذه الحملة ، وتقدمت هذه القوات إلى

رأس تنورة ، ومنها إلى القطيف التي تحصن بها أعوان سعود ، ولكن القوات العثمانية دخلتها بسهولة ، ورفع الأمير عبد العزيز السديري عامل الأمير سعود راية التسليم بعد هزيمته ، طالباً الأمان له ولرجاله [٤٧] .

وبعد ذلك اتجهت القوات العثمانية إلى المبرز والهفوف وقد سلمت كالقطيف وبذلك سقطت قاعدة الاحساء ورفع العلم العثماني عليها [٤٨] . ثم اتجهت القوات العثمانية إلى قلعة "عنك" فسلمت لهم ومنها إلى قلعة الدمام وكان المأمور عليها من قبل سعود بن طحنون الذي سلم بعد مقاومة بسيطة ودخلها الجيش وكان محمد الفيصل مسجوناً في هذه القلعة ، وقد أطلق الجيش العثماني سراحه [٤٩] .

ولعل السبب في سرعة تقدم القوات العثمانية في الاحساء هو أن سعوداً كان يعتمد على قوة العجمان ، وكان هؤلاء قد أساءوا معاملة سكان الاحساء فكانت الكراهية لهم مسيطرة على أهالي الاحساء الذين تخلوا عنهم ورحبوا بالحكم العثماني وتعاونوا معه [٥٠] .

وبعد أن تم لمدحت باشا الاستيلاء على مقاطعات الاحساء أطلق عليها اسم لواء نجد [٥١] ، وذلك وفق خطة احتلال نجد كلها . ،ولذا فإنه عين عبد الله الفيصل قائمقام على نجد كما أرسل إلى منطقة الاحساء قوة من رجال الضابطة (الأمن)، ونائباً للشرع ومأمور مالية ، فأدرك عبد الله الفيصل بأن حملة الاحساء لم يكن هدفها حمايته من أخيه وإعادته إلى الحكم نائباً عن السلطان العثماني وخاب ظنه ببقاء القوات العثمانية في الاحساء وإبعاده عن سلطاته الإدارية [٥٢] ، ولذا فإن عبد الله قد هرب من الاحساء ورفض قبول دعوة مدحت باشا له بالعودة لمقابلته الأمر الذي حفز مدحت باشا على زيارة الاحساء للاطمئنان على الحملة ودراسة الأوضاع عن كثب ، وذلك لتطبيق الإدارة العثمانية في الأقاليم الاحسائية والنجدية [٥٣] .

وأيا ما كان الأمر ، فقد استقرت القوات العثمانية في الاحساء ، وكان عددها يبلغ

نحو ٣٤٠٠ جندي ، وكانوا موزعين على النحو التالي ٢٥٠٠ جندي في الهفوف و ٥٠٠ جندي في القطيف و ١٥٠ جندي في العقير و ٢٥٠ جندي في مواقع صغيرة متفرقة على الطريق (٥٤) ، غير أن هذه القوات ما لبثت أن تناقصت بسبب الأمراض التي تفشت بين الجنود ، وأصابت الحمى عدداً كبيراً منهم ، هذا بالإضافة إلى رداءة التجهيزات . ويذكر لوريمر أن ثلث هذه القوات كانوا من الجنود المرضى غير القادرين على العمل ، وسجل القائد التركي أسماء ٩٠٠ رجل من أهل البلاد كجنود أتراك في مقابل ست روبيات في الشهر لكل منهم ، فلما بلغ مدحت باشا الخبر عزم على السفر إلى الاحساء للتفتيش على الجيش وتدعيمه ببعض الإمدادات اللازمة (٥٥) .

وكان سعود قد استعان بالقبائل وبحكام البحرين ، مما حدا بمدحت باشا على التوجه إلى الاحساء لتثبيت قواعد حكمه قبل استفحال أمر سعود (٥٦) . وأما عبد الله الفيصل فقد هرب من الاحساء واتجه إلى الرياض ورفض العودة لمقابلة مدحت باشا مما أسقط حقه في الحكم كقائمقام . وكان عبد الله الفيصل يأمن أن يحكم نجد والاحساء باسم آل سعود على أن يتبع الدولة العثمانية تبعية اسمية فخاب ظنه فيما أراد .

وفي منتصف شهر شعبان ١٢٨٨هـ/١٨٧١م سافر مدحت باشا إلى الاحساء ليرى نتيجة عمله بأم عينية ، وقد توجه من شط العرب إلى الكويت حيث قضى فيها يوماً ، ومنها توجه في ثلاث سفن تجارية تحمل قوارب كبيرة إلى القطيف ، وفي ٢١ من الشهر نفسه نزل على رأس فرقة عسكرية مكونة من ٣٠٠ جندي إلى العقير ومنها سار إلى الهفوف . وتهدف هذه الزيارة إلى التحقيق في بعض اتهامات التخريب وأن يقرر الإدارة في الاحساء ، ثم يضع ترتيبات لتقدم القوات التركية إلى الرياض . ولكنه وجد حامية الاحساء في حالة يرثى لها بسبب انتشار الأمراض بينهم ، فأصبحت لا تستطيع الدفاع عن نفسها . ولذلك تخلى مدحت

باشا في تقرير رفعه إلى الصدر الأعظم أن قواته اشتبكت مع قوات سعود الفيصل المؤيد من عرب العجمان وآل مرة والبالغ عددها أكثر من سبعة آلاف شخص وقد انهزموا وقتل منهم ٥٠٠ إلى ٦٠٠ شخص وجرح من جيش مدحت باشا حوالي سبعة إلى ثمانية أنفار إلى جانب شهيدين [٥٧] .

حاول مدحت باشا إقناع عبد الله الفيصل بالعودة وتسلم وظيفته ((قائمقام)) غير أنه رفض ، ولذلك فقد عزل بأمر من مدحت باشا [٥٨] .

أصدر مدحت باشا وهو في الاحساء إعلاناً إلى الأهالي في جمادى الآخرة سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م وعد الأهالي فيه بإسقاط الرسومات التي تؤخذ منهم بمختلف أنواعها والاقتصار على الزكاة والعشر الشرعي ، ووعد المخالفين لهذه الأوامر بالجزاء الشديد . وهذا نص الإعلان : ((قد أسقطنا الرسومات التي تؤخذ من الأهالي باسم الجهاد وخدمات المأمورين على تحصيل الزكاة والزيادة في الحرص المخالف للأحكام الشرعية ، ومراد الدولة العلية ترقية أحوال التبعية وزيادة ثروتهم ، أمرنا بإلغائها وعدم أخذها ، ونبهنا المأمورين بعد تحليفهم على عدم الزيادة على الواجب الشرعي ....)) [٥٩] .

وقد تعرضت القوات العثمانية في الاحساء لهجمات عديدة من سعود الفيصل ، إلا أن تلك القوات العثمانية كانت تتغلب عليه وتهزمه بالرغم من كثرة أتباعه من لقبائل ، مما فت في عضد القوات العثمانية في الاحساء [٦٠] .

د رفع مدحت باشا تقريراً عاماً مطولاً إلى الصدر الأعظم بتاريخ ٢١ شوال ١٢. هـ / ١٨٧١م ذكر فيه أن منطقتي الاحساء والقطيف هما من أخصب مناطق جد ، وذكر أنه قرر جباية عشر المحصول ، وحث في تقريره على زيادة الأراضي لمزروعة بدلاً من تركها بوراً ، وأصدر تعليماته بتعميد هذه الأراضي . كما أوصى بإنشاء عدد من الأبراج والمخافر والثكنات وغيرها من مبان لازمة للجنود والموظفين في الاحساء والقطيف ، ورفع مدحت إلى حكومته في الاستانة مذكرة

تتضمن بيان المصروفات اللازمة لهذه المشروعات وغير ذلك من الرواتب . وقد وافق السلطان عى ما جاء في هذه المذكرة وأحالها إلى وزارة المالية لإكمال اللازم [٦١].

وقد وصل مدحت باشا وهو في نجد برقية من وزارة الداخلية ، تطلب فيها ضغط ميزانية نجد ، وقد رد مدحت باشا بتقرير مؤرخ في ٢١ شوال ١٢٨٨هـ ذكر فيه أنه أبقى جزءاً يسيراً من الجنود والخيالة قوامه تسع كتائب من مجموع ٧٣ كتيبة ، وجزءاً من الموظفين ، وسرح الباقي ، وذكر كذلك أنه أنشأ أكثر من ستين مخفراً لطابور من الجنود ، وستبلغ مصاريف هذا الطابور ١٥ حمولة قرش ، ،وقد رابطت أربع كتائب من هذه العساكر المسرحين فيها لإدارة شؤون الحدود [٦٢] .

وذكر مدحت باشا أنه نتج عن ضغط الميزانية توفير ١٦ حمولة وكذا ألف قرش ، وعن إلغاء الوظائف توفر ١٠ حمولات و ٩٠ ألف قرش ، وكذلك أدى إلغاء الوظائف الزائدة قبل خمسة شهور تقريباً إلى توفير ١٢ حمولة قرش ، ونتج من قلب الوظائف وإدماج بعضها في البعض توفير ١٥ حمولة و ٩٣ ألف قرش ، وختم مدحت باشا تقريره هذا بقوله : ((... ولو أني غير مرتاح لكل هذا ، ولكني أجريته نزولاً على رغبة معاليكم ..)) [٦٣] .

وبعد أن أنهى مدحت باشا ترتيباته في الاحساء غادرها بعد أن أقام فيها شهرين ، وأخذ معه عدداً من المرضى والجرحى من حامية الاحساء ثم توجه إلى بغداد بعد أن كان في نيته الذهاب إلى البحرين ولكنه عدل عنها ، وأرسل لها عارف بك قومندان فرقة البصرة البحرية لبناء ما يلزم من مستودعات الفحم اللازم للسفن العثمانية ومعاينة منابع الماء وغير ذلك من الضروريات [٦٤] .

وهنا قد يرد تساؤل ، ما مدى أهمية حملة الاحساء ؟ وما أثر هذه الحملة على تأكيد السيادة العثمانية ، على إمارات الخليج العربي ؟ وللإجابة على هذه التساؤلات لابد أن نشير ونذكر بأمانة جهود مدحت باشا الكبيرة في هذا المجال ، وما قدمه من خدمات جليلة للدولة العثمانية ، ولكن الأحداث التي وقعت في

الاحساء بعد عزل مدحت باشا عن ولاية بغداد تدل على أن الجهود التي قام بها تعتمد على طموحه الشخصي وتنبع من روحه الحيوية وهمته العالية الطموحة وسياسته الموفقة الهادفة التي ترمي إلى بسط السيادة العثمانية على مناطق واسعة في الخليج العربي والتصدي للنفوذ البريطاني والأجنبي في الخليج .

أما أهمية حملة الاحساء وأثرها على تأكيد السيادة العثمانية على إمارات الخليج العربي فهو أثر ضعيف ، وكان من الممكن أن تظهر فاعلية تلك الحملات لو استمرت الدولة العثمانية وولاة بغداد الذين خلفوا مدحت باشا ، استمروا بنفس الأسلوب والجهد الذي بذله مدحت باشا . فقد استبدت الحامية العثمانية في الاحساء وحكمت حكماً استبدادياً يتسم بالظلم والجور ، حيث استغل الموظفون العثمانيون السلطة في أيديهم وكبدوا الأهالي دفع ضرائب باهظة .

وقد كان مدحت باشا أيام ولايته يقف في وجه هؤلاء المستبدين ويحقق في الصغيرة والكبيرة ، لذلك استثنى القبائل من دفع الضرائب فيما عدا ضريبة العشور . أما الذين خلفوه فقد أهملوا متابعة هؤلاء المستبدين ، ونتيجة لهذا الظلم عمت المنطقة موجة من التذمر ، وأخذوا يفكرون في الثورة على حكم الأتراك العثمانيين -وهكذا عجز الأتراك العثمانيون عن تأمين المنطقة من اللصوص وقطاع الطرق ، وكثرت الثورات القبلية وتدهورت الناحية التجارية ، وضعفت الحامية العثمانية في الاحساء وانتشرت الأمراض والأوبئة بينهم ، كما تعرضت الحامية لهجمات متكررة من سعود بن فيصل وإخوانه . ورغم محاولات الدولة العثمانية إصلاح إدارتها في الاحساء إلا أنها لم توفق لأن العشائر قد فقدت الثقة بها ووسمتها بخلف الوعود ، ولكن الدولة العثمانية كانت مشغولة في حروبها مع روسيا في عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م [٦٥] وهذا يبرر موقفها هذا ونلتمس لها العذر .

وأيا ما كان الأمر ، فقد ضعفت اقتصاديات المنطقة نتيجة لكثرة الحروب ، وعلاوة على ذلك ، فقد قلت رغبة الأتراك في الاحتفاظ بهذه المنطقة فلم يستفيدوا منها

فائدة ملموسة ، فقد كلفتهم مصروفات فادحة فأوعزوا إلى ناصر باشا السعدون متصرف البصرة عام ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣م أن يسحب القوات التركية العثمانية فسحبها وأرسل بدلها قوات من الأكراد والقبائل العربية [٦٦] . فكان هذا إيذاناً بتقلص نفوذ الأتراك العثمانيين في هذه المنطقة وزواله .

وفي تصوري أن هناك عدة عوامل أدت إلى تلك الحالة المضطربة وأهمها :

١- عدم قدرة العثمانيين من السيطرة على قبائل البادية ، فعجزوا تماماً وخاصة في أواخر عهدهم عن إشاعة الأمن في ربوع الإقليم ، ولم تكن سيطرتهم تتعدى أسوار المدن التي يقيمون فيها ، بل كانوا يتعرضون هم أنفسهم إلى غارات رجال القبائل [٦٧] .

٢- تعدد حكام الدولة في الإقليم ((المتصرفون)) وقصر المدة التي كان يقضيها كل واحد منهم في منصبه ، بحيث لا يتسنى له معرفة أحوال الإقليم ، وكان من الصعب على أي منهم أن يتبنى سياسة إصلاحية إذ لم يكن يسعفهم الوقت للاستمرار في تطبيقها . فقد بلغ عدد هؤلاء المتصرفين في الفترة ما بين ١٨٧١ - ١٩١٣ حوالي عشرين متصرفاً [٦٨] .

٣- أن الطابع العثماني في الاحساء ظل طابعاً عسكرياً ، وكانت نفقات الحاميات تستأثر بالقسم الأكبر من ميزانية الإقليم التي كانت تعتمد في الدرجة الأولى على الضرائب التي كانت تجمع من الأهالي ، فقد بلغت عوائد الإقليم في عام ١٩٠١ حوالي ٦٠ ألف ليرة ، كانت نفقات رجال الجيش العثماني منها حوالي ٥٤ ألفاً ، وما ظل منها لا يكفي بالطبع للخدمات المدنية الأخرى ، مما اضطر الدولة لاتباع سياسة الضرائب التصاعدية لكي يتوازن الدخل والمنصرف ، ففي عام ١٩٠٥/١٩٠٦ ارتفعت مدخولات الجمارك ٣٧,٥٪ عن السنة السابقة ، وفي العام التالي اضطرت الدولة إلى رفع تلك العائدات ١٢,٥٪ أيضاً [٦٩] .

٤- أدت حملة الاحساء إلى قيام صراع بريطاني عثماني في منطقة الخليج مما

ساعد على زيادة الاضطراب في المنطقة إذ أن بريطانيا كانت تشجع القبائل وتعطيها الهبات والعطايا للقيام بثورة ضد العثمانيين ، كما أن بريطانيا كانت تشجع سعود بن فيصل للثورة ضد العثمانيين .

٥- محاولات آل سعود المستمرة إنهاء الوجود العثماني في الاحساء حتى نجح أخيراً عبد العزيز آل سعود في احتلال الاحساء عام ١٩١٣م .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ما هو موقف الأهالي في الاحساء من الاستراتيجية العثمانية التي رسمتها الدولة العلية في منطقة الخليج ؟

إن الواقع الاجتماعي في الاحساء أثبت أن الاستراتيجية العثمانية في المنطقة لم تكن موفقة . وفي اعتقادنا أن هذا يعود لسببين رئيسيين هما :

١- لأن الدولة العلية لم تف بالوعد الذي منت به أهالي المنطقة ، فكان هذا سبباً من فقدان الدولة للقاعدة الشعبية والتأييد السكاني في المنطقة اللتين تعتبران من أهم عوامل تركيز الاستراتيجية ونجاحها .

٢- اعتمدت الدولة العثمانية على القوة العسكرية بدلاً من اعتمادها على تحقيق العدالة الاجتماعية ورفاه الشعوب ، الأمر الذي نفر الناس من هذا الأسلوب وترك المجال مفتوحاً أمام حالات الاضطراب والفوضى .

إن الواقع الاجتماعي لأهل الاحساء كان يخالف تماماً ما جاء في منشورات الدولة التي أذاعتها على الأهالي . فازدادت الضرائب وعم المنطقة حالات من التذمر والسخط أدى إلى الانفجار الشعبي الذي تجمع عند مقر حكومة متصرفية نجد، بحجة أن السعر الذي حددته الحكومة للتمر زائد ومضر ، فأغلقت الدكاكين مدة ما .

وهذا يدل على عدم الانسجام بين الأهالي وأسلوب الحكم العثماني ، كما أن إغلاق الدكاكين يعتبر رفضاً للاستراتيجية العثمانية [٧٠] .

كما أن طبيعة الحكم الاستبدادي تكون دائماً من أهم العوامل التي تجلب نقمة

الأهالي ، وهذا ما حدث بالفعل في منطقة الاحساء عندما عمت المنطقة موجة من السخط ضد العثمانيين (٧١) .

وهذه الأمور حدثت بعد عزل مدحت من ولاية بغداد ، إذ أن فترة الحكم العثماني إبان وجود مدحت باشا في بغداد حوالي سنة ونصف تقريباً ، لكن الولاة الذين تسلموا أزمة الحكم في بغداد لم يستطيعوا القيام بما قام به مدحت باشا ، فساد الاضطراب والفوضى وكثرت الفتن والثورات حتى اضطرت الحامية العثمانية للخروج وقيام قوات عربية بديلة من العراق تحت إشراف ناصر السعدون بحماية المنطقة .

وأيا ما كان الأمر ، فقد اتخذ الاتحاديون فيما بعد من حملة مدحت باشا على الاحساء محور ادعائهم لتأكيد السيادة العثمانية على بعض مناطق الخليج في وجه السياسة البريطانية في هذه المنطقة ، وكان أثر هذه الحملة واضحاً في الكويت حول تأكيد علاقة شيوخ تلك الإمارة بالدولة . كما أدت إلى سيادة السلطان إلى حد ما على السعوديين في داخل الجزيرة العربية . كذلك ظهر أثر الحملة واضحاً في كل من قطر والبحرين ، أما بالنسبة للجنوب فقد أدت حملة الاحساء إلى نتائج عسكرية فقد أسرع الانجليز إلى تشديد قبضتهم على إمارات الخليج وعقدوا معها معاهدات لخوفهم من اتساع النفوذ العثماني جنوباً ، مع الدولة العثمانية ، بعد نهاية ولاية مدحت باشا على العراق قد أهملت التوسع في مشيخات الساحل العماني . (٧٢)

السيادة العثمانية على قطر :

تلقى نافذ باشا قائد الحملة العثمانية على الاحساء وهو بالهفوف دعوة من قاسم ابن ثاني حاكم قطر ، حيث أراد الأخير التخلص من قيود تعهدات أبيه محمد بن ثاني مع الحكومة البريطانية ، هذا بالإضافة إلى التخلص من دفع الجزية

المفروضة على قبائل قطر لشيوخ البحرين ، فأعلن خضوعه للدولة العثمانية ، ورحب مدحت باشا بهذه الدعوة ، ذلك أنه كان يخشى من محمد بن ثاني الذي كان يعتنق الدعوة السلفية من أن يعمل على شد أزر السعوديين بالإضافة إلى خضوعه للانجليز [٧٣] لذلك خرجت قوة عثمانية احتلت قطر ، وكانت هذه القوة تتألف من عشائر بدوية كويتية بقيادة عبد الله الصباح ، وقد اتخذ من مدينة الدوحة مركزاً لها [٧٤] .

وعلل مدحت باشا غزوه لقطر بأن سعود الفيصل وغيره من المنشقين تأتيهم الأسلحة والمؤن والأرزاق عن طريق البحرين ، ثم أنهم أخذوا يضغطون على مشايخ قطر وسكانه فاستنجد قاسم ووالده محمد بمدحت باشا وطلبوا إرسال قوة تؤيدهما فأرسل لهم الأخير قوة على سفينة حربية هي يونية بقيادة القائمقام عمر الذي قضى بها على الأشقياء ، وأعاد الهدوء ثم رجع إلى الاحساء بعد حوالي ٣٥ يوماً [٧٥] .

وفي عام ١٢٨٨هـ / يوليو ١٨٧١م عين مدحت باشا قاسم بن ثاني قائمقام على قطر، كما أقام فيها محطة للفحم ومرسى للسفن وثبت حامية عثمانية في البدعة .

ولم يسكت الانجليز على هذا التصرف فقد بعث الكولونيل البريطاني في بغداد إلى مدحت باشا يذكره بأن هذا العمل مخالف للتأكيدات التي سبق أن أدلت بها الحكومة العثمانية . فأجاب مدحت على ذلك بأن التعهدات المشار إليها خاصة بالبحرين - رغم أنها - أي البحرين - من توابع نجد وقد أدت هذه الحملة على قطر إلى إحراج بالغ لمركز محمد بن ثاني الموالي للانجليز ، فقد ذكر الميجر سيدني سميث مساعد المقيم البريطاني في الخليج حينما زار قطر أن قاسم بن ثاني يرفع الراية العثمانية ، بينما لا يزال محمد بن ثاني يرفع راية الصلح البحري [٧٦] .

وذكر سميث في مقابلته لقاسم بن ثاني ، أن الأخير زعم أن بعثة عثمانية برئاسة

شيخ الكويت عبد الله بن صباح وصلت إلى البدعة وقدمت له رسالة من الحكومة العثمانية تلتمس تعيينه قائمقام وإقامة حامية عسكرية في بلاده ، وكان هذا الالتماس مصحوباً بتهديد عسكري إذا لم يقبل العرض ، وحفظاً للسلام فقد قبل العروض العثمانية لأنه لم يجد حامية بريطانية كافية ، وواظب قاسم بن ثاني على رفع الراية العثمانية ودفع الضريبة لمتصرف الاحساء. هذا وقد بلغ الدخل السنوي من الجزية التي تدفعها قبائل قطر للدولة العثمانية عشرة آلاف قران ، وحاولت الحكومة البريطانية وقف التدخل العثماني فأرسلت إحدى المدرعات إلى مياه قطر ، وطالب قائدها باسم شيخ البحرين بالمبالغ السنوية التي يدفعها لشيخ البحرين ، غير أن القطريين رفضوا المطالب البريطانية ، وأعلنوا أنهم رعية عثمانية ، فردت الدولة العثمانية على هذا الإجراء البريطاني بإرسال سفينتين حربيتين إلى قطر بحجة حمايتها من عدوان البحرين عليها (٧٧) .

وفي نفس الوقت رفع الباب العالي احتجاجاً إلى الحكومة البريطانية بشأن العدوان البريطاني على أرض عثمانية فرد وزير خارجية بريطانيا اللورد جرانفيل على هذا الاحتجاج بأن حكومته لا ترغب في التدخل في شؤون الخليج إلا فيما يختص بحفظ الأمن والسلام طبقاً لنصوص المعاهدات الخاصة بذلك ، وعلى الرغم من ترحيب قاسم بن ثاني بالعثمانيين واعتماده عليهم في تثبيت سلطته في قطر إلا أنه ثبت أنه في بعض الأحيان حاول التقرب من الانجليز ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، بل على العكس كانوا يعمدون إلى الضغط المتكرر عليه حتى يتخذوا من ذلك سبباً من أسباب العداء بينهم وبين قاسم (٧٨) .

وبمجيء العثمانيين إلى قطر برزت مشكلة جديدة وهي مشكلة خور العديد وكانت تسكن هذه المنطقة قبيلة القبيسات ، وهذه القبيلة هاجرت من أبوظبي بزعامة خادم بن نهيان فراراً من حكم البوفلاح . وكان الشيخ خادم يطمح في تكوين إمارة مستقلة أسوة بجيرانه ، وقد كاتب المقيم البريطاني سنة ١٢٨٦هـ /

١٨٦٩م بشأن هذا الموضوع وطلب الحماية البريطانية على منطقته ، حيث رأى أنها السبيل الوحيد لتكوين إمارته ، غير أن بريطانيا لم تتخذ موقفاً واضحاً إزاء هذه المنطقة ، إلا أنها اعتبرته تابعاً لقطر عند عقد الاتفاق مع آل ثاني ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م (٧٩) خاصة وأن شيخ قطر جاسم بن ثاني أرسل أعلام الدولة العثمانية إلى شيخ القبيسات ليرفعها على العديد .

غير أن المصالح الخاصة أملت على الانجليز اعتبار خور العديد جزءاً من أبو ظبي وذلك بعد مجيء العثمانيين إلى هذه المنطقة ، واتصالهم بشيخ القبيسات ، لأن بريطانيا كانت تخشى من هذه المشيخة الصغيرة كي لا تنضم إلى الدولة العثمانية كما فعل آل ثاني . وقد أدرك الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي هذه المخاوف الانجليزية واستغلها ، فادعى بأن الترك العثمانيين راسلوه مطالبين بخور العديد وأنهم أرسلوا علماً عثمانياً إلى بطي بن خادم شيخ القبيسات الجديد. وهكذا دفع بالانجليز إلى استخدام القوة لإجبار شيخ القبيسات على رفع علم الهدنة البحرية ، ولكنهم لم يعلنوا رسمياً أن الخور جزء من إمارة أبو ظبي إلا في سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م (٨٠) .

أما موقف بريطانيا من الوجود العثماني في الخليج فيتسم بالرفض والمعارضة المطلقة وذلك خشية أحكام الدولة العثمانية سيطرتها على الجزيرة العربية كاملاً ، وخشية محاولة الفرس تقليد العثمانيين فيحذون حذوهم بتكوين أسطول لهم في مياه الخليج . ولهذا اعتبرت السلطات البريطانية في الخليج وضع قطر تحت سيطرة العثمانيين المباشرة تحدياً لنفوذها وإحراجاً بالغاً لموقفها في المنطقة .

لذا احتجت بريطانيا على ازدياد قوة الأسطول العثماني في الخليج العربي وكذلك على توسع العثمانيين في قطر . وكان البريطانيون ينطلقون في احتجاجهم هذا من تصوراتهم لمطامع مدحت باشا الذي كان ينظر إلى حدود نجد نظرة أشمل من

نظرة البريطانيين ، فكانت نجد في نظرة تمتد لتشمل كلاً من قطر والبحرين وبلدان الساحل المهادن وحتى مسقط ذاتها [٨١] فردت الدولة العثمانية على الاجتماع الانجليزي بتأكيد حقها في زيادة أسطولها في الخليج .

سياسة مدحت باشا إزاء البحرين :

في القرن التاسع عشر الميلادي ، اشتد التنافس العثماني الفارسي البريطاني على البحرين ، وكان هذا التنافس حتى العقد الرابع من القرن التاسع عشر مقصوراً على المطالبات والاحتجاجات ، ودخلت هذه المطالبات حيز التنفيذ منذ عام ١٨٤٤-١٨٤٥م حيث ازدادت المطالب الفارسية بالبحرين ، واعتبرتها فارس جزءاً منها ، وأن شيخها يعين من قبل الشاه . كما بعث والي بغداد محمد نجيب باشا في صيف عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م برسالة إلى محمد آل خليفة شيخ البحرين يستميله فيها إلى جانب الدولة العثمانية ، ثم أرسل بعدها سفينة عثمانية تجوب الخليج وتوزع الأعلام العثمانية ليرفعها من يشاء إعلاناً للتبعية العثمانية وكان شيوخ البحرين يناورون في الواقع بكل من فارس والدولة العثمانية ، فانتهز محمد بن خليفة فرصة هذا الضغط العثماني ليستفيد من التنافس الأنجلو عثماني [٨٢]. فتفاوض مع السلطات البريطانية كي تخفف حكومة بومبي من الضرائب المفروضة على سفن البحرين في موانئ الهند ، وهدد بريطانيا بإعلان الولاء للدولة العثمانية إن هي تلكأت في تلبية طلبه ، غير أن حكومة بريطانيا وممثليها في الخليج وقفت موقفا حاسماً ضد أي تدخل فارسي أو عثماني في البحرين . وانطلقت بريطانيا في موقفها هذا من أن معاهدة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م جعلت من البحرين إمارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات معينة ، واشتدت المطالبة الفارسية العثمانية بالبحرين بعد توقيع معاهدة أرضروم في عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م حيث أدرك المسؤولون العثمانيون أن إهمال البصرة هو السبب في ضعف النشاط

العثماني نحو المشيخات العربية في الخليج ، فوضعوا مشروع إنشاء ترسانة بحرية في البصرة ، كما رفعت البصرة إلى مرتبة الولاية سنة ١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م لتكون قاعدة للبواخر العثمانية المزمع إرسالها إلى الخليج ، ونتيجة لهذا الإجراء العثماني كثر عدد المطالبين بمشيخة البحرين في كل من فارس وبغداد ونجد [٨٣] وكانت القوة الوحيدة القادرة على توجيه حملة مباشرة ضد البحرين هي نجد ، ولكن الإمام فيصل بن تركي كان يخشى التورط مع الانجليز ، فلجأ إلى التفاهم معهم ولكن دون جدوى ، فاتبع الطريق التقليدي وهو تشجيع المطالبين بالمشيخة دون أن يوجه هو حملة إليها ، وكانت حجة الإمام فيصل في مطالبته بالبحرين أن الأخيرة تدفع الزكاة له سنوياً ، وأن هذا من علامات الخضوع للحكم السعودي ، وقد أدرك الانجليز أن فيصل لو نجح في السيطرة على البحرين فهذا معناه دخول البحرين تحت سيادة الدولة العثمانية ، لأن فيصل كان يتسلم خلعة من والي الحجاز من قبل السلطان ، ومنح فيصل كذلك لقب قائمقام نجد ، واشتد ضغط فيصل على البحرين فاستنجد حكامها بالسلطات العثمانية والفارسية ، وكان الفرس أكثر نشاطاً فوصلوا إلى الجزيرة ورفعوا العلم الفارسي عليها . ثم أخذوا في إعداد حملة لإرسالها إلى البحرين ، فتدخلت السلطات البريطانية مهددة باستخدام الأسطول لمنع هذه الحملة . أما فيصل فقد تابع سياسته السابقة الذكر، فردت قطع الأسطول البريطاني على هذه المحاولة من الدمام لغزو البحرين بضرب تجمعات الحملة ، فأعلنت الدولة العثمانية الاحتجاج على ضرب أراضيها [٨٤] وفي سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م اقترح فلكس جونز Felix Jones القنصل البريطاني في الخليج إرسال بعض قطع الأسطول إلى البحرين لإرغام شيخها على توقيع معاهدة تقيده وتربطه ببريطانيا ، وأعدت مسودة المعاهدة في ١٢٧٧هـ/مايو ١٨٦٠م ووقعها شيخ البحرين في سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م [٨٥] .

واشتدت حركة المقاومة في البحرين ضد هذه المعاهدة ، وتزعم محمد بن عبد الله

آل خليفة ، المطالب بحكم البحرين هذه الحركة واشتدت المطالبة العثمانية أيضاً بالبحرين ، كما طالبت فارس بحقها في البحرين كذلك ، ولكن عنصر المبادرة بالهجوم كان في يد السعوديين بالاحساء ، فردت بريطانيا على هذا الهجوم السعودي بضرب الساحل الاحسائي مرتين : الأولى في نوفمبر سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م في عهد فيصل بن تركي ، والثانية في عهد عبد الله بن فيصل في سنة ١٢٨٣هـ/٢ فبراير ١٨٦٦م . فلما شعر عبد الله بضعفه أمام القوات البريطانية اتصل بوالي بغداد نامق باشا لتنسيق جهودهما في استرداد البحرين ، ولكن هذه الاتصالات فشلت في إيجاد اتفاق بين الطرفين .

وهكذا لم يستطع نامق باشا أن يثبت دعائم السيادة العثمانية على الساحل إلا بالأسلوب التقليدي الذي كان يتبعه الولاة من قبل ، وهو إسناد الحكم إلى الغالبين في إطار التبعية للدولة العثمانية ، ولعل السبب في فشل نامق باشا هو أن البصرة لم تكن قادرة على أن تقوم بمهمتها الحقيقية فتركزت الأمور في يد والي بغداد الذي كانت تحجبه عن الخليج عشائر مشيخات قوية مثل المنتفق والظفير [٨٦] .

وفي عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م انتهز الانجليز فرصة قيام نزاع بين آل ثاني حكام قطر وآل خليفة حكام البحرين وأرغموا شيخ قطر على توقيع معاهدة أدخلتهم في زمرة المشيخات المتعاهدة مع بريطانيا [٨٧] .

كما وصلت في نفس السنة أربع قطع بحرية انجليزية إلى البحرين وعزلت عبد الله آل خليفة شيخ البحرين وأرسلته مع بعض مشايخ الأسرة إلى بومبي وعين الانجليز في مشيخة البحرين عيسى بن علي ، ثم توجهت السفن بعد ذلك إلى القطيف من توابع نجد ، فبعث والي بغداد مدحت باشا في ١٢٨٥هـ/١٦ ديسمبر ١٨٧٠م ببرقية إلى عالي باشا وزير الخارجية يطلعه على الأمر ، فبعث الأخير ببرقية إلى موزوروس Musurus سفير الدولة العثمانية في انجلترا يخبره فيها أن جزيرة البحرين جزء من ممتلكات الدولة العثمانية ، وأن السفن الانجليزية

تصرفت تصرفاً خاطئاً ، ونشأ ذلك التصرف عن قصور في الفهم والادراك ، وطالبه باستيفاء تفاصيل هذا الخبر ، وموافاته بها ، ورد المستر كلارندون Clarndon وزير الخارجية البريطانية على هذا الاستفسار بأنه لا يعلم عن الحادث شيئاً ، ووعده بأنه سوف يستعلم عنه . وأضاف وزير الخارجية الانجليزية في رده بأنه يسمع ولأول مرة تابعية جزر البحرين للدولة العثمانية ، في حين أن حكومة فارس هي التي تدعي بحق الحكم عليها ، وادعاء ملكيتهم لها . فرد موزوروس باشا على المستر كلارندون ببرقية في ١٢٨٧هـ / ٥ يناير ١٨٧٠م برقم ٣٩٥٤/٩ ذكر فيها أنه ليس لفارس أي حق تدعيه على أي جزء من الجزيرة العربية، كما أن ادعاءها لا أساس له من الصحة إطلاقاً ، وأن الجزر المذكورة تتبع دائماً لولاية البصرة منذ فتح المدينة المذكورة وبغداد ، وأنها ما زالت على حالها لليوم (٨٨) .

وعندما راجع موزوروس باشا في اليوم السادس والعشرين من يناير ١٨٧٠م اللورد كلارندون طالباً الرد على استفساره السابق ، رد عليه بأن قال أن هذه الجزر تطالب الحكومة الفارسية بحق الحكم عليها منذ ثلاثين عاماً ، وأن الموظفين الانجليز عرفوا أن هذه الجزر المذكورة تتبع حيناً دولة فارس وتعتبر حيناً مستقلة.(٨٩)

ولكن سفير الدولة العثمانية موزوروس باشا رد عليه مبيناً وجهة نظره قائلاً إن معرفة الانجليز تبعية هذه الجزيرة حيناً لكذا وحيناً آخر لكذا لا يمس حقوق لباب العالي ، كما أن فارس ليس لها أي حق تدعيه في أية نقطة من نقاط الجزيرة ـربية ، وأن هذه الجزر بحكم موقعها الجغرافي تتبع الجزيرة العربية ، فلا حق ـران (فارس) بأي ادعاء وإذا كانت الدولة الفارسية تقصد الاستشهاد باستيلائها التاريخي القديم عليها فهذا قول مرفوض لأن الدولة العثمانية بفتحها بغداد والبصرة أنهى حق فارس فعلاً ، وأن هذه الجزيرة الآن تابعة لإمام

مسقط ، ومعنى ذلك أنها تتبع الباب العالي . وأنه يجب ألا يغيب عن البال أن الباب العالي فتح أهم ومعظم هذه الجهات فتحاً عسكرياً وأنه يديرها إدارة مباشرة ... ولكن جزيرة البحرين بسبب بعدها عن المركز وقعت تحت نفوذ الأئمة والشيوخ كغيرها من الأراضي المنسلخة من الإدارة العثمانية المباشرة ، ورغم كل ذلك ، فإن جميع هذه الإمارات تعتبر بأنها تحت حكم السلطنة العثمانية ، كما يعترف حكامها بالسلطان أكبر رئيساً لهم [٩٠] .

وذكر التقرير أن بريطانيا قد ادعت بأنها لا تنوي فرض سيطرتها على البحرين علماً بأن واقع الحال ينفي هذه الادعاءات ويؤكد إصرار بريطانيا على السيطرة على البحرين ، فقد بدأت بإقامة مبان كبيرة في البحرين ، كما عينت حراساً على مقر حكومة الشيخ عيسى [٩١] . هذا علاوة على الاعتداءات التي قامت بها ضد ساحل الاحساء .

واختتم التقرير دراسة مشكلة البحرين مؤكداً تبعية البحرين للدولة العثمانية وأيلولة ملكيتها لها ، وذلك بناء على الأسس التالية :

١- تتبع البحرين منذ القديم قائمقام نجد الذي تعينه السلطنة السنية العثمانية .
٢- تجبى الضرائب من قبل قائمقام نجد من البحرين حتى وصول الجنود النظاميين إلى هذه المناطق .
٣- سكان البحرين يدينون بالإسلام ، وتقرأ خطب الجمعة باسم جلالة السلطان، وهذا دليل على تبعيتها للسلطنة العثمانية .
٤- وجود الطفراء العثماني ، ومدافع في أبراج وأسوار القلعة ، كآثار قديمة ووجود التواريخ القديمة على أبواب الجوامع والمساجد تثبت هذا الحق .
٥- الموقع الجغرافي للجزيرة يثبت جهة التزامها حيث أنها جزء من الجزيرة العربية التي تؤول للدولة العثمانية [٩٢] .

هذه المبررات التي سقناها آنفاً تؤكد تبعية البحرين للدولة العثمانية .

وانطلاقاً من سياسة المهادنة ، حرصت الدولة العثمانية على عدم الدخول في صدام مع انجلترا ، واكتفت بالمطالبة وتقديم الحجج والبراهين على تبعية البحرين لها . كما شددت على والي بغداد الطموح مدحت باشا ألا يقدم على أي عمل يخل بالاتفاقية العثمانية الانجليزية المعقودة عام ١٨٦١م (٩٣) .

وفي رسالة بعث بها وزير الخارجية العثمانية إلى مدحت باشا رقم ٩٠ بتاريخ ٤ تموز (يوليو) ١٨٧٠م يقول فيها : ''أن مهمة الفرقة العسكرية المرسلة إلى سواحل نجد منحصرة على منطقة نجد دون سواها'' . ورجا وزير الخارجية في رسالته إلى مدحت باشا أن تكف جريدة الزوراء عن التعرض لبعض الأمور المثيرة للقلاقل والفتن مثل حديثها عن البحرين وقسماً صغيراً من مناطق يسكنها رؤساء القبائل العربية التي عقدت مع الانجليز اتفاقية دائمة أنها تابعة لنجد ، وأن هذا العمل أثار انتباه إدارة الهند ، فالرجاء عدم التعرض في الزوراء لمثل هذه الأمور (٩٤) .

ورد مدحت باشا بخطاب رفعه إلى الصدر الأعظم ذكر له فيه أن البحرين تتبع نجداً من القديم ، وأن الاحساء والقطيف تبعتا الدولة العلية ، ودحض الادعاءات الانجليزية والفارسية في البحرين وبقية مشيخات الخليج العربي ، وأكد مدحت في رسالته أن ((مهمة الفرقة العسكرية في نجد هي إقرار الأمن والصلح في الاحساء والقطيف وقطر وملحقاتها بإبعاد الأسرة السعودية وأعوانها منها دون التعرض للبحرين ولا الخروج خارج نطاق نجد . وقد نبه قائد الفرقة نافذ باشا على ذلك ، أما ما كتبته جريدة الزوراء فلا يمكن أن يحدث مشكلة ، لاسيما وأنكم كتبتم إلى مسيو بيزانتي وأرسلتم لي صورة مكاتبتكم التي جاء في فقرة منها أن حدود نجد غير محدودة ولو حدث تدخل لأمور المشايخ والرؤساء العربان الذين يريدون الانسلاخ فهذا سوف يتيح محظوراً .....)) (٩٥) .

وذكر مدحت في رسالته أنه لم يحدث منه أي تدخل في البحرين أو إمارات الخليج الأخرى ، رغم طلب بعض رؤساء العشائر والعربان وسكان عمان المساندة من الدولة العثمانية ، ويقول مدحت أننا لم نرفض عرضهم بل التزمنا السكوت رغم ما قام به بعض الموظفين الانجليز من إهانة بعض العساكر السلطانية ، وما قام به ملاحو سفينة تابعة لشركة لنج الانكليزية من مهاجمة سفينة بغداد وهي راسية في الميناء ، وذكر مدحت أيضاً أن موظفي الانكليز يعتبرون جزيرة البحرين حكومة مستقلة ونيتهم متجهة لأن يقيموا حكومة مستقلة في عمان ومسقط ، فضلاً عن أنهم شرعوا يأخذون منذ عدة سنوات تسعة آلاف ريال من قطر للشيخ عيسى ، رغم رفض أهل قطر دفعها للانجليز بحجة أنهم تابعون للسلطنة العلية، ثم لما استوضح أمر هذه الضرائب من القنصل الانجليزي في بغداد كان رده بأن لا أساس لما قام به الانجليز [٩٦] .

وتشير المصادر العربية أنه بعد نجاح حملة مدحت باشا في الاحساء وبعد بسط النفوذ العثماني على قطر ، فكر مدحت باشا في أن يواصل في مد النفوذ إلى الجزر المقابلة لساحل قطر وهي جزيرة البحرين . فأرسل وفداً برئاسة عارف بك قائد بحرية البصرة لمقابلة شيخ البحرين متظاهراً بهدف إقامة بعض مستودعات الفحم اللازمة لإمداد السفن العثمانية ، بينما كانت المهمة الحقيقية هي الحصول على ولاء شيخ البحرين للسلطان العثماني ، وقد رحب شيخ البحرين بهذه الزيارة وأبدى الفرح والسرور عند رؤيته للسفينتين العثمانيتين ((لبنان والاسكندرية)) قائلاً : أن البحرين لم تر منذ قرنين سفناً عثمانية في هذا البحر، وتبرع ببعض الأراضي لإقامة مستودعات الفحم اللازمة للسفن العثمانية ، وبعد هذا أخذت السفن العثمانية تكثر من ترددها على البحرين بدعوى التزود بالماء والفحم ، وقد انزعجت الحكومة البريطانية من زيارة عارف بك ووفده إلى البحرين [٩٧] .

وعلى العموم ، فقد أدرك مدحت باشا خطورة موقفه هذا ، فكتب كتاباً إلى حاكم عام الهند بشأن حقوق الدولة العثمانية في السيادة على البحرين ، وأيد موقفه بأدلة قانونية ساقها في ثنايا رسالته ، ولكن بريطانيا وقفت موقفاً حاسماً من هذه القضية وحصلت على تعهد من شيخ البحرين يقضي بالمحافظة على جميع الالتزامات والتعهدات الناجمة عن المعاهدات السابقة وآخرها معاهدة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م . ووعده الانجليز بحمايته من أي خطر يهدده سواء كان عثمانياً أم فارسياً [٩٨] وترجع الوثائق البريطانية رغبة الأتراك العثمانيين في احتلال البحرين إلى عوامل سياسية واقتصادية . فمن الناحية السياسية فإن البحرين كانت ملجأ للفارين من اللاجئين السياسيين حيث يجدون فيها الحرية الكاملة في مزاولة أعمالهم ، إضافة إلى الكرم والعادات العربية الحميدة التي سبغها عليهم شيخ البحرين . وتذكر تلك الوثائق قصة تهديد الأتراك بغزو البحرين بسبب قصة زيارة الأمير عبد الرحمن الفيصل عقب فراره من أسره في بغداد ، وقد أقام بعد فراره قرابة شهرين بالبحرين . أما الأسباب الاقتصادية فهي أن البحرين تعتبر الميناء الرئيسي للاحساء ، بالإضافة إلى أنها جزر مشهورة بزراعة النخيل والخضروات والفواكه وحركة تجارة اللؤلؤ وصيده لمنطقة الخليج كله ، حتى أنه بلغ دخلها في تلك الفترة أكثر من خمسة ملايين جنيه استرليني في العام الواحد، فأرادت الدولة العثمانية باستيلائها على هذه الجزر إنهاء مشاكلها الاقتصادية في المنطقة [٩٩] .

وخلاصة القول أن الحملة العثمانية التي أرسلها مدحت باشا إلى الاحساء قد أكدت الوجود العثماني والسيادة العثمانية في الخليج ، كما امتدت السيادة العثمانية على بقية أجزاء الخليج من الكويت حتى عمان ، وقد اعترفت انجلترا بتبعية مشيخات الخليج إلى الدولة العثمانية تبعية اسمية . وقد استمرت السيادة العثمانية على الجزيرة العربية ولو اسمياً في بعض المناطق وفعلياً في المناطق

الأخرى حتى سقوط الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ويؤكد ذلك مراسلات الحسين مكماهون التي تناولت البلاد العربية تحت الحكم العثماني في قارة آسيا بما فيها شبه الجزيرة العربية ما عدا عدن .

كما أن مشايخ وأمراء الجزيرة العربية كانوا يلتفون حول الدولة العثمانية بتأثير العاطفة الإسلامية والولاء الديني على اعتبار أن الدولة العثمانية تمثل المسلمين في العالم بصفتها وارثة الخلافة الإسلامية .

وهناك حقيقة أخرى أن الوجود البريطاني والاستعمار البريطاني لم تتأكد سيطرته على منطقة الخليج إلا بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية ، فكان مشايخ وحكام الخليج برغم تعاهدهم وتعاقدهم مع بريطانيا بمعاهدات إلا أنهم كثيراً ما عبروا عن ولائهم للدولة العثمانية وكانوا يتعاطفون معها ، وليس هؤلاء فحسب بل كان المسلمون جميعاً في أصقاع الأرض يؤيدون الدولة العثمانية للأسباب التي ذكرتها في النتيجة السابقة . ومن هنا كانت بريطانيا تراعي مشاعر المشايخ وحكام الخليج في إظهار ولائهم للدولة العثمانية، وتكتفي فقط بالاحتجاج على التصرفات العثمانية . وبرغم ذلك فإن بريطانيا كانت تدرك تماماً أحقية الدولة العثمانية بالسيطرة على الجزيرة العربية .

ثبت المصادر والمراجع :

١) تمتد منطقة الإحساء من البصرة شمالاً إلى إقليم عمان جنوباً بالمنطقة المجاورة لعرب الخليج العربي.

٢) يوجد نص منقوش على أحد حجارة المسجد تضمن تاريخ إنشاءه ٩٦٣هـ على يد محمد باشا حاكم الإحساء في عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم.

٣) د. أحمد أبو حاكمة ، تاريخ شرقي الجزيرة العربية ، بيروت ١٩٦٥م ص ٦٠ - ٦١

٤) أحمد حيدر ، مذكرات مدحت باشا ، تعريب يوسف كمال بك حتاني ط١ ، القاهرة عام ١٣٢٥ / ١٩٠٧م، مطبعة هندية بالموسكي، ص ١٧٥

٥) د. محمد عرابي نخلة ، تاريخ الإحساء السياسي ١٨١٨ - ١٩١٣ ، الكويت ١٩٨٠م، ص ١٤٧ - ١٤٨

٦) د. عبد العزيز نوار، تاريخ العراق الحديث، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٣٩٥.

٧) د. جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي (١٨٤٠ - ١٩١٤) القاهرة ١٩٦٦، ص ١٧١

٨) إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، مطبعة دار الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٢٣ ص ٢٣٦

٩) محمد عرابي نخلة المرجع السابق ص ١٤٩

١٠) ولد مدحت باشا عام ١٢٣٨ / ١٨٢٢م وتنقل في عدة مناصب في الدولة العثمانية فشغل منصب الوالي في عدد من مناطق الحدود مثل نيش والشام وبغداد وعلى الرغم من قلة أيام حكمه في العراق، إلا أنه تمكن من إقرار النظام وأجرى بعض الإصلاحات التي لا يزال يذكرها العراقيون له بالخير، حاول تأكيد سيطرة العثمانيين علي الخليج العربي بإرساله حملة الإحساء، لكنه اصطدم بموقف بريطانيا، وضعف مركزه في العراق بعد موت صديقه الصدر الأعظم عالي باشا، فعزل سنة ١٢٨٩ / ١٨٧٢م ، ووصل إلى منصب الصدر الأعظم عام ١٢٩٢ / ١٨٧٥م مدة شهرين تقريبياً، وأخيراً اتهم بالتآمر في مقتل السلطان عبد العزيز فنفي إلى الطائف ومات هناك في حادث عنف سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م ومن المآخذ عليه أنه كان عثمانياً صميماً ولم يشرك العرب والأكراد في العراق إشراكاً فعلياً في إدارة البلاد. انظر عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ٨ أجزاء ، جـ٧ بغداد ١٩٤٩ ص ٢٦٩ - ٢٧١

11) Dickson H.R.B., kuwait and her Neibours, London, 1956, pp. 118

١٢) محمد عرابي نخلة ، المرجع السابق ص ١٥٢ - ١٥٣

13) IOR. /R1 1/0 116., from Ahmed Tawfik Pasha to Kembell 25th Jamada Al Awal 1239H.

14) IOR. R. 15/1/0/ 161, From Kembell to the Secretary to Government of India, dated 4th Dec. 1861.

١٥) د جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، مطبعة عين شمس، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٧٤

١٦) منشور مدحت باشا الذي أذاعه على أهالي الاحساء بعد دخول القوات العثمانية لها في ١٨ رجب سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م . انظر عبد العزيز نوار، تاريخ الطَرق الحديث، ص ٤٤٠ - ٤٤١.

١٧) د. عبد الفتاح أبو علية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض ١٩٨٦، ص ١١٣

18) Kelly, J. B., Britain and the Persian Gulf, London., 1965 P 718

١٩) مذكرات مدحت باشا، ص ١٧٥

٢٠) أطلقت الدولة العثمانية على الاحساء بعد فتحه لقباً إدارياً جديداً هو "سنجق نجد" وهي بهذا اللقب لم تشر البتة إلى اسم الاحساء. لذا يمكن القول أن هذا اللقب الجديد كان ترقباً من الدولة لفتح نجد. انظر الوثائق التركية المحفوظة في أوراق الباب العالي، باستنبول وثيقة رقم ٢٦٨٤، مؤرخة في ٢٣ شعبان ١٣٢٤هـ . وكذلك وثيقة رقم ٢٥٩٨ مؤرخة في ١٢ شوال ١٣٢٤هـ.

21) IOR./ L/P - S/18 Vols 91 - 160 Paragraph 10 Nejed Expidition Precies P. 788.

٢٢) د. جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص ١٨١

٢٣) نشأت إمارات الكويت والبحرين وقطر ومشيخات في الساحل في منتصف القرن الثامن عشر لم تكن موجودة قبل ذلك، بل كان اسم الاحساء يطلق على الساحل الغربي للخليج من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً كما أشرنا في بداية البحث.

٢٤)لوريمر، دليل الخيج ، حـ ٣ ص ١٥١٩ - ١٥٢٠ وعباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين ، حـ ٧ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠

٢٥) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٧١

٢٦) د. جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ، سيف مرزوق الشملان ، من تاريخ الكويت ، القاهرة مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٩م ص ١٣٦ - ١٣٧

لجأ مدحت إلى أن يرفع أصحاب السفن الكويتية الأعلام العثمانية بدلاً من الإنجليزية خشية محاولة بريطانيا فرض حمايتها على الكويت ، كما أعفى أهل الكويت من الجزية وصرف لهم الرواتب من خزينة البصرة.

٢٧) انظر نصوص المعاهدة الإنجليزية الكويتية في ١٨٩٩م في :

د. فتوح عبد المحسن الخزش ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠ - ١٩٢١ ، الكويت ، ص ٣٥ - ٣٦

٢٨) عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦

٢٩) مذكرات مدحت باش ، ص ١٨١

٣٠) عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٤٣١ - ٤٣٢

٣١) د. مصطفى عبد القادر النجار ، التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي ، بغداد ١٩٧٥ ، ص ٣١٢ - ٣١٣

٣٢) د السيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٦٥

٣٣) عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث ، ص ٣٥٨

٣٤) د. جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ١٩١

٣٥) كان الإمام فيصل يتبع الدولة العثمانية بالاسم ، وقد عبر الإمام فيصل عن تلك التبعية ببعض الأموال التي كان يدفعها للأشراف نواب الدولة العثمانية في الجزيرة العربية وبناء عليه فإن نجد والاحساء تتبع الدولة العثمانية تبعية إسمية. انظر د. عبد الفتاح أبو عليه ، تاريخ الدولة السعودية الثانية ، ط ٤ ، الرياض ١٩٨٦م

٣٦) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٧٣

٣٧) د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص١٧٣

٣٨) محمد بهجت سنان ، البحرين ، درة الخليج ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ١٠١

٣٩) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٧٤

٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ – ١٧٥

41) F 0/78 /2176 from Medhat to Herbert, dated 1st June 1871

٤٢) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق ، ص ١٨٦ – ١٩٠

٤٣) مركز دراسات الخليج العربي بالبصرة ، وثيقة رقم ٥ ملف ٧ بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٨٨هـ.

٤٤)د جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ – ١٨١

أصدر مدحت باشا في نفس اليوم الذي تحركت فيه الحملة العثمانية من البصرة في ٢٩ محرم سنة١٢٨٨هـ / ٢٠ أبريل ١٨٧١م إعلاناً مطولاً إلى سكان نجد والاحساء يحذرهم من تقديم المساعدة لسعود بن فيصل وفي نفس الوقت يعطي الفرصة لسعود في أن يسلم نفسه للسلطات العثمانية في البصرة، كما يقرر هذا الإعلان أن نجد قد أصبحت للأمير عبد الله الفيصل الذي عين قائمقاما عليها من قبل الدولة العثمانية . انظر نص الإعلان في د. جمال زكريا المرجع السابق ص ٤٨٣ – ٤٨٦

٤٥) جريدة الزوراء . عدد ١٣٦ ، ٢٨ محرم سنة ١٢٨٨هـ.

٤٦) د. عبد الفتاح أبو عليه ، الدولة السعودية الثانية ، الرياض ١٩٨٦م ، ط ٤ ص١٦٨

٤٧) جريدة الزوراء . عدد ٧٦٠ ، ٢٨ سنة ١٢٨٨هـ – ٢١ ربيع الثاني

٤٨) جريدة الزوراء . عدد ١٦١ ، ٢٦ ربيع الثانيم سنة ١٢٨٨هـ وانظر تفاصيل المعارك في الزوراء عدد ١٦٣ ، ٤ جمادى الأولى ١٢٨٨هـ ، الزوراء عدد ١٨٢ ، ١١ رجب ١٢٨٨هـ.

٤٩) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٧٦

٥٠) د. جمال زكريا ، المصدر السابق ، ص ١٨٢

٥١) جريدة الزوراء . عدد ١٤٠ ، ١٢ صفر سنة ١٢٨٨هـ.

٥٢) د. عبد العزيز نوار ، المصدر السابق ، ص ٤٣١ – ٤٣٢

٥٣) د. جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٩١

٥٤) لوريمر ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٥٤

٥٥) لوريمر ، المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٤٥٤ – ١٤٥٥

٥٦) صرح مدحت باشا بأنه ينظر نظرة أكثر شمولاً واتساعاً إلى حدود سنجق نجد، معتبراً أن هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها بل أيضاً البحرين وقطر وساحل عمان وسلطنة مسقط . انظر (جي، بي. كيلي ، الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية ، ترجمة خيري حماد ، بيروت ١٩٧١م ص ١٤٢

٥٧) جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، وثيقة رقم ٥ ، ملف ٧ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٨٨هـ

٥٨) هـ. ر. ب. ديكسون ، الكويت وجاراتها ، بيروت ١٩٦٥م ص ١١٨ - ١١٩

٥٩) محمد عبد القادر الاحسائي ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣

٦٠) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٧٩

٦١) المديرية العامة لدار المحفوظات رئاسة الوزراء ، استانبول (ارادة داخلية) وثيقة رقم ٤٤٩٣٠ (ب) من مدحت باشا إلى الصدر الأعظم ، تاريخ ١٢ شوال ١٢٨٨هـ

٦٢) المديرية العامة لدار المحفوظات رئاسة الوزراء ، استانبول (ارادة داخلية) وثيقة رقم ٤٤٨٨٠ (أ) من مدحت باشا والي بغداد إلى وزارة الداخلية ، وتاري٢١خ شوال سنة ١٢٨٨هـ.

٦٣) الوثيقة نفسها.

٦٤) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٨٠ - ١٨١

٦٥) د. جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ، ص ٢٠٠

٦٦) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٩٤

٦٧) محمد سعيد المسلم ، ساحل الذهب الأسود ، بيروت ١٩٦٢م ، ص ١٩٢

٦٨(لوريمر ، دليل الخليج . جـ ٣ ، ص ١٤٧٢ - ١٤٧٥

٦٩) المرجع نفسه ، ص ١٤٧٧

٧٠) الوثيقة التركية ، محفوظات استانبول ، أوراق الباب العالي برقية رقم ٢٠٩٨٥٩ بتاريخ ٢٥ آذار ١٣٢٢ . نقلاً عن د. عبد الفتاح أبو عليه ، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث . ص ١١٦ - ١١٧

٧١) الوثيقة التركية ، محفوظات استانبول ، دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الرابعة في ١٩ آذار ١٣٢٢هـ ، رقم ٢٠٩٨٦٩ نقلاً عن أبو عليه ، المرجع السابق، ص ١١٨

٧٢) د. جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤

٧٣) الزوراء . عدد ٢٠٨ ، ١٨ شوال سنة ١٢٨٨هـ.

٧٤) المديرية العامة لدار المحفوظات رئاسة الوزراء ، استانبول (ارادة داخلية) وثيقة رقم ٤٤٨٢٢ .

٧٥) مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، وثيقة رقم ٤ ملف ٧ ، شوال ١٢٨٨هـ.

٧٦) في ٢١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٢٠م وقعت بريطانيا معاهدة جماعية مع شيوخ الخليج أطلق عليها اسم (معاهدة الصلح) وقد نصت هذه المعاهدة على أن تلتزم السفن التابعة للعرب برفع علم أحمر وهذا يكون علم العرب الأصدقاء وتمتنع عن استغلال أي شعار آخر. انظر خالد العربي ، الخليج العربي في ماضيه وحاضره ، بغداد ١٩٧٢م ، ص ٤٤ - ٤٥

77) Kelly, J. B., op. cit., pp. 730 - 731

٧٨) د. جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩

وعبد العزيز نوار ، تاريخ العراق .. ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧

٧٩) د. صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ - ١٧٩

٨٠) المرجع نفسه.

٨١) د. جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ ، محمد عرابي نخلة ، تاريخ الاحساء السياسي ص ١٦٩

٨٢) عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق .. ، ص ٣٩٨

٨٣) المرجع نفسه ، ص ٣٩٩

٨٤) نفس المرجع ، ص ٣٩٩ - ٤٠١

٨٥) أمل إبراهيم الزياني ، البحرين من سنة ١٧٨٣م إلى سنة ١٩٧٣م ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٥٦

٨٦) عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ص ٤٠١ - ٤٠٣

٨٧) نفس المرجع ، المرجع السابق ص ٤٠٧

٨٨) مركز دراسات الخليج العربي بالبصرة ، ملف رقم ١ تقرير شامل عن البحرين بتاريخ ٣ فبراير ١٣٢٧هـ عليه رقم ٤٨٢ جزيرة العرب الشرقية.

٨٩) الوثيقة نفسها.

٩٠) مركز دراسات الخليج العربي ، التقرير السابق.

٩١) المصدر نفسه.

٩٢) المصدر نفسه.

٩٣) مركز دراسات الخليج العربي وثيقة رقم ٤ ، ملف ٧ شوال ١٢٨٨هـ

٩٤) الوثيقة نفسها ، وانظر كذلك مذكرات مدحت باشا ص ١٨٤

٩٥) الوثيقة نفسها.

٩٦) الوثيقة نفسها.

٩٧) يذكر قدري قلعجي أن مدحت باشا قام باحتلال ميناء الزبارة المواجه بشكل مباشر لجزر البحرين مما أثار مخاوف بريطانيا من امتداد النفوذ العثماني إلى مووقعها الاستراتيجية ولكنها لم تشأ بادئ ذي بدء أن تجابه الدولة العثمانية بشأن ميناء الزبارة ، فأوعزت للشيخ عيسى آل خليفة بأن يحتج على هذا العمل ، وأخيراً أقدمت وزارة الخارجية البريطانية على تهديد الدولة العثمانية وأظهرت أنها وراء البحرين.

انظر قدري قلعجي ، الخليج العربي ، بيروت ١٩٦٥م ص ٤٦٧.

وانظر كذلك :

- IOR /L/P.8/18. Vols 91 - 160 nejed Expedition Preecies Paragraph 31, P 35.

ومحمد عرابي نخلة ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ - ١٨٠

٩٨) عبد العزيز المنصور ، التطور السياسي لإمارة قطر ، الكويت ١٩٨٠ ، ص ٨٢ - ٨٣

وانظر أيضاً : جمال زكريا قاسم ، المرجع نفسه ، ص ١٨٠

٩٩) عبد العزيز المنصور ، المرجع السابق ، ص ٨٣

التوجه العثماني
من خلال محمد علي باشا وأسرته نحو الخليج العربي

إعداد

دكتور / رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

وعميد كلية الآداب جامعة الزقازيق

مقدمة

يرتبط التوجه العثماني من خلال محمد لي باشا وأسرته نحو الخليج العربي بالتوجه العثماني بواسطة حملات محمد علي وأبنائه على الحجاز ونجد والتي استغرقت الفترة من ١٢٢٦ – ١٢٣٤هـ الموافقة من ١٨١١ – ١٨١٨م . وذلك أن الدولة العثمانية ضمت الحجاز إلى ممتلكاتها بعد أن غزت مصر عام ٩٢٣هـ ، الموافق لعام ١٥١٧م وإن ظل يخضع لنظام الشرافة القائم هناك منذ القرن الرابع الهجري ، حتى نجح الأمير سعود الكبير في استخلاصه من سيطرة العثمانيين في عام ١٢١٨هـ - ١٨٠٣م . بالنسبة لمكة المكرمة وفي عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م ، بالنسبة للمدينة المنورة .

وأما نجد فلم تدخلها قوات عثمانية حيث لم تكن بها من الاغراءات ما يشجع العثمانيين على اقتحامها ، إذ أن صحراوية نجد وسيطرة النظام القبلي بها بالإضافة إلى كونها منطقة داخلية لا توجد بها تجمعات سكانية إلا حيث توجد المياه والمراعي ، وقد ظلت نجد تعيش فيظل نزاعات قبلية وعدم استقرار حتى نجح التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في توحيدها تحت حكم آل سعود وفي ظل دعوة التوحيد

السلفية .

وبالنسبة للاحساء فقد دخلها جيش عثماني قادم من البصرة عام ٩٦٣هـ الموافق لعام ١٥٥٥م في عهد السلطان سليمان المشرع ثم استخلصها من العثمانيين براك بن غرير بن عثمان بن سعود آل حميد من بني خالد عام ١٠٨١هـ الموافق لعام ١٦٧٠م وطرد الحامية العثمانية منها وظلت السلطة في أيدي بني خالد حتى دخلت الاحساء تحت حكم آل سعود في ظل دعوة التوحيد الإصلاحية عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م .

وهكذا نجد أن التوجه العثماني من خلال محمد علي وأسرته نحو الجزيرة العربية والخليج العربي جاء بعد أن انتشرت دعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية في الاحساء والحجاز ، ومن ثم كان على العثمانيين التعامل مع هذه الدعوة ورعاتها آل سعود .

وعندما فشل باشوات بغداد ودمشق في القضاء على دولة آل سعود الأولى نظراً لقوتها الروحية لجأ العثمانيون إلى باشا مصر محمد علي باشا لكي يقوم بهذه المهمة وذلك منذ عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م ، وكان هدف العثمانيين ضرب عصفورين بحجر واحد بالتخلص من محمد علي الذي اختاره زعماء الشعب المصري التقليديين وأعني رجال الأزهر والأعيان ، والتخلص من الدولة السعودية العربية راعية دعوة التوحيد السلفية .

وقد استمرت حملات محمد علي باشا وأبناؤه طوسون وإبراهيم على الحجاز ونجد في الفترة من عام ١٢٢٦ - عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١١ - ١٨١٨م كما ذكرنا، - وانتهت بسيطرة محمد علي باشا - باسم السلطان العثماني - على كل من الحجاز ونجد وسقوط الدرعية عاصمة ملك آل سعود في يد إبراهيم باشا وانتهاء الدولة السعودية الأولى التي استمرت قرابة ٧٥ عاماً من ١١٥٧هـ الموافق لعام ١٧٤٣م - وهو عام التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود - حتى

عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م .

كان لنجاح حملات محمد علي باشا في الحجاز ونجد في تحقيق مطالب السلطان العثماني بإسقاط دولة آل سعود في الجزيرة العربية عدة نتائج منها ما هو خاص بمحمد علي نفسه حيث زادت مكانته واتسعت آماله في ضم الشام إلى ملكه ، ومنها ما هو خاص بمشيخات الخليج العربي حيث تطلع الباشا العثماني حاكم مصر بأنظاره تجاه هذه المشيخات ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو مشيخات الخليج العربي كان نتيجة منطقية وثمرة من ثمار الوجود العثماني في الحجاز ونجد .

لماذا التوجه العثماني نحو الخليج العربي :

إن تساؤلنا عن لماذا حدث التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو الخليج العربي يتطلب منا مناقشة الأهداف التي سعت إليها الدولة العثمانية في هذا الوقت المبكر من القرن التاسع عشر الميلادي ، ذلك أن الدولة السعودية الأولى نجحت قبل هذه السنوات في نشر مبادئ دعوة التوحيد السلفية في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية .

ولم تكن الدولة العثمانية تهتم بما حدث داخل الجزيرة العربية حيث لم تكن لها ممتلكات هناك ، ولكن عندما امتد النفوذ السعودي إلى شواطئ الخليج العربي وجنوب العراق ، بدأ القلق يحرك الدولة العثمانية نحو طموح الدولة السعودية فكلفت سليمان باشا الكبير (بيوق) والي العراق بمحاربة السعوديين فأرسل حملتين لمحاربة آل سعود في الاحساء عام ١٢١٧هـ الموافق ١٨٠٢م ، وحملة ثالثة ضدهم في القصيم . [١]

وعندما امتد نفوذ آل سعود إلى الحجاز أوائل القرن التاسع عشر - كما سبق أن ذكرنا - في عهد الأمير سعود الكبير ازداد قلق الدولة العثمانية خاصة وأن

السلطان العثماني يتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين وحامي حمى الحرمين الشريفين (بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة) .

وإزاء القلق العثماني من الوجود السعودي بمنطقة الحجاز فقد كلف السلطان العثماني والي مصر محمد علي باشا بالتعامل مع السعوديين لكسر شوكتهم ولاستخلاص منطقة الحجاز منهم وإعادتها مرة أخرى تحت السيطرة العثمانية.

كما أنه إزاء التوسع السعودي في منطقة الخليج العربي ما دفع العثمانيين إلى القلق من ناحية السعوديين . ذلك أن الأمير عبد العزيز بن محمد ين سعود غزا الاحساء في عام ١١٧٦هـ الموافق لعام ١٧٦٢م حيث حقق من ورائها عدة مكاسب عسكرية ومالية ، ولكن الصراع استمر بين آل سعود وبين بعض زعماء الاحساء وجيشاً من باشوية بغداد ، كان النصر في النهاية لصالح آل سعود الذين أكدوا سيطرتهم على الاحساء حتى مجيء قوات محمد علي باشا . [٢]

وأما قطر فإن أهلها وخاصة من قبائل آل مسلم وآل حسن والمعاضيد وغيرهم رحبوا بدعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية ، عندما قام القائد السعودي إبراهيم بن عفيصان في عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م بغزو قطر ومعه جماعة من أهل الخرج والفرع [٣]

كما رحب سكان واحة البريمي في عمان بدعوة التوحيد السلفية ، وقد لقيت قوات آل سعود المتجهة إلى عمان التأييد من جماعتين : الجماعة الأولى بعض القبائل التي تقبلت تعاليم المذهب الوهابي (دعوة التوحيد السلفية) والجماعة الثانية الزعماء المعارضون لحكم دولة البوسعيد في عمان . وقد اعتنق مبادئ الدعوة الوهابية قبائل القواسم وبني النعيم وبني كعب وبني قتب وأن ظلت قبيلة بني ياس متمسكة بمذهبها المالكي . [٤]

وعندما وصل إبراهيم بن سليمان بن عفيصان لعام ١٢١٠هـ الموافق عام ١٧٩٥م رسول آل سعود إلى البريمي رحبت به قبائل بني النعيم حيث اعتبرت البريمي

قاعدة ينطلق منها نشاط رسول آل سعود لنشر نفوذ الدولة السعودية في بقية مشيخات الخليج حتى جزر البحرين ، وإن كان آل سعود قد فشلوا في إخضاع الكويت لسيادتهم بعد معارك بين الطرفين امتدت من عام ١٢٠٨ هـ الموافق لعام ١٧٩٣م إلى عام ١٢١٩هـ الموافق لعام ١٨٠٤م . (٥)

وبالنسبة لعلاقة آل سعود بآل سعيد في مسقط ، فقد اتسمت بالعداء حيث دارت معارك دامية بين سلطان مسقط ((سعيد بن سلطان)) وبين قائد آل سعود وممثليهم في البريمي مطلق المطيري استغرقت السنوات من ١٢٢٦ - ١٢٢٨هـ الموافق من ١٨١١ - ١٨١٣م . وإذا كان مطلق المطيري قد نجح في غزو سلطنة عمان واكتسح أقاليم مسقط وشرقي صحار وجعلان وضم إلى جانب الدولة السعودية قبيلتين من القبائل الكبرى في شرقي عمان هما القواسم وبنو علي بعد أن اعتنقت هاتان القبيلتان دعوة التوحيد السلفية ، فإن هذه الانتصارات انتهت دون عائد كبير ، إذ لقي مطلق المطيري مصرعه نهاية عام ١٢٢٩ هـ الموافق لعام ١٨١٣م . كما توفى أمير الدرعية سعود الكبير عام ١٢٣٠هـ الموافق لعام ١٨١٤م الذي كان زعيماً ذا كفاءات سياسية وإدارية كبيرة (٦) .

أما البحرين فقد أرسل الأمير سعود الكبير جيشاً بقيادة إبراهيم بن عفيصان لمساعدة آل خليفة في تخليص البحرين من صاحب مسقط ، وقد نجحت قوات إبراهيم ابن عفيصان في استردادها من سعيد بن سلطان صاحب مسقط عام ١٢٢٤هـ الموافق لعام ١٨٠٨م ، ولكن هذا القائد السعودي لم يسلم زمام أمورها إلى آل خليفة بل أعلن ضمها لسلطان آل سعود حتى عام ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨١٠م عندما ساعدت الحكومة الفارسية آل خليفة على استرداد الجزر من سيطرة آل سعود (٧) وعندئذ اضطر الأمير سعود إلى إطلاق سراح المعتقلين من آل خليفة في الدرعية وسمح لهم بالعودة إلى البحرين ، وبهذا نجد أن الدولة السعودية لم تتمكن من ضم البحرين إلى ممتلكاتها (٨) .

وهكذا كان التوسع السعودي في منطقة الاحساء ومشيخات الخليج العربي وجنوب العراق ومنطقة الحجاز هو السبب في التوجه العثماني نحو الجزيرة العربية بدءاً من سواحلها على البحر الأحمر حتى سواحلها على الخليج العربي . وكان الهدف العثماني هو التخلص من هذه القوة العربية التي كان المأمول أن تسيطر على المنطقة العربية وتستخلصها من الحكم العثماني المتهاوي .

ومن ثم جاء تكليف محمد علي باشا بالتعامل مع هذه القوة العربية الفتية ، ومن هنا وبهذا التكليف ، قام محمد علي وأبناؤه طوسون وإبراهيم بما طلب منهم واستخلصوا الحجاز من آل سعود ثم غزوا نجد ، ومن هناك جاء التوجه إلى منطقة الخليج العربي .

ومما يلاحظ أن التوجه الذي قاده محمد علي في الجزيرة العربية كان عثمانياً في التخطيط والتنفيذ والأهداف ، ولم يكن لمصر البلد أو الشعب صلة بهذا التوجه سوى خروج الحملات العسكرية - العثمانية الصرفة - من أرض مصر وموانيها باتجاه الحجاز ونجد .

وكانت قيادة تلك الحملات تركية بل كان الضباط والجنود الذين شاركوا في هذه الحملات أتراكاً من الأرناؤوط والانكشارية ممن تمردوا على محمد علي وأراد التخلص منهم [٩] .

ويؤيد ذلك تسمية هؤلاء الجند في كتب مؤرخي نجد باسم الترك والروم ولم يذكر اسم المصريين [١٠] . ويذكر محمد بن عمر الفاخري في كتابه الأخبار النجدية في تأريخه لسنوات ١٢٣١هـ الموافق لعام ١٨١٥م وما بعدها ما نصه :

وفيها سار عسكر الترك الذي في الحناكية فقدموا ((الرس)) و ((الخبر)) واستوطنوهما بموافقة أهلها وملكوا أطرافها وثبتت بقية القصيم ..... وفي عام ١٢٣٣هـ الموافق لعام ١٨١٧م فملكها - أي الدرعية - العسكر صبيحة اليوم السابع - من ذي القعدة - وبقي الطريف (مساكن آل سعود في الدرعية) فيه عبد الله

بن سعود فحاربوا يومين ثم صالحوا وسلم عبد الله إلى الباشا " إبراهيم بن محمد علي " وبقي عبد الله بعد ذلك يومين ثم سيره الباشا إلى مصر ثم إلى الروم وقتل هناك رحمه الله تعالى . (١١)

كما ذكر صاحب تحفة المستفيد أ ن الدولة التركية جمعت من آلات الحرب ومن المدافع والقنابل والذخائر والأموال عدداً كبيراً من الجنود إلى الديار المصرية وأمرت محمد علي باشا والي مصر بحرب الإمام سعود (١٢) .

ويذكر ابن بشر أنه في سنة ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨١١م أجمع أمراء الروم على المسير للحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب من السفن والمدافع والقنابل والبنادق وجميع آلاتها وما يحتاجون إليه من الأموال والذخائر من الطعام وغيره . فاجتمع العساكر من اسطنبول ونواحيها وما دونها إلى الشام ومصر والرئيس المقوم بهذا الأمر من جهة الروم صاحب مصر محمد علي باشا ، فسير العساكر المذكورة براً وبحراً (١٣) .

خطوات التوجه العثماني في الخليج :

على الرغم من سقوط الدرعية وانتهاء الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م ، فإن التواجد السعودي ما لبث أن استعاد شيئاً من مكانته في نجد ومنطقة الخليج العربي ، فقد قام الأمير تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الدخول إلى الدرعية عام ١٢٣٦هـ الموافق لعام ١٨٢٠ م ، ثم الاستيلاء على الرياض واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة ، واعترف بسيادة اسمية للدولة العثمانية ، وقد ساعده ذلك على السيطرة على نجد وامتداد نفوذه إلى الخليج (١٤)

وفي عام ١٢٤٤هـ الموافق لعام ١٨٢٨م وصل إلى الرياض وفد من أهل عمان يطلب مساعدة عسكرية سعودية مقيمة في عمان وتعيين وال وقاض ، وقد استجاب الأمير تركي لهذه المطالب فأرسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوة

كافية لينصب عبد الله بن سعود من ((القويعية)) والياً على الاقليم ، على أن يتخذ مركزه في البريمي وعين ذلك الشيخ محمد بن عبد العزيز العوسجي قاضياً، ولدى وصولهم الظاهرة استقبلتهم وفودها مع عناصر أخرى من ((البطينة)) الواقعة في المنطقة الساحلية من عمان بمظاهر الترحيب والتكريم . (١٥)

وعندما قتل الأمير تركي عام ١٢٥٠ هـ الموافق لعام ١٨٣٤م تولى زعامة آل سعود ابنه الأمير فيصل الذي ما لبث أن أثار شكوك محمد علي فبدأت الاشتباكات من جديد بين محمد علي وفيصل ، وقرر محمد علي إرسال حملة عسكرية عام ١٢٥٢هـ الموافق لعام ١٨٣٦م ، بقيادة إسماعيل أغا وأرسل معها الأمير خالد بن سعود الكبير شقيق الإمام عبد الله بن سعود .

كان الأمير خالد بن سعود ضمن آل سعود الذين رحلوا إلى مصر عقب تدمير الدرعية وأمه جارية حبشية فنشأ في كنف محمد علي وجاء يحكم نجد حكماً عصرياً فنفر منه النجديون (١٦) ، ولكنه حاز رضا الأتراك ووالي مصر فاندفع يحاول استعادة نفوذ الدولة السعودية في الخليج ، وإنها لحركة بارعة من محمد علي أن يشرك معه في مشروع الإغارة على نجد والامتداد إلى الخليج شخصاً يعتبره معظم النجديين الوارث الشرعي لأمجاد البيت الحاكم (١٧) .

ونتيجة لفشل حملة إسماعيل أغا ضد الأمير فيصل بن تركي أمر محمد علي واليه على الحجاز خورشيد باشا بأن يتوجه إلى نجد على رأس حملة عسكرية انتهت بقبول خورشيد باشا ما عرضه عليه فيصل بن تركي بأن يسلم نفسه بشرط أن يعفو القائد العثماني - خورشيد باشا - عن الأهالي ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم . وفي ٢٣ رمضان ١٢٥٤هـ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨٣٨م سلم فيصل ما كان معه من عتاد الحرب إلى أهل الخرج ، ثم سلم نفسه إلى خورشيد باشا الذي بر بوعده إذ عفا عن الأهالي كما أحسن معاملة الأمير فيصل فاستصحبه إلى مصر

وولّى مكانه خالد بن سعود الذي انفرد بزعامة آل سعود [١٨] .

وقد أقام خورشيد باشا احتفالاً كبيراً بتنصيب الأمير خالد بن سعود رئيساً للدولة السعودية ، وخلع عليه ثوب الشرف ، وأكد محمد علي للدول الأجنبية أن وجود قواته في الجزيرة العربية إنما هو بقصد ضمان حقوق الأمير خالد الشرعية في الحكم ، وهذا لا ينفي أن خورشيد باشا تولى بنفسه إدارة شئون نجد وما وصل إليه نفوذ محمد علي في ساحل الخليج [١٩] .

وعندما عادت الاحساء إلى سلطة الأمير خالد بن سعود ونفوذ محمد علي برحيل فيصل بن تركي إلى مصر ، أرسل خورشيد باشا إليها - إلى الاحساء - محمد أفندي لسن الضرائب وترتيب طرق الجباية التي لم تكن معروفة ولا مألوفة في تلك البلاد ، واستمرت الحال على ذلك إلى شهر شعبان عام ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م [٢٠] .

ورغم انتشار قوات خورشيد باشا في مواني القطيف وسيهات والعقير بساحل الخليج ، فقد ظل الأمير خالد رئيساً للدولة السعودية حتى قام عبد الله بن الثنيان وهو من أبناء عمومة الأمير خالد بن سعود بثورة ضد الأخير انتهت بالخلاص منه وقد وجد مساعدة من معظم أهالي نجد خاصة أنه أعلن بأن حكمه للبلاد سيكون نيابة عن الإمام فيصل بن تركي . ومن ثم انتهى الأمر بفرار خالد بن سعود من الرياض إلى الاحساء عام ١٢٥٧هـ الموافق لعام ١٨٤١م .

وقد ساعد على نجاح عبد الله بن الثنيان انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية بناء على اتفاقية لندن لعام ١٢٥٦هـ الموافق لعام ١٨٤٠م وفي ذلك يذكر صاحب الأخبار النجدية : وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف سارت العساكر المصرية من نجد من ((ثرمدا)) والقصيم وارتحلوا شيئاً فشيئاً حتى ارتحل كبيرهم خورشيد باشا في ربيع الأول وبقي الأمر لخالد بن سعود.[٢١] ثم نجاح الأمير فيصل بن تركي من العودة من مصر عام ١٢٥٩هـ الموافق لعام ١٨٤٣م

إلى الرياض واعترافه بالسيادة الاسمية للأتراك .

ويستدعي حديثنا عن التوجه العثماني من خلال محمد علي على نحو الخليج العربي أن نتناول هذا التوجه في أجزاء الخليج الطبيعية المعروفة لنقف على المدى الذي وصل إليه هذا التوجه ، وموقف عرب الخليج منه .

أولاً : الأحساء :

تطلع إبراهيم باشا بن محمد علي إلى إقليم الأحساء كمنفذ على الخليج العربي لإقليم نجد بعد أن سقطت الدرعية في يد قواته عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م ، ومن ثم اعتمد على عدو سابق لآل سعود هو ((رحمة بن جابر)) وهو من الجلاهمة العتوب الذي كان يمارس مغامراته البحرية من خور حسان في قطر، في الاستيلاء على القطيف ميناء آل سعود في الأحساء في نظير مساعدة إبراهيم باشا له لكي يعود إلى الاستقرار في الدمام وفي إعادة بناء حصنه القديم الذي كان آل سعود قد دمروه ولكن تطلعات إبراهيم باشا تقلصت في هذا الوقت المبكر بانسحاب قواته من الأحساء والتمركز في عنيزة بوسط شبه الجزيرة العربية ، مع الاعتماد على شيوخ بني خالد أعداء آل سعود للحصول على أموال الزكاة من قبائل الأحساء .

وفي عام ١٢٥١هـ الموافق لعام ١٨٣٥م عام التوجه العثماني من خلال محمد علي وأبناؤه إلى الأحساء ، وتمثلت هذه العودة في وصول ((عبد الله بن مشاري)) التاجر البحريني إلى المنطقة حاملاً رسائل من أحمد باشا حاكم الحجاز من قبل محمد علي إلى كل من سلطان عمان وشيخ البحرين وأمير الوهابيين (السعوديين).[٢٢] من أجل مساعدته باسم محمد علي على جمع الزكاة ، ورغم أن هذا المبعوث لقي الترحيب والمساعدة من سلطان عمان فإنه ما لبث أن اختفى من القطيف أمام تقدم قوات فيصل بن تركي أمير آل سعود الجديد التي وصلت الإقليم.

ولكن خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد قرر، بعد أن استقر له الوضع في الخارج واتخذ من ((ثرمداء)) قاعدة له ، أن يبدأ في تحقيق سياسة محمد علي بالسيطرة على مناطق شرقي شبه الجزيرة العربية بدءاً بالأحساء بما في ذلك الكويت والعراق كي تلتحم هذه المناطق ببلاد الشام لتصبح وحدة واحدة تحت سيطرة محمد علي.(٢٣) وقد تمكن خورشيد باشا من تنظيم أمور الأحساء الإدارية تحت حماية جانب من قواته عسكرت في كل من الهفوف والقطيف وسيهات والعقير وهي أهم مدن وموانئ الأحساء ، وتم تعيين محمد أفندي رفعت حاكماً على إقليم الأحساء واتخذ من الهفوف مقراً ومركزاً يباشر منه حكمه [٢٤]. ومن ذلك أن خورشيد أعطى الأمان لعمر بن عفيصان ورؤساء الأحساء وأمرهم بالقدوم إليه ويحفظون بيت المال ، فلما ركب أهل الأحساء إلى خورشيد باشا أمنهم وأذن لهم بالرجوع إلى بلادهم وذلك في شهر شوال ١٢٥٤هـ الموافق لعام ١٨٣٨م وبعد رحيل أهل الأحساء عين خورشيد باشا أحمد بن محمد السديري أميراً على الأحساء ومعه من العسكر مائة وثلاثون خيالاً رئيسهم رجل من المغاربة يقال له ((أبو خزام)) ثم أرسل خورشيد بعد ذلك بحوالي شهر إلى الأحساء خمسين رجلاً من العسكر والعرب رئيسهم رجل من المغاربة اسمه ((محمد الفاخري)) [٢٥] .

وأما محمد أفندي رفعت فقد كان مبعوث خورشيد باشا إلى البحرين وفارس ، حيث حمل رسائل إلى آل خليفة بالبحرين ، ثم انتقل إلى فارس لشراء مواد غذائية (بر وشعير وغير ذلك) إلى القوات المتمركزة بالأحساء ، وعند عودته من البحرين - بعد اتفاق مع آل خليفة - إلى الأحساء عينه خورشيد أميراً على الأحساء بدلاً من أحمد بن محمد السديري الذي أوكل إليه إدارة بيت المال ويعلق عثمان بن بشر على ذلك بقوله ((هذه عادة ولاية الترك : أولها مطر وآخرها برد وصواعق)) [٢٦] .

ولكن محمد أفندي رفعت أساء استخدام سلطاته في الأحساء حتى دبروا له مقتلة في غرة شعبان ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م ، ولما بلغ الخبر إلى خورشيد باشا جزع عليه جزعاً شديداً وأمر أفندي عنده اسمه محمد شرمي وجهز معه عسكراً وأرسل بدله ، ثم جهز بعدهم عسكراً آخر فجلسوا بعسكرهم في الأحساء [٢٧] .

وقد ظلت الأحساء تحت سيطرة قوات محمد علي بفضل التنظيم الذي وضعه محمد أفندي رفعت للإقليم وخاصة القطيف لقربها من جزر البحرين ولصلاحية مينائها للملاحة ، ومن ثم بدأ محمد رفعت وبأوامر من خورشيد باشا يخطط لتنفيذ المرحلة الثانية من سياسته الرامية للتوجه إلى البحرين . ولم يوقف هذا التخطيط سوى انسحاب قوات محمد علي لا من الأحساء فقط بل ومن كل شبه الجزيرة العربية نتيجة لاتفاقية لندن لعام ١٨٤٩م .

وعند انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية من الأحساء ونجد خاصة دعمت الأمير السعودي خالد بن سعود - الموالي لمحمد علي - ببعض الضباط الذين أسهموا في تدريب قوة عسكرية منظمة بلغت ٨٠٠ جندي تحت إمرة خالد [٢٨] ، ولكن هذا الأمير لم يستطع الصمود طويلاً بعد انسحاب قوات محمد علي حيث فر من الرياض أمام تقدم عبد الله بن ثنيان .

ثانياً : البحرين :

ترتبط البحرين بإقليم الأحساء ارتباطاً وثيقاً ، ومن ثم لا نعجب أن يكون من مخطط خورشيد باشا مد نفوذ محمد علي باشا إلى البحرين عبر الأحساء وكان آل خليفة زعماء جزر البحرين ، وكان على رأسهم في سنوات تخطيط خورشيد وخاصة بين سنتي ١٢٥٤ - ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٤٠ م الشيخ عبد الله آل خليفة .

جاءت علاقات خورشيد باشا مع الشيخ عبد الله آل خليفة عن طريق حاكم الأحساء ووكيل الباشا هناك محمد أفندي رفعت ، والذي زار جزر البحرين

مبعوثاً من خورشيد باشا في غرة ذي الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨م ، وقدم تقريراً حمل تاريخ ٨ ذي الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨م أوضح فيه أن البحرين ذات أهمية قصوى لاستقرار الأحوال في الأحساء والقطيف ، فميناؤها هو الميناء الوحيد ذو الأهمية في المنطقة ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء للأحساء والقطيف وسبباً في رواج المنطقة اقتصادياً.[٢٩]

وعندما رأى الشيخ عبد الله نجاح قوات محمد علي في شبه الجزيرة العربية وتوجه خورشيد باشا إلى جعل البحرين منطقة نفوذ لدولة محمد علي ، ومحاولة سلطان عمان ضم البحرين إلى سلطنته بطريقة مباشرة أو لحساب محمد علي كأسلوب غير مباشر ، لجأ الشيخ عبد الله إلى الانجليز في الهند ومقيمهم العام في منطقة الخليج لحمايته من هذه الأطماع .

ولما لم يجد الشيخ عبد الله من حكومة الهند البريطانية وممثلها المقيم العام في الخليج كابتن هينيل أية استجابة عملية حتى شهر المحرم ١٢٥٥هـ الموافق مارس ١٨٣٩م فيما عدا ما يصرح به الانجليز عن عدم رضاهم عن تطلعات محمد علي في الخليج ، اتجه الشيخ عبد الله إلى طلب الحماية من حكومة فارس.[٣٠]

ولما كان للفرس مطامعهم الخاصة في البحرين ومطالبهم المالية نظير وجود مبعوث فارس هناك ، ولما كان الشيخ عبد الله آل خليفة يعاني مصاعب داخلية فإنه استقبل محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا في عام ١٢٥٥هـ الموافق مايو ١٨٣٩م مزوداً بتعليمات من خورشيد وواضعاً في الاعتبار أهمية البحرين لاستقرار منطقة الأحساء بل ونجد أيضاً إلى جانب رواج الناحية الاقتصادية في هذه المناطق وواضعاً في الاعتبار أيضاً مطامع الانجليز ومواقعهم المعادية لمشروعات محمد علي وكذلك مطامع حكام فارس وسلطنة عمان .

وبعد مفاوضات بين محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا والشيخ عبد الله حول وضع البحرين وعلاقاتها في المستقبل مع دولة محمد علي ، تم الاتفاق بين

الطرفين ينص على تعهد حكومة محمد علي بتأييد ومساندة الشيخ عبد آل خليفة في حكم جزر البحرين مقابل أن يقدم زكاة تقدّر بألفي ((روبية)) سنوياً وبعض السفن لمساعدة قوات محمد علي العسكرية على الانتقال إلى ساحل عمان إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، واشترط الشيخ عبد الله أن تبقى السلطة الداخلية في الجزر كلها بين يديه وألا يرسل خورشيد باشا ممثلاً له يقيم في البحرين. [٣١]

وقد كتب الشيخ عبد الله آل خليفة رسالة إلى خورشيد باشا عقب توقيعه للاتفاقية مع محمد أفندي رفعت بتاريخ ٢٣ صفر عام ١٢٥٥هـ الموافق ٨ مايو عام ١٨٣٩م يؤكد فيها التزامه بما جاء في نصوصها بأن ((نعادي من عاداكم ونوالي من والاكم وأنتم كذلك ، ونؤدي لجنابكم الزكاة .... وصار حالنا معكم حال واحد. [٣٢]

ومما يلاحظ أن الاتفاقية بنصها على عدم إرسال مبعوث يمثل محمد علي مقيم في البحرين وترك أمورها الداخلية بيد شيخها ، تنفي الاتهامات البريطانية باتجاه تطلعات محمد علي إلى استعمار البحرين وإرسال قوات عسكرية لاحتلال تلك الجزر لحساب محمد علي ، وهو أمر كان بعيد الاحتمال ، لأن أي هجوم على الجزر في رأي لوريمر يعتبر عملاً خطيراً في جرأته ، وكان احتمال أن تقوم به قوات محمد علي احتمالاً ضئيلاً [٣٣] .

وقد تعرض اتفاق الشيخ عبد الله آل خليفة مع خورشيد باشا لانتقادات عنيفة من جانب حكومة الهند البريطانية التي لم تسمح بنجاح أية محاولة عثمانية أو فارسية تهدف إلى فرض السيادة على البحرين محتجة في ذلك بمعاهدة عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م التي جعلت البحرين إمارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات [٣٤] .

والتي ما إن أعلن عن الاتفاق حتى وجهت الإنذارات ومارست الضغوط ضد الشيخ عبد الله الذي حاول تبرير موقفه بأنه لم يتلق تأكيدات بريطانية عندما طلبها،

وبأن هذا الاتفاق مقرر قبل التوقيع عليه بزمن طويل ، وبأن هذا الاتفاق ليس موجهاً ضد الحكومة أو المصالح البريطانية .

وقد أوصل الكابتن ((هينيل)) المقيم العام البريطاني في الخليج إلى البحرين في ١٥ جمادى آخر ١٢٥٥هـ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٣٩م وسلم للشيخ عبد الله آل خليفة احتجاجاً على هذه الاتفاقية ، ولم يقبل أبداً تبريرات الشيخ عبد الله ، وكان قد سبق للكابتن هينيل تقديم إنذار إلى خورشيد باشا في أول أبريل يحذره من الامتداد عسكرياً إلى جزر البحرين . ولما لم ينجح هينيل في إقناع الشيخ عبد الله بنقض اتفاقه مع خورشيد باشا ، وكما لم ينجح كذلك احتجاجه الذي قدمه لخورشيد باشا في فض عرى هذا الاتفاق ، وعندما ظل الشيخ عبد الله صامداً أمام تهديدات الانجليز إلى أن انسحبت قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية نتيجة لمعاهدة لندن لعام ١٨٤٠م ففقد بذلك سنداً في مقاومة تهديدات ومؤامرات الانجليز [٣٥] .

وعندما حدث كل ذلك اجتمعت اللجنة السرية لمديري شركة الهند الشرقية البريطانية وبحثت إمكانية استبدال الشيخ عبد الله آل خليفة بشيخ آخر أكثر استعداداً للتفاهم مع الانجليز [٣٦] . ومن ثم لا نعجب أن نسمع عن اضطرابات وفتن في البحرين منذ عام ١٨٤٠م لا تهدأ إلا بعزل الشيخ عبد الله من حكم البحرين عام ١٢٥٩هـ الموافق لعام ١٨٤٣م ، أي بعد أن حققت المؤامرات البريطانية أهدافها .

وفي ذلك يقول عثمان بن بشر : وفي جمادى الأولى ١٢٥٨هـ الموافق ١٨٤٢م وقع بين عبد الله بن أحمد بن خليفة صاحب البحرين وابن أخيه اختلاف ، ثم وقع بينهما الحرب العظيم من قتل الرجال ونهب الأموال وسبي النساء والأطفال ، واستلحق عبد الله عربان آل مرة ونهبوا البحرين ، ثم هرب محمد بن خليفة من البحرين لما أجهضه الحرب وقتل كثير من رجاله [٣٧] .

ثالثاً : الكويت والعراق :

جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي إلى الكويت في إطار نفس التوجه إلى بقية مشيخات الخليج العربي وخاصة البحرين ، حيث سعى خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد أن يرتبط مع الشيخ جابر آل صباح حاكم الكويت باتفاق يؤمن لقوات خورشيد الحصول على المؤن والعتاد باستخدام سفن الكويت ، وفي نفس الوقت التطلع من هناك إلى جنوب العراق .

وعلى هذا فقد سجلت المصادر المعاصرة أن خورشيد بعث وكيل له يدعى محمد أفندي إلى الشيخ جابر آل صباح توصل إلى اتفاق شبيه بالاتفاق الذي عقد بين محمد رفعت والشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين ، يقضي هذا الاتفاق بدفع زكاة لخورشيد باشا وتقديم التسهيلات في مياه وموانئ الكويت لقوات خورشيد وخاصة استخدام السفن الكويتية لنقل الأسلحة إلى ميناء القطيف بالأحساء حيث تتواجد قوات خورشيد ، وهذا في نظير عدم تدخل خورشيد باشا في الأمور الداخلية بالكويت وعدم وجود مبعوث لخورشيد مقيم بالكويت .

ونتيجة لهذه الاتفاقية استطاع محمد أفندي أثناء وجوده بالكويت أن يرسل من هناك عدة سفن محملة بالأغذية وخاصة الشعير ، كما استطاع أن يجمع معلومات عن الكويت والجنوب العراقي المطل على الخليج ، كما استطاع هذا المبعوث أن يحصل على تقدير حاكم الكويت حتى أنه كان يأخذ مكان الصدارة في مجالس الشيخ جابر آل صباح . كما استخدمت قوات خورشيد المتواجدة بالأحساء سفن الأسطول الكويتي الكبير والمجهز تجهيزاً جيداً في نقل شحنة من الأسلحة والأعتدة العسكرية من ميناء الحديدة باليمن إلى ميناء القطيف بالأحساء في نوفمبر ١٨٣٩م [٣٨] .

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا التقارب بين الشيخ جابر آل صباح ورجال محمد علي باشا على العلاقة بين الكويت وحكومة الهند البريطانية ، فيروي لنا لوريمر

أن حاكم الكويت الشيخ جابر استقبل مبعوثاً بريطانياً في نوفمبر ١٨٣٩م بطريقة غير لائقة وغير متوقعة ، ويبرر لوريمر تصرف حاكم الكويت بأنه حدث بسبب فزع الشيخ جابر من نجاح قوات محمد علي في الجزيرة العربية ، وقد تناسى لوريمر أن محمد علي كان آنذاك يعيش أزمة دولية ولم يكن في مخططاته القيام بعمليات عسكرية ضد حاكم الكويت أو أية مشيخة في ساحل الخليج (٣٩) .

ورغم استياء حكومة الهند البريطانية من استقبال الشيخ جابر آل صباح لمبعوث خورشيد باشا المدعو محمد أفندي منذ عام ١٨٣٨م ، وأنه لم يستقبل الملازم ((إدموندز)) مساعد المقيم العام البريطاني في الخليج الاستقبال الودي المعهود عندما وصل إلى الكويت في نوفمبر عام ١٨٣٩م كما ذكرنا ، فإن البريطانيين لم يوجهوا إنذاراً لشيخ الكويت على غرار الإنذارات البريطانية لحاكم الشارقة وشيخ البحرين ، بل التمسوا له العذر بأن مسلكه مع ((إدموندز)) لم يكن صادراً عن نوايا سيئة نحو البريطانيين لكنه كان يهدف إلى خداع مبعوث خورشيد باشا عن حقيقة العلاقة القائمة بينه وبين السلطات البريطانية. (٤٠)

وقد ظل التعاون بين الشيخ جابر آل صباح ومبعوث خورشيد باشا رغم معارضة السلطات البريطانية في الخليج ، بل تروي الوثائق أن الشيخ جابر قدم التسهيلات اللازمة للقوات العثمانية التي هربت من البصرة تحت قيادة (محمود أغا المورة) وأرادت الالتحاق بقوات خورشيد باشا في نجد ، حيث أركب هذه القوات سفينة وصلت بها الأحساء ورفض طلب سلطات البصرة في إلقاء القبض على هؤلاء الهاربين وإعادتهم إليها . (٤١)

وبالنسبة للعراق فقد جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي مختلفاً حيث جاء اتجاه أنظار محمد علي إلى العراق عندما حدث الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية ، ومن ثم أراد محمد علي أن يستكمل سيطرته على منطقة الهلال الخصيب بضم العراق بعد أن نجح في ضم كل بلاد الشام ، وبعد أن سيطرت

قواته على معظم شبه الجزيرة العربية وامتد نفوذه إلى بعض مشيخات الخليج العربي .

ولذلك عندما كانت قوات محمد علي قد استقرت في بلاد الشام سادت العراق بعض القلاقل والاضطرابات ، وانتهز محمد علي فرصة هذه الاضطرابات ومارس ضغوطاً من سوريا للوصول إلى العراق بأن أخذ يساند القبائل العربية الثائرة في جنوب العراق ضد الباشوات العثمانيين من أجل ضم العراق إلى الكتلة العربية التي حرص على إقامتها في المنطقة [٤٢] .

ورغم اهتمام خورشيد باشا بضرورة غزو جنوب العراق والاستيلاء على البصرة لتأمين قواته في الأحساء ونفوذ محمد علي في البحرين والكويت ، والحصول على المؤن والإمدادات اللازمة لقواته ، فإن مناداته ليأذن له محمد علي في التقدم بقواته لغزو البصرة جاءت في وقت كان الموقف البريطاني بصفة خاصة والدولي بصفة عامة معادياً لمشروعات محمد علي التوسعية ، وهذا يفسره اهتمام وزارة الخارجية البريطانية التي كان على رأسها اللورد ((بلمرستون)) الذي ظهرت معارضته لمشروعات محمد علي في الخليج العربي وخاصة في الفترة من عام ١٨٣٨م إلى عام ١٨٤٠ م [٤٣] .

رابعا: قطر :

تقع شبه جزيرة قطر في وسط الخليج العربي ، وتسكنها عدة قبائل منها ، بني النعيم وقبائل البوكواره ، وكانت قبائل بني النعيم تعارض امتداد نفوذ محمد علي وجاءت هذه المعارضة لأن رجال محمد علي اعتمدوا على سعد بن مطلق المطيري في امتداد نفوذ محمد علي ، وسعد بن مطلق عدو لقبائل بني النعيم ومقرهم الرئيسي واحة البريمي .

وعندما رفضت بعض عشائر بني النعيم دفع الزكاة التي طلبها منهم الشيخ

عبد الله آل خليفة لحساب قوات محمد علي في الخليج في أوائل عام ١٨٤٠ م أرسل محمد أفندي رفعت حاكم الأحساء بعض القوات النظامية يعاونها بدو (المخضبة) من بني هاجر لإخضاع قبائل بني النعيم ، ولكن مصرع محمد أفندي رفعت في الأحساء بالقرب من الهفوف قد أوقف هذه الإجراءات [٤٤] .

وبالنسبة لقبائل ((البوكواره)) فقد كانوا يقيمون بمدينة ((الفويرط)) كغيرهم من القبائل التي تسكن شبه الجزيرة القطرية كانوا يدفعون الزكاة للشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين لحساب قوات محمد علي في المنطقة ، ولكن عندما اشتد جباة شيخ البحرين عليهم في جمع الزكاة تحولت قبائل (البوكواره) للبحث عن حماية لهم من هذا العسف المحسوب على محمد علي ، وكان طبيعيا أن يتقدم الانجليز بهذه الحماية [٤٥] .

وهكذا لم تدخل قوات خورشيد باشا الأرض القطرية ، كما لم يكن هناك مبعوث خاص من خورشيد باشا إلى قطر نظراً لأنه لم تكن قد تكونت بها وحدة وطنية تحت زعامة واحدة ، حيث كانت قطر تعيش في ظل انقسامات قبلية ، تخضع بعض القبائل القطرية للبحرين ، والبعض الآخر يخضع لآل سعود . وغير هؤلاء وهؤلاء قبائل لا تدين بالولاء لأحد [٤٦] .

خامساً : سلطنة عمان والساحل العماني :

حكم محمد علي مصر اعتباراً من شهر مايو عام ١٨٠٥م عندما صدر له أول فرمان سلطاني ، ثم صدر له في عام ١٨٠٦م ما عرف بفرمان التثبيت من سلطان الدولة العثمانية ، وفي نفس هذا العام الأخير تولى سعيد بن سلطان البوسعيدي حكم سلطنة مسقط ، وفي الوقت الذي اتجه فيه محمد علي بأنظاره إلى مشيخات الخليج العربي أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر كان سعيد بن سلطان يتجه لبناء ملك له ولأسرته في ساحل الزنج (زنجبار) بشرق إفريقيا ....

ورغم أن المراسلات بين الرجلين محمد علي وسعيد بن سلطان كانت قليلة ، ولم يحدث لقاء بينهما ، فإنه كان هناك تعاون محدود في عدة مجالات كاستعانة سعيد ابن سلطان ببعض الخبرات العسكرية من مصر للخدمة في مسقط وعدم اصطدام مطامع الطرفين بالنسبة للبحرين موضع اهتمام كل منهما ، ومهادنة سعيد بن سلطان لآل سعود واستخدام محمد علي لبعض أمراء آل سعود وبعض رجالهم لتحقيق مطامحه (٤٧) .

وقد اعتمد خورشيد باشا في تحقيق مطامع سيده محمد علي على رجل السعوديين هناك سعد بن مطلق المطيري والذي يعمل باسم خالد بن سعود أمير الدولة السعودية المشمولة بحماية ونفوذ باشا مصر . وقد حمل سعد بن مطلق رسائل إلى زعماء ساحل عمان وإلى سلطان مسقط بهدف تقديم الزكاة والاعتراف بنفوذ آل سعود بالتعاون مع خورشيد باشا .

ولكن سعيد بن سلطان رغم أنه أظهر رغبة في السيطرة على البحرين ومال إلى تنسيق سياسته مع سياسة والي مصر محمد علي في الجزيرة العربية إلا أنه تراجع عن ذلك بسبب موقف العداء الذي أظهرته السلطات البريطانية نحو تواجد قوات محمد علي في منطقة الخليج العربي وعندما أيقن من موقف بريطانيا المعادي لنفوذ محمد علي في شرقي الجزيرة العربية اتخذ موقفها (٤٨) .

وبالنسبة للساحل العماني فقد سعى سعد بن مطلق المطيري من مقر إقامته بواحة البريمي أن يمد نفوذ خالد بن سعود المشمول بحماية قوات محمد علي إلى مناطق الساحل العماني خاصة أبو ظبي والشارقة ورأس الخيمة ، وقد رحبت مشيخات القواسم في الشارقة ورأس الخيمة بسعد بن مطلق كنائب عن والي مصر لأنها كانت تميل منذ عهد الدولة السعودية الأولى إلى الدعوة الوهابية (٤٩) .

وتبعاً لذلك فقد سمح الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة لسعد بن مطلق المطيري أن يقيم في الشارقة بعد وصوله إليها في مارس عام ١٨٣٩م ، وقد

وضع الشيخ سلطان تحت إمرته بيتاً حصيناً وقلعة ليقيم فيها [50] . ومن الشارقة أخذ سعد بن مطلق المطيري يباشر نشاطه لخدمة أهداف محمد علي في منطقة الخليج ، فاستطاع عقد تحالف مع الشيخ خليفة حاكم أبو ظبي الذي رحب بالتعاون مع رجال محمد علي رغم معارضته السابقة لتقدم السعوديين إلى البريمي .

ومن الشارقة أيضاً حاول سعد بن مطلق المطيري استخدام وساطة حاكم الشارقة الشيخ سلطان لفتح صفحة جديدة مع قبائل ((بني النعيم)) في البريمي لينضموا إلى منطقة نفوذ محمد علي ، ولكن بسبب وجود خلافات شخصية بين بني النعيم وبين سعد بن مطلق الذي اتهمهم بقتل والده - مطلق المطيري - لم تنجح الوساطة واستند بنو النعيم على تأييد الانجليز في وقوفهم ضد نفوذ محمد علي الذي يسعى نشره عدوهم سعد بن مطلق [51] .

وكان لأسلوب سعد بن مطلق في إنذار القبائل التي ترفض الانصياع لأوامره نتائج واضحة على فشل مهمته في منطقة الساحل العماني ، ذلك أن الانجليز تدخلوا لحماية قبائل بني النعيم وغيرها لحمايتها من تهديدات سعد بن مطلق ، فقد قام ((ميتلاند)) قائد عام البحرية البريطانية في الخليج بزيارة للساحل العماني المتصالح في فبراير عام ١٨٣٩م ، وحصل على تعهدات من شيوخ قبائل الساحل بعدم إقامة أية علاقات ودية مع مبعوث قوات محمد علي ((سعد بن مطلق)) .

كما أن المقيم العام البريطاني في الخليج العربي الكابتن ((هينيل)) زار ساحل عمان في يوليو عام ١٨٣٩م ، وأدرك أن شيوخ الشارقة وأبو ظبي يميلون إلى التعاون مع قوات محمد علي ، وتحت التهديد والوعيد حصل ((هينيل)) على تعهدات خطية من شيوخ أبو ظبي ودبي وأم القوين والشارقة وحاكمها سلطان بن صقر القاسمي الذي كان أكبر ميلاً للتعاون مع مصر محمد علي ، بتأييد السياسة البريطانية الرامية إلى الانفراد بالنفوذ في الخليج العربي ومحاربة التوجه

العثماني باسم محمد علي .

ونظراً لتخوف ((هينيل)) من سلطان بن صقر القاسمي من أن ينقلب لمناصرة نفوذ محمد علي ، فقد كبله بشروط أخرى أكثر صرامة ، كعدم إجراء أية علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد علي باشا والي مصر أو أنصاره أو أية قوة أجنبية أخرى قبل موافقة الحكومة البريطانية [٥٢] . كما أظهر استعداد انجلترا لحماية هذه المشيخة وغيرها وإمدادها بالأسلحة والذخائر بشرط استخدامها ضد تقدم قوات محمد علي ، وكل ذلك دليل على خشية الانجليز من الخطر المصري المزعوم في الجزيرة العربية [٥٣] .

وقد نجح الكابتن ((هينيل)) في ذي القعدة ١٢٥٥هـ الموافق يناير ١٨٤٠م في إقناع شيوخ الظواهر بالتجمع في تحالف دفاعي مع الشوامس وآل نعيم وجميع القوى المحلية في المنطقة ، كما نجح في تصفية الخلافات فيما بينهما لتتفرغ للوقوف ضد سعد بن مطلق وسادته من آل سعود وباشا مصر ، وعندئذ أدرك سعد بن مطلق المطيري أنه لا قبل له على مواجهة الموقف ، فأرسل إلى خورشيد يخطره بحقيقة الموقف ، ويخطره بانسحابه إلى الأحساء ولم ينتظر وصول الإمدادات التي طلبها والتي كان خورشيد قد أعدها فعلاً لإرسالها لتحقيق أهدافه في ساحل عمان [٥٤] .

وهكذا بدأ التوجه العثماني من خلال محمد علي وأسرته في الجزيرة العربية بناء على طلب الدولة العثمانية خلال عشرين سنة تقريباً من ١٢٢٦ - ١٢٤٧هـ الموافق لأعوام ١٨١١م - ١٨٣١م ، عندما بدأ الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية على أرض الشام ، ومن ثم بدأ توجه محمد علي في الجزيرة العربية وفي ساحل الخليج العربي يأخذ اتجاهاً شخصياً لتحقيق أهداف محمد علي ولحساب ملكه هو لا ملك الدولة العثمانية والسلطان العثماني .

وكان يمكن أن يقدر لتوجه محمد علي في الجزيرة العربية والخليج العربي أن يستمر لولا موقف إنجلترا بصفة خاصة التي سعت حتى أنهت على كثير من

مناطق سيطرته فانسحبت قواته من الشام ومن كل شبه الجزيرة العربية بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠م .

هوامش البحث :

١) مديحة درويش ، تاريخ الدولة السعودية ص ٣٥

٢) د. رأفت الشيخ، العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص٧٧

٣) حسين بن غنام ، تاريخ نجد ص ١٨٠

٤) د. محمد مرسى عبد الله ، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ، ص ١٤٢

٥)أرنولد ويلسون تعريب عبد القادر يوسف ، الخليج العربي ص ٣٣١

٦) لوريمر ، دليل الخليج القسم التاريخي ، جـ ١ ص ٣٠٤

٧)د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، الدولة السعودية الأولى ص ٨٨

٨) د. مديحة دويش ، المرجع السابق ص ٣٩

٩)خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز ، جـ ١ ، ص٣٩

١٠) عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، ص ١١٧

١١) محمد بن عمر الفاخري ، دراسة وتحقيق د. عبد الله بن يوسف الشبل : الأخبار النجدية ص ١٤٥ - ١٤٩

١٢) محمد بن عبد الله الأنصاري ، تحفة المستفيد ، ص ١٣٨

١٣) عثمان بن بشر ، المرجع السابق ، الطبعة الرابعة ، ص ٣٢١ - ٣٢٢

١٤) د. مديحة دويش ، المرجع السابق ، ٥٨ص

١٥) فلبيي ، تعريب الديراوي ، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ، ١٨ص ١

١٦) أمين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ص ٩٤

١٧) فلبيي ، المرجع السابق ، ص ١٩٩

١٨) أمين الريحاني ، المرجع السابق ، ص ٩٥

١٩) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٦٣٨

٢٠)محمد بن عبد الله الأنصاري ، المرجع السابق ، ص ١٥٤

٢١) محمد بن عمد الفاخري ، المرجع السابق ، ص ١٧٥

٢٢) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٤٣٥

٢٣) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، محمد علي وشبه الجزيرة العربي ، جـ ٢ ، ص ٣١٧

٢٤) د. رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٨٩

٢٥) عثمان بن بشر ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ - ١٧٩

٢٦) نفس المرجع والصفحات

٢٧) نفس المرجع والصفحات

٢٨) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٤٣٨

٢٩) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ص ٣٢٢

٣٠) د. رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٨٦

٣١) د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٣٦

٣٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٣٢٨

٣٣) لوريمر ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٠٨

٣٤) جون ب. كيلي ، بريطانيا والخليج ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، جـ ١ ، ص٨٨

٣٥) أرنولد ويلسون ، المرجع السابق ، ص ٣٩٦

٣٦) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣١٠

٣٧) عثمان بن بشر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢

٣٨) د. رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٩٠

٣٩) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٥١٤

٤٠) نفس المرجع ، ص ١٥١٤

٤١) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٣٧٥

٤٢) د. رأفت الشيخ ، في تاريخ العرب الحديث ، ص ٧٠

43) Haskins, Background of British Position in Arabia, vol. 1 p. 138 - 143.

٤٤) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٢٠٧

٤٥) د. رأفت الشيخ ، العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ٨٤ - ٨٥

٤٦) د. صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص ١٥٥

٤٧) د. رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٨٣

٤٨) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٧١٢

٤٩)د. صلاح العقاد ، المرجع السابق ص ١٣٨

٥٠) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ١٠٦٧

٥١) د. رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٨٤

٥٢) لوريمر ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٦٩

٥٣) د. أحمد أبو حاكمة ، تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة، ص١٩٠

٥٤) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٣٦١

البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي

حسن صالح شهاب

حينما استولت الدولة العثمانية على مصر في مطلع عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) لم تكن لديها قوة بحرية إلا في البحر الأبيض المتوسط، أما في البحر الأحمر فبقيت حتى عام ٩٣٢هـ (١٥٢٦) تعتمد على الدفاع البحري على ما آل إليها من سفن المماليك التي أذعنت لها بعد سقوط مصر . وهي سفن قليلة بقيت من حملة المماليك البحرية الثانية التي تم تجهيزها في سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) ، في عهد السلطان (الغوري) وأرسلت إلى اليمن تحت قيادة الأمير حسين الكردي ، وكان عدد سفنها الحربية لا يزيد على عشرين سفينة [1] .

ودولة المماليك لم تكن من الدول البحرية . فحتى بعد أن أصبحت السفن البرتغالية تقوم بأعمال القرصنة في البحر العربي ، محاولة قطع طرق السفن التجارية العربية بين الهند وشرقي أفريقيا من جهة ، والبحر الأحمر والخليج العربي من جهة أخرى . وبعد ظهور الاضطراب في دخل مصر من العائدات الجمركية نتيجة لتناقص حركة التجار بين (جده) و(السويس) ، بسبب تحول نقل جزء كبير من التجارة الشرقية إلى أوربا عن طريق رأس (الرجاء الصالح)، وأعمال القرصنة البرتغالية في البحر العربي . وبعد وصول طلبات المساعدة على حرب البرتغاليين إلى السلطان الغوري من كل من سلطان (كجرات) ، بالطرف الشمالي من ساحل الهند الغربي ، ومن السلطان عامر بن عبد الوهاب ، سلطان

دولة بني ظاهر في اليمن - حتى بعد ذلك كله لم يستطع السلطان (الغوري) أن يجهز من السفن الحربية في الحملة الأولى سوى ثلاث عشرة سفينة ، بعث بها إلى الهند سنة ٩٢١هـ (١٥٠٧م) . تحت قيادة الأمير حسين الكردي . وحتى بحارة هذه الحملة الصغيرة كان أغلبهم من المغاربة وغيرهم من بحارة الأبيض المتوسط [٢] ، مع ربابنة لديهم خبرة بالملاحة في البحر الأحمر ((أوسخ بحور الدنيا)) [٣] .

لكن دولة المماليك ، في الحقيقة كانت في ذلك الوقت دولة ضعيفة شغلتها حروب الشام والاضطرابات الداخلية عن تركيز اهتمامها وجهودها في التصدي لقوات الغزو البرتغالي في المياه الهندية والعربية . بل أن (الغوري) ما كان ليستطيع تجهيز الحملة الثانية في التاريخ المذكور ، لو لم يلجأ إلى السلطان العثماني (بايزيد) [٤] ويطلب مساعدته على تجهيزها بعد أن استولى قراصنة جزيرة (رودس) في بحر (ايجه) [٥] على السفن التي كانت محملة بالأخشاب التي ستبنى بها سفن الحملة ، فأمده (بايزيد) بالأخشاب ، وبألفين من البحارة الترك تحت إمرة (سليمان الريس) أو (سلمان الرومي) [٦] ، وثلاثة مائة مدفع ، وأربعين قنطاراً من البارود وألفي مجداف من الخشب وثلاثين ألف سهم ، وبالآلات والمعدات التي تحتاج إليها السفن [٧] . وبهذه المساهمة التركية الكبيرة في تجهيز هذه الحملة ، يصح اعتبارها حملة مملوكية - تركية مشتركة ، وأن الحملة الأولى هي وحدها الحملة المملوكية الخالصة .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت ، آنذاك ، من الدول البحرية الكبرى إلا أنها ظلت بعد سيطرتها على مصر مشغولة بحروبها في أوربا وتقوية بحريتها في البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك بحروبها مع الدولة الصفوية ولم تتمكن من تجهيز حملة بحرية كبيرة لمحاربة البرتغاليين في المياه الهندية إلا في عام ١٥٣٨م بعد أكثر من عشرين عاماً من استيلائها على مصر . وكانت حملة ضخمة بلغ عدد سفنها ثمانين سفينة [٨] . وفي رواية أخرى تسعين [٩] من مختلف الأنواع

والأحجام، تقل عشرين ألف جندي [١٠] . غادرت الحملة ميناء السويس في ٢٢ يونية ١٥٣٨م ووصلت إلى عدن في الخامس من أغسطس من نفس السنة ، وأقلعت من (عدن) في التاسع عشر من أغسطس إلى (كجرات) . وفي الثاني من شهر سبتمبر رست على بعد بضع أميال من الساحل الذي احتله البرتغال من الجزيرة (ديو) [١١] . وفي اليوم الخامس من شهر نوفمبر من السنة المذكورة ، أقلعت الحملة من سواحل (كجرات) ، عائدة إلى مصر [١٢] دون أن تشتبك مع البرتغاليين في أية معركة بحرية .

وقبل حملة سليمان باشا الخادم هذه أرسل الأتراك حملة بقيادة خير الدين حمزة، وسلمان الريس من عشرين سفينة وأربعة آلاف جندي ، وكان الغرض منها تثبيت السلطة العثمانية في اليمن ، ثم التوجه بعد ذلك إلى الهند ، خرجت الحملة من (السويس) في سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٦م) [١٣] . لكن الحملة . كما سنرى - لم تخرج من اليمن ولجأ جزأ منها إلى السلطان (بهادر شاه) سلطان (كجرات) .

وبعد حملة سليمان باشا الخادم لم يرسل الأتراك حملة أخرى إلى الهند .

وبقيادة (محيي الدين بيري ريس) خرجت من السويس) حملتان ، كانت الأولى في سنة ٩٥٥هـ (٨ - ١٥٤٩م) وكانت مهمتها المساعدة على مهاجمة (عدن) من ناحية البحر . وقد نجحت الحملة في إعادة عدن للسيطرة العثمانية وعاد بيري ريس إلى مصر . وفي سنة ١٥٥١م خرج بيري ريس ، مرة ثانية من السويس على رأس حملة من ٣٠ أو ٣١ سفينة ، إلى اليمن حيث ساعد والي اليمن على إخضاع الثائرين في الجزء الذي يسيطر عليه - العثمانيون من اليمن [١٤] ثم توجه بعد ذلك إلى الخليج العربي ، حيث هاجم حصون البرتغاليون في (هرمز) و (عمان) ، وعاد إلى السويس بسفينتين لكنه أعدم بسبب خسائر الحملة .

وفي سنة ١٥٨١هـ خرجت حملة صغيرة من (المخا) أو (عدن) بقيادة الأميرال علي بك وهاجمت تحصينات البرتغاليين في (مسقط) ثم عادت إلى عدن [١٥] .

وفي الخليج العربي جهز باشا ، والي الأحساء حملة من (برشتين) وسبعين سفينة تجارية في سنة ١٥٥٩ ، لغزو البحرين انتهت بالفشل .

تلك هي كل الحملات البحرية - باستثناء حملة مصطفى باشا في الخليج - التي خرجت من السويس للتصدي لأساطيل الغزو البرتغالي في المياه العربية والهندية، في عهد المماليك والأتراك والعثمانيين . فهل قامت كل واحدة منها بهذه المهمة؟

سؤال قبل محاولة الإجابة عليه سنستعرض تفاصيل أخبار هذه الحملات كما وردت في مختلف المصادر العربية منها والأجنبية . ومن المصادر العربية التي رجعت إليها في هذا الموضوع ، مصادر يمنية في حضر موت لا يزال بعضها مخطوطاً حتى الآن . عاصر مؤلفوها هذه الحملات وشاهدوا سفنها عند مرورها بالموانئ اليمنية كالشحر وعدن وغيرها ، وسمعوا أخبارها عن الثقات من البحارة والربانية العرب ، الذين رافقوا الحملات التركية والبرتغالية كمرشدين للسفن.

ومن أهم هذه المصادر الحضرمية كتاب الفقيه محمد بن عمر الطيب بافقيه المسمى بـ ((حوادث السنين ووفيات العلماء العاملين والسادة المربين ، من سنة تسع مائة إلى التي هي للألف موفية)) . وهو الكتاب الذي نقل عنه البروفسور ((آر . بي . سارجنت)) R. B. Serjeant كل ما ورد فيه من أخبار البرتغاليين ، وترجمها إلى الإنجليزية في كتابه المسمى ((البرتغاليون حول ساحل بلاد العرب الجنوبي)) (The Portugese off the South Arabic Coast) والنسخة التي رجعت من هذا الكتاب هي النسخة التي اعتمدها (سارجنت) في كتابه المذكور.

كما رجعت إلى كتاب الأميرال إسماعيل سر هنك المسمى ((حقائق الأخبار عن دول البحار)) في رواية أخبار هذه الحملات ، خاصة حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند من وجهة النظر التركية للمقارنة بينها وبين ما ورد عنها في المصادر اليمنية .

وعالجت تحركات الحملات في ضوء معلوماتي عن اتجاهات الرياح الموسمية ومواسم السفر في المياه العربية والهندية . فقد وجدت أن إغفال عامل الرياح في تحديد مسار السفينة الشراعية ، قد جعل بعض الباحثين يخطئون في بعض استنتاجاتهم المتعلقة بتحركات هذه الحملات .

حملة حسين الكردي الأولى :

نذكر هنا هذه الحملة لأنها أول حملة بحرية تخرج من السويس إلى الهند لمساعدة السلطان (كجرات) على حرب البرتغاليين ، ولانها الحملة الوحيدة التي قامت بمهمتها خير قيام من بين جميع الحملات التي تلتها ، على الرغم من هزيمتها في المعركة الأخيرة مع البرتغاليين .

جهزت هذه الحملة بعد اتفاق بين السلطان محمود [١٦] سلطان كجرات ، والسلطان السامري ، سلطان (كاليكوت) [١٧] بساحل الهند الغربي ، والسلطان الغوري على القيام بهجوم مشترك على القوات البرتغالية ، واستئصال قواعدها من (كوشي) [١٨] جنوبي (كليكوت) ، قبل أن يستفحل أمرها يشارك فيه الغوري بالسفن الحربية والمدافع وغيرها من الأسلحة البارودية التي لم تعرف في المحيط الهندي قبل قدوم الغزاة البرتغاليين [١٩] .

وقبيل مغادرة هذه الحملة لميناء السويس كانت أخبار وصول السفن البرتغالية إلى مدخل البحر الأحمر قد وصلت إلى مصر ، فخشي الغوري أن يقوم البرتغاليون بغزو مباغث لـ (جدة) ميناء البيت الحرام ، وأهم مواني البحر الأحمر بالنسبة للتجارة البحرية بين الهند ومصر . فأمر الأمير حسين الكردي أن يقوم بتحصينها . فبقيت الحملة في (جدة) إلى موسم السفر إلى الهند في السنة التالية ، أي سنة ٩١٣هـ ، ومن وصولها إلى جدة في صيف ٩١٢هـ إلى سفرها في صيف ٩١٣هـ [٢٠] شيدت سوراً منيعاً حول (جدة) وحصوناً لحماية مينائها [٢١] .

ولا يعرف عدد السفن التي غادرت بعد ذلك ميناء (جدة) ، غير أنه ما من شك في أن بعض السفن بقي في ميناء جدة لحمايته . فابن الربيع المتوفي في سنة ٩٤٥هـ يقول في كتابه ((الفضل المزيد على بغية المستفيد)) أن جماعة من الترك هربت من بندر جدة في برشتين وثلاثة أغربة [٢٢] ومعهم عدد عظيمة وبارود ومدافع وغير ذلك . وبعد أن وصلوا إلى عدن ساروا في اتجاه المشرق بمحاذاة ساحل أبين ، ثم قدمت جماعة من الترك فلم تدرك الأولى ، وكان هروب الجماعة الأولى من جدة في شهر محرم من سنة ٩١٣هـ ، وقدوم الثانية في شهر ربيع الآخر ، وكان في الثانية الأمير حسين الكردي [٢٣] .

ويقول في موضع أحداث شهر ربيع الآخر من هذه السنة : ((وفي يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر من سنة ٩١٣ ، كان وصول الأمير حسين المصري في ثلاث برشات وثلاثة أغربة من جدة إلى الجهات اليمنية ولم يعلم أحد مقصوده ، حتى مر بباب المندب . فلما قرب من بندر عدن أنزل سنبوقاً (زورقاً) فيه قاصد من قبله إلى الأمير مرجان الظافري ، والي عدن ، يستأذنه في الدخول إلى بندر (حقات) [٢٤] والتزود بما يحتاج إليه من الماء والحطب وغيره . ثم توجه حسين في عساكره الذين وصلوا صحبته إلى بندر (الديو) بسبب قتال الافرنج الذين ظهروا في البحر وقطعوا طريق المسلمين [٢٥] .

ويتفق هذا مع بافقيه الشحري : وفيها (يعني سنة ٩١٣هـ) وصل (إلى الشحر) حسين بك الكردي ، أمير صاحب مصر قانصوة الغوري من جدة في ثلاثة أغربة وثلاث برش ، قاصداً الهند ، وتوجه بجيشه نحو (الديو) لقتال الافرنج الذين ظهروا في البحر وقطعوا طرق المسلمين [٢٦] .

ويبدو أن السفن الخمس التي قال ابن الديبع أنها هربت من جدة لم تعرج على الشحر لأن بافقيه لم يذكرها . ومن المحتمل أنها كانت طليعة حملة حسين الكردي سبقته في الوصول إلى الهند .

وكانت رحلة حسين الكردي إلى الهند بهذه السفن القليلة ، في الحقيقة مغامرة جريئة فقبل سنة ٩١٣هـ (٧ - ١٥٠٨) كان (البوكيرك) قد استولى على جزيرة (سقطري) وأرغم (هرمز) على دفع ((شيء معلوم في كل سنة من دخل المغاص والمعشرات)) [٢٧] واشتدت ملاحقة السفن البرتغالية للسفن التجارية وقطع طرقها في البحر العربي . ومع ذلك فقد وصلت الحملة بسلام إلى الهند .

ومن (الديو) سارت الحملة مع أسطول من السفن التجارية الهندية والعربية تقل عساكر سلطان كجرات بقيادة (مالك إياس) حاكم الديو ، إلي (كليكوت) لتنضم إلى قوات السلطان السامري . فالتقت في الطريق بثمان من السفن البرتغالية عند ميناء (شيول) ، فنشبت بين الطرفين معركة انتهت بهزيمة البرتغاليين ، وقتل في المعركة (لورانسو) Lourenco ابن (داميدا) De Almeida نائب ملك البرتغال بالهند [٢٨] .

ولم يستطع حسين الكردي وحليفه مالك إياس مواصلة السفر إلى (كليكوت) بسبب ما صاب بعض السفن من العطب فعاد إلى (الديو) لإصلاحها [٢٩] .

وكانت هذه المعركة اول معركة بحرية يواجه البرتغاليون فيها سفناً مزودة بالمدافع وغيرها من أسلحة البارود كسفنهم وأول معركة ينهزمون فيها منذ وصولهم إلى المياه الشرقية . فكان من البديهي أن يفاجأوا بها ، وأن يدركوا مدى خطر الحلف بين العرب والمسلمين من الهنود وغيرهم ، المتضررين من تدخلهم في تجارة المحيط الهندي ، وفرض سيطرتهم على مركزها وطرفها . لذلك حشد (الميدا) معظم القوات البرتغالية في (كوشي) وتوجه في ١٩ سفينة [٣٠] إلى الديو ، وفي السنة التالية ٩١٤هـ (١٥٠٩م) ويقال أن حاكم الديو نصح حسين الكردي بعدم الخروج لمواجهة الأسطول البرتغالي والبقاء في الميناء لحماية ظهر السفينة وأن الأمير لم يستمع لنصيحته [٣١] وخرج لمقاتلة الإفرنج في عرض البحر ، فكانت النتيجة كما توقعها حاكم الديو ، إذ أحدقت السفن البرتغالية بسفن حسين

الكردي فحطمتها ، وتمكن حسين الكردي في نهاية المعركة من النجاة ، ولجأ إلى السلطان محمود لاعتقاده أن حاكم (الديو) ربما سلمه للبرتغاليين ، بعد أن صالحهم بتسليم ما لديه من الأسرى البرتغاليين من المعركة الأولى ، وتزويدهم بما يحتاجون إليه من الماء والطعام وغيره (٣٢) وعاد حسين الكردي إلى مصر ، ويقال أنه في بداية المعركة قتل كثير من الإفرنج لكنهم في النهاية تغلبوا على المسلمين . وقتل من عسكر الأمير حسين حوالي ست مائة ، ومن بقي على قيد الحياة هرب إلى (الديو) . وأن الإفرنج لم يغادروا (الديو) إلا بعد أن سلم لهم حاكمها مبلغاً كبيراً من المال (٣٣) .

وانتقم (الميدا) من (شيول) التي ساعدت حسين الكردي في المعركة الأولى التي قتل فيها ابنه ، فأحرقها في طريق عودته من (الديو) (٣٤) .

واغتنم سلطان (كليكوت) فرصة انشغال البرتغاليين بحرب حسين الكردي في (الديو) فجهز حملة أغار بها على قاعدة البرتغاليين في (كوشي) ونهب ما فيها من الأموال ثم عاد إلى (كليكوت) (٣٥) .

وهكذا كانت نهاية حملة حسين الكردي الأولى . ويبدو أن انتصاره على البرتغاليين في المعركة الأولى قد ملاه غروراً ، فلم يصغى لنصيحة حليفه حاكم (الديو) ، واستهان بخطر موجهة أسطول (الميدا) ، الذي يفوق أسطوله عدداً وعدة ، في عرض البحر . ومن المحتمل أنه لو عمل بنصيحة حليفه لما انتهت حملته إلى هذه الكارثة ، فالدفاع عن مدينة ما من المواقع الحصينة حولها أسلم من لخروج لملاقاة عدو قوي خارج تحصيناتها .

حملة الهند :

هي حملة المماليك الثانية وبقيادة الأمير حسين الكردي أيضاً ، شرع في تجهيزها عقب عودته إلى مصر في السنة التالية لهزيمة حملته الأولى في (الديو) ، أي في

سنة ٩١٥هـ، (١٥٠٩م) [٣٦] لكن تجهيزها لم يتم للأسباب السابق ذكرها إلا في سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) . وكان يشاع عند تجهيزها أنها ذاهبة لمحاربة الإفرنج بالهند فعرفت بحملة الهند [٣٧] قال بافقيه الشحري : أن السلطان العثماني عندما أرسل الجنود الأتراك، مدداً لصاحب مصر قانصوة الغوري في هذه الحملة لم يكن يعلم لما انطوى عليه صاحب مصر وأميره حسين من طلب الاستيلاء على اليمن [٣٨] .

وخلال فترة إعداد هذه الحملة استولى (البوقيرق) Albuquerque بعد تعيينه نائباً للملك البرتغال بالهند بدلاً من (الميدا) ، على (جوه) أو (قوة) [٣٩] لأنها كنت تفوق (كوشي) بوفرة المواد الغذائية ، ويتوسطها بين إقليم (كجرات) شمالاً و (المليبار) جنوباً الذي يعطي البرتغاليين موقعاً استراتيجياً قريباً من الموانئ العربية الشرقية وموانئ الجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي [٤٠]، ومن (جوه) انطلق البوقيرق في سنة ١٥١٣م على رأس حملة بحرية كبيرة لغزو عدن ، بقصد سد مدخل البحر الأحمر في وجه التجارة بين الهند ومصر . فقد أدرك البرتغاليون أن عدن هي بوابة البحر الأحمر وليست (سقطرا) . لكن عدن كانت محصنة تحصيناً محكماً منيعاً ، وكانت السلالم التي جلبها (البوقيرق) من الهند ليتسلق عليها الجنود سور المدينة البحري هي سبب هزيمته . فقد تركهم الأمير مرجان ، والي عدن ، يتسلقون السور إلى داخل المدينة ، ثم فتح لعسكره وأهل المدينة أحد أبواب السور فاستولوا على السلالم وحطموها ، ثم أحاطوا بمن دخل المدينة من البرتغاليين فانهزم البرتغاليون وتراجعوا إلى سفنهم تاركين وارءهم قتلاهم [٤١] .

ولم يستطع (البوقيرق) العودة من عدن بعد هزيمته إلى (جوه) في وجه الريح التي بها ، وهي الشمالية الشرقية ، المعروفة عند البحارة بالأزيب ، فسار من عدن مع هذه الريح إلى باب المندب ، ودخل البحر الأحمر ليستكشف الساحل العربي الإفريقي - كما يبدو - واستقر في جزيرة كمران إلى حين هبوب الرياح الجنوبية

الغربية المعروفة عند البحارة بـ (الكوس) . هذا إلى أن هزيمته في عدن قد أخمدت حماس جنوده وتحطمت معنوياتهم ، بحيث أنه عندما خرج من البحر الأحمر وأراد غزو عدن مرة أخرى رفض جنوده النزول إلى الشاطئ فبقي يضرب المدينة خمسة عشرة يوماً دون طائل . وأخيراً غادر الميناء إلى الهند بعد أن حطم السفن التجارية الراسية في الميناء [٤٣] .

ولما علم الغوري بوصول هذه الحملة إلى البحر الأحمر أرسل قائده حسين الكردي على رأس ثلاث مائة جندي إلى جدة كمدد لحمايتها ، وأمره بالبقاء في جدة إلى أن يتم تجهيز ((حملة الهند)) [٤٤] .

وأراد (البوقيرق) أن يعيد الكرة في غزو عدن ، فجهز حملة من ست وعشرين سفينة ، وألفين ومائتي جندي ، غير أنه - كما يبدو - علم بقرب خروج الحملة المصرية من السويس فتوجه في فبراير من سنة ١٥١٥م ، وهي نفس السنة التي خرجت فيها هذه الحملة من السويس ، إلى هرمز ليساعد على إخماد الاضطرابات التي اشتعلت فيها ، ضد ملكها سيف الدولة [٤٥] وتلك كانت بداية تغلغل نفوذ البرتغاليين الفعلي داخل الخليج العربي ، وسيطرتهم التامة على طريق التجارة البحرية بين الهند والبصرة عبر هرمز ، كما أن بسيطرتهم على موانئ ساحل عمان الشرقي المنتهي طرفه الجنوبي براس (الحد) ، قد أصبحوا قريباً من الطرق البحرية بين ساحل بلاد العرب الجنوبي والجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي .

وكما أحكم البرتغاليون سيطرتهم على مدخل الخليج العربي أراد المماليك بحملتهم الثانية ، أي حملة الهند أن يسيطروا بالمقابل على الزاوية الجنوبية الغربية ، ولاسيما بعد غزو البقيرق الفاشل لعدن ، ودخوله إلى البحر الأحمر ، وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الطاهرية باليمن ، وقد وعد في رسائل بعث بها إلى الغوري بتقديم المساعدة اللازمة للحملات التي تجهز

لحرب الإفرنج عند مرورها بالموانئ اليمنية [٤٦] . لكنه أدرك عندما وصلت هذه الحملة إلى جزيرة (كمران) وشرعت ببناء حصن بها . في شهر ذي القعدة من سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) أن الحملة جاءت لتبقى بالسواحل اليمنية بحجة حمايتها من هجمات الإفرنج ومنع سفنهم من دخول البحر الأحمر ، فلم يجد السلطان عامر من وسيلة لإبعادها عن سواحله غير التخلي عن مساعدتها بالمرة بل إنه منع مرور السفن المحملة بالطعام ، والتي تقصد موانئ الحجاز من المرور بكمران [٤٧] فأثار هذا القرار غضب حسين الكردي ورجاله ، وكان الشرارة التي اندلعت منها الحرب في اليمن بين المماليك وعساكر الدولة الطاهرية . وقد وجد حسين الكردي من خصوم السلطان عامر من اليمنيين من ساعده على النزول إلى ساحل تهامة وعلى حرب السلطان عامر وإسقاط دولته.[٤٨] وكانت خطة حسين الكردي بعد سقوط مدينة (زبيد) عاصمة تهامة اليمن أن يزحف جيش المماليك إلى عدن لمحاصرتها من جهة البر ، بينما يذهب هو وسلمان الريس ، قائد الأسطول لمحاصرتها من جهة البحر . فقد كانت عدن هي الهدف الرئيسي لهذه الحملة [٤٩]. لكن قوات المماليك في زبيد لم تتمكن من الوصول إلى عدن ، وفشل حسين الكردي وسلمان اليس في فتح عدن من جهة البحر .

وعاد حسين الكردي خائباً إلى (جدة) مع سليمان الريس ، بعد أن ترك نائبه (برسباي) يقاتل السلطان عامر بن عبد الوهاب . وفي محرم سنة ٩٢٣هـ ، بعد بضعة شهور من وصوله إلى جدة استولى السلطان سليمان على مصر فسارع أشراف مكة بإعلان ولاءهم للدولة العثمانية ، وقتلوا حسين الكردي غرقاً في ميناء جدة انتقاماً - كما قيل - لما أظهره لأهل جدة من القسوة والظلم .[٥٠]

وهكذا انتهت (حملة الهند) ولم تحدث مواجهة بينهما وبين البرتغاليين إلا مرة واحدة ، عقب مقتل حسين الكردي فقد جهز البرتغاليون في الأيام الأخيرة من دولة المماليك حملة مؤلفة من ثلاثين سفينة تحت قيادة (لوبو سوريز) Lopo

Soares نائب ملك الهند بعد (البوقيرق) للاستيلاء على (جدة) . ومرت الحملة بميناء عدن ، وهي ضعيفة التحصينات بعد أن خربت مدافع أسطول حسين الكردي أجزاء من سورها البحري ، وهدمت كثيراً من منازل الواجهة البحرية منها . وكان باستطاعة (سوريز) الاستيلاء عليها بسهولة غير أنه - كما قيل - أرجأ ذلك إلى حين عودته من البحر الأحمر بعد استيلائه على جدة وزعم لحاكم عدن أنه جاء لمساعدة أهل عدن ضد المصريين [٥١] فسمح له حاكمها مرجان الظافري بالتزود بالماء والحطب ، كما زوده ببعض ربابنة البحر الأحمر من أهالي ساحل تهامة [٥٢] .

وقدر (سوريز) أن جدة بعد سقوط مصر بيد الأتراك العثمانيين وانشغال هؤلاء بحروبهم خارج مصر ، واضطراب حالة المماليك فيها ، ستقع فريسة سهلة بيده ، وسيتمكن من تحطيم ما تبقى من الأسطول المصري هناك . لكنه كان مخطئاً في تقديره . فقد صمدت تحصينات جدة التي شيدها حسين الكردي أمام ضربات مدافعه . وكان سلمان الريس مستعداً لمواجهته بعد أن وصله خبر دخوله البحر الأحمر وتوجه إلى جدة ، فلم يتمكن رجاله من النزول إلى الساحل بل إن سلمان خرج إليهم في بعض السفن وتبادل القصف المدفعي . ويقال أنه بعد ان دمر اثنتين أو ثلاث من سفنهم وضع المدفعي شيئاً من البارود فاختل المدفع واخترق الجزء الذي كان عليه سلمان من السفينة ، ويقال أن المدفعي كان نصرانياً في خدمة سلمان فأعدمه سلمان في الحال ورجع إلى جدة [٥٣] .

وتوجه (سوريز) بعد انسحابه من ميناء جدة إلى جزيرة (كمران) حيث مكث نحو ثلاثة أشهر [٥٤] ينتظر موسم هبوب الرياح الجنوبية الغربية الملائمة لسفره خارج البحر الأحمر وخلال هذه الفترة هلك كثير من رجاله [٥٥] . وعندما وصل إلى عدن وجد تحصيناتها رمت ومستعدة لمواجهته ، فعاد إلى الهند .

البحر الأحمر من سقوط دولة المماليك إلى أول حملة بحرية للعثمانيين :

ظل الوضع في البحر الأحمر ، بعد سقوط مصر بيد العثمانيين ، كما تركته المماليك جنود حسين الكردي من ترك ومماليك ظلّوا يحاربون الأئمة والقبائل الثائرة في اليمن ، وسلمان الريس مع ما تبقى من سفن الحملة في جدة . فحروب أوروبا والعراق قد شغلت الدولة العثمانية عن الاهتمام بالتهديد البرتغالي للبحر الأحمر . وحتى بعد أن استنجد أشراف مكة بخاير بك ، أول وال للعثمانيين في مصر إثر غزو (لوبو سوريز) الفاشل لجدة ، لم يرسل هذا الوالي مدداً لدفاع عن جدة سوى ثلاثمائة جندي تحت إمرة حسين الرومي ، أي التركي ، أول نائب للدولة العثمانية بجدة [٥٦] . وضمت لولاية حسين الرومي المنطقة التي تسيطر عليها المماليك من ساحل اليمن الغربي (تهامة) . وبقيت عدن بيد من تبقى من سلاطين دولة بني طاهر .

أما البرتغاليون فكان وصول سلطان الدولة العثمانية ، الدولة القوية في ذلك العصر إلى الساحل اليمني المطل على مدخل البحر الأحمر ، ضربة قاضية لخطتهم ، وهي السيطرة على البحر مدخل البحر الأحمر والتحكم في تجارته ، كما فعلوا في الخليج العربي . ولذلك نراهم بعد حملة سوريز الفاشلة يتجهون إلى الساحل الأفريقي المقابل للساحل اليمني . فيقوون من علاقتهم بملك الحبشة من خلال مده بالسلاح والجنود لمحاربة المسلمين الذين سيطروا على جزء كبير من مملكته . [٥٧] ليضمنوا من خلال وجودهم على الساحل مراقبة تحركات العثمانيين في البحر الأحمر عن كثب ، وليكونوا قريباً من ترسانة (السويس) وميناء جدة ، فيسهل عليهم ضرب أية استعدادات بحرية تجري في أي منها .

ومن أجل هذا الغرض جاءت في سنة ١٥٢٠م حملة (ديوغو داسكويرا) Diogo Lopes De Sequeira نائب ملك البرتغال بعد (لوبو سوريز) وكانت مؤلفة من

ستة وعشرين سفينة ، تحمل مبعوث ملك البرتغال إلى الحبشة وهدايا نفيسة لملكها . لكن حدث أن السفينة التي كانت تحمل المؤن والهدايا ، وهي سفينة كبير ، ارتطمت بالصخور عند رأس (العارة) على الساحل العربي الجنوبي بجوار باب المندب [٥٨] . وكان حسين الرومي نائب جدة ، قد وصل على رأس حملة صغيرة إلى ساحل زبيد ، لإخضاع المماليك بها للسلطة العثمانية فلما علم بوصول الحملة البرتغالية عاد مسرعاً إلى جدة [٥٩] . ويقال أن (سكويرا) توجه إلى (مصوع) ، وأنه لما علم بحشود تركية فيها عاد فتوجه إلى الساحل الأفريقي [٦٠] .

الخليج العربي :

أما في الخليج العربي فكان الوضع يختلف عما في البحر الأحمر . فمملكة هرمز التي كانت مسيطرة على مدخل الخليج وتجارته ، كانت مملكة تجارية لا تختلف عن مملكة (كلوة) والمشيخات التجارية العربية ، التي كانت قائمة على طول ساحل أفريقيا الشرقية ، من (مقدشوه) شمالاً إلى (سفالة) جنوباً ، وكانت حدود بعض منها لا تتعدى حدود مدينة أو جزيرة واحدة ، لذلك كان من الطبيعي أن تتساقط هذه الممالك والمشيخات بسرعة أمام ضربات مدافع البرتغاليين في أقل من عشر سنوات منذ اكتشاف طريق رأس (الرجاء الصالح). وكان موقف الصفويين ، ملوك فارس ، من البرتغاليين في الخليج عكس موقف المماليك منهم في البحر الأحمر . فهؤلاء نظروا إليهم كغزاة صليبيين جاءوا ليحطموا قوة المسلمين في المشرق العربي ، عن طريق انتزاع تجارة المحيط الهندي من أيديهم وحرمانهم من ريعها ، فحاربوهم وساعدوا المسلمين بساحل الهند الغربي البعيد عن مصر على حربهم ، على الرغم من ظروفهم الاقتصادية الصعبة وانشغالهم بحروب الشام والإضرابات الداخلية في مملكتهم ، أما الصفيون فلم يتضرروا من تدخل البرتغاليين في تجارة الخليج ، فهذه التجارة لم تكن بأيديهم ،

كما أنهم لم يكونوا مستعدين في ذلك الوقت لمقاومة الغزو البرتغالي لموانئ مملكة هرمز التي يدعون تبعيتها لهم . فخسائرهم في حروبهم مع الأتراك العثمانيين قد استنزفت كل قواهم ، بل أن حالة الضعف التي وصلت إليها دولتهم جعلتهم يطمعون في قوة البرتغاليين ، فيتوهمون أنه بالتغاضي عن المطامع البرتغالية في الخليج والتنازل عن سيادتهم الإسمية لهرمز يمكن أن يدخلوا في حلف مع البرتغاليين ، ويسخروا قوتهم البحرية في فرض سيادتهم على بعض المناطق من الساحل العربي من الخليج ، وأن يستعينوا بأسلحتهم في حرب الأتراك [٦١] . لكن البرتغاليين الذين كانوا على علم بضعفهم وعدم جدوى التحالف معهم ، لم يقدموا لهم شيئاً من المساعدات التي كان (البوكيرك) قد وعدهم بها [٦٢] .

وعندما وصل العثمانيون إلى البحر الأحمر ، بعد سيطرتهم على مصر ، وأخذت جيوشهم تزحف نحو جنوب العراق ، خشي البرتغاليون أن يمتد نفوذهم إلى المناطق القريبة من مدخل الخليج من الساحل العربي ، خاصة وأن القبائل العربية على هذا الساحل كانت تبغضهم ، فسارعوا إلى غزو البحرين وانتزاعها من يد الشيخ مقرن بن زامل الجبري ، شيخ الجبور بالأحساء ، الذي كان على اتصال بالعثمانيين - كما يبدو - عن طريق صهورة أشراف مكة [٦٣] . فقد ثبت أنه استعان بالأتراك لبناء السفن الحربية في البحرين [٦٤] ، وأعلن تبعية البحرين والقطيف للأحساء [٦٥] وامتنع عن دفع الجزية عنهما لملك هرمز ، الذي يسلمها بدوره للبرتغاليين . وبالاستيلاء على البحرين ضمن البرتغاليون موقعاً وسطاً في الخليج ، يطلون منه على الساحل العربي الذي يخشونه .

أول حملة بحرية عثمانية تخرج من السويس :

بعد أن نجح حسين الرومي ، نائب جدة ، في إخضاع المماليك بزبيد بالقوة بمساعدة سلمان الريس قائد الأسطول ، ثار الخلاف على السلطة بزبيد بينه

وبين سلمان . وخشي هذا أن يقتله حسين الرومي فهرب سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) إلى مصر ، ونجح في تأليب والي مصر إبراهيم باشا ، ضد حسين الرومي وإقناعه - كما قال صاحب البرق اليماني [٦٦] - بأن حسين الرومي لا يصلح لحكم اليمن ((لأنه عاجز عن حفظها)) وطلب عسكراً ((يأخذ بها إلى اليمن ويخرج بها الأفرنج من الهند)) . فأمر والي مصر بتجهيز حملة من أربعة آلاف جندي وعشرين سفينة ، جعل على إمرتها خير الدين حمزة ، وسلمان الريس قائداً للأسطول [٦٧] . ولما وصلت الحملة إلى اليمن في عام ٩٣٢هـ (٥ - ١٥٢٦ م) ، علمت بوفاة حسين الرومي وبعد استلام خليفة حسين بزبيد ، انفرد سلمان الريس بالحكم دون حمزة فاغتاله هذا في مؤامرة دبرها له [٦٨] . وكان لسلمان ابن أخت اسمه مصطفى بيرم ، كان مع أسطول الحملة بجيزان ، فلما بلغه نبأ مقتل خاله جهز حملة من بحارة الأسطول ، على رأسهم الخواجة صفر ، خادم سلمان [٦٩] ، وقتل حمزة بعد معارك انتهت بهزيمة القوات المساندة له وولى مصطفى بيرم أحد الأمراء على حكم زبيد ، وتوجه مع الخواجة صفر بالأسطول لفتح عدن ، بعد أن أمر حاكم زبيد بتسيير عسكر لمحاصرة عدن من جهة البر ، واستمر حصاره لعدن - كما قال بافقية الشحري - حوالي خمسة أشهر من ٩ ذي القعدة سنة ٩٣٥هـ إلى ربيع الثاني ٩٣٦هـ . وكأنه كان يريد أن ينجح فيما فشل فيه خاله وحسين الكردي من قبل ، ويكسب بفتح عدن رضاء والي مصر وعفوه عن أعماله بزبيد .

لكن عدن صمدت أيضاً في وجه الحصار الشديد الطويل ، ولم يستسلم أهلها وصبروا على الجوع حتى أكلوا القطط والكلاب [٧٠] . وعاد بعد فشله لحصار عدن إلى زبيد ((وحاله مضطرب)) خوفاً من مخدومه لاستبداده بالأموال وقتله لأمير زبيد وعظمائها [٧١] .

وفي العاشر من ذي الحجة من السنة المذكورة توجه مصطفى بيرم من جزيرة (كمران) إلى الهند . ولا يعرف عدد السفن التي رافقته ، غير أنه من غير المعقول

أن يأخذ جميع سفن الحملة التي وصل بها خاله من السويس إلى اليمن ، ولا يترك منها ما يحمي الثغور اليمنية ، إلى جانب ما تبقى من أسطول حسين الكردي . ويقول بافقية أن برشة كبيرة من سفنه غرقت بجوار ساحل المخا [٧٢].

والتحق مصطفى بيرم ومن معه عند وصولهم إلى الهند بخدمة السلطان (بهادر شاه) سلطان كجرات فأكرمهم وأنعم على مصطفى بلقب (رومي خان) وولاه حكم (الديو) ، وعلى الخواجة صفر بلقب (خوداوند خان) [٧٣] . وكان مع مصطفى عائلة خاله سلمان [٧٤] وهذا يؤكد أن سفره إلى الهند كان هروباً من عقاب والي مصر ، ولم يكن كما يعتقد البعض [٧٥] جزءاً متمماً لخطة الحملة الأولى للعثمانيين هذا إلى أن التحاقه ، حال وصوله إلى الهند ، بخدمة سلطان (كجرات) يعني انقطاع علاقته بالدولة العثمانية وخدمته معها .

وفي الوقت الذي وصل بيرم إلى (الديو) كانت حملة برتغالية كبيرة في طريقها إلى (الديو) وصلت بعد سبعة أيام من وصوله إليها [٧٦] وكان لمشاركة قواته في الدفاع عن المدينة بما لديها من المدافع وأسلحة البارود الأخرى الفضل الأكبر في صد هجوم البرتغاليين وهزيمتهم [٧٧] وكانت هذه المعركة الوحيدة التي واجهت فيها حملة بيرم ، أو على الأصح ، القوات المتبقية من حملة العثمانيين الأولى ، البرتغاليين . لكنها لم تقاتلهم باسم العثمانيين وإنما كقوات تابعة لسلطان كجرات .

عدن تستسلم للبرتغاليين :

لقد أضعفت مدافع بيرم تحصينات عدن أثناء الحصار ، وأضعف الجوع أهلها بحيث لم تعد قادرة في الأشهر التي تلت الحصار على الصمود في وجه أي غزو جديد . وفي هذه الفترة الحرجة قدم إلى عدن (ايتور داسلفيرا) Da Silveira في ١١ شعبان ٩٣٦هـ ، على رأس حملة صغيرة من سبع سفن [٧٨] لم يكن (دا سلفيرا)

يقصد مهاجمة عدن ، وإنما كان في طريقه لإعادة المبعوث البرتغالي من الحبشة لكنه عندما لمس ضعف عدن وخوف الوالي منه ، اغتنم هذه الفرصة ، وأرغم واليها على عقد معاهدة تنص على دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف أشرفي ، والسماح للسفن البرتغالية باستعمال ميناء عدن (٧٩) وعدم تعرض البرتغاليين للسفن التجارية المسافرة من وإلى عدن ما عدا تلك القادمة والمسافرة إلى (الديو) و (جوجه) من بلاد (كجرات) (٨٠) . وترك في عدن سفينة وأربعين من الجنود . كانوا يزفون بأسلحتهم مع عسكر الوالي يوم الجمعة مما أثار غضب واستنكار الفقهاء والأهالي . وكان الوالي يحتج في عقد المعاهدة مع الإفرنج بخوفه من الأتراك على بلاده ويعقب بافقية على هذا بقوله : ((ولعمري لقد أخطأ الرأي ، وأساء التدبير ، وأغضب ربه العلي الكبير)) (٨١) . لكن هذه المعاهدة لم تدم أكثر من سنة واحدة أعلن الوالي بعدها تبعية بلاده للدولة العثمانية وذكر اسم سلطانها في خطبة الجمعة وسجن البرتغاليين الموجودين في عدن (٨٢) .

والغريب أن مصطفى بيرم بعد خروجه من جزيرة (كمران) في العاشر من شهر ذي الحجة ٩٣٦هـ ولم يعرج على عدن وهو في طريقه وكأنه كان يتعجل الوصول إلى الهند قبل أن يحين موسم هبوب الرياح الشمالية الشرقية لكن هذه الرياح قابلته بعد خروجه من (الشحر) فعاد إلى الشحر وكان بإمكانه العودة بهذه الرياح إلى عدن ومحاولة فتحها قبل قدوم موسم السفر إلى الهند بالرياح الجنوبية الغربية ، وفي الشحر لم ينتظر إلى أن يحين موسم هذه الرياح ، وإنما مكث حوالي ثلاثة أشهر من منتصف محرم إلى منتصف ربيع الثاني من سنة ٩٣٧هـ ، قام بعدها - كما يبدو - بمسايرة الرياح الشمالية الشرقية إلى رأس (فرتك) ومن شرقي هذا الرأس حيث توجد رياح الكوس (الجنوبية الغربية) ، طوال العام تقريباً (٨٣) ، انطلق إلى الهند .

حملة سليمان باشا الخادم :

هذه الحملة هي ثاني حملة عثمانية بحرية تجهز في السويس لمحاربة البرتغاليين في بحر الهند ، وكانت ضخمة جداً ، إذ بلغ عدد سفنها ثمانين سفينة من مختلف الأنواع [٨٤] ، وفي رواية أخرى من ستين غراباً وثلاثين سفينة [٨٥] تحمل عشرين ألف جندي ، تحت سليمان باشا الخادم والي مصر ، غادرت الحملة ميناء السويس في محرم ٩٤٥هـ ، (يونية ١٥٣٨م) .

وتدل ضخامة هذه الحملة وإسناد قيادتها إلى سليمان باشا الطواشي مملوك السلطان سليم الأول ، الذي يثق به السلطان سليمان القانوني ، على أن الأتراك قرروا الدخول في مجابهة بحرية حاسمة مع البرتغاليين .

ويقال أن هذه الحملة جهزت في مدة قصيرة [٨٦] ويرجع الاهتمام بسرعة تجهيزها إلى الأسباب التالية :

- تزايد خطر البرتغاليين في البحر العربي والبحر الأحمر عقب فشل الحملة الأولى .
- مد البرتغاليين للفرس بالمعونات الحربية وزيادة التعاون ضد الأتراك إثر سقوط بغداد عام ١٥٣٤هـ ، وامتداد نفوذ العثمانيين إلى الخليج العربي الذي يهدد الوجود البرتغالي فيه .
- قتل البرتغاليين للسلطان (بهادر شاه) سلطان (كجرات) بسبب اتصاله بالعثمانيين وتحريضه لهم على محاربة البرتغاليين في الهند ، وهذا السبب أثار غضب السلطان سليمان القانوني ، خاصة وان قتله حدث عقب وصول رسوله إليه بفترة قصيرة [٨٧] .

فالدولة العثمانية في ذلك الوقت كانت أقوى دولة في أوروبا والشرق الأوسط ، وكان لبحريتها في البحر الأبيض المتوسط التفوق على غيرها . فكان من الطبيعي أن يخشى البرتغاليون امتداد نفوذها إلى الخليج بعد البحر الأحمر فتطردهم

منه . لذلك تحالفوا مع أعدائها الصفويين ومدوهم بالسلاح ، وحاربوا لنفس السبب من صادقها وتحالف معها من سلاطين وحكام السواحل المرتبطة بشبكة طرق تجارة المحيط الهندي .

وقصة هذه الحملة تروى مقتضبة في بعض المصادر التركية ، ليس فيها شيء مما نجده في المصادر العربية عن شخصية قائدها سليمان باشا من الخصال الذميمة كالغدر والجبن والظلم وغيره بل أن من المؤرخين الأتراك من يشيد بمجهودات سليمان باشا في هذه الحملة ، كالأميرال إسماعيل سرهنك الذي يقول في كتابه (حقائق الأخبار) ما نصه [٨٨] :

((وفي سنة ٩٤٤هـ (١٥٧٣م) استغاث (بهادر شاه) حاكم (كجرات) من بلاد الهند بالسلطان سليمان القانوني لتعديات أساطيل البرتغال على بلاده ، ومنعها المواصلات التجارية التي كانت بينها وبين الديار المصرية ، فأصدر السلطان أوامره إلى الخادم سليمان باشا ، والي مصر ، وكان السلطان يثق به كثيراً ، بتجهيز دوننما في البحر الأحمر ، لتسير صحبة الجنود العثمانية إلى بحر الهند، فشيّد ستين غراباً وثلاثين سفينة وجهزها بالمدافع والأدوات الحربية في زمن وجيز . ومر في ذهابه إلى الهند بعدن وقتل أميرها عامر بن داؤد وستة نفر من أصحابه ونصب عليها أحد ضباطه المسمى (بهرام بك) وترك معه بعض الجنود والمدافع ثم أقلع إلى الهند . ومع ما بذله من المجهود بجهات (ديو) لم يتمكن من طرد البرتغال عن تلك الأطراف)) [٨٩] .

ولم يذكر (سرهنك) نهاية سليمان باشا قائد الحملة ولا ما حدث له في مياه (الديو) بخلاف المصادر الحضرمية التي استوفت أخبار هذه الحملة بعد وصولها إلى الهند ، كما رواها بعض ربابنة من حضر موت رافقوا الحملة كمرشدين إلى طريق الهند ، يقول بافقية ما معناه :

(وصل رسول من عدن بمراسيم من الباشا سليمان الطواشي إلى صاحب الشحر،

وذكر الرسول أن التجريدة وصلت إلى عدن في اليوم الثامن من شهر ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ وأن عامر بن داؤد ، صاحب عدن ، دخل من الحج إلى عدن ، وأن عساكر الباشا كانت طالعة نازلة إلى البلد للبيع والشراء ، وجلب الماء وغيره ، حتى تكاثروا في البلد وصار عددهم نحو ثلاثة آلاف أو أكثر . فقالوا للشيخ عامر بن داؤد اصعد لتواجه الباشا في البحر ، فما أمكنه إلا الامتثال إذ لا طاقة له بالامتناع فصعد هو وجماعة من خاصته وذلك صبيحة اليوم التاسع ، ونهبت الأتراك البلد نهباً عظيماً فلما علم الباشا بذلك أمر بإرجاع ما نهبه العسكر ، فرجع شيء يسير مما نهب من الثياب ونحوها ، أما الدراهم والحلي وما شابهها فلم يرجع منها شيء . ثم أن الشيخ عامر والجماعة التي معه شنقوا في الغربان (السفن) ثم أخرجوا إلى الساحل موتى . وهو آخر مملوك بني طاهر . وبه انقضت دولتهم وأرسل الباشا خبر استيلائه على عدن إلى كل مكان .

وقال الرسول أنه خرج من عدن والتجريدة في غاية الاستعداد للسفر إلى الهند . ثم وصل خبر بأن الباشا دخل هو والتجريدة إلى الهند ، وترك في عدن رتبة من نحو خمسمائة أو ستمائة جندي تركي يسمى بهرام ، وهو أول أمير تركي في عدن بعد بني طاهر . وكان سفرهم من عدن ثالث وعشرين من الشهر المذكور (يعني ربيع الأول ٩٤٥هـ) .

وفي رابع شهر رجب وصل الباشا سليمان الطواشي التركي بالتجريدة ، راجعاً من الهند إلى بندر الشحر . فارتاع أهل الشحر روعاً عظيماً لظنهم أن التجريدة للإفرنج.

وكان سبب رجوع التجريدة أن أهل الهند لم يساعدوها ولم يمدوها بالزاد ، ولا بغيره ، وكان الباشا قد أرسل عبده فرحات شوباصي إلى ملك (كجرات) بمراسيم فقبض على فرحات ولم يرد جواباً . وكان الإفرنج قد تمكنوا في ((الديو)) (بلاكوات) (الحصون) العظيمة المنيعة ، فرأى الباشا أن الرجوع أصلح ،

ليستكثر من الجنود والعدد والزاد وغير ذلك . [٩٠] .

لكن السبب الحقيقي لرجوع الحملة يورده (بافقيه) عن (الفقيه عبد الله باسنجلة) قال ما معناه : ((ولا شك أن هذا الطواشي كان سفاكاً للدماء . وكان قتله للشيخ عامر رحمه الله وغيره كذلك وحدثني من أثق به من ربابنة التجريدة قال: لما أرست سفننا في بندر الديو صعد الخواجة صفر وقال للباشا أننا وأهل البر قد أخذنا الجزيرة ، ونحن الآن نحاصر الحصن ، والحمد لله على وصولكم . وكان من خبر صفر واسترجاعه لـ (الديو) أن الإفرنج بعد أن قتلوا بهادر شاه استبقوا صفر ، فلما علم بخروج حملة سليمان باشا ، وأنها واصلة لا محالة إلى الهند ، تحقق أن الإفرنج سيقبضون عليه ويقتلونه إن لم يساعدهم فدبر حيلة خرج بها من الديو سراً ولحق بالسلطان محمود ابن أخي بهادر شاه في البر الداخلي ، وكان آنذاك صغيراً والأمر والنهي بيد وزرائه ، فأقنعهم صفر بتسيير جيش لاسترجاع (الديو) فساروا مع صفر لحرب الإفرنج ، وحشد صفر جماعة من العرب والأحباش والهنود وغيرهم فلما وصلوا إلى (جوجلة) ، بجوار (الديو) هاجموا (الديو) ، بالليل وقتلوا خمسة عشر من الإفرنج وهرب الباقون إلى كوت (حصن) جوجلة فحاصرهم المسلمون ، فكانوا يخرجون في زوارق من الحصن إلى جزيرة (الديو) عند أصحابهم . وهذا كان أيام البشكال [*] وقوة الأمطار إلى كوت (حصن) جوجلة فحاصرهم المسلمون ، فكانوا يخرجون في زوارق من الحصن إلى جزيرة (الديو) عند أصحابهم . فأقام صفر رتبة من المسلمين وتقدم بجماعة أخرى إلى كوت صغير آخر بطرف جزيرة (الديو) يشرف على البر . وحين جزر البحر ساروا إليه مشياً على الأقدام وضربوه بالمدافع ، وقاتلوا من فيه حتى استولوا عليه ، وهرب الإفرنج إلى الجزيرة ، وحول الجزيرة سور منيع حصين فحاصره صفر . وخرج الإفرنج إلى الجزيرة سراً بعد

[*] البشكال : مطر يسقط في فصل الصيف على ساحل الهند الغربي

أن أخذوا معهم أربعين من تجارها وتحصنوا في الكوت ، فأطل بعض المسلمين من السور فقال : الجزيرة خالية والإفرنج كلهم بالكوت فظن صفر أنها خديعة ، لكنه تحقق أنها خالية فدخلها ، ثم حاصر كوت الإفرنج . ووصلت حملة سليمان باشا وقوات صفر محاصرة للكوت ، فأمدهم الباشا بأربع مائة من الجنود الأتراك وتوجهت السفن إلى (مظفر أباد) لأن الأمواج كانت قوية فلم يقدروا على إنزال المدافع إلى (الديو) . فلما وصلوا إلى مظفر أباد أنزلوا ثلاثة مدافع كبار ، وأتوا بها إلى حصن (جوحلة) البري وضربوه بالمدافع وكان به نحو مائة من الإفرنج فقاتلوهم . فأرسل الإفرنج إلى صفر بأنهم فأجابهم صفر أن الأمر ليس بيده وإنما بيد الباش ، فصعد رسول الإفرنج إلى الباشا في مركبه وأعلمه بذلك ، فرض الباشا انضمامهم إلى أصحابهم ووعدهم بإعطائهم الأمان إن استسلموا .

لكن الإفرنج فضلوا الموت في الكوت على الاستسلام له ، ولبثوا يومين يقاتلونهم بالمدافع حتى قتل منهم نحو عشرة فطلبوا الأمان لأنفسهم على أن ينزلوا عند صفر في الجزيرة فأمنهم الباشا ونزلوا عند صفر وعددهم تسعون نفراً ، فبقوا عند صفر يومين ، ثم طلبهم الباشا للبقاء عنده ، وخلع على كبيرهم حله ، ولما خف موج البحر رجعوا في سفنهم إلى بندر ((الديو)) وقاتلوا الكوت البحري ، وكان صفر ومن معه من العرب والأحباش والهنود والأربعمائة التركي يقاتلون الكوت من الجزيرة ، ولما أقبلت سفن التجريدة ضربها الكوت بالمدافع فلم تقدر على الاقتراب من الكوت وتراجعت عنه . وكان للإفرنج حصن صغير وسط الرتقة (المضيق) الفاصلة بين الجزيرة و (جوجلة) ، تمر السفن تحته ، فأصابت قذائفهم من هذا الحصن سفن الأتراك ، فقاتلتهم الأتراك حتى طلبوا الأمان على أن يتركوهم يذهبون إلى الكوت البحري ولم يبقى مع الإفرنج إلا هذا الكوت، وفيه من الرجال نحو أربعمائة من الإفرنج والأربعون التاجر الذين أسروهم من تجار البلد . ثم أن المسلمين حفروا نفقاً إلى قرب الكوت واستولوا على بيوت

الإفرنج التي حوله ، وضيقوا على الإفرنج وكان الإفرنج يرمونهم بقذائف البارود فاحترق من الترك نحو عشرين ، وفي بعض الأوقات كانوا يخرجون خارج الكوت ويقاتلون المسلمين ثم يهربون إلى داخل الكوت)).

وبعد أن استولى المسلمون على الجزيرة والحصون ، وكان الحصن البحري وشيك الوقوع بيدهم وصلت رسائل من جنوبي الهند إلى الإفرنج في (الديو) بأن الإفرنج قادمون في حملة عظيمة فارتاع الباشا روعاً شديداً وأدخل الله الرعب في قلبه . وبقي صفر وأصحابه يقاتلون الكوت والباشا ساكن في سفنه لا يبدي ولا يعيد ، وعنده من الخوف ما ليس عليه من مزيد . ثم طلب من صفر أن يمده بربابنة ليرشدوه إلى ((دابول)) ليوجه الحملة البرتغالية هناك ، فحسب الخواجة صفر أنه صادق في كلامه ، فأعطاه ربابنة ، وقبل أن تطلع الربابنة ، رأى الباش نحو خمسة غراباً (سفن) صغاراً قادمة الجنوب ، فظنوا أنها طليعة الحملة البرتغالية ، فصعدت الربابنة إلى السفن وصفر وأهل ((الديو)) والعسكر يعتقدون أن الباشا متوجه لملاقاة سفن الإفرنج ، وصعدت الأربعمائة التركس الذين كانوا يحاربون مع صفر ، فلما جاء انزل الربابنة إلى البلد ، وأرسل إلى جميع الأمراء الذين كانوا بصحبته في السفن وقال لهم أننا قد عزمنا على الرجوع ، على بركة الله ، إلى بر العرب ورأيت المصلحة في ذلك فقال له بعض الأمراء : هذا ما يحمل بنا وبك عند السلطان سليمان فقال له هذا مرسوم بيدي بأن الأمر أمري ، أنظر بعين المصلحة ، وعندي المصلحة في الرجوع . فأقلعت جميع السفن إلى بر العرب .

وكان الباشا قد أرسل خادمه الأمير فرحات شوباصي المذكور بهدية إلى السلطان محمود صاحب ((كجرات)) فتأخر رسوله لأن السلطان محمود كان يعد هدية مناسبة للباشا ، فلم ينتظر حتى يعود رسوله وأقلعت السفن تاركة فرحات عند السلطان محمود وقال له الخواجة صفر : انتظر عشرة أيام فإن الكوت وشيك

السقوط بيدنا . فما أجابه إلا بأنه ذاهب لملاقاة الإفرنج وأمره أن يأخذ المدافع التي طرحها في ((مظفر أباد)) .

وكانت مدة إقامته بالهند نحو شهرين ، ورجعت الحملة خائبة ومجموع سفن الحملة كلها ثلاث وستون سفينة ، منها خمس برش كبار ، والبواقي غربان [٩١].

وسافر الباشا من ((الشحر)) في الثالث من شعبان ٩٤٥هـ بعد أن فرض على سلطانها (بدر بو طويرق) ضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف أشرفي وفي اليوم الثاني من شوال استولى على (زبيد) فلما توفى اسكندر جعل الأتراك في زبيد الناخوذة أحمد محله . وعين الباشا أميراً لزبيد شخصاً اسمه (مصطفى) وأطلق عليه لقب (باشا اليمن) ، وهو أول من سمي (باشا اليمن) ، وخلف عنده نحو ألفين من الجنود ، وأبقى بهرام في عدن على حاله وسار بأولاد معه فلما وصل إلى جزيرة (كمران) جمع الإفرنج التسعين الذين كان قد أعطاهم الأمان في الديو ، وثلاثين أخريين كان السلطان بدر سلطان الشحر قد سلمهم له وجماعة من الأتراك كانوا في زبيد وهنود كانوا أتباعاً للإفرنج وغيرهم وقتلهم جميعاً ودفن جثثهم في بئر ، وكانوا نحو مائة وأربعين وقطع رؤوسهم وسار بالرؤوس إلى مصر [٩٢] .

لما وصل الباشا سليمان إلى السلطان سليمان ، باسطنبول ، قدم له رسائل من أهل مكة ، وعدن ، وزبيد ، والشحر وغيرها بأنه قد أخذ الهند وقتل الإفرنج ، وملك بنادرهم ، ولم تبقى منهم غير شرذمة ضعيفة مطرودة . وعدد للسلطان جلة بنادر وأنه وصل بخراجاتها . وأظهر مالاً عظيماً وتحفاً كثيرة فسكن روع السلطان لكن لم يعقب كلامه إلا وصول سفن الإفرنج إلى السويس ، وروعه أهل مصر منها . فقال السلطان له : أين كلامك ؟ ذكرت أنهم هلكوا ، وهاهم الآن قد وصلوا إلى مصر . ويقال أن الباشا لما تحقق أنه هالك هرب ، وقيل قتل . قلت ودخول الإفرنج إلى السويس كان في سنة سبع وأربعين وتسع مائة [٩٣] .

ويورد صاحب كتاب ((السناء الباهر)) [٩٤] سبباً آخر لهروب سليمان باشا من

الهند فيقول أن سليمان باشا عندما وصل إلى الهند أرسى (مظفر أباد) ، فبعث له الخواجة صفر بهدايا ، وأراد أن يقابله فنصحه أحد رجال الباشا بألا يفعل ، وأخبره لما صنع الباشا في مصر وعدن فبقي صفر يخدمه من بعيد ، معتذراً عن عدم استطاعته الحضور إليه .

وأرسل إليه السلطان محمود شاه أحد وزرائه مع وعد من السلطان بمساعدته في الجهاد ضد الإفرنج ، ولكن سليمان باشا قابل الوزير بازدراء ولم يأذن له بالجلوس . وعندما عاد الوزير إلى السلطان محمود أخبره بما حدث . وأرسل الباشا قفطاناً وسيفاً إلى السلطان محمود ، فقال السلطان محمود للرسول أخبر مولاك إن كانت الحلة والسيف من حضرة السلطان سليمان سنلبسها ، أما إذا كانت منه ، فمرتبته لا تسمح له بأن ينعم علينا بحلة شرف - فلما عاد الرسول إلى الباشا بهذا الجواب تملكه الغيظ وأسف لسماحه بعودة وزير السلطان محمود . ثم أن السلطان محمود أمر (الخوذا وندخان صفر) أن يستنبط وسيلة لإبعاد سليمان باشا عن الهند ، فلفق الخواجة صفر رسالة على لسان كبيرة الإفرنج في (جوه) إلى قائد الإفرنج في ((الديو)) مضمونها :

إننا حشدنا قواتنا في ٣٠٠ غراب و ٥٠ غاليون . وتأكد أننا سنسحق الأتراك ونبيد جيشهم . وأشاع صفر أنه قبض على رسول الإفرنج وأخذ منه الرسائل . وعندما سمع الباشا بذلك أرسل يسأل صفر ، فأجابه أن الأمر كما سمعته ، فتملكه رعب شديد ، لأنه كان جباناً ولم تعرف له شجاعة إلا على الذين يقعون أسرى بين يديه . وذلك كان سبب عودته هارباً من الهند [٩٥] .

محاولة حرق سفن (ترسانة) السويس :

كرد على حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند قام البرتغاليون بحشد معظم سفنهم في غربي المحيط الهندي ، وأقلعوا من ((جوه)) في شهر رمضان ٩٤٧هـ

(١٥٤٠م) إلى السويس بقصد تحطيم وحرق مسفن (ترسانة) والسويس . بما فيها من السفن التي لا زالت تحت البناء وكانت حملتهم مؤلفة - كما قال بافقية - من نحو سبعين سفينة . ويلم البرتغاليون في البحر الأحمر الطريق المحاذية للساحل الأفريقي في الذهاب والإياب ، وعرجوا في هذه الطريق على جزيرة (دهلك) و (سواكن) و (القصير) . ولما وصلوا إلى الطور بسيناء أحرقوا منزل الأمير (بهرام) الذي نصبه سليمان باشا والياً على عدن . ووقفت الحملة خمسة أيام في الطور ثم أقلعت إلى السويس . ويقال أن أحد الأمراء الأتراك كان في طريقه إلى مصر وقال لهم : أدركوا العمارة (المسفن) ..... فأدركوها قبل وصول الإفرنج . فلما وصلت حملة البرتغاليين إلى السويس ، دخلت منها ثمانية غربان بالليل إلى بندر السويس فوجدته حازماً وعلى أهبة الاستعداد والعساكر كثيرة فرجعت وأخبر من فيها من الإفرنج أصحابهم فعادت الحملة إلى (دهلك) وتوقفت في دهلك تنتظر موسم هبوب الرياح الجنوبية الغربية [٩٦] .

وكان بإمكان قوات الأتراك البحرية في السويس وجدة أن تدرك الحملة البرتغالية في دهلك ، وقواتهم في الموانئ اليمنية أن تضيق عليها الخناق عند مدخل البحر الأحمر . ولكن الأتراك لم يقوموا بأي إجراء من هذا القبيل ، وتركوا البرتغاليين يخرجون بسلام من مضيق باب المندب .

حملة بيري ريس إلى الخليج العربي :

بيري (محيي الدين) ريس ((أشهر قبودنات (أميرالات) العثمانيين)) رافق منذ صباه كمال ريس في أسفاره في البحر الأبيض المتوسط ، فاكتسب خبرة ومهارة في قيادة السفن والمعارك البحرية . عين سنة ٩٥٩هـ (١ - ١٥٥٢) قبودانا للبحرية المصرية. [٩٧]

قاد بيري حملتين : الأولى إلى عدن في سنة ٩٥٥هـ (٨ - ١٥٤٩م) لمحاصرتها من

ناحية البحر ، بعد أن فشلت محاصرتها من ناحية البر ، وكان علي بن سليمان الطولقي ، أحد شيوخ القبائل المجاورة لعدن ، قد استولى على عدن سنة ٩٥٤هـ وطرد الحامية التركية منها .

فأسرع البرتغاليون إلى عرض مساعدتهم له على حرب الترك فقبلها . وفي الوقت الذي نجح فيه (بيري) في استرجاع عدن من يد الطولقي كانت حملة برتغالية مكونة من ٢٢ (غرابا) وواحد (غاليون) كبير في طريقها إلى عدن لمساعدة الطولقجي ، وتقدمت منها ، كطليعة للحملة ، ثلاثة غربان فوصلت إلى عدن لتجدها قد أصبحت بيد الأتراك ، وقبض الأتراك على اثنين منها وهرب الثالث عائداً إلى بقية الحملة [٩٨] . وعاد بيري إلى مصر .

أما حملته الثانية فقادها إلى الخليج العربي في سنة ٩٥٩هـ (١ - ١٥٥٢م) بعد أن أصبح قبوداناً للبحرية المصرية [٩٩] وبعد نحو خمس سنوات من وصول الأتراك ، باستيلائهم على البصرة إلى رأس الخليج العربي .

فكان لابد للأتراك بعد أن أصبحوا أمام البرتغاليين وجهاً لوجه في الخليج ، من وجود قوة بحرية تحمي البصرة ، وموانئ الساحل العربي ، الذي امتد نفوذهم إليه بعد سيطرتهم على البصرة سنة ١٥٤٦م .

ومن أجل هذا الغرض خرج ((بيري)) في حملته الثانية في ثلاثين سفينة بين (غراب) و ((شانيه)) [١٠٠] ليصل بها إلى البصرة حيث يترك منها ما يكفي لحمايتها . لكن بيري تورط في معارك مع البرتغاليين في مسقط و ((هرمز)) أتلفت معظم السفن ولما وصل إلى البصرة حيث ترك السفن المخربة ، وخرج بثلاث شحنها بالغنائم الوافرة التي غنمها في مسقط ، وبجوار البحرين ، غرقت احدة من السفن ولم يعد إلى السويس إلا بسفينتين فقط ، وادعى في تقريره أنه لما بلغه خبر توجه الأسطول البرتغالي إلى الخليج (ترك جميع السفن حرصاً على تخليص غنائمه) [١٠١] فلما بلغ سلطان الدولة العثمانية خبر الخسائر

الجسيمة في الأسطول أمر بإعدامه ، فأعدم في القاهرة ((وأرسلت الغنائم التي جلبها إلى دار السعادة)) [١٠٢] .

وعين بدله (مراد رئيس) لإعادة الأسطول إلى السويس وأرسل إلى البصرة عن طريق البر ومعه من الأدوات ما يلزم لترميم ما تلف من السفن . وبعد أن أصلح السفن ترك للمحافظة على البصرة سفينتين حربيتين وخمسة أغربة وأقلع بالباقي يريد السويس وكان عدد السفن سبع عشرة سفينة . ولما وصل إلى مضيق هرمز قابله أسطول للبرتغاليين وكأنه كان ينتظر قدوم الأسطول العثماني في البصرة فنشبت بين الطرفين معركة استمرت من الصباح إلى المساء أصيب فيها كل منهما بخسائر جسيمة واستشهد قائد سفينة (مراد رئيس) وكثير من الجنود ولم يستطع (مراد) مواصلة السفر إلى السويس بسبب ما أصاب بعض السفن من التلف فغادر إلى البصرة .

ولما وصل تقريره بما حدث إلى الدولة عينت بدله (سيدي علي رئيس) وهو من علماء الملاحة والفلك ، شهد كثير من المعارك البحرية مع (خير الدين بربوس). ولما عين رئيساً للبحرية العثمانية في البحر الأحمر سنة ٩٦٠هـ ، أمر بإعادة السفن الباقية بميناء البصرة إلى السويس ((لتقوية الأسطول العثماني هناك)) وسافر براً إلى البصرة . وبعد أن رمم ما تلف من السفن في المعركة بين مراد رئيس البرتغاليين ، أقلع هابطاً إلى مدخل الخليج ، ولما كان قريباً من مسقط قابله أسطول كبير للبرتغاليين فحاربهم ((وانتصر عليهم انتصاراً عظيماً . ثم تقدم يقصد السويس ، وفي أثناء سيره هبت عليه زوبعة شديدة ، اضطرته لأن يتبع مجرى الريح ، لعدم قدرته على مقاومتها بتلك السفن التي تخرب معظمها من كثرة الحروب ، إلى أن ألقته الرياح أخيراً على ساحل الهند فغرق منه بعض السفن) ولما خاف بحارة السفن والجنود من شدة الرياح والأمواج أوقف ما تبقى من السفن بساحل كجرات وأخرج من فيها من البحارة والجنود . [١٠٣]

وهكذا كانت نهاية أسطول (بيري رئيس) في حملته إلى الخليج العربي . لم يبق منه غير السبع سفن التي بقيت لحماية البصرة .

حملة علي بك :

يقول بافقيه في أحداث سنة ٩٨٤هـ ما معناه : وفي يوم الاثنين الأول من شهر رجب وصل إلى بندر الشحر غرابان تركيان قبطانهما اسمه (سنان) فيهما نحو مائتين من الجنود ومثلهم من البحارة والهنود قاصدين (راس الحد) للإفرنج . وأخذوا برشه مشحونة بالأموال كانت تقصد هرمز وأخذ ((غليون)) من البندر وساعدهم الهنود ورجعوا غانمين سالمين . وكان وصولهم إلى الشحر يوم ثلاثة وعشرين من شهر شعبان وساروا إلى ((المكلا)) واقتسموا الغنائم ومكثوا أياماً ثم ساروا إلى عدن [١٠٤] .

ويعتقد بعضهم [١٠٥] أن الحملة أرسلت بأمر سنان باشا ((والي اليمن)) وهذا يفسر خطأ ((بافقيه)) في قوله أن قائد الحملة ((اسمه سنان)) إذ أنه من غير اللائق أن يرافق سنان باشا والي اليمن هذه الحملة وأن قبطان الحملة كان (علي بك) وأن أخطأ بافقيه في تاريخ وصول الحملة إلى الشحر .

وقد خرج علي بك - كما تذكر المصادر البرتغالية - من ميناء ((المخا)) على رأس أربعة غربان . وأن أهل مسقط هم الذين حرضوا سنان باشا على غزو مسقط ووصفوا له ثراء البرتغاليين بها . ولا تذكر المصادر البرتغالية شيئاً عن وجود هنود بالسفن ، ويقال أن علي بك تحت إرشادات ملاحين يعرفون الساحل العربي والملاحة حوله ، تجنب الاقتراب من راس الحد ، وأنزل جانباً من قواته في خليج (سدابو) في ٢٢ سبتمبر ١٥٨١م ، وهاجم مسقط من البر والبحر ، فانسحب الأهالي إلى (مطرح) واستولى على حصن البرتغاليين ونهب ما فيه من الأموال ثم شحن ثلاث سفن كانت بالميناء بما غنمه من الأموال وغادر الميناء [١٠٦] .

والخطأ في هذا الافتراض أن سنان باشا ، والي اليمن غادر اليمن في شوال سنة ٩٧٨هـ (مارس ١٥٧١م) بعد أن سلم مقاليد الأمور فيها لخليفته بهرام باشا . أي قبل حملة علي بك بعشر سنوات . ثم أن بافقيه قال أن اسم القبطان (سنان) ، ولو كان سنان هو والي اليمن ، لقال ((سنان باشا)) .

وهناك مسألة الرياح التي سافرت لها الحملة إلى ومن (مسقط) . فبافقيه يقول أن الحملة مرت بميناء الشحر في الأول من شهر رجب وعادت إلى الشحر في الثالث والعشرين من شهر شعبان من نفس السنة ، أي أنها قضت حوالي خمسين يوماً بين (مسقط) و (الشحر) . ومن المعروف أن سفر السفن الشراعية من الموانئ الغربية إلى الموانئ الشرقية يكون بالرياح الجنوبية الغربية ، وعكسها بالرياح الشمالية الشرقية . وهذا أن الحملة سافرت إلى مسقط في الأيام الأخيرة من موسم الرياح الجنوبية الغربية ((الكوس)) وعادت من مسقط في الأيام الأولى من موسم الرياح الشمالية الشرقية ((الأزيب)) قبل أن تصل نجدة برتغالية إلى مسقط من هرمز .

في ختام هذا البحث نعود إلى مقدمته ، حيث تساءلنا عما إذا كانت البحرية العثمانية قد قامت بمهمتها في التصدي لأساطيل المخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي ، فنلاحظ في ضوء ما تقدم من المعلومات أن الحكم بصفة عامة ، بفشل أو نجاح كل حملة من حملات الأتراك البحرية في القيام بمهمتها لن يكون منصفاً . فحملة سليمان باشا الخادم لم تنجح إلا في فتح عدن . ولم تفتحها إلا بالخديعة أما المهمة الأصلية أو الأساسية التي جهزت من أجلها ، وهي محاربة البرتغاليين في الهند فلم تقم بشيء منها ، وكان من الممكن لمثل هذه الحملة الضخمة ، لو اختير لها القائد المناسب أن تقضي بالتعاون مع القوات الهندية والمتطوعين من العرب ، على قواعد البرتغاليين في (كوشي) و (جوه) فتتساقط بسرعة بعدها بقية حصونهم في هرمز ومسقط ، بل وفي شرقي أفريقيا فأسطول

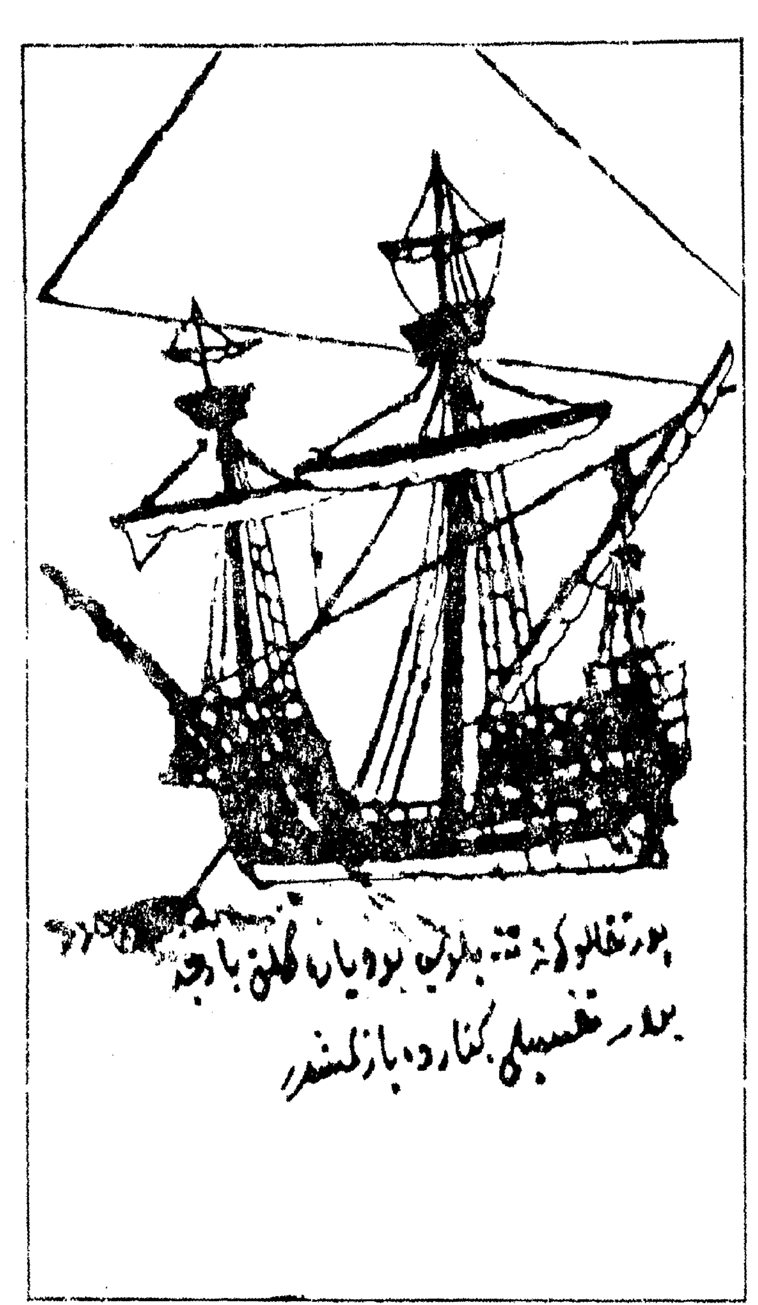
البرتغاليين في غرب المحيط الهندي ، الذي حشدوه لضرب ترسانة السويس في سنة ٩٤٧هـ لم يكن - كما رأينا - أكبر من الأسطول العثماني في حملة سليمان باشا. وقد رأينا أن الخواجة صفر وهو نصراني اعتنق الإسلام (١٠٧) كيف استطاع بقوات أضعف تسليحاً من قوات سليمان باشا وأقل منها عدداً ، أن يسقط حصون البرتغاليين في ((الديو)) واحد بعد الآخر ويستعيد جزيرة الديو ، ويحاصرهم في الحصن الذي بقي معهم عند قدوم سليمان باشا وتمكن من إسقاطه بعد هروب سليمان باشا وطرد البرتغاليين من ((الديو)) كلها (١٠٨) لكن سليمان باشا لم يكن من المحاربين وإنما كان من المماليك الخصيان الذين تربوا بين حريم السلطان سليم الأول (١٠٩) وليس لإسناد قيادة الحملة إليه من سبب غير خيبة أمل السلطان سليمان القانوني في قادة الحملات السابقة وثقته من إخلاصه للدولة العثمانية.
أما الحملة الأولى فيرجع فشلها إلى الصراع بين قادتها على السلطة في (زبيد) وقد عرفنا سليمان الرئيس في حملة حسين الكردي الثانية محارباً باسلاً استطاع بعد مقتل زميله حسين الكردي ، أن يصد غزو (لوبو سوريز) لجده .
ونلاحظ أيضاً أن حياة جميع قادة الحملات باستثناء علي بك ، وسيدي علي رئيس، ، قد انتهت إما بالإعدام أو الاغتيال فمن الذين أعدموا بيري رئيس ، وقيل أن سليمان باشا أعدم وقيل أنه مات في المنفى (١١٠) فبيري رئيس ، رغم خبرته بالملاحة والمعارك البحرية ، فإن انتصاراته في (عدن) و (مسقط) قد ملأته غروراً - كما يبدو - فجره هذا إلى التهور والتورط في معارك أدت إلى تصدع أسطول السويس فاستحق بذلك الإعدام .
أما سيدي علي رئيس فقد استطاع أن يفلت من حلقة حصار الأسطول البرتغالي حول مضيق هرمز ، ويصل إلى (رأس الحد) ولا ذنب له في دفع الرياح العاصفة لسفنه وتحطيمها على سواحل ((كجرات)) فقد كان يجهل مخاطر الملاحة شرقي هذا الرأس - وهو كما قال ابن ماجد ((رأس منجذب إلى البحر ، أقرب ما

يكون من بر العرب للهند)) وقال في تحذير المسافر بجوار الرأس ما معناه : وهناك ملتقى الرياح وتيارات كثيرة . فاحرص على حسن مجاراته ، ودقق النظر فيه في المسير بالليل . فإننا قد رأينا من جاء إلى خلف جبل (جعلان) و (السعتري) فضيع المجرى وتوه في السند ومكران [١١١] وهذا ما جعل سيدي علي رئيس يعكف بعد ذلك على دراسة مؤلفات الملاح العربي المشهور أحمد بن ماجد ونقل ما في ((كتاب الفوائد)) لابن ماجد ، من قواعد وطرق ومواسم السفر في المحيط الهندي إلى كتابه الذي سماه بـ (المحيط) [١١٢] .

وعلى ضوء ما تقدم نرى بوضوح أثر تصرفات قادة الحملات العثمانية الهوجاء المتهورة في فشل هذه الحملات في القيام بمهمتها على أكمل وجه . بل إن بعض الحملات تحول إلى أداة لخدمة أغراض قادته الشخصية .

كتاب تاريخ حوادث السنين ووفاة العلما
العاملين والسادة المربين والاوليا
والصالحين من سنة تسع مايه
الى التي هي للالف موفيه
تاليف السيد الشريف
العلم المنيف جمال الدنيا
والدين محمد بن عمر
الطيب بافقيه
باعلوي
رحمه الله رحمة الابرار واسكنه جنات تجري من تحتها الانهار

صورة لعنوان كتاب : بافقيه الشحري



برشــة (بارجــة)
رسمها الأميرال العثماني محي الدين بيري رئيس في إحدى خرائطه. نشرت الصورة مكبرة في كتاب البروفيــور ســارجنت «البرتغاليون حول ساحل بلاد العرب الجنوبي»

الحواشي والمراجع

١- محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٤ ص٤٦٦- ٤٦٧ - تحقيق الدكتور محمد مصطفى - القاهرة ١٩٦٠ .

٢- نفس المصدر .

٣- شهاب الدين أحمد بن ماجد ، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، ص٣٨٥ (تحقيق إبراهيم الخوري) دمشق ١٩٧١م .

٤- با يزيد : عند الدكتور السيد مصطفى سالم في كتابه ((الفتح العثماني الأول لليمن)) ص٧٨ ، (بيازيد).

٥- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٩٥ - ١٩٦ .

٦- الرومي : في المصادر اليمنية يقصد به التركي .

٧- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٢٠١ .

٨- محمد بن عمر الطيب بافقيه ، المعروف بـ (الشحري) ، تاريخ حوادث السنين ووفيات العلماء العاملين والسادة المربين والأولياء الصالحين ، من سنة تسع مائة إلى التي هي للألف موفيه ص٨٨ب (مخطوط) .

٩- الأميرال إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار في دول البحار ، ج٢ ، ص٣٨ ، ٣٩ .

١٠- الدكتور السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ص١٤١ ، الطبعة الثانية (نقلاً عن بجوى باشا ، تاريخ بجوى (بالتركية) .

١١- سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج٢ ، ص٤٠ .

١٢- نفس المصدر .

١٣- د . مصطفى سالم - الفتح العثماني ص١٣٤ - ١٣٥ .

١٤- سرهنك ، حقائق الأخبار ج٢ ، ص٤٠ .

١٥- بافقيه ، حوادث السنين ، ص١٨٦ب (مخطوط) .

١٦- السلطان محمود : كان سلطاناً على ((كجرات)) قبل بهادر شاه ، وهو غير السلطان محمود الذي تولى السلطنة بعد مقتل عمه بهادر شاه .

١٧- كليكوت : أهم موانئ المليبار ((بلاد الفلفل)) من ساحل الهند الغربي ويعرف سلطانها عند العرب بالسامري .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٨- كوشي أو كشين : ميناء جنوبي كليكوت . كان سلطانها منافساً لسلطان كليكوت وهو أول من سمح للبرتغاليين ببناء قلعة في بلاده.

19) R.B. Serjeant, The Portugese off South Arabian Coast, P1.

٢٠- تسافر السفن الشراعية من الشمال إلى الجنوب في البحر الأحمر برياح الشمال التي يوافق موسمها موسم الرياح الجنوبية الغربية بالصيف .

٢١- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٨٤ .

٢٢- البرشه : البارحة : انظر الشكل . والغراب نوع من السفن الحربية الصغيرة .

٢٣- عبد الرحمن بن علي الديبع ، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، ص٣٠٤ (تحقيق الدكتور يوسف شلحد) مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء ١٩٨٣ .

٢٤- حقات : خليج صغير جنوبي شبه جزيرة عدن .

٢٥- ابن الديبع ، المزيد ص٣٠٥ - ٣٠٤ .

٢٦- بافقيه ، حوادث السنين ، ص٢٨ب (مخطوط) .

٢٧- نفس المصدر .

28) Serjeant, The Portuguese, P45.

٢٩ د . مصطفى ، الفتح العثماني ص٦٢ (نقلاً عن تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ، لزين الدين المليباري .

٣٠- نفس المصدر .

٣١- نفس المصدر .

32) Serjeant, The Portuguese, P. 45 .

33) Ibid P. 44

34) Ibid P. 44

35) Ibid P. 44

٣٦- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ص١٥١ .

٣٧- بافقيه ، حوادث السنين ، ص٣٨ب (مخطوط) .

٣٨- جوه : قوة عند العرب .

39) Serjeant, The Portuguese, P. 16

٤٠- ابن الديبع ، الفضل المزيد ص٣٤٥ .

٤١- يقول سارجنت أن (البوقيرق) دخل البحر الأحمر ليهاجم جدة لكن الرياح أرجعته إلى كمران .

٤٢- ابن الديبع ، الفضل المزيد ، ص٣٤٥ - ٣٤٨ .

٤٣- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ص٣٠٧ - ٣٠٨ .

44) Wilson, A. The Persian Gulf, P. 121

٤٥ مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص٨٢ ، الطبعة الثانية .

٤٦- ابن الديبع ، الفضل المزيد ص٣٦٠ .

٤٧- نفس المصدر .

٤٨- بافقيه ، حوادث السنين ، ص٤٠ب (مخطوط) .

٤٩- مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص٨٨ - ٨٩ .

٥٠- بافقيه ، حوادث السنين ، ص٤٦ب .

٥١- نفس المصدر .

٥٢- نفس المصدر .

53) Serjeant, The Portuguese

54) Ibid

٥٥- مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص١٣٠ .

56) Serjeant, The Portuguese, P. 19

57) Ibid P. 171

٥٨ - بافقيه ، حوادث السنين ص٥٢أ (مخطوط) .

٥٩- نفس المصدر .

60) Wilson, A. The Presian Gulf (London 1959) P. 151

61) Ibid

٦٢- أحمد بو شرب ، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين - مجلة ((الوثيقة)) - البحرين ، العدد الرابع - السنة الثانية يناير ١٩٨٤ .

٦٣- نفس المصدر .

٦٤- نفس المصدر .

٦٥- صاحب كتاب ((البرق اليماني في الفتح العثماني)) هو قطب الدين محمد بن أحمد النهر والي ، توفي في ٩٨٨هـ .

٦٦- مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص١٣٤ - ١٣٥ .

٦٧- بافقيه ، حوادث السنين ، ص٦٦ب (مخطوط) .

٦٨- نفس المصدر .

٦٩- نفس المصدر ص٦٧ب .

٧٠- نفس المصدر .

٧١- نفس المصدر ص٦٨أ .

٧٢- نفس المصدر ص٧٠أ .

٧٣- نفس المصدر ص٦٨ ب .

٧٤- يعتقد الدكتور مصطفى سالم أن سفر مصطفى بيرم إلى الهند كان جزءاً من خطة الحملة العثمانية الأولى التي قادها سلمان رئيس وخير الدين حمزة .

٧٥- بافقيه ، حوادث السنين ص ٦٩ ب (مخطوط) .

٧٦- نفس المصدر .

٧٧- نفس المصدر ص٦٨ أ .

٧٨- مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص١١١ .

٧٩- بافقيه ، حوادث السنين ، ص٦٨أ ، ب

٨٠- نفس المصدر ، ص٦٨ ب .

٨١- نفس المصدر .

٨٢- ابن ماجد ، كتاب الفوائد ، ٣١٢ .

٨٣- بافقيه ، حوادث السنين ، ص ٨٨ ب .

٨٤- سرهنك ، حقائق الأخبار ، ص ٣٨ - ٣٩ ج٢ .

٨٥- نفس المصدر .

٨٦- بافقيه ، حوادث السنين ص ٩٥ أ .

٨٧- نفس المصدر ص٩٧ - ٩٩ ب .

٨٨- نفس المصدر ص٩٥ - ٩٦ أ .

٨٩- نفس المصدر ص١٠٠ أ .

٩٠- مؤلف كتاب (السناء الباهر) هو جمال الدين الشلي .

91) Serjeant, The Portougese, P. 51

٩٢- بافقيه ، حوادث السنين ص ١٠٨ أ ، ب .

٩٣- سرهنك ، حقائق الأخبار ج٢ ، ص٤٠ .

٩٤- بافقيه ، حوادث السنين ص١٣٥ أ ، ب .

٩٥- سرهنك ، حقائق الأخبار ، ٤٠ ، ٤٢ ج٢ .

٩٦- نفس المصدر .

٩٧- نفس المصدر .

٩٨- نفس المصدر .

٩٩- نفس المصدر .

١٠٠- بافقيه ، حوادث السنين ، ص ١٨٦ ب .

101) Serjeant, The Portuguese, P. 180

102) Serjeant, The Portuguese, P. 280

١٠٣- سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج٢ ، ص٤٠ .

١٠٤- بافقيه ، حوادث السنين ، ص١٠٠ ب .

١٠٥- مصطفى ، الفتح العثماني ، ص ١٤٣ .

١٠٦- المنجد ، قسم الإعلام .

١٠٧- أحمد بن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٢٦٦ .

١٠٨- ث . شوموفسكي ، ثلاث أزهار في معرفة البحار ص ٧٠ (ترجمة الدكتور محمد مرسي) عالم الكتب - القاهرة .

الموقف البريطاني من التواجد العثماني في الأحساء وقطر عام ١٨٨٨
(دراسة وثائقية من خلال المراسلات البريطانية)

الدكتور
محمد حسن العيدروس
جامعة الإمارات

مقدمة :

هذه الدراسة تاريخية وثائقية مقدمة إلى ندوة رأس الخيمة التاريخية ، وفي البداية سوف نشير إلى الأهمية التاريخية لهذه الرسائل السياسية ، ثم تعريف عام عن الرسائل التي تتعلق بموضوعنا ، وبعدها نصور القلق البريطاني من التواجد العثماني في الأحساء وقطر ، ابتداء من رسالة الوكيل المقيم البريطاني في البحرين ، إلى رسالة المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى المعتمد السياسي البريطاني في بغداد ، وأخيراً رسالة القنصل العام البريطاني في بغداد إلى السفير البريطاني في اسطنبول .

ثم يذكر البحث رسالة السفير البريطاني في طهران إلى وزير خارجيته عن الأوضاع في قطر ومشكلة الرعايا الفرس هناك ، وبعدها رسالة السفير البريطاني في اسطنبول ثم رسالة الخارجية البريطانية إلى وزارة الهند وأخيراً رد حكومة الهند على رسالة الخارجية البريطانية .

الأهمية التاريخية للرسائل البريطانية :

تعتبر الرسائل التي سنعرضها من أهم الوثائق البريطانية لعدة أسباب منها :

أولاً : أنها توضح لنا كيفية إصدار القرار السياسي للحكومة البريطانية ،

والمراحل التي يتم فيها اتخاذ الخطوات اللازمة بعد دراسة من مختلف الجوانب " لموضوع معين " من خلال عرض التقارير والرسائل من الجهات المعنية ، والتدرج الذي يتم عبرها نقل المعلومات اللازمة حتى تصدر الجهة المختصة ، كوزارة الخارجية قرارها بعد استيفائها لوجهات النظر المختلفة والمعنية بالأمر .

ثانياً : كانت العلاقات البريطانية - العثمانية تمر في هذه المرحلة بحذر وتوتر شديد ، خاصة بعدما أعلن السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الإسلامية ، ومساندة المسلمين ضد الاستعمار البريطاني الذي كان يحكم معظم الأجزاء الإسلامية في آسيا وأفريقيا ، وهذا ما جعل البريطانيون ينظرون إلى سياسة السلطان عبد الحميد بنظرة الشك والريبة مما يشكل خطراً على تواجدهم ومصالحهم في المستعمرات ، ويثير مشاعر المسلمين في تلك المناطق وخاصة مسلمي الهند وأفغانستان ، الذين كانوا يتطلعون إلى العون الخارجي لإنقاذهم من الاستعمار البريطاني ، ووصول العثمانيين إلى الخليج العربي قد يقرب المسافة إليهم ، وخاصة أثناء قدومهم إلى مواسم الحج في الديار المقدسة بالحجاز. وإضافة إلى ذلك هناك أسباب أخرى ، مثل فقدان الدولة العثمانية أقاليمها في البلقان ، وفتح قناة السويس مما يسهل على القوات البحرية العثمانية التحرك إلى أقاليمها في جنوب وشرق الجزيرة العربية .

ثالثاً : قلق الحكومة البريطانية من التواجد العثماني في الأحساء وقطر ، ومحاذاته للنفوذ البريطاني في كل من البحرين وأبو ظبي ، وهنا تكمن الخطورة من امتداد التوسع العثماني إلى تلك المناطق ذات النفوذ البريطاني وتعاطف عرب الخليج مع الدولة العثمانية .

رابعاً : تأتي أهمية هذه الرسائل لأنها جرت في الفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، كما أنها أدت فيما بعد إلى اتفاقية سنة ١٩١٣ ورسم الخط الأزرق بين الجانب البريطاني والجانب العثماني .

تعريف عام بالمراسلات السياسية البريطانية :

جرت المراسلات التي دارت حول التواجد العثماني في الأحساء وقطر ، بين إدارتين بريطانيتين ، لكل منهما شخصيتها المستقلة في إطار الحكومة البريطانية ، ولهذا نجد تبايناً في وجهات النظر في بعض القضايا ، واتفاقاً في بعضها الآخر ، ولكن معظم القرارات كانت تتخذ بعد إجراء دراسات ومراسلات بين الإدارتين وهما وزارة الخارجية البريطانية وحكومة الهند البريطانية .

تعتبر الخارجية الواجهة الرسمية للحكومة البريطانية ، ومراسلاتها تتم عبر القنوات السياسية والدبلوماسية عن طريق سفرائها في الدول المعنية ، كالدولة الفارسية والدولة العثمانية إضافة إلى قناصلها هناك .

ولذا فإنها لم تكن على علم كامل بمجريات الأمور في الخليج العربي حيث التواجد العثماني في كل من الأحساء وقطر ، ولهذا كان لابد للخارجية البريطانية من أن تتجه إلى حكومة الهند لمعرفة الأوضاع والأمور هناك بدقة أكثر ، لأن حكومة الهند كانت مسؤولة من الناحية الإدارية والسياسية للخليج العربي ، أما كيف يتم ذلك ؟

فيمكن القول بأن الإدارة البريطانية في الخليج العربي اعتمدت على ممثليها في المنطقة وفي مقدمتهم المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ، ومقره في مدينة ((بوشهر)) ويتبعه مجموعة من الموظفين البريطانيين مثل الوكلاء المقيمين والمعتمدين والضباط السياسيين ، وبعض قطع الأسطول البريطاني المستقر بصفة دائمة في الخليج العربي ، وهؤلاء الموظفون منتشرون في كل من البحرين والإمارات وعمان وبندر عباس والبصرة .

ومن الطبيعي أن هؤلاء الموظفين يكونون أقرب إلى المواقع في معالجة الأمور المتعلقة بشؤون الخليج العربي بحكم موقعها وعملهم ، وهم كما ذكرنا يتبعون حكومة الهند البريطانية .

ومن هذا المنطلق كانت وزارة الخارجية تعتمد على حكومة الهند وجهازها الإداري في الخليج العربي في الحصول على كافة المعلومات المتعلقة بالمنطقة أثناء اتصالهم مع الحكومة العثمانية أو الفارسية ، أو غيرها من الدول الأخرى حول موضوع الخليج العربي .

ولهذا يمكن أن نقول أن القرارات ووجهات النظر بالنسبة للخارجية البريطانية لم تكن تطابق الواقع إذا لم تأخذ رأي حكومة الهند ، نظراً لبعدها عن المنطقة وعدم معرفتها الكاملة بأوضاعها على عكس القرارات التي تتخذها حكومة الهند، ليس لوجودها فقط في الخليج العربي وإنما لخبرتها السابقة والطويلة منذ القرن السادس والسابع عشر ، واحتكاكها بأبناء الخليج العربي .

وهذا ما نجده من خلال المراسلات البريطانية عن التواجد العثماني في الخليج العربي ، تلك العلاقة بين الخارجية البريطانية والمتمثلة في مراسلات السفير البريطاني في طهران واسطنبول وقناصلها في بغداد ، وبين حكومة الهند وموظفيها كالمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي والوكيل المقيم في البحرين .

تصوير بعض المعالم الهامة للسياسة البريطانية من خلال رسائلها :

تعبّر الرسائل البريطانية عن قلقها وتخوفها من التواجد العثماني في الأحساء وقطر ، وهي من أهم المعالم السياسية البريطانية التي نلاحظها في رسائل موظفيها ورجال السلك الدبلوماسي .

بدأ القلق البريطاني مع بداية السياسة العثمانية التي اتجهت نحو العودة إلى الخليج العربي منذ عام ١٨٧٠ ، وذلك بعد التغييرات التي طرأت في سياستها تجاه المنطقة لعدة أسباب . منها وصول بعض القيادات الجوية إلى مناصب رفيعة أمثال مدحت باشا والذي كان يتطلع لمنافسة بريطانيا في الخليج العربي ، وذلك بعد

غياب طويل للنفوذ العثماني في المنطقة إضافة إلى تشديد قبضتها على الجزيرة العربية وخاصة الأحساء ونجد والحجاز.

ونجح العثمانيون بالفعل في إعادة حكمهم المباشر للجزيرة العربية وخاصة في إقليم نجد العثماني والأحساء بعد حملة مدحت باشا سنة ١٨٧١، وبوصول الحملة العثمانية إلى الأجزاء الغربية من الخليج العربي، أصبحت حدودهم متلاصقة مع الحدود البريطانية وخاصة في البحرين والإمارات العربية وعمان، مما أثار شكوكاً وقلقاً بريطانيا من التواجد العثماني، خوفاً من تغلغل السياسة العثمانية إلى مناطق نفوذها مما يعني ضياع تلك المناطق التي عملت بريطانيا منذ دخولها إلى الخليج العربي في الحفاظ عليها من أية قوة منافسة.

والسبب الآخر في القلق البريطاني، أنها تملك قوة بحرية تسيطر على مياه الخليج العربي، ولكنها لا تملك القوة البرية التي يملكها العثمانيون، وأن مناطق النفوذ البريطاني خاصة الإمارات العربية وعمان تقعان في المجال البري القريب من التواجد العثماني في الأحساء وقطر ونجد، والقوات العثمانية كانت قادرة على اختراق الصحراء للوصول إلى المناطق البريطانية، وهذا ما دفع ببريطانيا بأن تتبع سياسة حذرة تجاه التواجد العثماني، وبأن لا تحاول إثارتهم بقدر الإمكان، مع التلويح بعدم الاعتراف على السيادة العثمانية إلى المناطق الجنوبية من مدينة القطيف، وعدم السماح لها بأي تقرب إلى منطقة خور العديد، والذي أصبح النقطة الفاصلة بينهما في عام ١٨٨٨، وأن أي تجاوز للعثمانيين عن هذه النقطة معناها سوف يؤدي إلى قيام الحرب بين الدولتين.

ولهذا كانت هناك آراء مختلفة لدى كبار المسؤولين البريطانيين عن التواجد العثماني في الأحساء وقطر وكيفية التعامل معه، ففي الوقت الذي يرى البعض السماح والاعتراف بالسيادة العثمانية، فهناك آراء أخرى تعارض تجاوز انتشار القوات العثمانية إلى نقطة أبعد من مدينة ((القطيف)) وخارج حدود مدينة

البدع العاصمة القطرية ، وهذا ما تكشفه الرسائل البريطانية .

والنقطة الثانية التي كان مثار الجدل بينهم وهي محاربة أعمال الاعتداءات من قبل السكان العرب الواقعين تحت السيادة العثمانية ضد السفن البريطانية وبعض رعاياها ، وأصبحت تطلق عليهم ((كلمة القرصنة)) وكانت تهدف من ورائها إلى تحجيم التواجد العثماني على سواحل الأحساء وقطر وتحت ستار إنساني زائف ، هو ((محاربة القرصنة)) ولكن الدولة العثمانية اتخذت سياسة عدم المبالاة أحياناً ضد المطالب البريطانية وادعاءتها عن ((القرصنة وتجارة الرقيق)) وأحياناً أخرى المقاومة لتلك الادعاءات وعدم السماح للقوات البحرية البريطانية من الاقتراب إلى مياهها الإقليمية تحت ستار (ملاحقة القراصنة) في المياه العثمانية على سواحل الأحساء وقطر .

وحول هاتين النقطتين تركزت معظم المراسلات السياسية للمسؤولين البريطانيين المعينين في المنطقة عن التواجد العثماني في الأحساء وقطر عام ١٨٨٨.

أولاً : رسالة الوكيل المقيم البريطاني في البحرين :

من - الوكيل المقيم في البحرين .

إلى - المقيم السياسي في الخليج العربي .

جاء في تقرير الوكيل المقيم البريطاني في البحرين ، المقدم إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي تحت رقم - (٧٨) - والمؤرخ في ١٨٨٨/٨/٦ .

أنه قد وصل محمد بن عبد الواحد من ((الظهران)) يحمل معه معلومات مفيدة عن العثمانيين ونشاطهم في الأحساء ، حيث ذكر بأن العثمانيين في مدينة ((القطيف)) لم يتخذوا أية إجراءات فعالة لمنع (القرصنة) الاعتداءات من قبل السكان العرب ضد الرعايا البريطانيين في مياه الخليج العربي [١] .

كما أخبر محمد عبد الواحد الوكيل المقيم البريطاني في البحرين استناداً إلى ما

سمعه من أحد العبيد والذي تمكن من الهرب بعدما تم اختطافه من السفينة (البقارة) [٢] والتابعة لأحد الرعايا البريطانيين في البحرين، بالقرب من منطقة - (زلون Zaillon) وسبق للوكيل البريطاني أنه رفع تقريراً إلى المقيم السياسي البريطاني حول هذا الموضوع، وما قاله عبد الواحد استناداً إلى ذلك العبد بتاريخ ١٨٨٨/٥/١٠ ، والذي يحمل رقم ٤١ ، والذي جاء فيه بأن هذا العبد كان قد ذكر لمحمد عبد الواحد بأنه عرض للبيع من قبل الخاطفين أمام عامة الناس في سوق ((القطيف)) وتقدم الجنود العثمانيون بعرض لشرائه بقيمة خمسين دولاراً تقريباً ، وأصبحت مدينة ((القطيف)) والمناطق المجاورة لها غير آمنة وخاصة من قبل بعض مجموعات من البدو، وهناك اثنان أو ثلاثة أفراد من سكان المدينة اختفوا منذ فترة ، كما قتل واحد أو اثنين من أفراد البدو بعدما تم أخذهم من المدينة إلى منطقة نائية وغير مسكونة من العرب في الأحساء ، وتكررت عدة حالات من الاعتداءات إضافة إلى وقوع بعض الجرحى ، في حين أن المتصرف العثماني لم يقم بأي عمل تجاه تلك الحوادث [٣] .

ومما جاء في التقرير البريطاني أن معظم المسؤولين العثمانيين وخاصة المستشارين لهم مصالح خاصة في المنطقة ، والسفن العثمانية التي ترسو في رصيف ميناء ((راس تنورة)) لا تظهر عليها أية علامات تدل على وجود بضائع فيها ، وحصلت السلطات البريطانية في البحرين على تلك المعلومات ليس فقط من العبد أو محمد عبد الواحد وإنما من مصادر أخرى متفرقة [٤] .

ويتضح موقف الوكيل المقيم البريطاني في البحرين من التواجد العثماني في الأحساء ، من خلال تلك الرسائل والتقارير التي كان يرفعها إلى المقيم السياسي البريطاني في ((بوشهر)) من خلال مراقبته للنشاط العثماني في مدن الأحساء القريبة من البحرين ، وكان الوكيل البريطاني يبعث العملاء لالتقاط أخبار العثمانيين ونشاطهم ومدى نفوذهم وحجم التواجد العسكري .

ونلاحظ أن محمد بن عبد الواحد يعمل لصالح بريطانيا كمخبر عن النشاط العثماني في الأحساء ، ثم يعود إلى البحرين حيث مقر الوكالة البريطانية ، ويخبرهم بما استجد من المعلومات لدى العثمانيين ، وجدير بالذكر أن بريطانيا كانت تجند أفراداً من الأصل الإيراني الذين يقيمون في الساحل الغربي من الخليج العربي وخاصة البحرين والكويت والإمارات ، ووجدتهم أكثر من غيرهم تطوعاً للعمل والتعاون مع بريطانيا ثم يأتي بعدهم الرعايا الهنود في الدرجة الثانية . وأن معظم المسؤولين والوكلاء البريطانيين إن لم يكونوا من بريطانيا فكان يتم اختيارهم من الأصل الإيراني أو الهندي ، ومن الذين تعاونوا مع الاستعمار البريطاني أمثال محمد عبد الواحد ، لأن العرب كانوا يرفضون العمل أو التعاون مع هذا المستعمر في مثل هذه الأعمال .

أما ما جاء عن اعتداء العرب ضد السفن البريطانية أو لرعاياها والتي كانت تسميهم ((بالقرصنة)) ، وكانت بريطانيا قد طلبت من الدولة العثمانية اتخاذ إجراءات لقمع الاعتداءات على رعاياها ومصالحها في الخليج العربي .

وعن كون السفينة العثمانية التي ترسو في ميناء رأس تنورة ولا تحمل بضائع فإن الوكيل يقصد من وراء ذلك بأنها كانت تحمل تجارة الرقيق ، وتورط العثمانيين أو موظفيها حسب زعمهم .

ثانياً : رسالة المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي :

من - كولونيل ((روس E. C. Ross)) المقيم السياسي في الخليج العربي والقنصل العام لصاحب الجلالة في فارس .

إلى - المقيم السياسي في بغداد .

بو شهر في ١٨٨٨/٨/١٦

بالإشارة إلى رسالتي التي تحمل رقم ١٩٢ بتاريخ ١٨٨٨/٥/١٨ ، أتشرف بأن أقدم

إليكم نسخة مترجمة لرسالة الوكيل المقيم في البحرين عن شؤون ((القطيف)) والأوضاع الحالية هناك [٥] .

ويصعب على الخارجية البريطانية وعلى سفيرها في اسطنبول فهم الأمور المتعلقة بالخليج العربي أثناء مخاطبته الباب العالي .

ولهذا كانت الإدارة السياسية والقائمون على أمرها وخاصة القنصل العام في بغداد يعتمدون على المعلومات والتقرير الواردة من المسئولين البريطانيين في الخليج العربي ، كالمقيم السياسي والوكلاء الذين يتبعون حكومة الهند ، وتشكل تقارير هؤلاء العمود الرئيسي في السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية فيما يتعلق بالخليج العربي .

كما نجد أ . سي . تالبوت . Talbot - القنصل العام البريطاني في بغداد يبعث برسائل أو تقارير بصورة منتظمة ودورية إلى السير و أ . وايت . السفير البريطاني في اسطنبول ، عن مجريات الأمور والتواجد العثماني في الأحساء ، وذلك من خلال الرسائل والتي تصل إليه من المقيم السياسي في الخليج العربي ، ثم ينتظر من السفير أية تعليمات أو أوامر أو تحريات عن النشاط العثماني في المنطقة .

ثالثاً : رسالة السفير البريطاني في طهران :

رسالة رقم ١٦٨ المؤرخ في ٣ سبتمبر ١٨٨٨ .

من - السير ولف H.D.Wolf - وزير المفوض لصاحب الجلالة في طهران .

إلى - ماركوري سالسبوري - وزير الدولة للشؤون الخارجية - لندن .

أتشرف بأن أقدم لكم مقتطفات من جريدة ((أطلاع)) الفارسية عن الأحداث الجارية في قائمقامية قطر العثماني كما هو واضح ، وتصرفات الحكومة العثمانية تجاه ذلك الإقليم [٨] .

كما أنني قدمت طلباً إلى المقيم السياسي البريطاني في بو شهر حول هذا الموضوع وإنني سوف أقدم لسعادتكم نسخة من رسالتي والبرقية التي أجاب عليها عن المواضيع الأخيرة في قطر ، كما أنني قمت بإضافة بعض الملاحظات التي قدمها (مستر تشرشل) على الترجمة المقتبسة من جريدة ((الإطلاع)) الفارسية ، والتي ينبه فيها سعادتكم من القيام بأية تجاوزات أو مغامرة مع السلطات العثمانية [٩] .

((هذه ترجمة مقتبسات من جريدة الإطلاع الفارسية الصادرة في شهر أغسطس عام ١٨٨٨ ، عن الأوضاع والمشاكل التي حدثت بين قطر العثماني وإمارة أبو ظبي).

رابعاً : رسالة القنصل العام البريطاني في بغداد :

رسالة رقم ٥٧٣ - بغداد - مؤرخ في ١٨٨٨/٨/٢٧

من - ميجور أ . س . تاليوت - القنصل العام لصاحب الجلالة في بغداد .

إلى - السير . و . أ . وايت (W. A . white) سفير صاحب الجلالة في اسطنبول

إشارة إلى رسالتي الدورية رقم ٤٠٠ والمؤرخة في ١٨٨٨/٦/٨ ، لي الشرف أن أقدم لسعادتكم معلومات مستجدة ، وأرفق لكم نسخة من الرسالة العاجلة لكولونيل روس - المقيم السياسي في الخليج العربي حول الموضوع المتعلق بالتواجد العثماني وأوضاعهم في الأحساء وتصرفاتهم العامة وحكمهم في شؤون صحراء القطيف [٦]. وإنني سوف أنتظر تعليمات من سعادتكم قبل القيام بأية تصرفات تجاه القضايا المستجدة في وادي البصرة ، والتي عن طريقها تصدر الأوامر والتعليمات إلى العثمانيين في سنجق الأحساء حول تلك المواضيع [٧] .

ونلاحظ من خلال الرسالتين للمقيم البريطاني والقنصل في بغداد ، التدرج في المراسلات للمسئولين السياسيين البريطانيين في الخليج العربي ، ولهذا نجد الوكيل المقيم في البحرين يرفع تقريره الذي ذكرناه سابقاً إلى الكولونيل روس

المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي وقنصلها العام في فارس ويتخذ من مدينة ((بو شهر)) الفارسية على الخليج العربي مقراً لمقيمته ، والذي قام بدوره برفع نسخة من التقرير الوكيل في البحرين والتي ذكر فيها الأوضاع العثمانية في شؤون ((القطيف)) إلى المعتمد السياسي البريطاني في بغداد .

وجاءت رسالة المقيم السياسي البريطاني إلى المعتمد السياسي في بغداد لعدة اعتبارات ، منها أنه يقيم في الإقليم العثماني الذي يتوسط الخليج العربي والعاصمة اسطنبول ، كما أن سنجق الأحساء يتبع الوالي العثماني في ((بغداد)) ومن مهمة المقيم السياسي في الخليج والقنصل العام في بغداد ، مراقبة تحركات القوات العثمانية والمتجهة إلى الأحساء ، وكل ما يتعلق بالنشاط العثماني في بغداد والبصرة وعلاقته بالتواجد العثماني في الأحساء وقطر ، ورفع تلك المعلومات والتقارير والتوصيات إلى السفير البريطاني في اسطنبول ، حتى يكون السفير على دراية وعلم بجميع مجريات الأمور في أنحاء الدولة العثمانية وخاصة التواجد في غرب الخليج العربي لأنها لا تتبع الخارجية البريطانية من الناحية الإدارية وإنما تتبع حكومة الهند البريطانية .

(أ) المشاكل بين قطر وأبو ظبي :

أرسل الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي ابنه خليفة بن زايد على رأس حملة مكونة من خمسة آلاف من الفرسان والمشاة في مهمة لتأديب الشيخ جاسم بن ثاني حاكم قطر ، ودخلت هذه القوات إلى قلعة الحاكم في قطر في منتصف الليل في اليوم السابع من شهر رمضان ، وبدأت على الفور بمهاجمة مبنى الحكومة دون التعرض لأي شخص آخر من الشعب ، واستمر القتال بين الطرفين حوالي ثلاث ساعات تقريباً حتى بزوغ الفجر ، ونتج عن ذلك القتال مقتل الشيخ علي بن جاسم، وقتل معه ثمانية وثلاثون شخصاً وجرح أربعون شخصاً آخر ، في حين تم أسر

سبعين رجلاً وامرأة ، واستولوا على خمسة خيول وأعداد كبيرة من الجمال وأملاك أخرى كثيرة ، في حين تجنب الشيخ جاسم ملاحقة خليفة بن زايد لمعرفة المكان الذي اتجه إليه مع الأسرى . [١٠]

ويبعث الشيخ خليفة بن زايد قبل مغادرته العاصمة القطرية ستمائة رجل للبحث عن الشيخ جاسم ، والنتيجة غير معروفة إلى الآن ، في حين أرسلت الحكومة العثمانية معدات عسكرية مع ستمائة جندي ، منهم أربعمائة كانوا قد نزلوا في ميناء ((القطيف)) بالأحساء ، ومائتان نزلوا في ((البدع)) عاصمة قطر ، وهم الآن في أماكنهم ، وأوكلت إليهم مهمة تنظيم إدارة الجمارك والموانئ التابعة للحكومة العثمانية في كل من الأحساء وقطر [١١] .

وجاء في تعليق المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي عن إرسال تلك المعدات العسكرية والجنود العثمانيين إلى قطر بقوله :

"نحن لا نعلم إذا كانت الحكومة العثمانية تسمح للشيخ جاسم بعدما أرسلت تلك المعدات والجنود بتدخل ضد حكومة أبو ظبي التابعة للشيخ زايد بن خليفة [١٢] .

ونجد بأن السفارة البريطانية في طهران كانت أيضاً مهتمة بمتابعة الأحداث الجارية وجمع المعلومات من الخليج العربي بصفة عامة والأحساء وقطر بصفة خاصة من جميع النواحي ، ولهذا كانت السفارة تتابع الأحداث عبر الصحف ، والتي قامت بترجمة ما جاء في صحيفة ((الإطلاع)) الفارسية إلى اللغة الإنجليزية وتقديمها إلى المسئولين البريطانيين سواء في وزارة الخارجية أو المقيم السياسي في الخليج العربي ، ليكونوا على اطلاع دائم وشامل لمجريات الأحداث والأمور في المنطقة ، إضافة إلى توصياتهم وتعليقاتهم ، كما جاء في تعليق المقيم السياسي البريطاني عن تخوفه من اشتراك القوات العثمانية مع الشيخ جاسم حاكم قطر ضد الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي ، وكذلك توصية مستر (تشرشل) بعدم التهور والمغامرة في السياسة البريطانية تجاه التواجد العثماني

في الأحساء وقطر .

والجدير بالذكر أن المعارك التي جرت بين قطر وأبو ظبي تطورت أكثر بعد مقتل الشيخ علي بن جاسم الذي كان نائباً عن أبيه حاكم قطر الشيخ جاسم والذي خرج إلى إحدى المدن شمال قطر أثناء مهاجمة خليفة بن زايد وقواته للعاصمة القطرية ، وأن هذا النزاع انتقل فيما بعد بين التنافس البريطاني والعثماني حول منطقة خور العديد التي تفصل الحدود بين الجانبين القطري والظبياني .

(ب) مشكلة الرعايا الفرس في قطر :

أجرى ((أمين السلطان)) اتصالات مع ((أ . نيكلسون A. Nicolson)) في شهر أكتوبر عام ١٨٨٨ ، بناء على توجيهات من شاه فارس ، وقدم خلال تلك الاتصالات عرضة مقدمة من قبل الرعايا الفرس المقيمين في قطر يشتكون فيها من أعمال النهب والسلب الذي تعرضوا له ، والضغوط والمضايقات الشديدة من قبل الشيخ جاسم بن ثاني لإجبارهم على مغادرة قطر ، ولهذا فإنهم يطلبون العون والمساعدة من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ، لوقف هذه المضايقات والحصول على التعويضات المناسبة من الشيخ جاسم عن الخسائر التي لحقت بهم من جراء أعمال السلب [١٣] .

وجرت عدة مفاوضات ومشاورات حول هذه القضية بصورة مستعجلة بين الجانب الفارسي عن طريق ممثل الشاه أمين السلطان والكولونيل روس المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ، وفي نهاية المفاوضات أعلن الكولونيل روس بشكل صريح أنه لا يملك أية قوة لمساعدة الرعايا الفرس المقيمين في قطر عن أعمال السلب والنهب والضغوط التي يتعرضون لها من قبل الشيخ جاسم بن ثاني ، وهو نفس الزعيم الذي كان قد سلب ونهب أملاك الرعايا البريطانيين في الفترة الماضية ، ولم تتمكن الحكومة البريطانية من اتخاذ إجراء ضد هذا الزعيم ،

فكيف لها أن تساعد رعايا فارس في قطر ، وكل ما أمكن للحكومة البريطانية من اتخاذ إجراء ضد الشيخ جاسم هو فقط الحصول على بعض التعويضات عندما نجحت في مصادرة بعض ممتلكاته الخاصة والتي كانت موجودة في البحرين [١٤] .

وعندما فشل المسئولون الفرس في الحصول على المساعدة أو الدعم البريطاني عن الخسائر التي لحقت برعاياهم في قطر ، اتجهوا إلى الوكيل العثماني في مدينة ((بو شهر)) نفسها ، وطلبوا منه التدخل والتوسط لدى شيخ قطر للحصول على تعويضات مناسبة ، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك ، ولم يبقى لهم أية أمل من قبل الوكيل العثماني .

وأمام فشل جميع المحاولات التي بذلها المسئولون الفرس ، فإنهم فكروا في مشروع وخاصة كل من حاجي أحمد خان وكيل أمين السلطان في الخليج العربي و ((ملك التجار)) الذي عرف بنشاطه القوي والفعال في المنطقة ، وهذا المشروع عبارة عن اقتراح بالذهاب إلى قطر وإجراء مفاوضات مباشرة مع شيخها جاسم بن ثاني ، وأن يعرضوا عليه فكرة الحماية الفارسية إذا ما طلب من حكومة الشاه ، وفيما إذا رفض تلك الفكرة والمقترحات المقدمة للحماية في أية حال وهذا ما كان وارد ، فإنهم سوف يرغمونه على قبول تلك المقترحات بالقوة [١٥] .

ولم تنجح كل هذه المشاريع التي فكر فيها المسئولون الفرس ، نظراً لعدم موافقة المقيم السياسي البريطاني الكولونيل ((روس)) بالقيام بأية حملة فارسية ضد الشيخ جاسم [١٦] لأن قيام تلك الحملة سوف تكون لها عواقب وخيمة ليس للأمن البريطاني في الخليج العربي وإنما خوفاً من تزايد التواجد العثماني وتدفق قواتها إلى كل من قطر والأحساء ، مما يشكل خطراً على تواجدها في البحرين والإمارات وعمان من تقدم القوات العثمانية إلى تلك المناطق الخاضعة لنفوذها ، ولهذا حذر الكولونيل روس ، السلطات الفارسية من القيام بأية أعمال ضد شيخ قطر ، وهذا ما أدى فيما بعد إلى تجميد القضية بين فارس وقطر .

خامساً : رسالة السفير البريطاني في اسطنبول :

رقم ٣٨١ مؤرخ في ١/١٠/١٨٨٨

من - سير و . أ . رايت W.A.Write سفير صاحب الجلالة في اسطنبول .

إلى - ماركوري سالسبوري - وزير الخارجية .

إشارة إلى برقية سعادتكم رقم - ١٠٧ - بتاريخ ١٩ سبتمبر ، فإنني أعتقد بأنه من المرغوب فيه ، أن تتابعوا الأحداث حسب ما جاء في تقاريري لكي تكونوا على علم بمجريات الأمور ، وخاصة في المذكرة العاجلة التي أرسلتها لكم برقم ٣٤٧ في السادس من سبتمبر بعنوان عن التواجد العثماني في الأحساء وخاصة ، عن الميناء الذي يقع خارج نطاق السيادة المسموح لهم ، أما بالنسبة للإشاعة المنتشرة حالياً حول اجتياح العثمانيين لعمان ، فلي الشرف أن أرفق لسعادتكم التوضيحات والملابسات حول هذا الموضوع مع المعلومات المستجدة أخيراً (١٧) .

وأريد أن أشير أيضاً بأنني تجنبت الدخول أو حتى مجرد الإشارة بأية حديث مع الباب العالي حول هذا الموضوع عن اتساع الادعاءات العثمانية في الخليج العربي وذلك انطلاقاً من الأسباب الآتية :

(أ) : في رسالة سعادتكم العاجلة رقم ٢٦٩ بتاريخ ٢٠ أغسطس ، كان مشيراً فيه إلى اعتراف حكومة صاحب الجلالة بالسيادة العثمانية على ساحل الغربي من الخليج العربي ، كما جاء فيه ذكر عن التواجد العثماني إلى الجنوب في الأحساء حتى مدينة القطيف .

(ب) : إضافة إلى تلك النقطة عن السيادة العثمانية على الساحل الغربي من الخليج العربي ، وضعت حكومة صاحب الجلالة في عين الاعتبار استقلال زعماء العرب ، والذين كانوا وقعوا تعهداً مع الحكومة البريطانية ، وهم الذين

اعترضوا لأية محاولة اعتداء من قبل الدولة العثمانية لأية أجزاء تمتد إليها سلطتهم .

(ج) : يبدو من التقريرين اللتان رفعهما ((مستر روبرتسون Mr. Robertson)) مساعد الوكيل السياسي في البصرة ، الأول - يحمل رقم ٢١٣ - في ١٣ مارس ، والثاني - يحمل رقم ١٣٥ بتاريخ ٢٢ مارس من العام الحالي ١٨٨٨ ، جاء فيهما عن قيام ((نافذ باشا)) الحاكم العام للبصرة بزيارة إلى ((القطيف)) في الأحساء وقطر مع بداية العام الحالي ، وبرغم اعتراضه ضد ((القرصنة)) ، فإنه لم يتخذ أية إجراءات فعالة لمنعها ، وإنما أخذ تعهداً من الشيخ جاسم بن ثاني حاكم قطر ، ومن محمد بن عبد الله حاكم الدمام الوهابي أيضاً ، لتعزيز الساحل والمياه الإقليمية الواقعة تحت نفوذهم وسيادتهم في كل من قطر والأحساء .

(د) : غادر نافذ باشا بعد لقائه مع الشيخ جاسم بن ثاني عائداً على المركب البخاري ، وقبل مغادرته المنطقة أصدر أوامره إلى مجموعة من الجنود العثمانيين للقيام بأعمال الدورية والحراسة المشددة للسواحل والمياه الإقليمية، وأخيراً طلب من الجهات المختصة بضرورة الإسراع بإقامة مستودع للفحم في كل من ميناء ((رأس تنورة)) في الأحساء وميناء ((البدع)) في قطر، إضافة إلى اتخاذه لتدابير أخرى لأمن المياه في الخليج العربي .

كما قام الحاكم العام للبصرة بإنشاء البريد العسكري في مدينة البدع ، وطلب إكمال التحصينات العسكرية الأمامية ، وتم تزويده بأعداد تقدر بحوالي مائة رجل عسكري وأرسلوا بطريقة عاجلة من ميناء البصرة لتعزيز الحاميات العثمانية في الأماكن التي أشرنا إليها سابقاً في كل من الأحساء وقطر .

وهذه الأماكن ((كرأس التنورة)) و ((البدع)) تقعان حالياً إلى الجنوب من مدينة ((القطيف)) ، ولهذا فإنهما خارج نطاق المناطق المحددة لسيادة

السلطان العثماني ، كما جاء في رسالة سعادتكم والتي ورد ذكرها سابقاً .

(هـ) : ليس هناك اعتراض جوهري ضد تواجد الحاميات العسكرية العثمانية أينما كانت موقعها ، إذا ما كانت تخدم الأهداف الحكومة البريطانية ، وهو المنع الفعال للاعتداءات من قبل تلك المناطق ضد السفن التابعة لرعايا بريطانيا ، ولهذا فإن الاعتراض الظاهري يحمل خارج ما تريده حكومة صاحب الجلالة حول منع تلك الاعتداءات في الساحل الغربي للخليج العربي .

وإنني أشير إليكم عن قلقي الشديد بشأن ما وضح من قبل حكومة صاحب الجلالة وعن طريق المقيم السياسي في الخليج العربي ، عن التوسع العثماني في تلك المناطق .

(و) : ستكون من الصعوبة أكثر تقديم أية احتجاجات في المستقبل ، ضد الموانئ العثمانية في رأس التنورة في الأحساء و ((البدع)) في قطر ، أما حول التوسع العثماني والذي يقع إلى الجنوب من ((القطيف)) ، والذي حدث بسرعة مذهلة لتلك التجاوزات إلى أبعد من المنطقة المسموح لها ، والتي يجب على العثمانيين أن لا تمتد نفوذهم هناك ، إلى تلك المساحات الكبيرة ، ومن الطبيعي فإن العثمانيين يتطلعون إلى احتلال مزيداً من المناطق الجديدة ، أكثر مما في حوزتهم الآن ، وخاصة إلى أبعد من جنوب القطيف كما يبدو حالياً، وقد يكون مرجع ذلك إلى عدم صدور أية اعتراضات على تصرفات العثمانيين التوسعية من قبل حكومة صاحب الجلالة والتي شجعهم على ذلك.

(ي) : وإنني سوف أكون مسروراً بأن أبلغكم يا صاحب السعادة ما جاء في تقريري ، والحصول على إجابتكم على المواضيع أعلاه ، أما بالنسبة لسلطة السيادة المحدودة لسلطان مسقط وفيما إذا كان بحوزته أو يدعي أية نوع من السيادة على العرب في الساحل المتد من مدينة ((دبا)) إلى ((البدع)) فإنني سوف

أترقب ذلك مستقبلاً [١٨] .

ويتضح من تتبع المراسلات ، هناك ترابط وتبادل في المعلومات بين كافة الأجهزة السياسية البريطانية في المنطقة قبل اتخاذ أية خطوات ، ومن رسالة السفير البريطاني في اسطنبول ، يكشف لنا القلق البريطاني من التواجد العثماني واحتمال توسعه إلى مناطق أخرى إلى الجنوب من القطيف حيث النفوذ البريطاني في الإمارات وعمان .

أما ما جاء في الفقرة (ب) بأن زعماء العرب وقعوا تعهداً مع بريطانيا ، في الحقيقة كانت الحكومة البريطانية فرضت عليهم تعهداً بموجب معاهدات المانعة ، أما عن قول السفير البريطاني باعتراض العرب الذين تعهدوا لبريطانيا على السيادة العثمانية ، فإنه لم تكن هناك أية اعتراضات من حكام إمارات الخليج العربي ، وخاصة الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي ، الذي كان يرغب في الدخول تحت السيادة العثمانية والخلافة الإسلامية ، كما أنه أراد التخلص من الاستعمار البريطاني الذي وضعهم في أقصى ظروف التخلف ، كما منعهم من الاتصال بأية قوة خارجية ، وهناك سبب آخر يدعو حكام المنطقة في قبول السيادة العثمانية ، وهو أن الباب العالي لم يكن يتدخل في شئونهم الداخلية ، والعكس صحيح كان السلطان العثماني يقف بجانب حكام العرب كما حدث للشيخ جاسم بن ثاني وابن رشيد وغيرهم .

ونعتقد بأن البريطانيين يشيرون إلى حاكم البحرين الذي كان يعترض على أي توسع من قبل الدولة العثمانية تجاه أملاكه ، لأن العثمانيين كانوا يساعدون المعارضة البحرينية والذين اتخذوا من الأحساء مقراً لهم ، وتخوف حاكم البحرين من دخولهم عن طريق هذا الإقليم كما حدث عندما دخل كل من محمد بن خليفة ومبارك وعبد الله وأسقطوا حاكم البحرين الذي عينه الاستعمار البريطاني بعد خلع محمد بن خليفة .

أما بالنسبة لأعمال القرصنة التي تدعي بريطانيا فهي في حقيقة الأمر عبارة عن اعتداءات من قبل السكان العرب ضد المصالح البريطانية وسفنها ورعاياها في المياه الإقليمية العثمانية والتطلع العثماني تجاه عمان .

وأرسل السفير البريطاني في اسطنبول برسالة أخرى تحمل رقم ١٢١ - في نفس التاريخ ١٨٨٨/١٠/١ وجاء فيها :

وصل لدى مسامع حكومة صاحب الجلالة عن طريق حاكم الهند ، أخبار مفادها بأنه من المحتمل تحريك بعض القطعات من الحاميات العسكرية العثمانية نحو عمان انطلاقاً من قائمقامية نجد العثماني والخاضع لحكم محمد بن رشيد زعيم جبل شمر ، إضافة إلى تقارير أخرى وصلت بهذا الخصوص .

ولكن سفير صاحب الجلالة في اسطنبول لا يمكنه التكهن بصحته ، وذلك أن ما جاء في هذا التقرير لا يؤمن به شخصياً ، لأنه لوضحت ذلك في تقريري ، سوف يكون هذا الاجتياح لعمان عن طريق القوات العثمانية المتواجدة حالياً في الأحساء وقطر [١٩] .

وعلى أية حال وتحت أية ظروف فإن سفير صاحب الجلالة في اسطنبول يشعر بأن هذه الإشاعات تعيد إلى الأذهان ، ملاحظات عن أهمية الميناء العثماني في ((رأس التنورة)) وخطورته على المنطقة في حالة السكوت عنه ، أما عن الاجتياح العثماني لعمان ، فيجب أن نعيد إلى الأذهان الحقيقة المعروفة عن الاتفاق الذي تم بين حكومة صاحب الجلالة والحكومة الفرنسية ، تقضي باحترام سيادة واستقلال عمان ، ولهذا وغيرها من الأسباب الأخرى ، فإن حكومة صاحب الجلالة مهما كانت الأطماع العثمانية ، فلا يمكنها السكوت حول أية محاولات للاعتداء أو التدخل من قبل السلطات العثمانية أو حاميتها في الأحساء أو قطر إلى عمان [٢٠].

سادساً : رسالة وكيل وزارة الخارجية البريطانية :

رسالة مؤرخة من وزارة الخارجية - لندن في ١١/١٠/١٨٨٨

من - سير جوليان - Sir Julian Paunir Fars وكيل الخارجية .

إلى - وكيل وزارة حكومة الهند .

بالإشارة إلى مذكرتي الرابعة والعشرين والمراسلات الأخيرة حول التوقعات المحتملة من التدخل العثماني في عمان .

فإنني حولت إليكم مباشرة الرسائل المتعلقة بالموضوع المشار إليه أعلاه عن طريق ماركوري سالسبوري وزير الخارجية ، وفيما إذا كان هناك أية ملاحظات حول هذا الموضوع لدى وزير حكومة الهند ويريد تقديمها ، فأرجو منكم إبلاغي عن ذلك ، كما أرفق إليكم نسخة من الرسالة التي بعثها سعادة السفير البريطاني في اسطنبول إضافة إلى النسخة المقدمة عن الملاحظات والتي جاءت تحت عنوان (موضوع الموانئ العثمانية) (٢١) .

وأرسل السفير البريطاني في اسطنبول تقريره ، استناداً إلى تقرير مجلس صاحب الجلالة عن البصرة ، وبأن السلطات العثمانية قامت ببناء مستودع للفحم وبريد عسكري في كل من ((رأس التنورة)) وميناء ((البدع)) ، وتقعان إلى الجنوب من القطيف ، علماً بأن حكومة صاحب الجلالة لا تعترف بالسيادة العثمانية عليهما ، ولكن الحاميات العسكرية التي اتخذت مكانها ، فليس هناك أية اعتراض ظاهري وإنما تحمل معه حكومة صاحب الجلالة تمنياتها لقمع (القرصنة) (الاعتداء على السفن التابعة للرعايا البريطانيين) بشكل فعال في سواحل الغربية من الخليج العربي ، وأخيراً يعتقد وايت بأنه لم تكن هناك أية اعتراضات ضد الاحتلال العثماني لهذه المناطق ، ولهذا نجد من الصعوبة في رأيه توجيه أية اعتراضات أو احتجاجات حالياً ، والتي قد تنشأ عن إقامة ميناء (رأس

التنورة) و ((البدع)) المشار إليه والجنوب من القطيف والذي ظهر بسرعة في الأونة الأخيرة ، ولهذا فإنه يجب أن لا يمتد إلى هناك نفوذ العثمانيين [٢٢] .

كما أن ((ويت)) السفير البريطاني في اسطنبول يسأل أيضاً عن إعطائه معلومات عن ما مدى سيادة سلطان مسقط وما هو امتداد حدوده ، ويمكنك أن تجري تحريات في الأوراق الرسمية في مكتبكم حول هذا الموضوع .

وإنني أضيف في الختام بأن ((اللورد سالسبوري)) سوف يكون سعيداً إذا ما استلم ردكم حول هذه التساؤلات ، وأية معلومات إضافية يمكن أن تحصل عليها حكومة الهند أو تستنتج في هذا الموضوع برغم أن أمور السياسة الخارجية كانت من اختصاص وزارة الخارجية إلا أنها كنت تستشير وتطلب معلومات كافية من وزارة الهند في كل ما يتعلق بأمور الخليج العربي والتواجد العثماني قبل اتخاذ أية قرارات حول المواضيع السياسية الهامة والمتعلقة بالخليج العربي .

ولهذا نجد الرسائل الواردة من السفارة البريطانية في اسطنبول إلى وزارة الخارجية عن التواجد العثماني في الأحساء وقطر تدور حول اهتمام الاجتياح العثماني لعمان ، والتحصينات العسكرية للحاميات العثمانية ، ومحاولة السياسة البريطانية إيجاد مخرج لوقف النفوذ العثماني في المنطقة ، جعل الخارجية البريطانية تستفسر عن ما مدى نفوذ سلطان عمان حتى يمكن لبريطانيا مساعدة حاكم عمان سياسياً للوقوف أمام التوسع العثماني ، كل هذه الأسئلة والاستفسارات وجهها وكيل خارجية بريطانيا إلى وكيل وزارة الهند ، كما طلب معلومات كافية لتلك الاستفسارات والمواضيع المتعلقة عن التواجد العثماني في الأحساء وقطر .

وحول النقطة الأخيرة نلاحظ قلق المسئولين البريطانيين من سرعة انتشار القوات العثمانية إلى الجنوب من القطيف وإنشاء ميناء وبريد عسكري في ((رأس التنورة)) و ((البدع)) ومن هذا يتضح كذلك بأن الحكومة البريطانية ليس

لديها مانع من إقامة الحاميات العسكرية خارج نطاق السيادة العثمانية المعترف بها من قبلها إلى الجنوب من ((القطيف)) ولكن بشرط أن تستخدم تلك الحاميات العسكرية لوقف الاعتداءات من السكان العرب ضد مصالح الرعايا البريطانية ، ولذا فإنها سوف تغض النظر عن تواجد القوات العثمانية في ميناء ((رأس التنورة)) و ((البدع)) وإلا فإنها سوف تثير وتحتج على امتداد السيادة العثمانية على تلك المناطق .

سابعاً : رسالة وكيل وزارة الهند :

مكتب الهند - لندن - في ١٨٨٨/١١/٢ .

من - ج . أ . غودلي J-A-Godley وكيل وزارة الهند .

إلى - وكيل وزارة الخارجية .

أجاب وكيل وزارة الهند على الاستفسارات والمعلومات التي طلبها السفير البريطاني في اسطنبول عن طريق الخارجية البريطانية ، وذلك في الرسالة التي بعثها إلى الخارجية البريطانية عن طريق مكتب الهند في لندن ، وجاءت الإجابة في سبع نقاط وهي :

(١) أرغب في أن أخبركم باستلام رسالتكم المؤرخة في ١١ أكتوبر عن طريق ((Viscovnt Cross)) والتي تحتوي على نسخة من الرسالة المستعجلة من سفير صاحب الجلالة في اسطنبول والمؤرخ في أول أكتوبر والمتعلقة بادعاءات السيادة العثمانية على الساحل العربي في الخليج العربي .

(٢) رغبة ((لورد كيرزون Lord Corizon)) في الرجوع إلى المراسلات التي جاءت في الفترة من عام ((١٨٧٩ - ١٨٨٠)) وذلك لمعرفة الأمور المتعلقة حول الموضوع أعلاه ، وإنني كذلك أرغب في أن أشير إلى المعلومات التي وضعها في تلك الفترة وزير الدولة للشئون الخارجية ، وهذه المعلومات تعطي بوجه عام النظرة

السريعة التي كتبت عن طريق سلفه ((Viscoeont Cranbrook)) والذي وجه رسالة إلى مكتب الخارجية في ٢٩ سبتمبر ١٨٧٩ .

(٣) تظهر الصعوبات في أية مفاوضات تجري مع العثمانيين حول الميناءين من وجهة النظر البريطانية ، وذلك عند البدء في تعيين مناطق محددة للادعاءات العثمانية على الساحل الغربي من الخليج العربي ، والذي جاء ذكرها في عام ١٨٧٩ ، وهذه المشكلة لم يكن قد سمع بها أحد إلا مع ظهور العراقيل للسفن البريطانية ، وعلى أية حال يجب الأخذ في الاعتبار اتخاذ عمليات ضد سفن معينة أو محددة . إدخال قضية ما يفعله العثمانيون من فرض الاعتراف لأية موانئ محددة في الساحل العربي والمياه الإقليمية يعتبرونه مساوي للقوة والعظمة البريطانية في المنطقة .

(٤) إن الوضع الحالي في الساحل العربي يفسح أمامه مجالاً مميزاً ، وكان قد أشار إليها أخيراً السير غودلي - Mr. Godley في رسالته المؤرخة في ١٢ يوليو الماضي بأن حكومة صاحب الجلالة قد رفضت السماح للادعاءات العثمانية بالسيادة على ساحل قطر عندما كان السلطان متصلباً لفرض حقوقه وسيادته على ذلك الساحل .

أن شيخ ((البدع)) في الجهة الشرقية لشبه الجزيرة القطرية اعتبروه زعيماً مستقلاً ، وأن المياه الإقليمية لتلك الساحل لا تعتبر جزء من الطريق الملاحي في الخليج العربي ، في حين جعله العثمانيون طريق بحري للبريد العسكري الصغير منذ عام ١٨٧٢ ، وأن حكومة صاحب الجلالة لم تعترض قط ضد ممارسة العثمانيين لسيادتهم على هذا الجزء من ساحل قطر في تلك الفترة .

(٥) يعتقد ((لورد كيرزون)) بأنه ليس هناك اعتراض على موضوع السيادة من قبله ويمكن حالياً يكفي أن يطلع ((السير وايت)) إذا ما رأى ماركوري سالسبوري ذلك على الموضوع ، وأن حكومة صاحب الجلالة تأخذ بعين الاعتبار

بأن الميناء المحتل من قبل العثمانيين يؤثر بشكل فعال على الساحل العربي المجاور ((للقطيف)) ويجب عليهم أن يلتزموا بالإعلان الذي وضع عام ١٨٨٣، وأن تلك الادعاءات العثمانية على الميناء وحقوق السيادة على ساحل قطر لم يسمح به من قبل حكومة صاحب الجلالة ، ولكن ليس هناك أسباب يمكن أن تتوقع من أية نتائج محددة ، يمكن قد تظهر باتخاذ قرارات مع الحكومة العثمانية ، بخصوص الاعتراف بحقوق السيادة العثمانية على ذلك الساحل ، وأنه غير المرغوب فيه أن تظهر أو إثارة هذا السؤال في الوقت الحاضر .

(٦) وإنني أضيف هنا استناداً إلى ما جاء في ((فندليز Findlay's)) وهو القاموس الملاحي للمحيط الهندي في الصفحة (٦٩٠) تقع ((رأس التنورة)) إلى نقطة في جنوب لسان طويل من رمال والتلال الرملية على حافته والتي تبدأ من جهة شمال خور القطيف ، أما بالنسبة لموضوع بناء العثمانيين لمستودعات الفحم في ((رأس التنورة)) فليس هناك أية اعتراضات قد تظهر حالياً من قبلنا .

(٧) مع تعاطفي إلى مطالبكم لوضع مسافة محددة لسيادة سلطان مسقط ، فإنه يسعدني أن أقول بأن الخط الساحلي لامتداد حدود مسقط تبدأ من ((رأس الخيمة)) شمالاً وتنتهي بالقرب من ((رأس الحد)) بالقرب من ظفار ، وفي أية اتجاهات أخرى غير ذلك لا يمكننا أن نعتقد بإيجاد حدود دقيقة وخاصة في الجهة الغربية من مسقط في المناطق الداخلية ، ويمكننا القول أن هناك الصحراء العربية الكبرى .

- نسخة من هذه المذكرة تم تقديمه إلى المقيم السياسي في الخليج العربي للاطلاع ، ونسخة منه تم إيداعه في أرشيف هذا المكتب تحت رقم ٢١٤٩ - بتاريخ ١٨٨٨/١٠/٣١ .

- وقع عليها كل من Sd - W.H.Cornish

عن الدائرة الخارجية Fort William

مساعد سكرتير حكومة الهند ١٨/١٢/١٨٨٨

الخاتمة :

من دراستنا السابقة يتضح الموقف البريطاني من التواجد العثماني في الأحساء وقطر ، وكيف كان يمر من عدة قنوات وخاصة عن طريق إدارة حكومة الهند والمتمثلة في موظفيها في الخليج العربي ، حيث وجدنا الرسائل والتقارير الأولى كانت صادرة من الوكيل المقيم البريطاني في البحرين ، والذي كان يراقب النشاط العثماني عن كثب ، ويرفع تقاريره إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر والذي كان بدوره يرفع إلى الجهات المعنية وخاصة ما يتعلق بالنشاط العثماني إلى المقيم والقنصل البريطاني في بغداد ، وهذا الأخير يرفع إلى السفير البريطاني في اسطنبول والذي كان يرفعها إلى وزارة الخارجية التي تستفسر عن تلك المواضيع من جديد حكومة الهند ثم تتخذ بعدها القرار المناسب .

أي أن عملية اتخاذ القرار السياسي كان يمر بعدة مراحل ، وتكون مدروسة من كافة الجوانب ، ولهذا فإن الحكومة البريطانية استمرت منذ عام ١٨٨٨ ، تراقب الأوضاع في المنطقة وخاصة التحركات العثمانية ثم دخلت في مفاوضات معها لعدة سنوات حتى أسفرت عن توقيع اتفاقية عام ١٩١٣ ، بين بريطانيا والدولة العثمانية والتي عرفت بالاتفاقية ((الأنكلو - عثمانية)) ، والتي تم بموجبها تقسيم النفوذ بين البلدين في الجزيرة العربية ، كما عرف هذا التقسيم ((بالخط الأزرق)) ، وأصبح النفوذ العثماني بموجبها يتركز في كل من الأحساء ونجد والحجاز واليمن الشمالية ، في حين أصبح من نصيب بريطانيا المناطق الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية وهي الإمارات وعمان واليمن الجنوبية .

هوامش البحث :

1) I.O.R. - 15/6/19 from - The Residency Agent, Bahrain - The Political Resident in the (Persian) Gulf. P.4.

٢) "البقارة" - اسم لأحد أنواع السفن الكبيرة في الخليج العربي والتي كانت ولا زالت تصنع محلياً باستخدام الأخشاب المستوردة من الهند وشرق إفريقيا، وهي مجهزة بآلات الديزل.

3) I.O.R. - 15/6/19 - O.P. Cit. P. 4.

4) I.O.R. - Ibid. P. 4.

5) I.O.R. - R/15/6/19 - From Colonel E. C. Ross, C. S. Political Resident in the Persian Gulf and Her Majesty's Consul - General for Fars - To - The Political resident, Baghdad. P. 3.

6) I.O.R. - R/15/6/19 - From Major A. C. Tollot, Her Majesty's Consul General, Baghdad - To - Sir W. A. White, Her Majesty's Ambassador at Constentinople. P. 4.

7) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 4.

8) I.O.R. - R/15/6/19 - From - Sir H. D. Walf, Her Majesty's Minister, Tehran - To - The Marquis of Salisbury, K. G. Secretary of State for Forign Affairs P. 2.

9) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 2.

10) I.O.R. - R/15/6/19 - Translation from Persian Paper.

11) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 3.

12) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 3.

13) I.O.R. - R/15/6/19 - Note - S. Churchill - The 30th August 1888 P. 3.

14) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 3.

15) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 3.

16) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 3.

17) I.O.R. - R/15/6/19 - From - Sir W. A. White, Her Majesty's Ambassador at Constantinople - To - The Marquis of Salisbury, K. G. Secretary of State For Forign Affairs. P. 1.

18) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 1.

19) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 1.

20) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 1.

21) I.O.R. - R/15/6/19 - From - Sir. Julian Pauncrfors, Under Secretary of State For Forign Affairs. - To - The Under Secretary of State For India. P. 1.

22) I.O.R. - R/15/6/19 - Ibid P. 1.

التنافس العثماني الإيراني في مياه الخليج العربي ١٨٣٩ - ١٨٨٥

إعداد
مصطفى عقيل اسحاق الخطيب
جامعة قطر - كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ - قطر - الدوحة

مقدمة :

الغزو البرتغالي لشبه القارة الهندية وسيطرتها على المحيط الهندي ومياه الخليج العربي حتى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر من أهم أسباب تضاعف اهتمام القوى المحلية والدولية بمنطقة الخليج العربي . ذلك أنها بمثابة المحطة الرئيسية والخطوط الدفاعية الأولى لشبه القارة الهندية . وقد أدرك القائد البرتغالي هذه الحقيقة عندما بادر في فترة مبكرة من بناء الإمبراطورية البرتغالية في الهند باحتلال مياه الخليج وجزرها ١٥٠٦م . وقد نجح هذا القائد في تحقيق أهدافه الاستعمارية دون مقاومة مسلحة من القوى المحلية الكبرى (إيران والدولة العثمانية) سوى رفض القبائل العربية التي اشتغلت بالملاحة في المحيط الهندي قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، ولم يكن بإمكانها إلا الاستسلام في النهاية لعدم تكافؤ القوتين . وفي اعتقادنا أن القوى الرئيسية الثلاثة (عمان - إيران - الدولة العثمانية) كانت أقل قدرة من الملاحين العرب في مقاومة الغزاة . أما بسبب الخلافات التي نشبت بين الأسر

الحاكمة مثل عمان أو للانشغال بقمع التمرد الداخلي وتثبيت أركان الدولة المركزية إبان قيام الدولة الصفوية واعتلاء إسماعيل الصفوي العرش الفارسي ١٥٠٢ في حين اتجهت الدولة العثمانية في فتوحاتها إلى أوربا الشرقية منذ فتحها للقسطنطينية عام ١٤٥٣ .

وهكذا كان الطريق مفتوحاً أمام الأسطول البرتغالي في احتلال الخليج ووجدت الدولة الصفوية الناشئة نفسها في مواجهة هذه القوة البحرية - البرتغالية المتطورة بأحدث أسلحة عصرها .

وقد حاول الشاه إسماعيل الصفوي في بادئ الأمر مقاومة البرتغاليين والمطالبة بحقوقه في جزيرة هرمز وقشم إلا أن الأوضاع الداخلية في إيران وعدم امتلاك حكومته قوة بحرية في مياه الخليج حالت دون تحقيق طموحات الشاه . بل إن الشاه إسماعيل نفسه قد اضطر إلى تأييد البرتغاليين ومباركة قائدهم البوكبرك في عام ١٥١٥ عندما نجح في قمع التمرد الذي قام به الأهالي بقيادة الرئيس حامد وتوران مشاه . وكان ذلك نتيجة لكثرة المتاعب الداخلية في دولته فاستعان بالسفن البرتغالية ضد منافسيه في المناطق الجنوبية خاصة في بلوشستان .

وقد بادر نادر شاه الأخشاري في عام ١٧٣٥ إلى إنشاء أسطول بحري في مياه الخليج واتخذ من قرية بو شهر (بندر نادري) قاعدة له إلا أن هذه التجربة لم تستمر طويلاً بسبب اعتماد نادر شاه على البحارة العرب القاطنين على الساحل الشرقي من الخليج لعدم خبر الإيرانيين بالملاحة [1] فلم يلبث البحارة العرب أن تمردوا على الأسطول الإيراني في عام ١٧٤١ [2] - وبذلك توقفت جهود الحكومة الإيرانية في بناء قوة بحرية لها في مياه الخليج حتى منتصف القرن التاسع عشر واعتلاء ناصر الدين شاه القاجاري العرش الإيراني عام ١٨٤٨ .

ومن الجدير بالذكر أن الخلافات المذهبية بين الدولتين العثمانية والإيرانية

ومشكلة الحدود كانتا من الأسباب الجوهرية لتقليص وجودهما البحري في مياه الخليج .

مشكلة الحدود الإيرانية العثمانية :

كانت مشكلة الحدود من أكبر المشاكل التي كدّرت العلاقات بين الدولتين ، وقد بلغت ذروتها بين سنتي ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، عندما عين معتمد الدولة (منو جهر خان) حاكماً على عربستان ، الذي حاول إخضاع شيوخ الفلاحية والمحمرة بعد أن علم أن الشيخ تامر اعترف لوالي بغداد في عام ١٨٤١ بأنه سوف يحكم الفلاحية والمحمرة نيابة عنه . فاحتل معتمد الدولة في خريف ١٨٤١ هاتين المنطقتين ، ولم يكن أمام الشيخ تامر خيار سوى الهرب إلى الكويت ومعه جميع أفراد عائلته ، كما هرب الشيخ جابر حاكم المحمرة إلى البصرة [٣] . ولكن الشيخ جابر بن مرداو ما لبث أن رجع بعد فترة قصيرة .

تفاقمت مشكلة الحدود بين الدولتين ، وأصبحت كل من مدينة المحمرة وجزيرة خضر ((عبادان)) مسرحاً للتنافس بينهما ، وشرعت الدولتان في الاستعداد لخوض الحرب [٤] . وما لبثت الحكومة الإيرانية أن طلبت بلواء السليمانية حتى القرنة على أنه من إقليم عربستان الذي تطلب به إيران .

وهناك مشاكل جانبية أخرى أدت إلى توتر العلاقات بين الدولتين ، منها مجئ عدد كبير من أمراء العائلة المالكة هاربين من إيران إلى العراق وخاصة مدينة البصرة والعتبات المقدسة . وكان على رأس هؤلاء عباس ميرزا شقيق ناصر الدين شاه [٥] نفسه لكن المسئولين البريطانيين والروس أدركوا خطورة الموقف ، وعملوا على حل النزاع فشكلت لجنة رباعية من مندوبي الدولتين الإيرانية والعثمانية ، تضم مندوبين بريطانيين وروس كوسطاء للتوفيق بين الطرفين في وضع خريطة دقيقة وتفصيلية للحدود لتكون مصدراً يرجع إليها في المستقبل.

وفي ٣١ مايو من عام ١٨٤٧م (ربيع الثاني ١٢٦٤هـ) وقع الطرفان على معاهدة (أرضروم) الثانية بحضور مندوبي الدولتين البريطانية والروسية ، وبموجبها أعطيت الأراضي الواقعة على الضفة الشمالية لشط العرب لإيران . ومن ضمنها مدينة المحمرة وعبادان (جزيرة الخضر) والمرسى [٦] . وبذلك أصبح من حق إيران بسط سيطرتها على هذه المناطق ولسفنها حق الملاحة في شط العرب بحرية تامة ابتداء من مصب الشط في البحر إلى نقطة تلاقي الحدود. [٧]

ورغم هذا فإن المعاهدة المذكورة لم تضع حداً لمنازعات الحدود بين الدولتين إذ أن كلا منهما كانت تنتهز الفرصة للاستيلاء على أراضي الأخرى . وقد سعت الدولة العثمانية عند اعتلاء ناصر الدين شاه العرش لتحسين العلاقة مع حكومة إيران إلا أن تحركاتها في تلك المرة كانت تتسم بالحذر . فقد بعث الباب العالي سفيره سامي أفندي إلى طهران لتقديم التهنئة إلى الشاه الجديد ، حاملاً معه هدايا قيمة [٨] . وكان السفير مزوداً بتعليمات هامة وخاصة فيما يتعلق بمسألة الحدود. وقد بذل السفير العثماني كل ما في وسعه لتحسين العلاقات المتوترة وأظهر حسن نية دولته تجاه إيران ، كما بادرت إيران هي الأخرى بالتعبير عن حسن نواياها تجاه الدولة العثمانية التي ينبغي عليها أن تتعهد بعدم التدخل في شئون إيران الداخلية ولا في حقوقها وأعلن السفير العثماني بأن دولته لا يمكن أن تفرط في الأراضي التابعة لها ، وهو يشير بذلك إلى (قطور) التي احتلتها القوات الإيرانية. وقد كلف السفير سامي أفندي بإجراء مباحثات مع المسئولين الإيرانيين لإعادة هذه المنطقة إلى الدولة العثمانية [٩] . وإذا كانت معاهدة أرضروم الثانية لم تحسم النزاع بين الدولتين ، إلا أنهما اتفقتا على تخلي كل منهما على ادعاءاته فيما يتعلق بأراضي الطرف الآخر . واتفقتا على إرسال مندوبين ومهندسين من قبلها لرسم الحدود ، فعينت إيران (ميرزا جعفر خان) مشير الدولة مندوباً عنها ، بينما مثل الحكومة العثمانية في اللجنة (درويش باشا)

بالإضافة إلى الكولونيل (بيلي تشيركوف) من روسيا و (وليامز لايارد) من بريطانيا [١٠] . وقد اجتمعت اللجنة في بغداد في ربيع الأول (١٨٥٢) [١١] وقبل أن تقوم برسم الحدود ، وجدت الدولة العثمانية أن الفرصة متاحة لاستعادة الأراضي التي تطالب بها حيث أن القوات الإيرانية كانت مشغولة بقمع حركات التمرد التي انتشرت داخل إيران إبان عهد ناصر الدين شاه وخاصة ثورة (سالار) في خراسان ، فاستولى العثمانيون على وادي القطور وصحراء الخوى ومنحت العشائر العربية القاطنة في تلك المناطق التبعية العثمانية [١٢] ، واعتبر العثمانيون أن وادي القطور هو الحد الفاصل بين الدولتين ، ترتب على هذا الحادث تفاقم الخلافات بين الطرفين ، ورفض المندوب الإيراني المشاركة في أعمال اللجنة ما لم تسحب حكومة الباب العالي قواتها من القطور [١٣] ، ولكن العثمانيين أصروا على أن هذه المنطقة أراضي عثمانية كانت القوات الإيرانية قد غزتها واحتلتها بدون وجه حق من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الإيرانيين قد أصروا على تبعية هذه المنطقة لأراضيهم ، وإن سكانها يعتبرون من الرعايا الإيرانيين ، ولذلك فقد حاول ميرزا جعفر خان مشير الدولة كسب ود عرب بني كعب ، واجتذابهم إلى جانبه ، وقبل حضوره إلى لجنة تخطيط الحدود التقى ببعض شيوخ العرب القاطنين على الجانب الشرقي من شط العرب وأقنعهم برفع العلم الإيراني في أعلى [١٤] مكان . وفي الوقت نفسه فإن درويش باشا كان يسعى من جانبه في استمالة هؤلاء العرب إلى صف الدولة العثمانية فأعفاهم من ضريبة العشر [١٥] .

وفي ١٤ ربيع الأول ١٢٦٦ - ٢٨ يناير ١٨٥٠ عقدت لجنة الحدود اجتماعها بحضور ممثلي روسيا وبريطانيا في المحمرة ، لكن هذا الاجتماع لم يسفر عن نتائج ملموسة نظراً لتمسك كل من الدولتين بدعاويه السابقة .

وقد وضع العثمانيون تصوراتهم لخط الحدود ، ورغم أنهم اعترفوا بتبعية ميناء المحمرة لإيران ، وكذلك جزيرة الخضر (عبادان) في معاهدة أرضروم الثانية إلا

أن المندوب العثماني قد اتخذ موقفاً متشدداً فيما يتعلق بادعاءاته في جزء كبير من المناطق المحيطة بالمحمرة من جهة الشرق والشمال بالإضافة إلى (قبان) [١٦] ، ولم يقف درويش باشا عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى مدينة المحمرة ومرساها بما في ذلك جزيرة الخضر (عبادان) وطالب بإنزال العلم الإيراني عن المحمرة ، وعزل الشيخ جابر محمد مراد .

ومما يستدعي الانتباه أن كلاً من المندوب الروسي والبريطاني اتفقا على معارضة المطالب العثمانية ، وخاصة فيما يتعلق بشرق المحمرة ، وبررا موقفهما بأن الأمن لن يتحقق إذا أصبحت تلك الأراضي تابعة للدولة العثمانية .

ولذا وافق المندوبون على أن يكون شرق المحمرة لإيران حتى يحل الأمن والسلام على حدود الدولتين . وأيدوا أن تترك لإيران الأراضي الواقعة جنوب قلعة قبلية تبعد عن نهر أبو جد بنحو ميل ونصف من ساحل شط العرب . وما كاد درويش باشا يسمع هذا القرار حتى أعلن عدم تعاونه مع اللجنة لعدم رضائه عن ذلك [١٧] ولعل السبب الرئيسي في توقف المفاوضات بين الجانبين هو قيام حرب القرم بين الدولتين العثمانية والروسية وانشغال تلك الدول بالقتال .

وكان من الطبيعي أن يشتد الخلاف بين إيران وحكومة الأستانة بعد توقف المباحثات فترة من الزمن دون الوصول إلى حل يرضى عنه الطرفان [١٨] .

ومنذ ذلك الوقت أخذت كل من الدولتين تعمل بمختلف الطرق على كسب المزيد من الأراضي ، وذلك بشراء ولاء القبائل العربية المتوطنة في تلك الجهات ، وقد ظلت مشكلة الحدود قائمة إلى سنة ١٩٢٣ - ١٩٢٤ مع نهاية حكم أسرة القاجار في إيران ، وبعد أن وقع العراق تحت الانتداب البريطاني ، وبذلك ورث عن الدولة العثمانية الخلافات الحدودية إلى أن سويت مرحلياً في عام ١٩٢٤.

مساعي الدولة العثمانية في تقوية وجودها البحري في الخليج :

لم تقتصر أطماع العثمانيين على توسيع حدودهم الإقليمية براً ، بل تطلعوا إلى إحياء وجودهم البحري في مياه الخليج العربي ، فشرعت الحكومة العثمانية في إنشاء قوة بحرية لها لتعزز من وجودها في هذه المنطقة الاستراتيجية لمقابلة القوات الإيرانية التي تزايد نشاطها بشكل كبير مع اعتلاء ناصر الدين العرش ، ومحاولاته المستمرة في بناء أسطول يرفع العلم الإيراني في مياه الخليج ، وكانت القضية التي واجهت الشاه في إنشاء الأسطول هي نفسها التي واجهت الدولة العثمانية . وهي ضرورة اللجوء إلى القوى الأوربية لتزويدها بالسفن الحربية وما تحتاج إليه من أسلحة وذخائر وخبراء ومدربين ، وقد تأكد العثمانيون أن إنجلترا لا توافق على مساعدتهم في هذا المجال ، ففضلوا أن يبدأوا بإصلاح ما يملكون من سفن راسية في ميناء البصرة ثم اختاروا لها طاقماً من البحارة المدربين للعمل بها وكان العثمانيون يودون أن تترك لهم مهمة المحافظة على أمن مياه الخليج والقضاء على القرصنة بدلاً من البريطانيين الذين كانوا يبررون وجودهم وسيطرتهم على سواحل الخليج برغبتهم في القضاء على القرصنة التي تهدد التجارة ، فكتب الباب العالي إلى والي البصرة عن طريق والي بغداد في ٢ جمادى الثانية ١٢٦٥هـ ٢٧ أبريل ١٨٤٨م رسالة يطلب فيها إجراء إصلاحات للسفن العثمانية الموجودة لديه بحيث تصبح قادرة على القيام بحماية الخليج والقضاء على الفساد المتفشي في المناطق التابعة للإمبراطورية . وقد جاء في الرسالة ((ينبغي إجراء التنظيمات اللازمة لحماية السنجق السلطاني في خليج البصرة ورعاية النظم المقررة لمواجهة الفساد في بعض سواحل الممالك المحروسة . وهذه المسئولية تقع على عاتق القوة البحرية الموجودة في هذه المنطقة . ويجب إبقاء أربع سفن صالحة تحت إمرة المستوفي قائد السفن السلطانية ترابط في ميناء البصرة بصورة دائمة . كما يجب توظيف عدد من الضباط ذوي الكفاءة والخبرة بالفنون

البحرية والقوانين العسكرية على أن يختاروا من بين رجال أمير البلوك بيرك وسواري الذين يعرفون باسم العمودية وينضم إلى العساكر غير النظاميين رجال البلوك أحمد بك)) [١٩] .

كما وردت في الوثيقة تعليمات عن كيفية إجراء امتحانات انضمام الرجال إلى القوة البحرية وأنواع الرتب العسكرية التي تمنحها السلطات العثمانية لهؤلاء القادة والجنود . ورغم الاهتمام الملموس الذي أبداه المسئولون العثمانيون في إنشاء أسطول يجري في مياه الخليج ويكون مرابطاً هناك بصورة دائمة ، إلا أن الباب العالي لم يوافق على تمويل عملية الإنشاء أو الإصلاح بحجة أن خزينة الدولة لا تستطيع أن تتحمل هذه النفقات الباهظة ، وطلب الباب العالي من والي البصرة وبغداد أن يتحملا نفقات إصلاح السفن أو شراء غيرها [٢٠] .

فاضطر والي البصرة إلى تنفيذ الأوامر السلطانية ، ولم يكن أمامه خيار سوى الحصول على هذه الأموال من التجار وأصحاب الحرف وبقية السكان فأثقل كاهلهم بالضرائب الباهظة حتى تمكن من الوفاء بالتزاماته فيما يتعلق بالأسطول .

وعلى العموم فإن العثمانيين لم يحالفهم التوفيق في تدعيم قواتهم البحرية في هذه المنطقة بسبب اعتمادهم الكامل على العناصر التركية من الضباط والجنود، فطبيعة الطقس في الخليج لم تكن ملائمة لهم ، وخاصة ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة فلم يتمكنوا من البقاء في المنطقة ، نتج عن ذلك أن غيرت الحكومة العثمانية من خطتها وعينت بحارة من رجال البصرة نفسها حتى أنها رفضت ضم بحارة من ولاية بغداد بحجة أنهم لا يطيقون رطوبة الجو هناك . وبذلك اختاروا ثلاثين بحاراً من البصرة عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢م [٢١] .

كان دافع العثمانيين من تدعيم قوتهم البحرية في مياه الخليج هو مواجهة الإيرانيين الذين يتطلعون للاستيلاء على ميناء البصرة فضلاً عن مناطق

أخرى من الخليج ، ورغم أن مباحثات الحدود كانت جارية بين الطرفين إلا أن العلاقات ظلت متوترة ، وكثيراً ما كان الإيرانيون يهددون ميناء البصرة بتحريض من روسيا التي تمكنت من فرض نفوذها على إيران ، ففي عام (١٢٧٠هـ - ١٨٥٢م) شاعت الأنباء بأن إيران تستعد لاحتلال البصرة فبعث السفير العثماني أحمد وفيق أفندي خطاباً إلى حكومته بفحوى هذه الإشاعة ، وطلب إرسال خمسة آلاف جندي للدفاع عن الأراضي العثمانية (٢٢) .

ولكن الدولة كانت تفضل الحلول السلمية مع جارتها إيران ، ووضحت أنها لا ترغب في دخول الحرب ضدها . وقد رد الباب العالي على سفيره في طهران يبلغه إرسال خمسة آلاف جندي إلى منطقة الخليج وأرضروم وكان ذلك مستحيل آنذاك لاحتياج الدولة لهذا العدد من الجنود . وجاء في الرد أنه لا يعتقد أن القضية تحتاج إلى جنود أتراك في هذه المنطقة . وطلب من سفيره أن يوافيه بالتطورات التي تحدث في الخليج . وإذا دعت الضرورة فإن الدولة العلية ستتخذ الإجراءات الكفيلة وترسل القوة المطلوبة إلى هناك وستعمل الدولة على إظهار قدرتها الهمايونية لمواجهة الإيرانيين ، وفي نفس الوقت لتأمين حدودها المتلاحقة مع الروس .

ومن جهة أخرى فإن الباب العالي طلب من سفيره في طهران ألا يقوم بإجراءات يترتب عليها زيادة التوتر بين الدولتين دون الحصول على تعليمات من الآستانة، والعمل على منع تصادم البحارة العثمانيين والإيرانيين ، لأن البحارة في كثير من الأوقات يقومون بتصرفات غير مرضية (٢٣) .

ازدادت العلاقات تكدرا بين الدولتين عندما كانت الدولة العثمانية مشغولة في حرب القرم سنة ١٨٥٤م فكون حاكم درفول جيشاً من العرب والإيرانيين القاطنين على الحدود العراقية استعداداً للهجوم على ميناء البصرة ولكن والي بغداد لم يكن يجهل نوايا الإيرانيين ، فأعد العدة وسلّح القبائل العربية المقيمة في مواجهة

الحدود الإيرانية للدفاع عن البصرة ، وذلك لقلة الجنود النظاميين ، وقد ذكر البريطانيون أن روسيا كانت من وراء الإجراءات الإيرانية ولذلك فإنهم أعلنوا عن استعدادهم للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية إذا ما تحركت قوات إيران نحو البصرة .

وبالفعل صدرت الأوامر للبارجتين أوكلاند وأكبر بالتوجه إلى سواحل البصرة ولكن القوات الإيرانية خشيت من مغبة خوض المعركة مع والي بغداد والبريطانيين في وقت واحد [٢٤] ، ومن ثم تراجعت عن هدفها .

ولا شك أن الوجود العثماني في الخليج ارتبط بتبعية بعض الإمارات أو القبائل العربية داخل شبه الجزيرة العربية إلى الباب العالي ، وكانت هذه التبعية تتدرج من مجرد الاعتراف اسمياً بالخلافة ، وحتى الرغبة في حماية عثمانية فعلية . فبالنسبة للدولة السعودية الثانية لم تكن العلاقة مستقرة ، ومنذ أصبح الأمير فيصل بن تركي حاكماً لإمارة نجد والأحساء بعد انسحاب القوات المصرية من تلك الجهات فإن تبعيته للدولة العثمانية لم تكن واضحة [٢٥] ، ففي كثير من الأوقات كان يعتبر نفسه من ولاة الدولة العثمانية وخاصة حينما تتأزم العلاقة بينه وبين البريطانيين . وعلى كل فإن العلاقة بينه وبين الدولة العثمانية كانت وطيدة وليس من شأننا هنا معالجة مدى تبعيته للسلطات العثمانية ، ولكننا ندرك ذلك من رسالة بعثها المقيم السياسي إلى الأمير محمد بن عبد الله طلب منه أن يترك الدمام القريبة من البحرين . وقد طلب المقيم من الأمير فيصل عدم تقديم العون للشيخ محمد . وكان رد الأمير فيصل أنه مفوض من قبل السلطان العثماني بحكم هذه المنطقة نيابة عنه [٢٦] .

لقد تصاعد نجم الأمير فيصل في الخليج وعمان حتى وصل نفوذه إلى الساحل الشرقي من الخليج وبذلك فإن المقيم وجد نفسه واقفاً أمام عدو لدود يهدد المصالح البريطانية ، ليس على ساحل الأحساء فقط وإنما في منطقة الخليج

بأكملها . وكان البريطانيون يفضلون أن تبقى السعودية مستقلة عن الدولة العثمانية لأن تبعيتها لها تعني امتداد النفوذ العثماني إلى تلك المناطق لكن المقيم تأكد بأن الأمير السعودي يعتمد قوته من السلطان العثماني ، وحينما تسلم رد فيصل أصيب بخيبة أمل إذ وجد فيه تحدياً صريحاً للهيمنة البريطانية في منطقة الخليج ولاسيما في البحرين التي كانت مسرحاً لادعاءات الإيرانيين (٢٧).

ومما أزعج البريطانيين كثيراً أن فيصلاً قد نجح في فرض الزكاة على معظم الإمارات العربية بما فيها البحرين .

لقد كان المقيم البريطاني في موقف لا يحسد عليه بعد وضوح موقف أمير نجد وطموحاته في المنطقة ، في إطار ولائه للسلطان العثماني ، ذلك أنه كان من مصلحة بريطانيا أن توقف الزحف السعودي إلى الساحل الغربي من الخليج . وفي نفس الوقت كانت بريطانيا على علاقة وطيدة بالباب العالي ، بل أصبح هناك تحالف بين بريطانيا والدولة العثمانية ضد الأطماع الروسية . ولم تكن العلاقة بين فيصل والبريطانيين سيئة إلى حد يدفعهم إلى اتخاذ مواقف عدائية ضده . ولذلك فإن المقيم اتخذ أسلوباً أقل حدة في رده على الأمير ، ويبدو أنه نجح في سياسته هذه فأقنع فيصل صديقه الشيخ محمد بن عبد الله الذي كان طرفاً رئيسياً في النزاع السعودي البريطاني أن يحل المشاكل التي بينه وبين ابن عمه محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة بالطرق السلمية .

لم تنجح أي من الوساطات في إزالة الخلافات الأسرية بالبحرين ، ولا شك أن هذه الخلافات قد دفعت حكام البحرين إلى البحث عن حليف يستظلون بحمايته من القوى المحلية أو من بريطانيا . وفي هذه الظروف أتيحت فرصة سانحة للعثمانيين للتدخل في البحرين ، وذلك عندما اشتد ضغط محمد بن عبد الله على ابن عمه حاكم البحرين في عام ١٨٥٩م ، ولمواجهة كل من الدولة السعودية الثانية ومحمد بن عبد الله ومراقبة البريطانيين لشواطئ البحرين ، بعث الشيخ

محمد بن سلمان حاكم البحرين مندوباً من قبله إلى عمر باشا والي بغداد يعرض عليه قبوله وضع البحرين تحت حماية الدولة العثمانية وكان الوالي يترقب تلك الفرصة لمد نفوذ دولته إلى هذه الجزر . فاغتنم عمر باشا هذه الفرصة ليسد الطريق أمام الادعاءات الإيرانية في البحرين ، وبادر بإرسال مبعوث خاص إلى هناك ليبلغ حاكمها ترحيب الدولة العثمانية بقبول تبعية البحرين لها ، لكن الإيرانيين كانوا قد سبقوا العثمانيين في الوصول إلى الجزر فانسحب المبعوث العثماني بعد أن وجد ميرزا مهدي خان قد نجح في إقناع محمد بن سلمان أن يرفع العلم الإيراني على مقر حكمه ، وأعلن اعترافه بتبعية البحرين لإيران . وبذلك فإن السياسة العثمانية لم تحرز أي تقدم في هذه المرحلة ، ويبدو أن المسئولين في الحكومة العثمانية لم يجدوا ضرورة ملحة تجعلهم يسرعون في المطالبة بالجزر لعدة أسباب منها : أنهم كانوا على علاقة طيبة مع الحكومة البريطانية ، بل على علاقة تحالف في حروبهم السابقة ضد روسيا ، وخاصة مساندتها لهم في تخطيط الحدود الإيرانية العثمانية . ولم يكن من صالح الحكومة العثمانية أن تفقد ثقة الحكومة البريطانية ، ولكن العلاقات تعرضت للفتور بعد أن علم البريطانيون بسعي العثمانيين في ضم البحرين إلى ممتلكاتهم فاحتج بالمرستون لدى الاستانة على هذه المحاولة وأكد في رسالته إلى الباب العالي أن جزر البحرين هي إمارة مستقلة وأنها مرتبطة بمعاهدات مع الحكومة البريطانية وأهمها معاهدة السلام الدائم ومعاهدة منع تجارة الرقيق الموقعة بين عامي ١٨٤٧ ، ١٨٥٦ [٢٨] .

ومن جهة أخرى فإن والي بغداد عمر باشا الذي أولى لهذه القضية اهتماماً قد عزل من منصبه وحل محله وال آخر هو نوري باشا الذي وجه اهتمامه في بادئ الأمر إلى المشاكل الداخلية في العراق نفسه لكن العلاقة ظلت مستمرة بينه وبين شيخ البحرين . وقد فضل حكامها الانضمام إلى الدولة العثمانية بدلاً من

الحكومة الإيرانية لعدة اعتبارات ، منها :

أولاً : أن الارتباط بالعثمانيين لا يعني زوال كيان الإمارة ، في حين أن إيران تدعي حق السيادة الكاملة بما يعرض حكم آل خليفة للزوال ، فإن الدولة العثمانية ربما بنت علاقاتها مع البحرين على أساس مبدأ الجامعة الإسلامية . وهناك سابقة في الخليج لطبيعة العلاقات بين الباب العالي وبين الإمارات مثل شيوخ الكويت . ويضاف إلى ذلك الموقع الجغرافي ، فإن إيران بحكم ساحلها الطويل الممتد تهدد كيان الإمارة بشكل يختلف عن العثمانيين .

ثانياً : أن الدولة العثمانية كانت تريد ان تظل البحرين عربية كما هي وكما كانت عليه قبل ولم يكن من أهدافها (تتريك) الولايات العربية الخاضعة لها . أما الإيرانيون فكانوا يعملون عكس ذلك ، إذ حاولوا القضاء على الأسر العربية في المناطق التابعة لهم ، وحاولوا (تفريس) هذه الجزر ليسهل ضمها إليهم .

ثالثاً : أن كثيرين من خصوم الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة قد استخدموا الأراضي الإيرانية قاعدة انطلاقهم إلى البحرين ، سواء عمه وأبناؤه من بعده ، أو بعض المتمردين على الشيخ ممن اتخذوا من جزيرة قيس ملجأ لهم.

رابعاً : لقد كان للانتماء المذهبي دور فعال في مثل هذه الخلافات ، فشيوخ البحرين من السنة ، كانوا يخشون أن تقوم الحكومة الإيرانية بتولية أسر شيعية الحكم في الجزر ، خاصة وأن الحكومة الإيرانية كانت تسعى لنشر المذهب الشيعي كما فعلت في بلادها ، بينما كانت الدولة العثمانية تؤيد حكومة آل خليفة .

بعث محمد بن خليفة بن سلمان طلباً آخر إلى المسئولين في بغداد أواخر عام ١٨٥٩ أعلن فيه قبول بلاده للسيادة العثمانية ، فسارع نوري باشا هذه المرة بأن أصدر تعليمات إلى أحد نوابه وهو محمد بك للسفر إلى البحرين للتشاور مع المسئولين هناك حول طبيعة علاقة ولاء الجزر للدولة العثمانية [٢٩] ، كما رحب والي البصرة

بعرض شيخ البحرين ، حيث انضم إلى محمد بك أيضاً مسئول عثماني كبير من قبل هذا الوالي . وقد وصلا إلى ميناء المنامة في ٢٢ أبريل ١٨٦٠ ولدى وصولهما فوجئا بأن الشيخ قد أنهى مباحثاته مع المسئولين الإيرانيين ، وأعلن ولاءه للدولة الإيرانية ، إلا أن المبعوثين قد تريثا قليلاً ولم يسرعا بالعودة . وقد طلب الشيخ الاجتماع بهما حيث أوضح لهما أن الفرصة ما زالت سانحة له لقبول السيادة العثمانية ، إذا وافقت حكومة الاستانة على تقديم الضمانات الكافية لحمايته من الأمير فيصل بن تركي ، وعلى مطالبة الحكومة البريطانية بوقف تدخلها في شئون بلاده المحلية ، وأضاف أن هذا ما اتفق عليه مع المبعوث الإيراني . وفيما يتعلق بتعهداته للحكومة الإيرانية فإن الشيخ لم يظهر اهتماماً كبيراً لهذا الموضوع . وذكر انه مستعد للتعاون مع الدولة العثمانية إذا وافقت من جانبها على شروطه [٣٠] . وكان المندوب العثماني مفوضاً باتخاذ ما يراه لازماً لإنجاح مهمته . فوافق دون تردد على هذه الشروط . وفي ٢٢ أبريل ١٨٦٠م أكد شيخ البحرين اتفاقه مع حكومة الاستانة العلية ، وذلك بإرسال خطاب إلى والي بغداد وقعه هو وأخوه اعترافاً فيه بقبول تبعية الجزر للدولة العثمانية ، وتعهد الشيخ بأن يدفع زكاة سنوية قدرها سبعمائة ريال نمساوي ، هذا بالإضافة إلى مجموعة من الهدايا القيمة إلى والي بغداد ، منها عدد من الجياد العربية الأصيلة .

وبذلك يكون الشيخ محمد بن سلمان قد نقض اتفاقه مع حكومة إيران ، وارتبط بالدولة العثمانية . وقد أمر بإنزال العلم الإيراني من فوق مقر الحكم ورفع العلم العثماني مكانه [٣١] .

لقد استفاد شيخ البحرين من موقع بلاده الاستراتيجي وادعاءات كل من الدولة العثمانية وإيران ملكيتها . وأصبح من المؤكد أن استخدام القوة من إحدى الدولتين سيثير غضب الدولة الأخرى ، هذا إلى جانب أن البريطانيين سوف يقفون بالمرصاد لأي منهما عند الضرورة . ولذلك فإن الشيخ كان مطمئناً إلى أن

أيا من الدولتين لن تقدم على احتلال بلاده ما دام مرتبطاً بالاتفاقيات التي وقعها في فترات سابقة ، وهذا ما سهل له أن يخدع تلك الدولتين الإيرانية والعثمانية من وقت لآخر حسب العروض والاغراءات التي كانت تقدم له . أما البريطانيون فلم يكن من مصلحتهم أن تستخدم إحدى الدولتين القوة لاحتلال الجزر حيث تبنوا سياسة الحفاظ على خلو مياه الخليج من الحروب البحرية .

وعلى كل فإن البريطانيين لم يعطوا أي أهمية للتطورات التي كانت تحدث في بلاد الشيخ ، ولم يجد المقيم (جونز) غرابة في سلوك الشيخ محمد بن سلمان ، فقد تعود منه هذه التقلبات [٣٢] ، ومع ذلك فإنه كان مهتماً بأن يكون على دراية تامة بكل ما جرى بين المبعوث العثماني وشيخ البحرين خاصة وأنه كان يعد العدة في تلك الفترة للقيام بحملة مفاجئة على الدمام فيثير غضب كل من الدولة العثمانية والحكومة الإيرانية على السواء . ولذلك فإنه أمر أحد الطرادات البريطانية في عام ١٨٦٠ بالتوجه إلى ساحل البحرين لمراقبة تحركات شيخها .

وفي الوقت نفسه فإن المصادر البريطانية لم تسجل أية تحركات عدوانية من جانب الدولة العثمانية ضد الجزر ، أو نواياها في استخدام القوة بهدف احتلالها. وفي الحقيقة فإن التدخلات البريطانية المستمرة في الشئون المحلية لإمارات الخليج وخاصة جزر البحرين - كانت هي السبب الرئيسي في إثارة غضب الدولتين الإسلاميتين المجاورتين للمنطقة .

فبعد توقيع اتفاقية عام ١٨٦١ والتدخل العسكري البريطاني في الدمام في نوفمبر من نفس العام توالت الاحتجاجات مع ملك بريطانيا [٣٣] .

فقد بعث أحمد توفيق باشا والي بغداد احتجاجاً شديد اللهجة إلى القنصل البريطاني العام في العراق الكولونيل كامبل Kamball بعد أسابيع قليلة من الاتفاقية حول سلوك المقيم جونز ، فذكر الوالي أن الإجراءات التي اتخذها المقيم ضد الدمام تعد انتهاكاً صارخاً لحرمة الأراضي العثمانية [٣٤] . وتساءل الوالي :

بأي حق يقوم المقيم بمهاجمة ميناء الدمام والتدخل في شئون البحرين المحلية ؟ إلا أن جونز لم يعط أهمية كبيرة لاحتجاج والي بغداد حيث أنه اعتبر ميناء الدمام تابعاً للأمير فيصل بن تركي - كما ذكرنا من قبل - ، وهو حاكم مستقل . وكذلك البحرين فهي إمارة مستقلة . وكان من رأي جونز أنه لا يحق للدولة العثمانية المطالبة بمنطقة شرق الجزيرة العربية ، بينما كان والي بغداد يصر على أن إمارة نجد تابعة لدولته [٣٥] ، حيث أن السلطة الفعلية للدولة العثمانية في ذلك الوقت لم تتجاوز العراق بسبب الصعوبات التي واجهت العثمانيين لتقوية وجودهم البحري في الخليج ، والطريق المفتوح أمامهم لإثبات وجودهم في شرق شبه الجزيرة العربية كان هو الطريق البري ، وذلك بأن تزحف قواتهم على الكويت ومنها إلى شرق شبه الجزيرة العربية وبقية الموانى الواقعة على الساحل ومن المعروف أنهم قاموا بخطوة هامة في هذا المجال سنة ١٨٧١م هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان بإمكان الأمير (فيصل) حليف العثمانيين أن يزحف على جميع مناطق اليابسة سالكاً الطريق البري أيضاً بمساندة أتباعه في تلك الإمارات ولذلك فإن الدولة لم تقدم احتجاجات أخرى واكتفت بالمذكرة التي قدمها أحمد توفيق باشا إلى كامبل ولعل سكوت الباب العالي إزاء تصرفات البريطانيين يرجع إلى ما سبق أن ذكرناه ، وهو أن بريطانيا كانت ظهيرة للدولة العثمانية في حرب القرم ، كما أنها وقفت إلى جانبها في اللجنة التي كلفت برسم الحدود بينها وبين إيران .

وفي ١٤ من فبراير ١٨٦٥م قام الكولونيل بيلي بزيارة رسمية للرياض لمقابلة الأمير فيصل ، فكان بذلك أول مسئول بريطاني على مستوى عال يزور عاصمة شبه الجزيرة العربية وقد كانت لهذه الزيارة آثار إيجابية في العلاقات السعودية البريطانية ، فهي بمثابة اعتراف رسمي من جانب بريطانيا بالدولة السعودية الثانية .

وبعد وفاة فيصل بشهرين تقريباً أرسل ابنه عبد الله - الذي خلف أباه في الحكم - مبعوثاً خاصاً إلى بو شهر ، في أبريل ١٨٦٦م ، فاجتمع بالمقيم البريطاني هناك ونتج عن ذلك تحسن العلاقات بين أمير نجد والمسئولين البريطانيين . وقد عرض الأمير على المقيم أن يتوسط لدى إيران وشيوخ العرب لتصفية العلاقات بينهم ، كما أبدى استعداده للسماح للرعايا البريطانيين بالإقامة في أراضيه وضمان حمايتهم . وقد حصل البريطانيون على بغيتهم عندما تعهد الأمير عبد الله باحترام الأراضي العثمانية والامتناع عن مهاجمة القبائل العربية (٣٦) .
وعلى الرغم من ذلك فإن البريطانيين كانوا يحملون الرياض كل المخالفات البحرية التي تقع من القبائل القاطنة على ساحل الأحساء مثل غارة قبيلة البوعلي علي أمام مسقط في أواخر عام ١٨٦٦م (٣٧) .

وإذا كانت حكومة الهند قد سعت في تقليص الوجود العثماني البحري في مياه الخليج فإنها كانت العقبة الرئيسية أمام تكوين أسطول بحري إيراني في مياه الخليج رغم المحاولات الحثيثة التي قامت بها الحكومة الإيرانية .

لقد برزت في ذلك الوقت الاتجاهات الوطنية ضد القوى الأجنبية التي كانت تتحكم في مصائر البلاد وخاصة في الشمال والجنوب ويرجع الفضل في ذلك إلى الوزير المستنير (٣٨) أمير كبير الذي بذل - رغم قصر الفترة التي تولى فيها زمام الأمور - غاية جهده في التمكين لنفوذ الحكومة المركزية على ساحل الخليج وإرسال القوات النظامية إلى تلك الجهة بدلاً من رجال القبائل المسلحين ولكي يحقق هدفه بادر إلى عزل كل الخانات والشيوخ الذين كانت لهم تبعية اسمية للحكومة الإيرانية وإن كانوا شبه مستقلين وعين بدلهم حكاماً إيرانيين معروفين بوطنيتهم وكراهيتهم الشديدة للسيطرة الأجنبية (٣٩) .

ومن الأسباب القوية التي دعت الحكومة الإيرانية إلى إنشاء أسطول بحري في الخليج ظهور أهمية تلك المنطقة من جديد في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر إذ كانت الدول الأوربية تتسابق في الحصول على موطئ قدم لها في مياه الخليج وإيران ، وذلك نتيجة استخدام السفن التجارية العملاقة ، وكذلك استخدام وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية في الخمسينات من القرن التاسع عشر لربط الشرق بأوربا عبر مياه الخليج من ساحل مكران إلى فم شط العرب ، ذلك أن البريطانيين وجدوا أنهم في حاجة ماسة للاتصال البرقي السريع بين لندن ومستعمراتهم في كل من كلكتا وبومباي في الهند حيث تكثر المشاكل التي كانت تعاني منها تلك المستعمرات الهندية وقد وجدت الحكومة البريطانية أن مد خط التليغراف ضرورة ملحة لنمو التجارة البريطانية ولا غنى عنه مهما بلغت تكاليفه [٤٠] .

وإزاء هذا الاهتمام البالغ من جانب البريطانيين كان على حكومة الشاه أن تعيد حساباتها مع هذه المنطقة النائية عن العاصمة الحديثة طهران . وقد صادفت هذه الفترة أن البريطانيين وقعوا على عدد من المعاهدات والاتفاقيات بينهم وبين شيوخ المنطقة . وهذا ما أثار الرعب في دوائر الحكومة الإيرانية إذ من الممكن أن تعقد بريطانيا معاهدات مع شيوخ الساحل الشرقي وتعترف باستقلالهم عن الحكومة المركزية وينتج عن ذلك وقوع الخليج بساحليه تحت السيطرة البريطانية الكاملة .

وقد صدق ظن الإيرانيين في بعض المناطق من ساحل إيران مثل ساحل مكران ، إذ دار نقاش طويل بين الحكومة الإيرانية من جهة وحاكم كلات والحكومة البريطانية من جهة أخرى ، وقد بدأ هذا النزاع عندما أراد الإيرانيون استرجاع نفوذهم على ميناء جوادر الذي كان تابعاً لسلطان عمان في ذلك الوقت ثم أصبح تحت الإدارة الإيرانية في عهد فتح علي شاه ولكن الحكومة الإيرانية لم تنجح في تثبيت سلطتها المباشرة على منطقة كلات فأصبح خاناتها يحكمون المنطقة مستقلين دون تدخل من حكومة الشاه .

وفي أواخر عهد محمد شاه حاولت حكومته استرجاع المنطقة باستخدام القوة العسكرية ولما تولى ناصر الدين واصل سياسة والده في إرسال حملات متكررة إلى ساحل مكران ثم اتخذت الحكومة الإيرانية أسلوباً جديداً في فرض سيطرتها على المناطق التابعة لها في الجنوب وهي إنشاء إدارات لتحصيل الجمارك في مناطق الخليج [٤١] وكانت هذه الخطوة الأولى في اعتراف الحكومات المحلية بالحكومة المركزية ومن ضمنها ميناء جوادر فأسست إدارة جمركية لها في هذا الميناء . وقد قابل البريطانيون هذه الخطوة برفض قاطع ظناً منهم بأن سيطرة حكومة الشاه على هذه المنطقة ستشكل خطراً عظيماً على مستعمراتهم في الهند . وقد ذكر هذه الحقيقة الشاب جرانت الذي أوفده مالكولم عام ١٨٠٩م إلى ساحل مكران للتأكد مما إذا كان في استطاعة جيش أوربي غزو الهند من جهة الساحل الجنوبي لإيران.[٤٢] فقرر أنه ليس من المستحيل غزو الهند عن طريق مكران وأن الفكرة الشائعة بأنه لا يمكن غزو الهند من هذه الناحية لندرة المياه فيها هي فكرة خاطئة [٤٣] وبذلك نجح البريطانيون في القضاء على طموح الحكومة الإيرانية فعينوا لجنة لرسم الحدود بين إيران وخان كلات .

وقد اشترك في هذه اللجنة مندوبون عن إيران وبريطانيا وخان كلات ، فوضعت هذه اللجنة في سنة ١٨٧١ ميناء جوادر حداً فاصلاً بين بلوخستان الفارسية وبلوخستان البريطانية [٤٤] ووافق الشاه بعد ضغط مستمر وقع عليه من المسئولين البريطانيين [٤٥] .

أما في منطقة الخليج العربي فلم يتخذ البريطانيون مثل هذا الإجراء ، ولم يحاولوا عقد اتفاقيات منفصلة مع الحكام وكان هذا دليلاً على أن البريطانيين لم يعترفوا باستقلال هؤلاء الحكام عن الحكومة المركزية رغم أنهم قاموا في كثير من الأحيان بتحريض القبائل العربية القاطنة في الجنوب ضد حكومة الشاه . كما كانت هذه القبائل تلقى تأييداص من البريطانيين ، بما فيها القبائل

الإيرانية العريقة كالبختيارية والقشقانية فكانت تحظى بهذا التأييد وكانت سياسة البريطانيين هذه نابعة من مصالحهم الاستعمارية التي كانت تفضل دائماً وجود الخلافات بين حكومة طهران وبين تلك القبائل القاطنة في الجنوب حتى يمكنها التدخل في شئون المنطقة في الوقت المناسب [٤٦] . ولذلك فإن الحكومة الإيرانية أدركت خطورة الوجود البريطاني على الساحل الشرقي من الخليج وعملت جاهدة على أن تعيد سيطرتها الكاملة هناك .

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدادت الخلافات بين الطرفين حول الخليج وبخاصة عندما أرادت بريطانيا مد أسلاك البرق في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من ذلك القرن ، لكن المشكلة الحقيقية التي كانت تعاني منها إيران هي افتقارها إلى القوة البحرية التي هي الدعامة الأساسية لفرض هيبتها وهيمنتها على الخليج . ففكرت في شراء عدد من السفن الحربية منذ تولية ناصر الدين شاه الحكم وفاوضت عدداً من الدول ، ومنها بريطانيا ، لشراء بعض السفن المجهزة بالمدافع ولكنها كانت تجابه بالرفض التام من تلك الدول حرصاً على مصالح حلفائها في منطقة الخليج .

مشروع تأسيس الأسطول البحري الإيراني :

كانت الحكومة الإيرانية قد سعت في أواخر عهد محمد شاه إلى تأسيس قوة بحرية ترابط في مياه الخليج تعتمد عليها في تأمين السواحل والموانى إلا أن البريطانيين أبدوا معارضة شديدة للمشروع خاصة وأن الإيرانيين كانوا يبيتون نية الاعتداء على إمارات الخليج . وعندما تولى ناصر الدين شاه العرش قام ميرزا تقى خان مرة أخرى بإحياء هذا المشروع فطلب من الحكومة البريطانية الحصول على عدة سفن حربية وقد عرض الوزير هذا الطلب على بالمرستون ، وزير الخارجية

البريطانية آنذاك ، عن طريق الوزير البريطاني المفوض في طهران ، وأوضح الوزير المزايا التي تحققها إيران والإمارات والدول الواقعة على ساحل الخليج ، ورغم ذلك فإن بالمرستون رفض الاستجابة إلى طلب إيران رفضاً باتاً [٤٧] .

فاتجهت إيران إلى دول أخرى لتحصل منها على طلبها مثل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، وهذا بالإضافة إلى إحساس إيران بأن النفوذ البريطاني قد ازداد بشكل خطير في المنطقة ولا يمكن أن يتقلص هذا النفوذ إلا بوجود دولة بحرية أخرى في مياه الخليج لخلق توازن بين الدولتين .

ومن أجل هذا بحث رئيس الوزراء الإيراني أمير كبير بخطاب إلى القائم بالأعمال الإيراني في استانبول ميرزا محمد خان يطلب منه الاتصال بالسفير الأمريكي هناك ويعرض عليه عقد اتفاقية صداقة بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية وأبدى استعداد حكومة الشاه لتقديم كل التسهيلات أمام السفن الأمريكية في المياه الإقليمية الإيرانية وتنشيط حركة التجارة بين الدولتين وقد رحب السفير الأمريكي بهذه الاقتراحات [٤٨] .

فعقدت اتفاقية صداقة بين البلدين (١٧ شعبان ١٢٦٦هـ - ٢٨ يونيو عام ١٨٥٠م) إلا أن التوقيع عليها قد تأخر بعض الوقت من جانب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى (١٤ ذي الحجة ١٢٦٧ هـ - ١٩ من أكتوبر عام ١٨٥١ م) وقد تضمنت هذه المعاهدة ثمانية بنود منها ما يختص بالعلاقات التجارية والملاحة في مياه الخليج ومنها ما يختص بحق الولايات المتحدة في تعيين عدد من القناصل في ميناء بو شهر وغيره من الموانى والمدن الإيرانية المهمة [٤٩] ، ويبدو ان أمير كبير هدف إلى إيجاد علاقات بين بلاده وبين أمريكا من شأنها أن تجعل للولايات المتحدة موضعاً في مياه الخليج . ولم يصر الإيرانيون على مطلبهم في شراء السفن مخافة أن ترفض الولايات المتحدة الاتفاقية من أساسها والواضح أن الامتيازات التي أعطيت للولايات المتحدة في مياه الخليج وهي حق الملاحة في المياه

الإقليمية للدولة وتأسيس قنصلية أمريكية في بوشهر عوضاً عن مناطق استراتيجية بعيدة مثل طهران وتبريز ، مما لم تظفر به دولة من قبل وقد علق السفير الأمريكي في خطابه إلى وزير خارجية دولته بأن الامتيازات التي منحت لحكومته واشنطن مغرية جداً وخاصة ما يتعلق بحق الملاحة وتأسيس القنصليات [٥٠] .

والمعتقد أن الإيرانيين جعلوا من هذا الاتفاق وسيلة للضغط على الحكومة البريطانية لموقفها السابق الرافض لبيع السفن الحربية إلى حكومة طهران ولو كان الإيرانيون نجحوا في اجتذاب الدول الكبرى إلى مياه الخليج لأمكنهم الحصول على مكاسب أكبر . نتيجة تنافس هذه الدول في المنطقة ولكن هذه الآمال لم تتحقق إذ لم يمض سوى شهر واحد على توقيع الاتفاقية حتى عزل أمير كبير من منصبه وتوقفت المباحثات الأمريكية الإيرانية وقد كتب السفير الأمريكي في استنابول .كارون اسبنس . إلى وزير خارجيته : أن - البريطانيين سوف يمارسون نفوذهم لدى طهران وأنهم سيعطلون العمل بالاتفاقية الإيرانية الأمريكية [٥١] .

تولى منصب الصدر الأعظم ميرزا نصر الله خان المعروف بميرزا أغاخان نوري اعتماد الدولة . وكان البريطانيون يأملون أن يعيد المياه إلى مجاريها في العلاقات البريطانية الإيرانية [٥٢] لكن الظروف والحوادث التي كانت تجري في المنطقة حالت دون ذلك بل تولدت عنها آثار سيئة في منطقة الخليج بأكملها فانقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين عام ١٨٥٦ بسبب اندلاع الحرب ، وشعر ناصر الدين بحاجته الملحة إلى تأسيس قوة بحرية في مياه الخليج ، وللمرة الثانية لم يجد أمامه سوى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ان توقفت المباحثات السابقة .

وفي نوفمبر عام ١٨٥٤م أمر الشاه سفيره في استانبول ميرزا أحمد خان أن يتصل بالسفير الأمريكي هناك ويبذل كل ما في وسعه لعقد اتفاقية صداقة بين إيران والولايات المتحد ةالأمريكية . وأن تحصل إيران بمقتضاها على عدد من السفن

الحربية ومساعدة حكومة واشنطن للبلاد في إنشاء أسطول بحري . وقد وضع الشاه بنفسه بنود الاتفاقية التي تضمنت نقاطاً ثمان . وقد جاء في المادة السابعة منها ما نصه ((حيث أن إيران لا تملك القوة البحرية في مياه الخليج فإن على الأسطول الأمريكي أن يحمي السفن التجارية الإيرانية)) كما جاء في المادة الثامنة ما نصه : ((تتعهد الولايات المتحدة الأمريكية بحماية الموانى والجزر الإيرانية من البريطانيين والعثمانيين))[٥٣] .

وبطبيعة الحال صادفت هذه الاتفاقية توتراً شديداً في العلاقات الإيرانية العمانية بسبب تطلع الإيرانيين إلى استرداد بندر عباس من عمان .

ولعلنا نلاحظ أن الاتفاقية أعطت للولايات المتحدة اختصاصات أوسع في مياه الخليج خدمة للمصالح الإيرانية ولكنها في نفس الوقت تتعارض مع مبادئ السياسة الخارجية الأمريكية التي تبنتها في تلك الفترة والتي كانت ترفض التورط في منازعات العالم القديم . وبذلك رفضت حكومة واشنطن في بادئ الأمر التوقيع على تلك الاتفاقية خاصة وأنها لم تحظ برضا المسئولين الأمريكيين الذين ماطلوا في التصديق عليها رغم إلحاح إيران وتلهفها على إنجاحها وشدة سعيها في الحصول على التصديق عليها .

وقد بعثت الحكومة الإيرانية مترجمها داود خان إلى الولايات المتحدة ليبحث الموضوع فلم ينجح في مسعاه إذ أن وزير الخارجية الأمريكي جاكسون أبلغ سفير بلاده في استانبول أن التوقيع على الاتفاقية لم يتم . ثم ان الشاه بعد ذلك كلف سفيره في روسيا أن يبذل المساعي مع السفير الأمريكي كما أن المساعي مع السفير الأمريكي في بطر سبورج كانت مستمرة ثم أفاد بعد اتصاله بالسفير المذكور أن لأمريكا علاقات وثيقة مع البريطانيين الأمر الذي يحول دون إتمام الاتفاقية وقد أرجع السفير الأمريكي هذا التأخير إلى تدخل كل من بريطانيا وروسيا [٥٤].

لقد وجد الأمريكيون أن الاتفاقية مجحفة بالنسبة لهم إذ أن المكاسب التي

ضمنتها لإيران كانت تفوق المصالح الأمريكية بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تتعرض لنقمة أصدقائها البريطانيين إذا ما وقعت هذه الاتفاقية .

ومن المواد التي كانت موضع جدل بين الدولتين المادتان السابعة والثامنة التي نصت إحداهما على أن تتعهد الولايات المتحدة الأمريكية ولمدة عامين من التوقيع على الاتفاقية ، بالدفاع عن الساحل الإيراني وأن تحذر أمام مسقط من التعرض للأراضي الإيرانية . وأن تساعد حكومة واشنطن إيران في احتلال بعض الجزر الواقعة في مياه الخليج بما فيها البحرين . وأن تتعهد السفن الأمريكية بحماية السفن الإيرانية . كما طلب الإيرانيون أن ترفع سفنهم العلم الأمريكي حتى لا تتعرض للهجوم من قبل السفن المعادية لها وفي مقابل ذلك تعفي السفن التجارية الأمريكية من الضرائب الجمركية لمدة سنتين [٥٥] .

وقد طالبت بعض الإيرانيين المعادين للنفوذ الأوربي حكومتهم بأن تعطي كل التسهيلات للسفن الأمريكية في حالة عدم موافقة واشنطن على الشروط الإيرانية [٥٦] وهكذا ضغط المسئولون الإيرانيون على حكومتهم لإيجاد صداقة وطيدة مع الولايات المتحدة وفي (١٥ ربيع الثاني ١٢٧٣ هـ - ١٣ ديسمبر عام ١٨٥٦م) تم التوقيع على الاتفاقية السابقة بعد أن تخلى الإيرانيون عن البندين السابع والثامن المتعلقين بالمساعدات الأمريكة لإيران في مياه الخليج [٥٧] ، وبذلك أخفقت الحكومة الإيرانية في تحقيق أهدافها السياسية التي كانت تسعى من ورائها إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية والصداقة التي استمرت المناقشة حولها طيلة عامين تقريباً ولم ينجح الإيرانيون في إقناع حكومة واشنطن بإمدادهم بالسفن الحربية والسبب الرئيسي في تخلي الإيرانيين عن هذين البندين هو الرفض الأمريكي المستمر مراعاة لمصالحهم خصوصاً بعد أن قامت الحرب بين بريطانيا وإيران رسمياً في عام ١٨٥٦م .

لقد كانت الحكومة البريطانية تتابع الحركات الإيرانية وخاصة المباحثات التي جرت بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية . وقد صرح وزير خارجية بريطانيا بأن حكومته سوف تحول دون إتمام الاتفاقية الإيرانية الأمريكية . ذلك أن الأمريكيين سوف يحصلون على إحدى الجزر الواقعة في مياه الخليج بمقتضى عقد إيجار بمثابة هدية من إيران ومن ثم فإن الأمريكيين يتصرفون فيها كما يشاءون . وبذلك فهم يشكلون خطورة على المصالح البريطانية في منطقة الخليج بأكملها . وكان رد الفعل البريطاني عنيفاً بالنسبة للمحادثات الجارية بين واشنطن وطهران . فقد وجه بالمر ستون تهديداً صريحاً للولايات المتحدة جاء فيه أنه ((إذا وافقت حكومة الولايات المتحدة على هذه المعاهدة مع إيران فإنها لا شك تريد أن تورط بريطانيا في الحرب معها)) وبرر موقفه هذا ضد الولايات المتحدة بأن منطقة الخليج العربي من المناطق الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا ومستحيل التنازل عنها أو السماح لأحد بمشاركتها فيها إذ أن لبريطانيا مصالح تجارية واقتصادية مع هذه المنطقة منذ فترة طويلة هذا بالإضافة إلى أنها المحطة الرئيسية للوصول إلى الهند .

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فلم تكن لها أهمية وأضاف بالمر ستون : ((أن على المسئولين الأمريكيين أن يخلقوا مشاكل أخرى لجر بريطانيا إلى الحرب معهم ، وعليهم أن يبحثوا عن وسائل أخرى كي يجدوا مبرراً أكثر وضوحاً لقيام النزاع)) [٥٨] .

أما الإيرانيون فقد شعروا بخيبة أمل من جانب أمريكا ولم يكن أمامهم سوى الدول الاوربية للحصول على بغيتهم مثل فرنسا وبريطانيا والنمسا فبعثوا مالكوم خان وفرخ خان إلى كل من بريطانيا وفرنسا بهدف إعادة العلاقة الطبيعية بين إيران وبريطانيا ، وكذلك بذل المساعي لدى المسئولين في أوربا لإمداد إيران بالسفن الحربية . وفي (٢١ ربيع الثاني ١٢٧٣ هـ - ١٩ نوفمبر ١٨٥٦م) بعث أغا

نوري خان الصدر الأعظم خطاباً إلى فرخ خان يحثه على سرعة الحصول على موافقة إحدى الدول لإمداد إيران بحاجتها الضرورية من السفن الحربية ، وهكذا لم تقتصر المساعي على الولايات المتحدة وحدها ، بل والدول الأوربية الأخرى ، وبالذات فرنسا باعتباها المنافسة القوية للمصالح البريطانية في الشرق (٥٩) .

كما أن الحكومة الفرنسية كانت تطمع في الحصول على موطئ قدم لها في منطقة الخليج منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ولعل الوقت كان مناسباً للفرنسيين لتحقيق أطماعهم وكان السفير الفرنسي الذي وصل إلى طهران في ذلك الوقت يحمل تعليمات من حكومته بإنشاء مركز تجاري لها في إحدى الجزر الواقعة في مياه الخليج وفي (١٧ شوال ١٢٧١هـ - ٢ يونيو ١٨٥٥م) وصل المبعوث الفرنسي بروسبر بوري إلى طهران (٦٠) وعقد معاهدة الصداقة بين فرنسا وإيران بعد وصوله بعشرة أيام (٢٧ شوال ١٢٧٢هـ - ١٢ يونيو ١٨٥٥م) وبموجب هذه المعاهدة وافق مندوبو الدولتين على إقامة التمثيل الدبلوماسي بينهما كما وافقت حكومة ناصر الدين على فتح عدد من القنصليات الفرنسية في بعض الموانى والمدن الإيرانية مثل تبريز وبو شهر . وقد اعتبر الفرنسيون قنصلياتهم في المدن الإيرانية التجارية وخاصة بو شهر مكسباً كبيراً لهم حيث أصبح في إمكانهم الانطلاق من منطقة الخليج تجاه المستعمرات الإنجليزية في الهند .

أما فيما يتعلق بحصول إيران على سفن حربية فقد رحب المبعوث الفرنسي بهذه الفكرة . وكتب رسالة إلى حكومته ذكر فيها ما تتعرض له الموانى والسواحل الإيرانية من عدوان السفن العربية من جهة والضغوط البريطانية من جهة اخرى واقترح مسيو بوريه أن تتولى السفن الفرنسية حماية أمن الخليج بحيث تكون السفن تحت إمرة القنصل الفرنسي في بو شهر ولا شك أن تنفيذ مثل هذا المشروع سيدخل الرعب في قلوب البريطانيين لاسيما وأنهم كانوا يجاهدون بكل ما في وسعهم لتحطيم العلاقات الفرنسية الإيرانية إلا أن هذا المشروع لم يكن له

صدى واسع في باريس . كما أن الحكومة الفرنسية تجاهلت مقترحات سفيرها في طهران لأن الوقت لم يكن مناسباً فقد كانت فرنسا متحالفة مع بريطانيا والدولة العثمانية ضد روسيا في حرب القرم (١٨٥٣ م - ١٨٥٦ م) . هذا بالإضافة إلى أن الإيرانيين لم يلحوا كثيراً على تنفيذ مطالبهم لانشغالهم أيضاً بالحرب،(٦١) ولكنهم جددوا مطالبهم مرة ثانية في عام ١٨٦٤م بين الدولتين ، وخاصة فيما يتعلق بالشئون التجارية وفتح قنصلية بو شهر .

وكان الإيرانيون يأملون أن تنشئ فرنسا قنصلية تجارية لها في ذلك الميناء حتى تنافس المقيمية البريطانية هناك . إلا أن السفير الفرنسي برر موقف حكومته بأنه لا يوجد للفرنسيين مصالح تجارية كبيرة في منطقة الخليج تستحق تعيين قنصل فرنسي في بو شهر ، بينما أكد للوزير الإيراني أن العلاقات التجارية بين الدولتين في نمو مستقر .

وفي الوقت نفسه بعث السفير الفرنسي الكونت دي روششوار خطاباً إلى وزير خارجيته شرح فيه أهمية منطقة الخليج ومدى نفوذ البريطانيين هناك واقترح أن يكون لفرنسا مندوب في هذه المنطقة سواء في بوشهر أو مسقط أو البصرة لكنه فضل ميناء بو شهر للعلاقة المتينة التي تربط الحكومة الفرنسية بالحكومة الإيرانية (٦٢) .

وفي (٢٦ جمادى الأولى ١٢٨١ هـ - ٢٨ من أكتوبر عام ١٨٦٤م) بعث وزير خارجية فرنسا رداً على مقترحات الكونت دي رشوار أعرب فيه عن أهمية منطقة الخليج وضرورة أن يكون لفرنسا مندوب فيها لمراقبة التحركات وكذلك لحماية التجارة الفرنسية في إيران والخليج ، واشترط الوزير الفرنسي ضرورة أن يكون هذا المندوب فرنسي الجنسية لا من الشخصيات المحلية (٦٣) وكانت الحكومة الفرنسية قد وضعت مشروعاً (١٨٦٣ م - ١٨٦٤م) بأن تكون لفرنسا مستعمرات صغيرة في مياه الخليج عن طريق استئجار إحدى الجزر الإيرانية لمدة ٩٩ سنة مقابل أن

يتولى الأسطول الفرنسي حماية الجزر والموانى الإيرانية [٦٤] .

وقد أزعج هذا النبأ المسئولين البريطانيين فالفرنسيون إذا تولوا الدفاع عن الجزر والموانى الإيرانية فإن ذلك سيشكل خطورة كبيرة على المصالح البريطانية ولكن المشروع الفرنسي لم يخرج إلى حيز التنفيذ لاقتناع الفرنسيين أنفسهم بأن البريطانيين لا يسمحون لأية قوة أخرى أن تشاركهم في مياه الخليج .

لم يكن الاهتمام بإنشاء الأسطول مقصوراً على شخص ناصر الدين ، وإنما شاركه في هذا الاهتمام بعض الأمراء القاجاريين الذين تولوا إدارة إقليم فارس وبعض المسئولين في هذا الإقليم . وقد كتب فريدون ميرزا قائمقام خطاباً إلى الصدر الأعظم وجه فيه لوماً شديداً إلى الحكومة لتجاهلها نداءاته المتكررة لضرورة شراء سفن حربية مزودة بالمدافع لحماية الموانى المطلة على الخليج وذكر أن جميع الدول المطلة على البحار تملك قوة بحرية كافية لحماية شواطئها حتى بعض الدول والإمارات الخليجية أصبحت تملك قوة تمكنها من الدفاع عن نفسها ما عدا دولة إيران فهي لا تملك حتى (بغلة) أو قارباً واحداً رغم أن الخليج يسمى ((بحر العجم)) وأضاف ((ففي العام الماضي عرضت للبيع سفينتان أو ثلاث سفن جيدة وطلبت منكم شراءها إلا أننا لم نستسلم أي رد منكم كما بعثت في هذا العام خطاباً آخر ذكرت فيه أن سفينة جيدة عليها ٢٤ مدفعاً معروضة للبيع لكننا لم نتلق رداً على طلبنا أيضاً .....)) .

ثم أكد حاكم فارس للحكومة المركزية أنها لا يمكن أن تحافظ على مصالحها في الخليج إلا إذا ملكت قوة بحرية مناسبة وذكر أنه لتحقيق طموح إيران يجب أن تنفق مبالغ طائلة في هذا السبيل،[٦٥] ولكن حاكم فارس لم يذكر الجهة التي عرضت السفن للبيع . وإذا صح ما ورد في الخطاب فإنه بإمكان حكومة طهران إنشاء الأسطول ، ولذلك فإن كثيراً من الإيرانيين اتهموا حكومتهم بالتباطؤ في أمر إنشاء الأسطول وعللوا ذلك بحرص حكومتهم على إرضاء البريطانيين

الذين حذروا كل القوى المحلية في المنطقة بما فيها إيران من إنشاء قوة بحرية حتى يظل الخليج خالياً مما يهدد نفوذهم . تعاظم طموح إيران لإقناع بريطانيا بتزويدها بقوة بحرية في الستينات من القرن التاسع عشر عندما توقفت أعمال البحرية الهندية في الهند والخليج أواخر عام ١٨٦٢ ، وعهد بهذه الأعمال إلى الأسطول الملكي البريطاني . وقد ترتب على ذلك تدهور المصالح التجارية البريطانية في الهند وبقية المستعمرات في شرق أفريقيا ومياه الخليج التي خلت من القوة البحرية في كثير من الأحيان . وكان المقيم البريطاني يضطر في وقت الحاجة إلى طلب القوة البحرية من الهند أو من جهات أخرى لحماية مصالح دولته [٦٦] .

وقد ورد في تقرير للمقيم السياسي في منطقة الخليج عام ١٨٦٤م أنه يعتقد بأن تجارة الرقيق في منطقة الخليج لازالت مستمرة ولا تملك المقيمية الإمكانات الكافية لوقف تلك التجارة . وفي عام ١٨٦٥ عندما كلفت الحكومة أن يباشر المقيم السياسي وظيفة الحاكم العام في المنطقة لحل الخلافات التي تحدث بين شيوخ الساحل العربي أفاد بأنه عاجز عن القيام بأي دور رئيسي في هذا الموضوع . وذلك لقلة الإمكانات [٦٧] وقد علمت الحكومة الإيرانية حقيقة وضع المقيم وأدركت أنه وصل إلى أدنى درجة طيلة وجود بريطانيا في المنطقة فانتهزت هذه الفرصة خاصة وأن العلاقات البريطانية قد تحسنت في ذلك الوقت [٦٨] فطلبت شراء سفن حربية يقودها ضباط بريطانيون ويعمل عليها بحارة من العرب والهنود واعتقد الشاه أن حكومة لندن سوف توافق على ذلك .

وقد حاول الإيرانيون أن يقنعوا السفير البريطاني بأن البحرية الإيرانية سوف تخفف من الأعباء التي تقع على الأسطول الملكي [٦٩] . وهذا بالإضافة إلى أن الإيرانيين سوف يمكنهم حماية شواطئهم . والحقيقة أنهم كانوا يرمون إلى بسط

سيطرتهم على بعض الأجزاء في الخليج وقد تعاطف السفير البريطاني مع المقترحات الإيرانية فنصح حكومته بألا تضع العراقيل أمام إيران في بسط سيطرتها شريطة أن تكتفي فقط بتبسيط سلطتها على المناطق التابعة لها وليس على امتداد ما وراء ذلك ، إلا أن الحكومة البريطانية رفضت أن تستجيب للمطالب الإيرانية ، كما رفضتها البحرية الملكية معللة هذا الرفض بأن تجريد الخليج من القوات البحرية سيكون عاملاً في استقرار الأمن . كما أن تزويد إيران بالسفن الحربية سيثير مشاكل جمة للمسئولين البريطانيين حيث أن بقية شيوخ الخليج سيطلبون من البريطانيين في المقابل تزويدهم بالسفن الحربية اللازمة [٧٠] .

وتصادف في ذلك الوقت أن استردت إيران بندر عباس فزادت حاجتها بالتالي إلى السفن التي تحمي هذا الميناء وبناء على ذلك فقد بعث السفير البريطاني [٧١] هذا الاقتراح مرة ثانية إلى حكومته وأعرب عن تخوفه من أن تقوم إيران بإقناع دول أوربية أخرى مثل فرنسا أو ألمانيا لمساعدتها في إنشاء قوة بحرية ، بيد أن حكومة لندن رفضت المطالب الإيرانية متعللة بخوفها من أن تحتل إيران بعض الجزر في مياه الخليج أو أن تخضع البحرية الإيرانية لسيطرة روسيا [٧٢] وفي الحقيقة أن الحكومة البريطانية كانت في حيرة من أمرها بسبب احتمال لجوء الإيرانيين إلى فرنسا أو غيرها من الدول الأوربية ولذلك بعثت إلى سفيرها في طهران في يناير من عام ١٨٧٠ بأنه إذا لم ينجح في إقناع الشاه بالعدول عن فكرته ، وإذا رأى السفير أن وجود سفن إيرانية ضرورة ملحة لحفظ أمن إيران نفسها فإن الحكومة البريطانية سوف تزود إيران بسفينة واحدة ويبدو أن الحكومة الإيرانية توقفت بعض الوقت عن مواصلة جهودها في إنشاء قوتها البحرية [٧٣] وكان الغزو الروسي لشمال إيران في السبعينات من القرن التاسع عشر سبباً في توقف المباحثات الخاصة بشراء السفن من بريطانيا حيث نجح الروس في احتلال منطقة تركما نستان والسيطرة على البحر الأسود ومناطق أخرى في شمال إيران .

وفي أواخر القرن التاسع عشر، ومع بداية ظهور المزيد من اهتمام حكومة طهران بمنطقة الخليج، أثار الشاه مرة ثانية موضوع إنشاء أسطول في مياه الخليج [٧٤] وذلك بعد أن وضعت حكومته خطة للإشراف المباشر على الموانئ والمدن الواقعة على الساحل الشرقي للخليج مستهدفة الحصول على حصيلة الجمارك، ففي عام ١٨٨٣م حاولت شراء عدد من السفن لتكون نواة للأسطول بمعدل سفينة واحدة كل عام. لقد أصبح الحصول على الأسطول هدفاً استراتيجياً تبناه الشاه في هذه المرحلة. وتعجب الشاه في حديثه مع السفير البريطاني كيف تترك بريطانيا لروسيا أن يكون لها وجود على مداخل الخليج، وتساءل : أليست إيران دولة مستقلة [٧٥] ولتأكيد شعوره بالاستقلال أعلن أنه لا يتوجه بطلب تكوين بحريته إلى أي من الدولتين اللتين تمتلكان نفوذاً في بلاده بل سيتوجه في هذه المرة إلى ألمانيا لتزويده بالسفن المطلوبة وفعلاً اتجه إلى ألمانيا ظناً منه أنه يمكن الاعتماد عليها لتقليل حدة التنافس بين الدولتين الكبيرتين [٧٦].

وعندما قام ناصر الدين شاه برحلته الثانية إلى أوربا تباحث مع بسمارك في موضوع إقامة علاقات دبلوماسية بين الدولتين وفي ٢٠ يونيو ١٨٧٢م حاول ملكوم خان النظام الملك الاتصال بالحكومة الألمانية لإتمام العلاقة بين بلاده وألمانيا [٧٧] إلا أن بسمارك لم يكن يرغب كثيراً في التدخل في الشرق الأوسط بحجة أنه لا توجد مصالح مجزية لألمانيا في إيران بالإضافة إلى أنه لم يكن راغباً في إيجاد خلافات سياسية بين ألمانيا وبريطانيا لكن الدولتان اتفقتا في عام ١٨٨٥م على إقامة علاقات دبلوماسية وعلى تبادل السفراء بينهما، فعين ميرزا رضا خان مؤيد السلطنة سفيراً لإيران في ألمانيا وجزاف فون برانشواك سفيراً لألمانيا في طهران وفي العام نفسه طلب ناصر الدين شراء عدد من السفن الألمانية للإبحار في مياه الخليج وقد وافقت ألمانيا على أن تبيعه سفينتين حربيتين وهما ((برسو بليس)) وحمولتها ٦٠٠ طن وقوة محركها ٤٥٠ حصاناً وهي مزودة بأربعة مدافع

وقد خصصت للخدمة العامة في مياه الخليج أما الثانية فأطلق عليها ((شوش)) وحمولتها ٢٥٠ طناً وقوة محركها ٣٠٠ حصان وهي مصممة للإبحار في الأنهار.[٧٨] وصلت السفينتان إلى بو شهر عام ١٨٨٥م وعليهما بحارة ألمان كما طلب الشاه من الحكومة الألمانية إنشاء مصانع لبناء المزيد من السفن الحربية [٧٩] إلا أن بريطانيا عارضت هذا المشروع كما اعترضت بريطانيا على وجود الألمان في السفن الإيرانية فقدم السفير البريطاني رونالد طومسون Ronald Thomson هذا الاعتراض إلى حكومة طهران وهكذا نجح البريطانيون في منع وجود بحارة ألمان في السفن الإيرانية [٨٠] وبالتالي فإن إيران قد فشلت في تحقيق آمالها في إنشاء أسطول في مياه الخليج وذلك لقلة خبرة رجالها في مجال البحر ، لأن السفينتان لم تكونا مجهزتين تجهيزاً كاملاً ولم يترتب على وجودهما نتائج ملموسة في السياسة البحرية الإيرانية وقد رابطت السفينة الأولى ((برسو بليس)) فترة من ميناء بو شهر دون عناية كافية ، أما الثانية فقد ظلت في جزيرة فيلكه .

ويبدو أن سبب فشل الحكومة الإيرانية في استخدام السفينتين يرجع إلى عدم تعاون العرب من سكان الساحل الإيراني مع الحكومة ، إذ كانوا يعترضون على دفع العوائد الجمركية للحكومة المركزية حتى أن شيخ المحمرة رفض استخدام شوشن في نهر قارون في بادئ الأمر اعتقاداً منه بأن الحكومة سوف تستغلها لتهديد سلطته واشترط الشيخ أن تكون السفينة تحت إشرافه المباشر ، ومع ذلك فإنه لم يطمئن ولذلك فإن عمل هذه السفينة اقتصر على نقل الرسائل والطرود عبر نهر قارون [٨١]

وهكذا أدركت الحكومة الإيرانية أن إشرافها على إدارة إقليم فارس أمر حيوي بالنسبة لسياستها تجاه الخليج ، ولابد من تدريب بحارة إيرانيين أكفاء يقومون بهذه المهمة [٨٢]

وعلى العموم فإن ناصر الدين شاه لم يقدر له أن يرى ثمرة جهوده في حياته ولم

يرد الأسطول الإيراني النور في القرن التاسع عشر ، لكن مظفر الدين شاه الذي خلفه على العرش قد جنى تلك الثمرة ومع بداية القرن العشرين كانت السفن الإيرانية الحربية تجوب مياه الخليج وأصبحت ذات فاعلية كبرى فيما بعد [٨٣].

هوامش البحث

1) Sky, Sir Percy, History of Persia, Vol - 2, London.

٢) مصطفى عقيل، التنافس الدولي في الخليج العربي ، (١٦٢٢ - ١٧٦٣) بدون، ١٩٨١م.

3) Irada Tasnifi Hareciy, nr. 2458

٤) مهدي جواد حبيب، الصراع العثماني الفارسي وأثره على العراق في أواخر القرن التاسع " الحدود الشرقية للوطن العربي" ص ١٣٨ ، ص ١٣٨

٥) محمود فرهاد معتمد ، تاريخ روابط سياسي إيران وعثماني ، طهران ، ٢٣٦ ، ص٨

٦) يوسف بك صالح ، المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة البهية مع الدول الأوروبية ، مصر ١٣٠٨ ، ١٨٩٦م.

7) F. O. 371/1871. Treaty of Erzerum of may 1842.

انظر أيضاً جابر الراوي ، الحدود الدولية ، ومشكلة الحدود العراقية الإيرانية ، ص٢٤٨

8) Irada Tasnifi Hariciye. nr. 2648

انظر أيضاً : رسالة من الباب العالي إلى سفير الدولة العثمانية بإيران منتصف شوال ١٢٦٥هـ ، نوفمبر ١٨٤٨م.

٩) نفس المرجع.

١٠) مصطفى عبد القادر النجار ، التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب ، البصرة ١٩٧٤ ، ص ٨٤

11) Nasiri , Mohamed Razi; Nasire Din Salah Zamaninda, Osmanli Iran Munasabtieri, 1848 - 96 Istanbul University, 1977 P. 17.

(رسالة دكتوراه غير منشورة)

١٢) علي أصغر شميم ، المرجع السابق ، ص ٤٩

١٣) محمود فرهاد معتمد ، المرجع السابق ، ص ٤٩

14) B. A. Basbakanlik Arsivi, I. H. / 3329, Adhitygot 527 Tansifi 18 Nasiri Boresiyhe X 161 162.

15) B. A. /H/3279 Ademiyg HL. / 58.

١٦) مصطفى عبد القادر النجار، المرجع السابق، ص ٨٤

17) Nasiri, Muhamed, Riza, Op. Cit, P. 23.

١٨) لوريمر، المرجع السابق، ص ٢٠٣٨

19) B.A. Irada Tansifi.

خطاب من الباب العالي والي البصرة ٢ جمادى الثاني ١٢٦٦هـ، ١٧ مارس ١٨٤٩م.

٢٠) نفس المرجع، خطاب من الباب العالي إلى والي البصرة في ١٧ شوال ١٢٦٥هـ سبتمبر ١٨٤٨م.

انظر أيضاً :

B.A. Irada Tansifi. Dahiliye. nr. 17610.

٢١) خطاب من والي بغداد إلى مجلس البحرية الأعلى، ٢٢ جمادى الأول ١٢٦٩هـ ٣ مارس ١٨٥٢م.

22) B. A. Irada Tasnifiy, Hariciy, Nr. 5327.

٢٣) خطاب أحمد وفيق أفندي إلى الباب العالي، ٦ جمادى الثاني ١٢٧٠ .

24) (I.O.) R/15/15/4/ Suppression of Wahabee Parates Rawibsom to Government of Bombay No. 2. 25th January 1854.

٢٥) صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ١٤١ .

26) (I.O.) R./15/6/4. Letter from, Faysal bin Turkey to C. Pelly. January 1855.

27) (I.O.) L/P+S/20/C, 246 Najd Affairs Par. 61.

28) (I.O.) R.15/15/4/ Suppression of Wahabee Parates Rawibsom to Government of Bombay No. 2. 25th January 1854.

29) (I.O.) L/P+S/20/C, 24/Britain.

٣٠) جي بي كلي، المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٩٩ .

٣١) جي بي كلي، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٠٠، أيضاً لوريمر، المرجع السابق، ص ١٣٤١ .

32) British Libarary Selection of Records of Government of India, Foreign Dept. No. XXIV, P, 3 No. 5.

٣٣) نفس المرجع.

٣٤) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ١٣٢١ .

35) (I.O.) Enclos to Bombay Sec. Letter Vol. 46 Enclos Letter No. 20, of 12th February 1862 from Ahmed Tawfig Pasha to Bombay 25th January 1878 Kell 529.

36) (I.O.) L/P+S/20/C, 946 Najd Affairs Par. 67.

٣٧) صادق نشأت ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

٣٨) صادق نشأت ، نفس المرجع ، ص ٢٢٢ .

٣٩) صادق نشأت نفس المرجع ، ص ٣١٥ .

40) Harris Christina Phelps, The Persian Gulf Submarine Telegraph of 1864, Geographical Journal Vol. 155, June 1969, p. 169.

٤١) صادق نشأت ، المرجع السابق ، ص ٣١٤ .

٤٢) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ٣٠٨٩ .

٤٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٩١.

44) L/P+S/20 C, 243 Precis of Mekran Affairs, p 85, Vol. XI.

45) C. V. Atichison, op. cit. p 334.

٤٦) صادق نشأت ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

٤٧) صادق نشأت ، نفس المرجع ، ص ٢١٥ .

٤٨) رحيم رضا زاده ملك ، تاريخ روابط إيران وممالك متحدة أمريكا ، تهران ١٣٥٠ ، ص ٨٨ .

٤٩) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ .

٥٠) فريدون أدميت ، أمير كبير وإيران تهران ، ١٣٣٤ هـ ش ، ص ٦٩ ، جاب سوم .

٥١) نفس المرجع السابق ، ص ٥٧ .

٥٢) علي أصغر شميم ، المرجع السابق ، ص ١٢٤.

٥٣) رحيم زاده ملك ، المرجع السابق ، ص٩٧ .

٥٤) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

٥٥) فريدون أدميت ، أمير كبير وإيران ، ص ٥٧ .

٥٦) رحيم رضا زاده ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

٥٧) فرح خان ، مجموعة أسناد ومدارك ، فرخ خان ، ج ١ ، ص٣٨ .

58) kelly, Britain and the persian Gulf, 1765 - 1880, P. 458.

59) Kazemzadeh, Russia and Britain in Persia, 1864 - 1914, U.S.A. 1968, p. 151.

٦٠)علي أصغر شميم ، المرجع السابق ، ص٢٩.

٦١(ورد في كتاب قائم مقامي صورة من الوثيقة باللغة الفرنسية وذكر أنه لم يجد لها نص بالفارسية ضمن الوثائق الإيرانية والوثيقة بدون تاريخ ولكن من المرجع أنها كتبت في عام ١٨٥٥ - ١٢٧١ عندما كان الإيرانيون على خلاف شديد مع العمانيين الذين كانوا يهددون السواحل الإيرانية (جهانكير قائم مقامي بحرين ومسألة خليج فارس ، تهران ١٣٤١ هـ ش ١٩٦٢ - ص ٢٥).

٦٢) الأرشيف الفرنسي ، ص ٥٣ ، ج ٣٣.

٦٣) نفس المرجع ، ص ٥٤ ، ج ٣٣.

٦٤) نفس المرجع ، ص٢٢٤ ، ج ٣٢ ، نقلاً عن جهانكير قائم مقامي ، ص ٥٥.

٦٥) سيد أحمد مدني ، محاكمة خليج فارس طهران ٢٥٣٧/٣/١٥ شاهنشاهي ص ١٣٥.

66) I.O., Political And Secret Dept. Library L/P+S/20/C 248 Precies of the Persian Coast and Islands, 1854 - 1905, p. 3.

67) I.O. L/P+S/20/C 248 p. 12.

68) (I.O.) Political Proceeding, March 1866, No. 17488, From The=

= Government of India to Coplelly.

69) Politicai Regarding, June 1868, No. 116718.

70) (I.O.) L/P+S/20/C 248. B, pp. 15, 16.

71) Kazemzadeha, op. Cit., p 151.

72) Kazemzadeha, op. Cit., p 151.

73) I.O./15/0/5, Political Agency, Muscat, January, No. 147, Secret Letter 1860 No. 330 - 340

٧٤) محمود محمود ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٣٦١.

75) Kazemzadeha, op. Cit., p 52.

٧٦) اعتماد السلطنة ، روزنامه خاطرات اعتماد السلطنة ن ص ١٠٠٧ مربوط به سالهاي ، ١٢٩٢ - ١٣١٣ هـ ق ، طهران ١٣٤٥.

٧٧) إسماعيل دولتشاهي ، روابط إيران وألمان درزمان ناصر الدين شاه آبان ماه (٢٥٣٦) ص ٢.

78) Martin, B., Persian - German Diplomatic relation, 1873 - 1912 p. 28.

٧٩) ج.ج. لوريمر ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٩٥٥.

٨٠) عبد الرضا مهدوي ، تاريخ روابط خارجي إيران ، ص ٢٧٧.

٨١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٩.

٨٢) ج.ج. لوريمر ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٩٥٥.

٨٣) عبد الرضا مهدوي ، تاريخ روابط خارجي إيران ، ص ٢٧٧.

٨٤) نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٩.

توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ونتائجه الاقتصادية

في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

ومطلع القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي .

الحقبة البرتغالية

٩٠٤هـ / ١٤٩٨م - ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م

تأليف

إبراهيم خوري

تمهيد

بدأت الصلات التاريخية المباشرة بين الخليج العربي والدولة العثمانية، بتقديم راشد بن مغامس مفاتيح البصرة إلى السلطان سليمان القانوني، في أواخر فصل خريف سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ، وانتهت باحتلال الإنجليز العراق في الربع الأول من القرن العشرين (١٩١٤م - ١٩١٨م) . فدامت أربعة قرون تقريباً ، وتنوعت، فمنها الصلات الدينية . ومنها العلاقات الثقافية، والعلمية، والحضارية، والسياسية، ومنها أيضاً وحدة المصالح الاقتصادية بين عرب جزيرة العرب عامة، وعرب الخليج خاصة، وبين العثمانيين .

أ- سيطرة الدولة العثمانية على منافذ تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط :

ففي غضون فترة قصيرة جداً تقل عن ربع قرن ، نهض العثمانيون من كبوتهم

بعد تلقيهم ضربة قاصمة من تيمور لنك في معركة أنقرة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م ، وأعادوا تكوين إمبراطوريتهم فاحتلوا القسطنطينية (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) في عهد محمد الثاني الفاتح ، وتوالى توسعهم في البلقان، وأوربة، وجزر البحر المتوسط ، وانتصروا على الصفويين في كردستان (جالد يران : ٩٢٠هـ / ١٥١٤م) ، وقضوا على دولة المماليك في سورية (مرج دابق : ٩٢٢هـ / ١٥١٦م) وفي مصر (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) في عهد سليم الأول ، واحتلوا العراق (٩٤١هـ / ١٥٣٤م) في عهد سليمان القانوني .

وبذا سيطر العثمانيون على منافذ تجارة المرور الدولية، من بحر الهند إلى البحر المتوسط في الاتجاهين ، عن طريق الخليج العربي ، وعن طريق البحر الأحمر .

ب - سيطرة العرب على طرق تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط :

أما عرب الخليج والبحر الأحمر ، فقد قاموا بلا منازع على مر العصور ، ومنذ الألف الثالثة قبل الميلاد وحتى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، أي على مدى ستة وأربعين قرناً ، بدور الوسطاء في التبادل التجاري في العالم المكتشف والمعروف آنذاك بين سواحل بحر الهند وبين سواحل البحر المتوسط ، وفي الاتجاهين : من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق .

وتنوعت السلع المتبادلة تنوعاً كبيراً ، قديماً وحديثاً ، ولم تقتصر أبداً على التوابل بل شملت أصنافاً كثيرة أشار إليها بأسمائها كتاب الطواف حول البحر الأحمر في القرن الأول الميلادي ، وكتاب التبصر بالتجارة للجاحظ في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وكتاب ثغر عدن لبامخرمة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي . وتحدثت عنها شتى الوثائق العربية ، والهندية ، والبرتغالية ، ومحفوظات مدن البندقية ، وجينوة ، ومرسيلية خاصة .

وكانت تجارة تلك الأصناف تدر أرباحاً طائلة على منتجيها ، وناقليها ، والمتعاملين

بها ، وعلى السلطات السياسية القائمة في الأماكن التي تمر بها ، وسادت قواعد سلوك في التعامل الحر بها ، كرستها أعراف تجارية رضي بها الشرق ، وقبل بها الغرب ، وتقيد العرب بها فبنيت العلاقات الاقتصادية الدولية على أسس ثابتة ودائمة.

وكان التجار يسلكون طريقين عربيتين : طريق الخليج العربي إلى البصرة بتفرعاتها ، وأهمها بغداد فحلب أو دمشق فأحد موانئ البحر المتوسط ، وطريق البحر الأحمر بتفرعاتها ، وأهمها الانطلاق من عدن إلى جدة فالسويس فالقاهرة فالإسكندرية .

ج - تهديد البرتغاليين لطريق الأطلسي وتجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط :

لكن طرأت أحداث عالمية خطيرة جداً أثرت في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط ، فقد فتح البرتغاليون طريقاً ثالثة ، وحاولوا جهد المستطاع حصر حركة التبادل بين الشرق والغرب فيها وحدها ، فهددوا مصالح العرب والعثمانيين الاقتصادية تهديداً سافراً ومباشراً ، أدى إلى نشوب نزاع مسلح متقطع بينهم وبين المعتدي عليهم ، دام قرناً وربع قرن (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م - ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م) ، أي من وصول داغاما إلى الهند حتى طرد البرتغاليين من جزيرة هرموز ، وانتهى باقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي ، والبحر الأحمر . وبقيت الطريقان العربيتان عاملتين طيلة مدة النزاع ، وسالكتين حتى الربع الأول من القرن السابع عشر .

د - خصائص الصراع العربي العثماني البرتغالي على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط :

إذن امتد الصراع بين العرب والعثمانيين والبرتغاليين على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط على زمن طويل جداً ، وتميز بثلاثة أحداث

كبرى :

أولها : فشل البرتغاليين في تحويل تجارة المرور عن مسارها التقليدي إلى الطريق الأطلسية ، وبالتالي فشلهم في ضرب المصالح الاقتصادية العربية في الخليج العربي ، وفي البحر الأحمر .

ثانيها : فشل العثمانيين في حماية المصالح الاقتصادية المشترطة بينهم وبين العرب .

ثالثها : نجاح عرب الخليج في إبقاء العرب وسطاء حتميين في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط .

هـ - أقسام البحث :

ويتجلى هذا الواقع التاريخي بوضوح في استعراضنا :

١- القوى العالمية والمحلية الفاعلة في تجارة المرور في الخليج العربي .

٢- التوسع العثماني في الخليج العربي وأثره في تجارة المرور في الخليج العربي .

٣- استمرار وصول السلع إلى الخليج العربي وشحنها إلى البحر المتوسط ، وإلى بحر الهند .

ودام هذا الواقع التاريخي طيلة القرن السادس عشر ، وفي الربع الأول من القرن السابع عشر . ويقتصر تحليلنا على هذه الحقبة التي نسميها حقبة الفتوحات البرتغالية أو الحقبة البرتغالية باختصار ، التي أعقبتها حقبة أخطر منها بكثير، هي الحقبة الهولندية الإنجليزية الفرنسية الخارجة عن موضوعنا .

القسم الأول :

القوى المحلية والعالمية الفاعلة في تجارة المرور في الخليج العربي

لا يمكن عزل النشاط التجاري في الخليج العربي عن التأثير الدولي القريب منه، أو حتى البعيد عنه أحياناً ، ولا عن إرادة أهل الخليج أنفسهم، فلهؤلاء مصالح اقتصادية مباشرة وأساسية بالتبادل القائم على أرضهم، أو المار عبر مياههم باتجاه البصرة أو باتجاه عدن فالبحر الأحمر ، وللصفويين في فارس والعراق ، وللمماليك في سورية ومصر ، أو من يحل محلهم في المستقبل ، مصالح مماثلة بحكم سيطرتهم على بعض موارد التجارة الدولية وعلى بعض مسالكها في بعض أنحاء سواحل الهند وفي بعض أنحاء بحر العرب ، وبعد نجاحهم الجزئي والمؤقت بدخول الخليج العربي والبحر الأحمر .

ولم يعقد بين الفرقاء المعنيين أي اتفاق ينظم مصالحهم ، ويدرأ مضاعفات تناقضها فظلت متضاربة ، تثير الحروب بينهم ، وتعقد الصلات بين عرب الخليج، والدولة العثمانية .

وهؤلاء الفرقاء هم مملكة هرموز في الخليج ، والصفويون في فارس والعراق ، والمماليك والعثمانيون على سواحل البحر المتوسط ، والبرتغاليون في الهند وبحر العرب والخليج العربي .

أولاً - مملكة هرموز العربية :

فمملكة هرموز سلطنة عربية ، كانت تشمل في القرن السادس عشر جزر الخليج العربي وسواحله من الأحساء وسيراف إلى رأس مسندم ، وساحل عمان من رأس مسندم إلى رأس الحد، ويمكن بلا مغالاة اعتبارها بندقية العرب .

وتأسست مدينة هرموز في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي على

ساحل مكران ، شرقي بندر عباس ، على بعد ٣٠ ميلاً منه . لكن حوالي ١٣٠٠ م ، هددتها غارات التتر، فانتقلت إلى جزيرة جرون (أورغانا عهد نيارخس) على مسافة ١٢ ميلاً تقريباً إلى الجهة الغربية ، وعلى خمسة أميال من الشاطئ ، ثم خضعت إسمياً ونظرياً لشاه ميرزا (١٤٠٥م - ١٤٤٧م) ، ودفعت له أتاوة ، إلا أنها كانت عملياً مستقلة وقوية مالياً وعسكرياً ، ويمتد نفوذها على مائة ميل حولها ، وكانت مركزاً تجارياً كبيراً ، تسيطر على النشاط التجاري الدولي البحري مع الشرق الأقصى والهند ، والبري مع خراسان وفارس والعراق . وقد ازدهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ازدهاراً لا مثيل له . فكانت ترسو في بندرها ٣٠٠ سفينة بآن واحد ، ويقطن فيها ٤٠٠ تاجر غريب ، يتاجرون بالحراير، واللآلئ، والحلي، والتوابل على وجه التخصيص، وتتعامل هرموز مع جزيرة العرب، وكمباية، وكاليكوت، وشيول، ودابول، وبنجالة ، وفارس، وعدن، والقاهرة، والإسكندرية، والصين، والعراق . ويجلب إليها من الشرق التوابل، والعقاقير، والحجارة الكريمة، وسلع أخرى ، ولاسيما الفلفل، والزنجبيل، والقرفة، والقرنفل، وجوز الطيب، والفلفل الطويل، والعود، والصندل، والبلسم، والتمر هندي، والزعفران الهندي، وشمع العسل، والحديد، والسكر، والأرز، وجوز الهند، واليواقيت، والخزف، والميعة ، وتحمل منها السلع الواردة إليها من جزيرة العرب، ومصر وبلاد الشام، وأوروبا ويدير شؤونها مجلس مؤلف من التجار الأثرياء برئاسة سلطانها ، وكانت تابعة لها مسقط، وقلهات، وصحار، وخورفكان، وجلفار، والقشم، والبحرين، والقطيف، وغيرها .

وقد وصفها بدقة ووصف نشاطها الفريد ماهوان في كتابه ((الكامل في وصف سواحل المحيط)) المنشور سنة ١٤٥١م بعد تداوله مخطوطاً منذ عام ١٤٣٤م . كذلك فعل دوارته بربوسه سنة ١٥١٧م . وأعطى أحمد بن ماجد صورة حسية عن أهميتها أيضاً .

إذن كانت هرموز بندر مرور وسوق بيع وشراء سلع بلدان بحر الهند، وبلدان البحر المتوسط على حد سواء ، وبالتالي فإن كل ما يعرقل وصول البضائع إليها من الشرق أو الغرب ، يؤثر في التجارة العالمية ، ويلحق الضرر بمصالحها الاقتصادية الحيوية ، ومن هنا يتضح خطر وجود البرتغاليين في الجنوب على نشاطها ، وخطر وجود الصفويين والعثمانيين في الشمال والشمال الغربي البعيد عليه .

ثانياً : الصفويون في فارس والعراق :

توالت الأحداث العالمية بسرعة في فارس والعراق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واجتاحتهما قبائل مغولية وتركمانية لم تستطع أي منها أن ترسخ أقدامها فيهما مدة طويلة .

من هذه القبائل الجلائر ، وهم سلالة مغولية زعيمها حسن بزرك ، أو الشيخ حسن الجلائري ، حكمت العراق من سنة ١٣٣٩م إلى ١٤١١م ، واتخذت بغداد عاصمة لها ، وانتزع ثاني سلاطينها المدعو أويس بن حسن بزرك ، تبريز وأذربيجان من القبائل الذهبية ، وضم الموصل وديار بكر إلى دولته .

ومنها أيضاً القبائل التركمانية ، المعروفة باسم قرة قويونلو ، أو الخروف الأسود، التي زحفت على الجلائر من منطقة بحيرة وان ، وأخذت منهم الموصل (١٣٧٥م) ثم تبريز (١٣٨٧م) .

وأتى دور تيمور لنك ، فاقتحم أراضي الخروف الأسود ، واستولى عليها بعد انتصاره على زعيمهم قرة يوسف ، وهربه إلى مصر (١٤٠٣م) . ولما توفي تيمور لنك ، خلفه نجله شاهرخ ميرزا (١٤٠٥م - ١٤٤٧م) . وفي عهده رجع قرة يوسف من مصر ، وسحق جيش التيموريين سنة ١٤٠٨م . واستعاد سلطنته ، واحتل العراق العربي (١٤١٠م) . وبعد وفاته ، حارب نجله اسكندر شاهرخ واضطره أن يتنازل عن أذربيجان والجزيرة إلى شقيقه جهان شاه الذي انتزع فارس الغربية الواقعة

على الخليج العربي من التيموريين (١٤٥٢م - ١٤٥٨م) .

إلا أن أوزون حسن ، أمير اق قويونلو أو الخروف الأبيض ، انقض على ممتلكات الخروف الأسود ، وأخذ منهم أذربيجان والجزيرة وفارس الغربية سنة ١٤٦٨م . ثم انتشرت الفوضى في العراق وفارس في أواخر القرن الخامس عشر .

وكان الصفويون آنذاك يعيشون في مقاطعة أردبيل التي أقطعهم إياها تيمور لنك، وهم صوفية وأصحاب طريقة ينتمون إلى الإمام موسى الكاظم ، رسخوا نفوذهم في أذربيجان ، واستعان زعيمهم إسماعيل بقبائل تركية ، وهاجم الخروف الأبيض وقهرهم واستولى على أذربيجان وفارس والعراق ، ولقب نفسه بالشاه وأسس السلالة الصفوية التي اشتهر من سلاطينها أيضاً في وقت لاحق طهماسب الأول (١٥٢٤م - ١٥٧٦م) وعباس الأول (١٥٨٧م - ١٦٢٩م) .

وحكم إسماعيل شاه ٢٣ سنة (١٥٠٢م - ١٥٢٤م) ، وامتدت امبراطوريته من العراق غرباً إلى خراسان وامبراطورية المغل شرقاً ، ومن باكو وتفليس شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً ، وازدهرت تجارتها في عهده ، لكنه اضطر إلى مجابهة الشيبانيين في ما وراء النهر (مقتل محمد الشيباني ، خان الأزبك سنة ١٥١٠) والعثمانيين في الغرب والشمال الغربي ، والبرتغاليين في الجنوب الشرقي . وحكم بعده نجله طهماسب ٥٢ سنة ، ثم عباس الأول ٤٢ سنة ، بعد فترة اضطرابات داخلية واجتياحات خارجية .

ثالثاً : المماليك في سورية ومصر والحجاز :

تدت دولة المماليك على سورية ومصر والحجاز في مطلع القرن السادس عشر وقبله ، واصل المماليك أرقاء ، أخذوا أسرى في الحروب أو شروا صغاراً ودربوا على الفروسية ، وهم من القفقاس أو من آسيا الصغرى إجمالاً . وقد عملوا حراساً لأيوبي مصر ، ثم تقووا واستولوا على السلطة سنة ١٢٥٠م ، واختاروا شجرة الدر

لتتولى أمرهم . وكان عددهم يتراوح بين ١٠,٠٠٠ و ١٦,٠٠٠ فارس . ويقفون دوماً صفاً واحداً ضد أعدائهم أو حتى ضد الشعب مهما عظمت الخلافات بينهم ، ولا يتزوجون من غربية ، ولا يتكلمون إلا اللغة الشركسية ، ولا تربطهم بأهل البلاد إلا رغبة استغلالهم ، وفي عام ١٥٠١ ، كان على رأسهم السلطان قانصوة الغوري الذي حكم حتى عام ١٥١٦ ، وخلفه طومان باي الثاني آخر سلطان مملوكي وآخر المماليك البرجية الشراكسة .

رابعاً : العثمانيون في آسية الصغرى وأوربة :

ينتمي العثمانيون إلى قبيلة غزّ (أوغوز) رحلت من خراسان إلى الأناضول ، بزعامة أرطغرل بن سليمان شاه . وأقطعهم علاء الدين كيقباد السلجوقي أراضي قرة جاه طاغ قرب أنقرة ، فدعموه في حروبه ضد المغول وبيزنطة ، وأجزل لهم العطاء ، ولما توفى أرطغرل ، بقي نجله عثمان وفياً لآل سلجوق ، فمنحوه الاستقلال ، وأذنوا له أن يمتلك فتوحاته (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م) ، وأن يسك العملة باسمه ، وفي عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م ، توفي علاء الدين الثاني آخر سلطان سلجوقي ، فأعلن عثمان قيام الدولة العثمانية ، وتوالى توسع العثمانيين في القرن الرابع عشر في ثراقية ومقدونية والأناضول ، إلى أن جاء تيمور لنك ، وضربهم ضربة قاصمة سنة ١٤٠٢م .

إلا أن العثمانيين نهضوا من كبوتهم في القرن الخامس عشر ، وأعادوا بناء دولتهم، واحتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، واستأنفوا توسعهم في البلقان ، في عهد محمد الثاني الفاتح ، وبلغوا قمة المجد في القرن السادس عشر في أيام سليم الأول وسليمان القانوني .

خامساً : البرتغاليون في بحر الهند :

تحركت البرتغال في اتجاه بحر الهند في وقت مبكر جداً ، وبدأت مسيرتها الطويلة التي دامت ٨٣ عاماً على طريق الهند الأطلسية باحتلال مدينة سبتة سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م في عهد ملكها جان الأول الكبير ، واندفعت في مجاهل بحر الظلمات ببطء وحذر وثبات ، ووصلت إلى طرفه الجنوبي أي إلى حدوده الجنوبية مع بحر الهند بعد دورانها حول رأس العواصف ، فبرزت أمامها صعاب جديدة في بحر جديد لا تعرف شيئاً عنه ، ومع ذلك . نزلت في كاليكوت في مليبار الهند عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م. وكانت دوافع مسيرتها الطويلة اقتصادية محضة ، تمثلت في تنافس البيوتات المالية الإيطالية والممالك الأيبيرية على احتكار التجارة العالمية التي كانت شرقية أصلاً تعتمد على استيراد التوابل والحرير والبخور والعطور والسلع الأخرى من الشرق الأقصى والهند ، وجزيرة العرب ، وساحل أفريقية الشرقية ، وعلى تصدير سلع أوربة ومصر والشام وجزيرة العرب إلى الهند .

وشكّكت البندقية في قدرة البرتغال المالية والفنية والتقنية على الوصول إلى بحر الهند ، وإذا وصلت إليه ، في قدرتها على البقاء فيه ، لتكاليفه الباهظة ومقاومة العرب وحلفائهم مسلمي الهند المهيمنين على التجارة بين الشرق والغرب ، ورغم هذا التشكيك ، بلغ البرتغاليون الهند ، وأقاموا متاجر لهم وحصوناً على ساحل أفريقية الشرقية ، وعلى السواحل الغربية والجنوبية في شبه جزيرة الدكن وجوزرات أو كمباية ، وتوسعوا باتجاه أندونيسية ، وهاجموا الموانئ العربية الجنوبية ، ودخلوا البحر الأحمر والخليج العربي ، وأصبحوا خطراً داهماً يهدد المصالح الاقتصادية العربية في الصميم والهندية أيضاً ، وانتشرت أخبارهم في العالم أجمع ، ونادت ممالك ساحل الهند الغربي المسلمة بالويل والثبور وعظائم الأمور ، واستنجدت بالمماليك أولاً (قانصوة الغوري) ، ثم بالعثمانيين بعدهم ، (سليمان القانوني) . ولم يستغيثوا بالصفويين ، ولم يطلب عرب الخليج ولا

هرموز العون من أحد ، بل تدبروا أمورهم أنفسهم بأنفسهم ، أما المماليك والعثمانيون ، فقد استجابوا لنداء القاصي والداني . لأن مصالحهم الاقتصادية أصبحت في خطر هي أيضاً ، ولأنهم رغبوا في توسيع نفوذهم وترسيخه في البحر الأحمر والخليج العربي .

وهكذا يمكن أن نلخص أوضاع التجارة بين بحر الهند والبحر المتوسط وأوضاع الدول الرئيسية المشرفة عليها في مطلع القرن السادس عشر ، بما يلي :

١- حافظت مملكة هرموز على كيانها ، وفدته بالمال : فدفعت أتاوة سنوية إلى التيموريين (شاهرخ) لقاء حرية تصرفها ، ثم إلى الصفويين (شاه إسماعيل) بعدهم .

٢- اكتفى شاه إسماعيل بقبض المال من مملكة هرموز ، وتركها وشأنها تتصرف بتجارتها وسيطرتها على مناطق نفوذها ، وتفرغ للدفاع عن سلطته ضد الشيبانيين في الشمال الشرقي ، وضد العثمانيين في الشمال الغربي .

٣- كان المماليك ضعفاء مالياً وعسكرياً ، يتهيبون غزو العثمانيين لسلطنتهم المتداعية ، ويعجزون عن حماية مصالحهم الاقتصادية من تعديات البرتغاليين المتواصلة .

٤- لم تكن للعثمانيين علاقة مباشرة بالتجارة بين بحر الهند والبحر المتوسط ، وكان شغلهم الشاغل انتهاز الفرص للتوسع في الشرق والغرب والجنوب .

٥- كان البرتغاليون يصولون ويجولون في بحر الهند والخليج العربي والبحر الأحمر ، مستفيدين من تفوقهم بامتلاك سفن متطورة وأسلحة فتاكة (بنادق ومدافع) ، لم تصل بعد إلى أيدي العرب المستضعفين ، أو وصلتهم متأخرة وبأعداد محدودة ونوعية رديئة .

القسم الثاني
التوسع العثماني في الخليج العربي
وأثره في تجارة المرور فيه

تغيرت المعادلة الدولية كلياً في الربع الأول من القرن السادس عشر ، فالعثمانيين قضوا على دولة المماليك في سورية ومصر ، وحلوا محلها ، وأبعدوا الصفويين عن العراق ، وبالتالي عن أحد منافذ تجارة طريق الخليج ، وحاولا التغلغل في البحر الأحمر وفي الخليج العربي ذاته ، فنشبت بينهم وبين البرتغاليين حروب عديدة في مواقع متباعدة وبعيدة ، وفشلوا فيها كلها ،، وتتجلى هذه الأوضاع الجديدة في النواحي التالية :

١- قضاء العثمانيين على دولة المماليك ، وحلولهم محلها في السيطرة على منافذ تجارة بحر الهند على سواحل البحر المتوسط ، وفي موانئ البحر الأحمر لاسيما جدة والسويس .
٢- إبعادهم الصفويين عن العراق ، ووصولهم إلى البصرة والأحساء على الخليج العربي .
٣- قيامهم بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين في الديو وفي الخليج العربي .

أولاً : قضاء العثمانيين على دولة المماليك وحلولهم محلها :

١- العلاقات العثمانية المملوكية في النصف الأخير من القرن الخامس عشر :

كانت الأزمات تتلاحق في دولة المماليك ، عندما كان العثمانيون يتوسعون بفتوحاتهم ويزدادون قوة . واخترقت شهرتهم الآفاق بعد فتحهم القسطنطينية سنة ١٥٤٣م ، وأصبحت إمبراطوريتهم في عهد السلطان سليم الأول إحدى الدول

الكبرى المسلمة الثلاث في العالم (العثمانيون ، الصفويون ، المماليك) ، بل أولاها، وإحدى الدول العظمى على مستوى أوربة ذاتها ، وكثيراً ما كانت تتوتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك وتنتهي بنشوب حرب بينهما ، ويظهر المماليك عليهم في نزاعاتهم المسلحة ، مع ذلك عندما خذل البنادقة المماليك حلفاءهم التقليديين في مطلع القرن السادس عشر ، نصرهم العثمانيون ، ووقفوا إلى جانبهم من بعيد ضد البرتغاليين .

أ- الصراع البرتغالي - العربي المملوكي :

في عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، نشب قتال في كاليكوت بين التجار المسلمين وبين البرتغاليين ، أحرق فيه الإفرنج عشر سفن مصرية ، فزاد العداء بين العرب والإفرنج .

(١) تصاريح المرور البرتغالية : ٩٠٧هـ / ١٥٠١م :

وفي العام التالي ٩٠٧هـ ، قرر البرتغاليون منع العرب من الحصول على التوابل ، فأقاموا متاجر لهم في النقاط الرئيسية على ساحل شبه جزيرة الدكن الغربي ، واتخذوا إجراءات تقضي أن يحمل تصريح مرور ، كل تاجر يغادر أحد البنادر الهندية تحت طائلة عقوبة الإعدام ، أو الاستبعاد ، ولا تعطى تلك التصاريح إلى قاصدي البحر الأحمر تجاراً كانوا أم سفناً ، مع ذلك ، بقيت السفن تنقل التوابل ((تهريباً)) إلى البنادر العربية .

(٢) اعتراض البرتغاليين السفن الذاهبة إلى البحر الأحمر : ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م :

وفي عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م ، أخذ البرتغاليون يعترضون السفن الذاهبة إلى البحر الأحمر ، واحتلوا البندر العربي في جزيرة كلوة على ساحل أفريقية الشرقية ، وتحالفوا مع ملكي كننور وكشن ضد ملك كاليكوت ، وفي عام ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م ،

أرسلوا أسطولاً لمنع سفن المسلمين من دخول البحر الأحمر .

(٣) تهديد بندر جدة : ٩١١هـ / ١٥٠٥م :

وفي عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، توغل البرتغاليون في البحر الأحمر ، ووصلوا إلى مستوى جدة ، وشعر قانصوة الغوري بخطرهم على الأماكن المقدسة المسلمة ، وقرر محاربتهم .

(٤) احتلال جزيرة سقطرة : ٩١٢هـ / ١٥٠٦م :

وفي عام ٦١٢هـ / ١٥٠٦م ، احتل البرتغاليون جزيرة سقطرة ، وبنوا حصناً فيها ، وأبقوا أسطولاً في مياهها مهمته مراقبة السفن ومنعها من دخول باب المندب ، رغم جميع هذه الإجراءات ، ظلت التوابل تصل إلى الشام والإسكندرية ، وغالباً عن طريق الخليج العربي ، فقرر البوكيركي سد هذه الطريق أيضاً .

(٥) احتلال مملكة هرموز : ٩١٣هـ / ١٥٠٧م :

لذلك هاجم مملكة هرموز بلا مبرر ودون سابق إنذار أو إعلان حرب خلافاً لجميع الأعراف الدولية ، وبدأ باحتلال بنادرها الواقعة على ساحل خليج عمان لاسيما مسقط وصحار وخور فكان . ثم استولى على هرموز ، وأغلق عملياً مدخل الخليج العربي في وجه السفن الذاهبة إلى البصرة . فأصبحت الآمال معقودة على قانصوة الغوري ، وعلى حملته البحرية التي طال انتظارها .

٢- امتناع البنادقة عن مد يد العون إلى المماليك :

كانت البندقية الدولة المستفيدة الكبرى من المماليك ، والموزعة الرئيسية لسلع الهند والشرق الواصلة إلى الإسكندرية ، وكان مفروضاً فيها أن تقف إلى جانب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حلفائها المماليك ضد البرتغاليين لأنها تضررت من تصرفات البرتغاليين ، مثلما تضررت مصر وسورية ، لكنها لم تفعل ، بل تخلت عنهم ، واتصلت بالصفويين عساها توفق بفتح طريق برية من فارس إلى الإمبراطورية العثمانية ، فساحل البحر المتوسط .

٣- حملة قانصوة الغوري البحرية على البرتغاليين : ٩١٤هـ / ١٥٠٨م :

أدرك قانصوة بوضوح تام أن لابد له من سحق البرتغاليين لتثبيت سلطته ، فعزم على ملاحقتهم في بحر الهند ، ومنازلتهم هناك ، لكن اعترضت صعاب لا تحصى تجهيز حملته البحرية عليهم . فمالية دولته سيئة جداً تعجز عن دفع رواتب الجند ، والمماليك فرسان بر لا أسود بحر . وكان لابد من إعداد حوض جديد لبناء السفن في السويس ، لأن سفن البحر المتوسط لا تصلح لبحر الهند ، وينبغي إيجاد خبراء صنع السفن والخشب وحديد المدافع والأشرعة وكل ما يلزم ، وتخطى الغوري جميع هذه العقبات ، وبوشر ببناء ١٩ سفينة سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م ، وظهر الأسطول المملوكي في بحر العرب سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ، وانتصر في البدء ، ثم قُضي عليه سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م ، ولم يثن هذا الفشل قانصوة الغوري عن عزمه . فاستنجد بالسلطان بايزيد الثاني ، فزوده بخشب لبناء ٣٠ غراباً ، وأعطاه ٣٠٠ مدفع ، و١٥٠ صارياً ، و ٣٠٠٠ مجداف ، وما يلزم الأغربة من أشرعة وعدد ، وأرسل الغوري سفناً لتنقل تلك المواد من خليج إياس إلى الإسكندرية ، لكن انطلق فرسان القديس يوحنا من قاعدتهم في جزيرة رودس ، واعترضوا السفن المملوكة واستولوا على شحنتها ، ولا تعني هذه اليد البيضاء العثمانية أن الصفاء والود سادا العلاقات العثمانية المملوكية ، فالخلافات بينهما كانت عميقة ، والقضية قضية مصير ، وأسباب الحرب كثيرة .

ب - أسباب الحرب بين العثمانيين والمماليك :

أسهمت أربعة أسباب رئيسية في إشعال الحرب بين العثمانيين والمما نيك :

١- أولها انتزاع الأشرف قايتباي من رسول السلطان الهندي محمد البهمني معظم الهدايا المرسلة إلى السلطان العثماني ، مما أدى إلى نشوب حرب عثمانية مملوكية في عهد بايزيد الثاني ، توسط حاكم تونس المولى عثمان الحفصي في إنهائها ، وأنهاها دون أن ينهي ما في القلوب .

٢- ثانيها الخلاف المزمن على بلاد ذي القدرية الواقعة شمالي سورية ، والفاصلة بين المماليك والعثمانيين ، فقد ضاق السلطان سليم ذرعا بفتنها ودسائسها ، فاحتلها سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م ، وقتل أمراءها ، لاسيما الأمير علاء الدولة .

٣- ثالثها تحالف المماليك والصفويين ، واتفاق الشاه إسماعيل وقانصوة الغوري على التآزر ضد آل عثمان .

٤- رابعها إيواء قانصوة الغوري الأمير علاء الدين ابن شقيق سليم الأول ، ورفضه تسليمه إلى عمه السلطان العثماني .

ج - المفاوضات والأحداث :

١- جهز السلطان سليم الأول جيشاً عظيماً (١٥٠ ألفاً) سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، واتجه به إلى الشرق ، وكأنه يريد استئناف الأعمال الحربية ضد الشاه إسماعيل، وأخبر الشاه إسماعيل حليفه قانصوة الغوري ، أن الأعمال الحربية متواصلة بينه وبين العثمانيين ، وحرضه عليهم . فأعد الغوري جيشاً كبيراً ، وسار على رأسه إلى حلب في ١٧ أيار سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، ونزل بها في ١٠ تموز سنة ١٥١٥م .

٢- أرسل سليم الأول إلى قانصوة الغوري سفارة مؤلفة من مولانا ركن الدين ، وقراجا باشا عرضت عليه لتفادي الحرب ، التنازل له عن بلاد ذي القدرية ،

فاشترط السلطان المملوكي عليها إرجاع القدرية إلى نجل علاء الدولة وامتناع العثمانيين عن محاربة الصفويين ، فرفضت فسجنها ، ثم بعث في وقت لاحق بمندوب عسكري عنه ، وكلفه بتبليغ سليم الأول شروطه ، فاستقبل السلطان العثماني السفير المملوكي في البستان ، وقتل معاونيه ، وحلق ذقنه وشاربيه ، وأركبه حماراً أعرج ، ورده إلى المماليك . فأصبحت الحرب حتمية بينهما .

٣- وخرج قانصوة الغوري من حلب بقواته (٦٠,٠٠٠ محارب، منهم ١٦,٠٠٠ فارس مملوكي والباقي جند مصريون وسوريون) إلى مرج دابق ، يصحبه خير بك نائب حلب وسباهي نائب الشام ، واتجه سليم الأول بجيشه إلى حلب أيضاً ، ومعه سنان باشا أعظم قواده ، والوزير يونس باشا .

٤- وصدت القوات المملوكية طليعة الجيش العثماني في البدء إلا أنه كر عليهم ، وأطلق عليهم نيران بنادقة بغزارة ، وقنابل مدافعة ، فارتعبت خيولهم وجفلت، وعمت الفوضى صفوفهم ، وسارع خير بك نائب حلب إلى خيمة قانصوة الغوري ، ونقل له أن العثمانيين دحروهم ، ثم انسحب إلى حلب ، وانتشر خبر الهزيمة بسرعة فائقة بين الجنود ، فولوا الأدبار ، وقتل السلطان المملوكي دهسا بين الهاربين ، ولم يعثر على جثته .

٥- وآل النصر العثماني في مرج دابق (٢٦ رجب سنة ٩٢٢هـ / ٢٤أب سنة ١٥١٦م) إلى خضوع باقي المدن سلمياً ، وإلى إلحاق سورية ولبنان بالإمبراطورية العثمانية إدارياً ومالياً وسياسياً . ونظم سليم الأول الملكية العقارية ، وجعلها أميرية ، وخاصة ، وحمى التجار ، وخفض الرسوم الجمركية من ٢٠٪ إلى ٥٪ لتشجيع التجارة .

٦- وأمضى سليم الأول أربعة أشهر في بلاد الشام ، ثم استأنف مسيرته الظافرة ليفتح مصر ، وفعل ، وهزم طومان باي في الريدانية (٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) ، ودخل القاهرة ، وأقام في جزيرة الروضة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ،

ولما ألقي القبض على طومان باي ، طيف به في الشوارع بالقاهرة وشنق عند باب الزويلة ، وانتهت بشنقه دولة المماليك .

د - نتائج فتح العثمانيين سورية ومصر :

ترتب على فتح العثمانيين سورية ومصر نتائج عالمية يهمنا منها ما يتعلق بالتجارة بين بحر الهند والبحر الأحمر .

١- فقد أصبحت الدولة العثمانية تسيطر على طريق البحر الأحمر العربية ، وعلى منفذي الإسكندرية وبلاد الشام ، بالتالي ، تقتضي مصلحتها العليا مرور السلع بأمان ، وبلا تعويق من مصادرها في الشرق إلى أسواق استهلاكها في الشرق الأدنى وأوربة .

٢- وصارت مصلحتها الاقتصادية العليا متوافقة مع المصالح العربية الاقتصادية، ومتضاربة مع المصالح الاقتصادية البرتغالية ، وهذا الوضع ينبغي أن يؤدي منطقياً إلى التقارب بين العرب والدولة العثمانية ، وإلى محاربة الدولة البرتغالية في بحر الهند والبحر الأحمر والخليج العربي ، وقد حصل .

ثانياً : إبعاد العثمانيين الصفويين عن العراق ووصولهم إلى البصرة والأحساء

غنى العثمانيون بتصفيتهم المماليك على اثنين من أعدائهم دفعة واحدة ، نعني إمبراطورية المماليك وبلاد ذي القدرية ، لكن نشأت عداوة جديدة لهم مع البرتغال عن فتوحاتهم في سورية ومصر ، إلى جانب عداوة الصفويين التقليدية، وانهماكهم في حروب البلقان وجزر المتوسط ، وشاء القدر أن يتولى شؤونهم في تلك الظروف التوسعية في جميع الجهات سلطانان عظيمان جداً ، أخذا على عاتقهما التوسع في الشرق على حساب الدولة الصفوية واقتطاع ما يقرب من نصف

أراضيها ، وضمه إلى إمبراطوريتهما الشاسعة . نقصد سليم الأول وسليمان القانوني ، وتميزت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالتوتر الشديد على الدوام . وكانت أسباب نشوب الحروب بينهما كاملة تنذر بالانفجار في أي لحظة .

أ - أسباب الحروب بين العثمانيين والصفويين :

أهمها أربعة :

١- إرسال الشاه إسماعيل دعاة إلى الإمبراطورية العثمانية ، ومحاولاته إثارة الفتن على الحدود وبواسطة أمراء بلاد ذي القدرية .

٢- تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع المماليك ، ثم مع البرتغاليين ضد العثمانيين .

٣- إيواؤه الأمير مراد بن أحمد شقيق سليم الأول ، ورفضه تسليمه إلى العثمانيين .

٤- أخيراً رغبة العثمانيين أنفسهم بالتوسع باتجاه الشرق .

لذلك كله حدثت نزاعات مسلحة بينهما في أيام السلطان سليم الأول ، وفي أيام السلطان سليمان القانوني .

ب - الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليم الأول والشاه إسماعيل:

١- في سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م عقد السلطان سليم اجتماعاً في أدرنة ضم وزراءه وقواده، تم فيه التداول في إعلان الحرب على الصفويين ، فأقره المجتمعون ، وأبلغ إلى الشاه إسماعيل .

٢- تلاقى الجيشان في جالديوان في ناحية تبريز ، وتفوق خيالة الصفويين في البدء على الجناح العثماني الأيسر ، لكن ضربهم العثمانيون بمدافعهم عندما انتقلوا إلى الهجوم على الجناح العثماني الأيمن ، ففرقوا شملهم ، وتغلبوا

عليهم ، وجرح الشاه إسماعيل ، وهرب جيشه وهرَّبه ، ولحق بهم العثمانيون ، واحتلوا مدينة تبريز .

٣- ثم قرر سليم الأول إخضاع بلاد كردستان ، فوقف في وجه الجيش العثماني أميرها قره خان الذي نصبه الشاه إسماعيل ، ووقعت بينهما معركة حاسمة دارت رحاها قرب بلدة فوجحصار ، انتصر فيها العثمانيون على جيش الشاه إسماعيل مرة ثانية ، وقتلوا قره خان ، فأعلن جميع الأمراء الأكراد الطاعة لهم ، عندئذ عاد السلطان سليم الأول إلى الآستنانة (٩٢١هـ / ١٥١٥م) تاركاً بعض قواده في كردستان على أن يعود إلى تصفية الصفويين في وقت لاحق .

٤- إلا أنه انشغل بفتح بلاد الشام ومصر ، ثم رجع إلى الآستانة ، وتوفي سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م وهو في طريقه إلى أدرنة ، وخلفه نجله سليمان القانوني (٩٢٦هـ ١٥١٩م - ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) .

ج - الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليمان القانوني وطهماسب الأول خليفة الشاه إسماعيل :

لم تتوقف الحروب بين الصفويين والعثمانيين بوفاة الشاه إسماعيل وسليم الأول، بل تجددت لتجدد أسبابها ، فقد تحالف طهماسب الأول مع البرتغاليين ضد العثمانيين ، لأنه كان بحاجة لبنادقهم ومدافعهم ، ولأنهم كانوا بحاجة إلى استبعاد العثمانيين عن النشاط الحربي في بحر الهند والبحر الأحمر والخليج العربي ، واستقبل سفارات شارل الخامس ملك أسبانية وامبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة وعدو العثمانيين في أثناء حصارهم مدينة فيينة سنة ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م) ووعده بدعمه في حربه مع سليمان القانوني .

وتكررت غارات أكراد فارس الصفوية على الممتلكات العثمانية في ديار بكر وولاية حلب . فأعلن سليمان القانوني الحرب على طهماسب .

١- احتلال سليمان القانوني بغداد وقبوله مفاتيح البصرة : ٩٤١هـ / ١٩٣٤م :

وسار على رأس جيش عثماني قاصداً الإمبراطورية الصفوية وعاصمتها الجديدة وفي أواخر خريف سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ، وبينما كان يفتش عن موضع ينزل فيه هو وجيشه لتمضية فصل الشتاء ، جاءه موفد من محمد خان ، حاكم بغداد الصفوي ، يحمل رسالة بقي مضمونها سرياً ، لكن ظهرت آثارها عندما اتجه العثمانيون إلى بغداد ، فقد غادرها محمد خان قبلهم ، واستقبلت الجيش العثماني بالزينة والترحاب ، فدخلها بلا قتال ، وأعلنت المدن العراقية خضوعها الواحدة تلو الأخرى ، لاسيما البصرة التي قدّم أميرها رشيد بن مغامس مفاتيحها للسلطان العثماني .

وأمضى سليمان القانوني أربعة أشهر في بغداد ، بنى في غضونها قلعة فيها ، وجعلها ولاية عثمانية ، ونظم الحكم المحلي فيها ، وعين سليمان باشا الألباني والياً عليها ، وترك له حامية تضم ألفاً من المشاة المسلحين بالبنادق ، وألفاً من الفرسان ، وفرز ٣٢٠٠٠ جندي لحماية الولاية ، ثم غادر بغداد في ٢ نيسان سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥ ، وذهب شمالاً .

٢- ثورة البصرة الأولى سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦ وإخمادها :

حكم يحيى رئيس إحدى العشائر العربية البصرة بعد وفاة راشد بن مغامس ، وأرسل السلطان سليمان القانوني في أيامه خرّم بك ليبني قلعة تراقب حصوناً كانت قد أعطيت لبعض العرب مكافأة لانضمامهم إلى جانب العثمانيين ، فاستاؤوا ، واستنجدوا بيحيى حاكم البصرة ، فنجدهم بمائة سفينة . إلا أن أويس باشا ، والي بغداد العثماني ، أرسل ألفي جندي إلى خرم بك على وجه السرعة ، فهزم خرّم المتمردين .

لكن يحيى حاكم البصرة ، رفض الخضوع ، فسيرت بغداد جيشاً ضده ، ولحق

بالجيش الأول جيش ثاني بقيادة والي بغداد نفسه ، وهوجمت البصرة من الجنوب والشمال ، وانتصر العثمانيون على العصاة الذين هربوا إلى الأحساء ، ودخلوا البصرة في ١٥ كانون الأول سنة ١٥٤٦م ، وعينوا بلال محمد بك حاكماً جديداً لها، وأسسوا فيها دار صناعة لها حوض احتفظ فيه بـ ١٥ سفينة لاستعمالها ضد البرتغاليين .

د - الاضطرابات في البصرة وبغداد في عهد السلطان العثماني سليم الثاني (٩٧٤هـ / ١٥٦٦ - ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م) .

وفي عام ٩٧٤هـ ١٥٦٦م ، في أوائل سلطنة سليم الثاني ، أوقف حاكم البصرة شيخاً من بني عليان ، وحاول أن يقتص منه بسبب بعض الجرائم التي ارتكبها بعض أفراد عشيرته ، فهرب الشيخ ، وترقب الحاكم حتى توجه إلى الأحساء ، فهاجمه وضربه ، واستعد ٢٠,٠٠٠ بدوي لحصار البصرة من البر والماء . ونزلوا على أطواف نخيل في نهر دجلة ، وعجزت مدافع العثمانيين عن إيقافهم ، ثم ترك العرب الأطواف ، وأضرموا النار فيها ، ووجهوها إلى الحصون التركية ، وسبحوا هم إلى الشاطئ ، يترقبون الحصون ويطلقون النار على كل جندي يبين ،فاختنقت حامية أحد الحصون بالدخان ، كذلك أوقع العرب فرسان الترك في الشرك ، وأمعنوا تقتيلاً بهم ، مع ذلك لما جاءت التعزيزات من بغداد ، انسحب البدو سنة ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م ، وقبل ابن عليان أن يدفع ضريبة إلى خزينة البصرة مقدارها ١٥٠٠٠ ليرة ذهبية .

٣- ثورة بغداد سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨ وإخمادها :

وفي عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م ، جمع الأمير الصفوي القاص ميرزا شقيق طهماسب ، ١٢٠٠٠ محارب من جيورجية والقفقاس والمنفيين ، وأخفاهم في بعض الأودية

القريبة من بغداد ودخل هو متستراً بثياب تاجر ، وتسلل ١٥٠٠ من رجاله إلى داخل المدينة . وكانت خطتهم تقضي بقتل الوالي وموظفيه وكل من يعترضهم ،لكن وشى بهم أحد الخارجين على القانون ، وأبيد المتآمرون ، وهرب ميرزا مع ٣٠٠٠ من فرسانه .

هـ - نتائج احتلال العثمانيين العراق :

وترتب على انتصار العثمانيين نتائج كثيرة ، يهمنا بعضها فقط .

١- فقد أتم العثمانيون بامتلاكهم العراق ، سيطرتهم على دروب القوافل في العراق والشام ومصر ، وعلى منافذ الطريقين البحريين العربيتين اللتين تسلكهما تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط .

٢- وصارت مصلحتهم الاقتصادية العليا تقضي بإنعاش التجارة في الأجزاء الجديدة من إمبراطوريتهم ، لما تستوفي الدولة من رسوم على أصنافها ، وما توفر أعمالها من أسباب حياة لكثير من السكان .

٣- وأصبحوا بالتالي ملزمين بتأمين الملاحة في الخليج العربي ، والبحر الأحمر ، وبحر الهند ، ومقاومة البرتغاليين بحد السيف لمحاولتهم سد الطريقين العربيين ، وتحويل حركة النقل بالقوة إلى الطريق الأطلسية .

وقضت هذه الاعتبارات أن يقوم العثمانيون بحملات بحرية بعيدة على البرتغاليين وعلى متاجرهم في ساحل الدكن الغربي ، وفي الديو ، وفي الخليج العربي.

ثالثاً : قيام العثمانيين بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين في الديو والخليج العربي :

بلغ عدد الحملات الحربية البحرية أربع حملات ، جرت كلها في عهد سليمان القانوني ، وانطلقت اثنتان منها من ميناء السويس على البحر الأحمر ، واثنتان

من مرفأ البصرة ، فقد أدرك هذا السلطان العثماني العظيم أن ازدهار العراق وسورية ومصر ، وبالتالي الأجزاء الجديدة والأساسية من الإمبراطورية العثمانية الناشئة ، يتوقف على إعادة النشاط إلى المواصلات المائية بين بحر الهند والبحر المتوسط ، عن طريق الخليج العربي أو عن طريق البحر الأحمر أو عن كليهما ، لذلك كان لابد من مجابهة البرتغاليين وحلفائهم الذين عرقلوا تلك المواصلات وحولوها إلى الجهة الغربية عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان لابد من تلبية نداءات الاستغاثة الصادرة عن ملوك مصادر السلع في الهند ، مثل ملك كاليوكوت (٩٣٤هـ - ١٥٢٧م) وملك الديو (٩٣٩هـ / ١٥٣٢م) وملك جوزرات (كمباية) الذي تعهد بدفع نفقات حملة عثمانية قوامها ١٠٠٠٠ جندي ، ورأى السلطان العثماني أن الفرصة مواتية له ، فأمر سليمان باشا حاكم مصر بإعداد أسطول والذهاب لقتال البرتغاليين ، وكتب له ما يلي : (عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجاتك ، وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة ، وجمع جيش كاف ، فعليك أن تخرج إلى الهند ، وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإنك إذا قطعت الطريق ، وحاصرت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة ، تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون ، وأزلت رايتهم من البحر) .

أ - حملة سليمان باشا الخادم الملقب بالوزير ((٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) ضد البرتغاليين :

١- التعريف بسليمان باشا :

أصل سليمان باشا انكشاري يوناني من شبه جزيرة موره ، عمره ٨٠ سنة فيما قيل، وهو قصير ، بدين ، ذميم ، قبيح الخلقة ، شرس الأخلاق ، بطاش ، فتاك ، غدار ،

لكنه جبان ، خوار ، خواف ، لم تعهد فيه شجاعة ولا إقدام .

٢- إعداد الأسطول في ميناء السويس :

وكانت السويس ، ميناء إعداد أسطول الحملة وانطلاقها ، قرية بائسة ، شبه محرومة من المياه العذبة منذ ٨ قرون بعد ترميل القناة التي كانت تصلها بنهر النيل ، تعيش من خدمات القوافل الذاهبة إلى القاهرة ، ومن مرور الحجاج المسلمين إلى مكة والمدينة ، والمسيحيين إلى سيناء ، لكن نشاطها كان يزداد في وقت إعداد الحملات البحرية فيها ، وقد وصفها الإيطالي ف . بيغافتا سنة ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م ، فقال : ((السويس بلدة صغيرة ، فيها القليل من المنازل المنخفضة الفقيرة ، يسكنها الأتراك وبعض العرب والمسيحيين واليهود المهتمين بالمكوس وبعض المرتدين من الإيطاليين المغامرين ، وتحوي عدة حمامات وجوامع وسوق بيع كبيرة فيها المخازن والمؤن والسلع . ولدار الصناعة فيها حوض ماء كاف العمق، يمكنه أن يستوعب ١٥ إلى ٢٠ سفينة)) ، وشاهد بيغافتا فيها ١٦ سفينة ، أربع منها فقط صالحة للعمل و ١٣ مدفعاً لحمايتها . وتبني دار صناعتها زوارق تجارية صغيرة لحساب السلطان ، تؤجر لبعض الناس لأن الباب العالي يحتكر الملاحة ، ولم يكن بناء الأسطول فيها ميسوراً . فالخشب مفقود فيها وفي مصر وفي بلاد الشام ، ويؤتى به من خليج إياس إلى الإسكندرية في البحر ، ثم ينقل في نهر النيل إلى القاهرة ، ويحمل منها على ظهور الجمال إلى السويس ، واليد العاملة الخبيرة مفقودة أيضاً ، فاستعين بمهندس بناء سفن من جينوه ، والملاحون مفقودون ، فجئ بـ ٨٠٠ بندقي و ١٥٠٠ بحار من جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، لذلك تأخر إعداد أسطول حملة سليمان باشا إلى ربيع سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ، ولما انتهى بناؤه ، بلغ عدد سفنه ٧٠ غراباً و ٣٠ برشة حسب النهروالي ، و ٧٤ إلى ٧٦ سفينة حسب المصادر البرتغالية . لكن لم تركب صواريها، ولم تنصب مدافعها عليها في السويس .

٣- ذهاب أسطول الحملة إلى الديو وهرموز : ٢٢ حزيران ١٥٣٨هـ / ٩٤٥م :

وغادر أسطول الحملة السويس سنة ٩٤٥هـ / ٢٢ حزيران ١٩٣٨ ، ومر بجدة وجزر كمران وعدن والشحر والديو وهرموز ، ففي جدة ، نصبت الصواري والمدافع ، وأخذ سليمان باشا ١٠٠,٠٠٠ أشرفي من حاكمها ، وفي كمران رسا الأسطول واستعذب قبل أن يتجه إلى باب المندب .

وعبر مضيق باب المندب ، وذهب إلى عدن . وكان عامر بن داود من بني طاهر ملكاً عليها وقال النهروالي : ((لما بلغه وصول سليمان باشا للغزو في سبيل الله ، وقطع جادرة الفرنج عن الإضرار بعباد الله ، فتح له باب عدن ، وأمر أن تزين ، وجمع له من البلاد ما أراد من الأزواد ، وتوجه هو ووزيره للسلام عليه إلى الغراب الذي هو فيه ، فمجرد أن رأى سليّمان باشا باب عدن قد فتح ، أمر عسكره بدخول عدن وأخذها ، فلما وصل إليه عامر ألبسه ومن معه خلعا ، ثم أمر بصلبهم على الصاري في الغراب الذي هو فيه ، ونهب العسكر داره ، وشرعوا في نهب البلد)) .

وقد وصف عدن أحد البنادقة الذين اشتركوا في الحملة ، فقال عنها : ((عدن حصينة إلى أقصى حد . تقع على شاطئ البحر ، تحيط بها جبال عالية ، وتحميها قلاع وحصون ، وليس من جهة البحر والبر سوى منفذين يتمثلان في فتحتين عرضهما ٣٠٠ قدم . وتحرسها حصون هلالية وأبراج وأسوار ، ويمتد أمام شاطئها حبل رملي يأتي بعده ميناء جنوبي تحميه قلعة يقع عند أسفلها برج يحرس مدخل الميناء الذي يبلغ عمقه ١٢ باعاً ، وينتهي بقعر ممتاز ، ويقع في شمالها مرفأ آخر أوسع بكثير من الجنوبي ومحمي من جميع الرياح ، والرسو فيه جيد كالرسو في الميناء الجنوبي ، ويتوفر الماء فيها رغم جفافها وجدب أرضها . ويأتي ماؤها من المطر ، ويجمع في صهاريج عميقة جداً يسخن فيها ، ويبرد قبل شربه)) .

وعدن مدينة تجارية ، تقصدها كل عام سفن كثيرة قادمة من الهند ، محملة بالتوابل التي تنقل إلى القاهرة ، وقد ترك فيها سليمان ثلاث سفن لحراسة

الميناء، و ٥٠٠ انكشاري .

ومر سليمان باشا بالشحر، وأخذ من سلطانها ١٦٠ أسيراً برتغالياً و ٦ سفن ضمها إلى أسطوله ، وذهب بعدها إلى الديو ، ووصلها سنة ٩٤٥هـ / ٣ أيلول ١٥٣٨م ، وكانت أنباء غدره قد سبقته وبلغت مسامع سلطان جوزرات .

وكانت مدينة الديو ذاتها تابعة لمملكة كمباية أو جوزرات . ويحكمها الخواجا صفر الملقب خد أوند خان ، وهو مرتد إيطالي ، ولا يسيطر البرتغاليون إلا على القلعة التي بنوها ووضعوا فيها حامية قوامها ٨٠٠ جندي بقيادة ف . باشيكو ، ومعهم ست سفن حربية .

ونزل سليمان باشا في موضع اسمه مظفر أباد قرب الديو ، ففتح له خد أوند خان أبواب الديو ، فسلبها عسكره ، رغم ذلك اضطر أن يتعاون معه في حصار القلعة البرتغالية الذي دام خمسة أسابيع تقريباً ، وأصيب فيه المدافعون والمحاصرون بخسائر فادحة ، فقد شقت المدفعية العثمانية ثغرات في أسوار القلعة ، هرب منها كثير من الجند وباشيكو نفسه وأسروا ، وأغرقت المدفعية البرتغالية عدداً كبيراً من أحسن أغربة الباشا . ولم يكن الحصار محكماً فدخلت تعزيزات بحرية برتغالية عديدة إلى المرفأ . وفشل هجوم شامل لاحتلال القلعة قام به الأتراك وخد أوند خان معاً في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٥٣٨م ، وخاف سليمان باشا من وصول أسطول برتغالي جديد بقيادة د . غرسيا دي نورونها من بحر الهند علي حين غرة، وأوحى له خد أوند خان أن البرتغاليين أوشكوا ، مثلما اعترف رسيل من قبلهم وقعوا في أسره ، أن يفاجئوا الديو بأسطول ضخم ليفكوا الحصار عن قلعتهم ، فترك سليمان باشا مدافعه الكبيرة لخد أوند خان ، وركب أغربته ، وأبحر باتجاه هرموز ، عساه يلتقي في طريقه بسفن برتغالية منفردة ليسطو عليها ، ولما لم يعثر على أي سفينة كر راجعاً إلى السويس ، أما خد أوند خان ، فوقع مع البرتغاليين اتفاقاً يحدد حقوقهم دون أن يضطرهم إلى إخلاء قلعتهم .

٤- عودة أسطول الحملة إلى القلزم : ٩٤٦هـ / ١٦ أيار ١٥٣٩م :

ومر سليمان باش في إيابه على الشحر ، ووضع فيها حامية عربية ، لكن غرقت ثلاث من سفنه عندها . وتوقف في عدن ، وقوّي حاميتها ، فأنزل فيها ٢٠٠ انكشاري ، و ١٠٠ مدفع ، وذخيرة ، وأبقى فيها خمسة أغربة ، ثم غادر عدن ، وجاء إلى مخا ، ونزل في بندرها ، وخلع الناخوذة أحمد ، وأصر على مثوله بين يديه ، فتهرب الناخوذة أحمد ، وذهب إلى زبيد ، فانتقل سليمان باشا بأسطوله إلى جزر كمران (آخر كانون الثاني سنة ١٥٣٩م / ٩٤٦هـ) ، وأبحر بسفن صغيرة إلى البر ، وقصد زبيد ، ونصب خيامه عند أسوارها ، وقطع رأس الناخوذة أحمد (٩٤٦هـ / ٢٧ شباط ١٥٣٩م) . ورجع إلى أسطوله ، وعرج على جيزان التي انتزعها من شريف مكة أبي نمي بعد أن احتلها هذا الأخير ، ثم ذهب إلى جدة ، وسافر منها إلى مكة حاجاً ، وعاد فمر بينبع ، وعبر منها إلى القلزم بعد أحد عشر شهراً تقريباً من مغادرته السويس : ١٦ أيار سنة ١٥٣٩م ، وعاد سليمان باشا من مصر إلى الأستانة ، وعزل بعد فترة وجيزة بعد أخذ ورد ، وانتحر سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م - ١٥٥٣م .

ب - حملة بيري ريس : ٩٥٨هـ / ١٥٥١م :

شغل بيري ريس قبودان أي أمير بحر في مصر . فكلفه السلطان سليمان القانوني بقيادة أسطول عثماني يضم ٣٠ سفينة تحمل ١٦٠٠٠ جندي من السويس إلى الخليج العربي لقتال البرتغاليين ، وغادر السويس سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م . وقطع البحر الأحمر ، وعبر باب المندب ، وتوقف في عدن وعزز حاميتها ، ومر بالشحر ، وفقد بعض سفنه على شاطئها . ووصل إلى مياه مسقط في مطلع سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م ، وكان جاوو دي ليسبوا قائد حامية مسقط ، فحاصرها بيري ريس شهراً كاملاً فاستسلمت له بعد أن أمن المحاصرين على حياتهم . لكنه أخذهم عبيداً ، واستولى على مدافعهم ومؤنهم ، وأجبرهم على التجديف في مراكبه ، ثم ذهب إلى هرموز ، وحاصر القلعة البرتغالية فيها شهراً أيضاً ، وضربها بمدافعه ،

وألحق بها أضراراً كبيرة ، إلا أنه يئس من احتلالها ، فنهب ما استطاع من المدينة والجزيرة ، وفرقت عاصفة شديدة أسطوله ، لكن نجت منه ١٥ سفينة ذهبت إلى البصرة ، ولم يبق معه سوى ثلاث سفن تعاطى بها أعمال القرصنة في الخليج العربي قبل أن يصل هو أيضاً إلى بندر البصرة ، وقيل له فيه أن البرتغاليين يتعقبونه ، فحاول الخروج من الخليج بثلاث مراكب ، فقد أحدها أمام البحرين ، وتمكن من التخلص من أعدائه بالمركبين الباقيين ، وعاد بهما إلى السويس ، ومنها إلى القاهرة بغنائم جمة .

وهكذا فشلت حملة بيري ريس فشلاً ذريعاً ، فحوكم بتهمة التقصير والسلب والنهب بناء على طلب والي البصرة العثماني ، فحكم عليه بالإعدام ، ونفذ به سنة ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م .

ج - حملة مراد بك : ٩٦١هـ / ١٥٥٣م :

عين مراد بك أمير بحر في مصر سنة ١٥٥٣م خلفاً لبيري ريس ، وكلف بإعادة السفن إلى السويس ، فذهب إلى البصرة ، وأقلع بتلك المراكب في شهر آب سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م ،، إلا أن البرتغاليين اعترضوه مقابل هرموز ، فأغرقوا أفضل سفينة عنده ، وخرج بباقي سفنه إلى خليج عمان مجارياً صحار ومسقط وقلهات، وهناك هاجمه أسطول برتغالي ثاني مؤلف من ٣٢ سفينة بقيادة ف . دي نورونها، فكرّ راجعاً إلى البصرة ، وأبلغ الباب العالي بفشله .

د - حملة علي بن الحسين الخليجية سنة ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م :

لم يتخل السلطان سليمان القانوني عن محاربة البرتغاليين في الخليج العربي ، ففي عام ١٥٤٤/ ٩٦٢هـ ، كان في مدينة حلب ، فعين علياً بن الحسين أمير بحر ، وكلفه بجلب السفن العثمانية من البصرة إلى السويس ، فذهب علي بن الحسين إلى شط العرب ، واستلم قيادته البحرية ، وخرج بأسطوله الذي كان يضم ١٥ سفينة ، واتجه إلى الجنوب ، فمر ببوشير والبحرين وجزيرتي قيس والقشم

وجلفار ورأس مسندم ، وأصبح في خليج عمان ، وهنا هاجمته قوة بحرية برتغالية أولى قوامها ٢٠ سفينة في شهر آب سنة ١٥٥٤م ، وتكبد بعض الخسائر ، لكنه أكمل طريقه مجارياً شاطئ صحار ومسقط وقلهات ، فهاجمه أسطول برتغالي ثان مؤلف من ٣٤ سفينة ، وقاومته الطبيعة أيضاً ، إذ هبت عليه عاصفة عاتية ، بددت سفنه ، وقذفتها إلى الشرق ، وساقتها رياحها نحو الديو وسرت ، واضطر القبودان أن يرمي مدافعه في البحر لينجي مراكبه ، فأصبح عاجزاً عن مجابهة البرتغاليين ، ولجأ إلى مرفأ دمن بعد ثلاثة أشهر من إقلاعه من البصرة ، وتخلى عن سفنه الباقية إلى خد أوند خان الذي تعهد بإرسال ثمنها إلى الأستانة، ولما سمح له بالعودة إلى بلاده ، استصحب معه ٥٠ من رجاله ، ورجع عن طريق البر إلى تركيا ، ومر بالسند ، وما وراء النهر ، وخراسان ، وفارس ، ووصل في شهر نيسان سنة ١٥٥٧م إلى أندرينوبل حيث استقبله السلطان سليمان القانوني ، فقدم له كتابه المحيط المعروف ، وتوفي علي بن الحسين سنة ١٥٦٢م في السنة التي أعدم فيها بيري ريس .

وهكذا انتهت حملات سليمان القانوني البحرية على البرتغاليين إلى الفشل، مثلما أخفقت حملة قانصوه الغوري عليهم قبله بثلاثين عاماً ، لكن هذا لا يعني أن الإفرنج نجحوا في إيقاف التجارة الدولية في الخليج العربي أو البحر الأحمر على الدوام ، فقد ظلت أوضاعهم مضطربة إلى أن تغلب أهل الخليج أنفسهم على جميع إجراءاتهم ، وعادوا إلى مزاولة نشاطهم التجاري ووساطتهم بين بحر الهند والبحر الأحمر ، مثلما كانوا يفعلون قبل مجيء فاسكودا غاما إلى بحر الهند ، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه في أقل من ربع قرن ، أي منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر .

القسم الثالث

استمرار وصول السلع إلى الخليج العربي وشحنها إلى البحر المتوسط أو إلى بحر الهند

لم يقض فتح طريق رأس الرجاء الصالح على وصول التوابل والسلع الأخرى إلى المياه العربية وبنادرها ، وأثبت المؤرخون الألمان هذا الواقع قبل سواهم ، لأن البندقية لم تتوقف عن تموين بلادهم بالتوابل وسلع الشرق ، وبالتالي لم تستطع البرتغال أن تقطع جميع مسالك التجارة الدولية وطرق وصول أصنافها إلى البصرة فبغداد فحلب فطرابلس أو بيروت ، أو إلى القاهرة فالإسكندرية ، ثم إلى أوربة الجنوبية والوسطى ، بسفن البندقية خاصة وسفن مدن أخرى كثيرة .

أولاً : انقطاع شحن التوابل إلى الأراضي العربية في الربع الثاني من القرن ١٦ :

ولا شك أن نجاح البرتغال في البدء في الوصول إلى مصادر السلع الشرقية وفي شرائها من منتجيها مباشرة ، أثار أزمة خانقة في البنادر العربية في الخليج والبحر الأحمر والبحر المتوسط وفي جمهورية البندقية خاصة ، لأن تجارها مالوا إلى التشاؤم ، وأدركوا متأخرين نتائج السياسة التجارية البرتغالية ، وتوقعوا حصول كارثة اقتصادية في مدينتهم ، بعد أن أخذت الأسعار تتعرض عندهم إلى تقلبات مفاجئة مذهلة نشأت عن الإجراءات البرتغالية وعن ردود فعل البندقية سيدة الأسواق الأوربية .

أ - الإجراءات البرتغالية :

وتلخصت التدابير البرتغالية فيما يلي :

١- حدد الملك دون مانوييل سعراً رسمياً واحداً لبيع الفلفل سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م ،

وحصر تجارة التوابل بالتاج البرتغالي وحده .

٢- قطعت التوابل قطعاً شبه كامل عن أسواق الإسكندرية وبيروت وطرابلس والاسكندرون ، ففي عام ١٥٠٢م ، وجدت أربع بالات فلفل في بيروت ، ولا شيء البتة في بيروت أو الإسكندرية سنة ١٥٠٤م و ١٥٠٦م ، فتعذر العثور على حمولة توابل لأي سفينة في تلك السنوات .

٣- حلت لشبونة محل البندقية في كثير من الأسواق الأوربية ، فسيطرت البرتغال على سوق هولندا سنة ١٥٠١ ، وسوق انكلترا سنة ١٥٠٤ بعد وصول خمس سفن برتغالية مشحونة بـ ٣٨٠ طناً من الفلفل والتوابل من كاليكوت مباشرة ، وسوق ألمانية الشمالية والوسطى سنة ١٥٠٧ ، وسوق فرنسة الغربية وقشتالة بعد سنة ١٥٢٤ .

٤- وأخذت السفن البرتغالية ذاتها توزع التوابل على موانئ البحر المتوسط مثل جينوه (١٥٠٣) .

ب - ردود فعل البندقية :

حاولت البندقية أن تقاوم توسع البرتغاليين في أسواق التصريف بشتى الوسائل :

١- فسمحت في شهر أيار سنة ١٥١٤ بنقل التوابل من مرافئ المشرق بسفن غير سفنها ، وأعفتها من الرسوم الجمركية عند دخولها إلى أراضيها .

٢- ولم تقف عند هذا الحد ، بل تقربت من البرتغال ، فجلبت سنة ١٥١٥ ما ينقصها من التوابل من لشبونة ذاتها .

٣- وفي عام ١٥٢٧ ، عرض مجلس شيوخ البندقية على ملك البرتغال أن يشتري كل التوابل الواصلة إلى لشبونة من الهند ، ما عدا الكمية اللازمة لاستهلاك البرتغال ، ويوزعها في أوربة ، مما يدل على وضع البندقية الحرج ، وعلى احتلال لشبونة الأسواق الأوربية على نطاق أوسع مع مرور الزمن وقوبل

العرض بالرفض البات .

لكن لم يدم النصر البرتغالي الأولي طويلاً ، فسرعان ما عادت تجارة التوابل إلى ما كانت عليه قديماً ، وذلك منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر .

ثانياً : - استئناف شحن التوابل إلى الأراضي العربية في النصف الثاني من القرن السادس عشر :

مع ذلك ، لا يجوز أن نتصور أن شحن التوابل وغيرها من السلع إلى البنادر العربية انقطع انقطاعاً تاماً في وقت من الأوقات ؛ لأن آلاف الوثائق المصرية والأوربية ، خاصة وثائق البندقية ومرسيلية ولشبونة ، تثبت وجود تنافس شديد بين التوابل المتوسطية أي الواردة عن الطريقين العربيين ، والتوابل الأطلسية ، أي الواردة عن الطريق العربية ، وازدهار حركة التجارة الدولية في المياه العربية في الخليج والبحر الأحمر ، ودوام عبور السفن المحملة بالسلع فيهما بانتظام حتى نهاية القرن السادس عشر .

أ - التنافس بين التوابل المتوسطية والتوابل الأطلسية :

لم يتوقف إرسال التوابل المتوسطية إلى مرفأ الفرس في بلجيكة في النصف الأول من القرن السادس عشر وربما بعد هذا التاريخ .

١- ففي عام ١٥١٠ ، كانت إحدى السفن تنتقل بين الإسكندرية والفرس حاملة التوابل .

٢- وفي عام ١٥٤٠ ، أثرت التوابل المتوسطية في أسعار سوق الفرس ، ففرض الإيبيريون (البرتغال وأسبانية) حصاراً توابلياً ، على فرنسة . مما أدى إلى تنشيط حركة مرسيليا التجارية بأنواع التوابل .

(١) بالفعل شحنت مرسيلية سنة ١٥٤٣ فلفلاً إلى مدينتي ليون وطولوز .

(٢) وتبادل الفرنسيون والانكليز شراء وبيع التوابل في منتصف القرن السادس

عشر ، لاسيما في روان ولاروشيل وبوردو .

(٣) وفرضت قشتالة عام ١٥٥٩ ، رسوماً جمركية مقدارها ١٠٪ من قيمة التوابل الداخلة إلى أراضيها فتضرر الفلفل البرتغالي .

(٤) وفي عام ١٥٦٥، وصلت شحنات فلفل من مرسيلية إلى روان (نورماندية) ونافست في طولوز الفلفل البرتغالي الذي كانت تبيعه مدينة بوردو .

(٥) وارتفعت أسعار التوابل في لشبونة عام ١٥٩١ لعدم وصول أي سفينة إليها من الهند ، وبقيت أسعار الفلفل ثابتة لأن البندقية تلقت كميات كبيرة منه من المشرق (توابل متوسطية) .

(٦) وتبين في آخر القرن السادس عشر أن الفلفلين الأطلسي والمتوسطي يتنافسان دون أن يستبعد أحدهما الآخر .

وتعني هذه الوقائع المادية أن العرب استأنفوا تزويد منافذ البحر المتوسط بالتوابل عبر طريقيهم المائيتين . وقد استفاد من هذا النشاط المستجد التجار الأوربيون وفي طليعتهم البنادقة ، وبعدهم تجار مرسيلية وتجار راغوز في صقيلية، واستقر تجار البندقية في الإسكندرية والقاهرة ودمشق وحلب ، واستغنوا عن الوسطاء اليهود المحليين الأثرياء . ويدل وجود التجار الأوربيين في منافذ التجارة الدولية على البحر المتوسط دلالة قاطعة على ازدهار التجارة الدولية بين الشرق والغرب عن طريق الخليج العربي في معظم الأحيان وعن طريق البحر الأحمر أحياناً أخرى .

ب - ازدهار حركة تجارة المرور الدولية في الخليج العربي والبحر الأحمر :

يتصور بعض المفكرين أن الطريقين العربيين ، طريق الخليج وطريق البحر الأحمر ، تتنافسان وتتزاحمان ، وأن انتعاش إحداهما يستلزم الركود في الأخرى ، والحقيقة أن الظروف الدولية هي التي كانت تفرض على التجارة الدولية اختيار

هذه الطريق أو تلك، أو إمكانية سلوكهما معاً .

١- فالحركة التجارية تباطأت في الخليج العربي في أثناء الحرب بين العثمانيين والصفويين في عهد سليم الأول ، وفي عهد سليمان القانوني ، وفي أثناء الحروب البحرية البرتغالية العثمانية ، وأدى ركودها إلى توقف القوافل عن الذهاب إلى حلب التي يرتبط نشاطها بنشاط مملكة هرموز ، وقد يئس أحد التجار الراغوزيين من هذا الوضع ، فقال : في شهر تموز سنة ١٥٥٧ : ((لا أظن أن السلع فقدت في حلب مثلما فقدت في هذه الأيام ، فليس فيها سوى الصابون والرماد ، وسعر العفص ١٣ إلى ١٤ دوكا ، وسوف تقفز الأسعار قفزاً الآن لأن أربع سفن فرنسية وصلت إلى طرابلس التي ترسو فيها أكثر من ثماني سفن أخرى تشتري السلع بالسعر المعروض ، وسوف ينكسر جميع التجار)) .

٢- على النقيض أعلن سفير البندقية في الأستانة في شهر تشرين الثاني سنة ٩٧١هـ / ١٥٦٣م أي بعد انتهاء الحروب البحرية البرتغالية العثمانية أن سفن البندقية الضخمة أقلعت من طرابلس إلى أوربة ، وأشار تقرير من البندقية أيضاً (٩٧٠هـ / ١٥٦٢م) أن ٥٠٠٠ عامل يعملون في الحياكة في مدينة حلب ، وتعبر هذه الأقوال عن انتعاش حركة التبادل التجاري عن طريق الخليج بعد زوال أسباب توقفها ، أي الحروب .

٣- أخيراً ازدهرت الحركة التجارية في البحر الأحمر في أثناء الحرب العثمانية الصفوية في البر ، والحروب العثمانية البرتغالية في البحر ، وعند مدخل الخليج العربي أو فيه .

وموانئ التجارة الدولية كثيرة في البحر الأحمر ، منها جدة ، وسواكن ، والطور ، والسويس إلا أن أهمها جدة ، فمن جدة تنطلق السفن والزوارق محملة بالسلع إلى الطور ، وتنقل القوافل تلك السلع إلى القاهرة في غضون ٩ أو ١٠ أيام . ويصل ألف إلى ألفي طن من التوابل سنوياً إلى جدة في شهر أيار وشهر تشرين الثاني ،

وتشحن كلها إلى القاهرة ، فالإسكندرية حيث تباع إلى الأوربيين .

(١) ففي عام ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م ، اشترى البنادقة وحدهم ٦٠٠ بالة توابل أي ٣٠٠ طن، أو ما يعادل نصف مبيعات مصر .

(٢) وبين عامي ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م و ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م ، اشترت البندقية وحدها سنوياً ٦٠٠ طن من التوابل ، ويعادل هذا الرقم ما كانت تشتريه قبل وصول فاسكوداغاما إلى الهند .

(٣) وفي سنة ٩٧٢هـ / شهر تشرين الثاني سنة ١٥٦٤ ، قدر تقرير أحد جواسيس البرتغال حركة بيع وشراء الفلفل ما بين ١٢٥٠ و ١٥٠٠ طن .

(٤) وفي شهر أيار سنة ١٥٦٥ ، ذكر تقرير سفير البندقية في القاهرة أن ١٠٠٠ طن من الفلفل وصلت إلى جدة ، ولابد أن يضاف إليها ما يأتي في تشرين الثاني من جوزرات وكاليكوت .

ولا تتضمن هذه الأرقام ما يشحن عن طريق الخليج العربي في أيام السلم ، لذلك يستنتج العارفون أن نصيب الطريقين العربيين من شحن السلع يعادل ما يشحن عن طريق المحيط الأطلسي إلى لشبونة ، بل يربو عليه .

ولا تشتمل هذه الأرقام أيضاً على العقاقير الطبية (الأفيون ، البلسم) والحرير والعطور والحجارة الكريمة واللآلئ وغيرها ، ولا على السلع المنقولة من البحر المتوسط إلى بحر الهند ، ففي عام ١٥٦١ ، انطلقت سفينة اسمها كروس ، حمولتها ٥٤٠ طناً من البندقية إلى المشرق مشحونة بالنحاس الخام والأجواخ والمنسوجات الصوفية والحريرية والمرجان والعنبر والطرف والورق والنقود ، وعادت بحمولة من الفلفل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والبخور والصمغ العربي والسكر وخشب الصندل .

٤- نتائج ازدهار تجارة الطريقين العربيين :

ترتبت على ازدهار الطريقين العربيين ثلاث نتائج كبرى .

(١) **النتيجة الأولى** : تضاءل وصول الفلفل والتوابل إلى لشبونة . ففي شهر تشرين الثاني سنة ١٥٦٠ ، قال السفير البرتغالي في رومة : ((لا عجب إذا قلت كميات التوابل الواصلة إلى لشبونة ، لأن مقادير هائلة منها وصلت إلى الإسكندرية . وفي شهر نيسان سنة ١٥٦١ ، سر السفير الفرنسي في البرتغال لندرة التوابل في لشبونة ، وقال : ((إذا استمر شحن التوابل إلى البحر الأحمر على هذا المنوال ، فسوف تفرغ مخازن ملك البرتغال الذي يخشى هذا الاحتمال بعد أن حارب مدة طويلة لمنئها)) .

(٢) **النتيجة الثانية** : فقدت التوابل من الأسواق التي تتعامل مع البرتغال ،وأخذ تجارها يفتشون عن مصادر تموين في غير لشبونة .

(٣) **النتيجة الثالثة** : في أواخر سنة ١٥٦٣ ، جرت مفاوضات صلح بين البرتغال والسلطان سليمان القانوني الذي عدل عن التورط في التوترات السائدة بين الهنود والبرتغاليين في الهند ، فخلع خلعاً على السفراء الهنود المستنجدين به ، ولم يمدهم بالمدافع والأسلحة التي يحتاجون إليها . كذلك تفاوض أحد السفراء البرتغاليين مع الباب العالي ، وطلب منه حق إدخال السلع الهندية إلى القاهرة والإسكندرية وسورية عن طريق البحر الأحمر معفاة من الرسوم ، فرفض طلبه ولم يمنح هذا الامتياز . فهل كان في نية البرتغاليين العدول عن سلوك الطريق الغربية ؟

ج - دوام عبور السفن المحملة بالسلع في الخليج العربي والبحر الأحمر :

مهما يكن ، بقيت الطريقان العربييان ، طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر ، تستقبلان السفن المحملة بشتى السلع من عام ١٥٨٠ إلى آخر القرن

السادس عشر . ويستدل على ذلك من الوثائق التي تتحدث عن النشاط التجاري في منافذ البحر المتوسط ، التابع لنشاط الطريقين .

١- انتعاش تجارة بلاد الشام تبعاً لانتعاشها في الخليج العربي :

(١) فوثائق مرسيلية لصيف عام ١٥٧٨ تذكر شراء جوز الطيب من سورية .

(٢) وتشير إحدى رسائل تاجر من تجار حلب ، محررة في شهر كانون الثاني سنة ١٥٧٩ ، إلى شحن سفينتين كبيرتين من سفن البندقية بالسلع من طرابلس الشام ، في حين تتأهب سفينة كبيرة ثالثة لترسو في بندرها في الشهر ذاته ، وانخفضت أسعار الأجواخ في طرابلس لكثرة ما وصل إليها منها من أوربة .

(٣) ونصت رسالة من تاجر حلبي آخر تاريخها ١٢ أيار سنة ١٥٧٩ ، على وصول قافلة جلبت ٢٠٠ حمل من الحرير و ٢٥٠ حملاً من التوابل يصحبها تجار فرس ومسيحيون .

(٤) وفي ٤ تموز ١٥٧٩ أيضاً ورد في قائمة سلع مشتريات سفت توسكانية : ١٧ قطعة أبنوس (٢٠٥ ليبرة) ، فلفل (٧٧٠٦ ليبرة) ..

(٥) وفي شهر آب سنة ١٥٧٩ ، أعلن قنصل البندقية في سورية عن سفر سفينتين كبيرتين بندقيتين ، مشحونتين بالحرير والتوابل إلى بلاده .

٢- أزمة نشاط تجاري عابرة في بلاد الشام :

لكن حصلت أزمة تجارية في عامي ١٥٨٢ و ١٥٨٣ .

(١) ففي كانون الأول سنة ١٥٨٢ ، تتحدث إحدى رسائل حلب عن صغر حجم الأعمال التجارية وعن خسائر عقودها الفادحة ما عدا الحراير .

(٢) وفي شهر تموز سنة ١٥٨٣ ، ساءت الأعمال حتى فقدت رؤوس الأموال ٨٪ من قيمتها ، ولوحظ وجود الأزمة ذاتها في الاسكندرية.

٣- تجدد النشاط التجاري في بلاد الشام :

إلا أن الأوضاع تبدلت بعد سنة ١٥٨٣ ، وعاد النشاط التجاري إلى سابق عهده .

(١) فقد قال أحد تجار مرسيلية المقيم في حلب ، في شهر نيسان سنة ١٥٨٣ ، أن أسعار الفلفل ارتفعت كثيراً رغم وجود كميات كبيرة منه .

(٢) وذكر جوهن الدريد سنة ١٥٨٣ أن التجار الأوربيين يقصدون طرابلس بكثرة وأن حلب مزدحمة بالسكان .

٤- النشاط التجاري في البصرة والإسكندرية :

وشاهد جوهن الدريد نفسه في العام ذاته ١٥٨٣ ، ٢٥ غراباً عثمانياً في البصرة ، وقال أن عدة سفن تأتي إليها من هرموز شهرياً ، تتراوح حمولتها بين ٤٠ و ٦٠ طناً، محملة سلعاً هندية تشمل التوابل والعقاقير والنيلة وأقمشة كاليكوت ، وعندما رجع إلى حلب ، سافر في قافلة مؤلفة من ٤٠٠٠ جمل تنقل التوابل والسلع الأخرى . كذلك كان بالإمكان الحصول على جميع أنواع التوابل من الإسكندرية.

٥- النشاط التجاري في هرموز :

وبين سنة ١٥٨٤ و ١٥٨٧ ، رفع تقرير إلى فيليب الثاني ملك أسبانية والبرتغال وخليفة شارك الخامس ، وصف أوضاع هرموز في أواخر القرن السادس عشر على الوجه التالي :

((تستقبل هرموز جميع المهاجرين ، وتتعاطى جميع أنواع التجارات والتهريبات، ويأتي إليها البنادقة ، والأرمن ، والعثمانيون ، والبرتغاليون المرتدون ، ويذهبون إلى الإمبراطورية العثمانية حيث تخدم معارفهم الثمينة عن الهند تجارة التهريب ، وتجارة التوابل ، واللؤلؤ ، والراوند ، وصمغ جاوة ، وخشب الصندل ، باتجاه الغرب ، والسلع المهربة كالذخائر ، والأسلحة الحديثة ، باتجاه الشرق)) .

٦- النشاط التجاري في البحر الأحمر (جدة) :

ويبدو أن نشاط التجارة في البحر الأحمر كان لا يقل عن نشاطها في الخليج العربي ، خاصة في بندر جدة .

(١) ففي سنة ١٥٨٦ ، بلغت الرسوم الجمركية ١٥٠,٠٠٠ دوكاً نصفها للسلطان ونصفها لشريف مكة وكانت ٤٠ إلى ٥٠ سفينة ترسو في جدة سنوياً ، وتجلب إليها التوابل .

(٢) وفي سنة ١٥٨٧ ، كانت سفن شمطرة تسافر مباشرة إلى جدة .

(٣) ثم انتقل التجار الذين كانوا يتعاملون مع جدة وهرموز من الديو وجوه إلى شيول وكان ذلك سنة ١٥٩٠ .

خـاتمـة

فشل قانصوة الغوري وسليمان القانوني في إبعاد البرتغاليين عن الخليج العربي والبحر الأحمر في القرن السادس عشر، لكن نجحت أعمالهم الحربية والسياسية في إنهاك الفرنج مادياً ومعنوياً رغم محافظتهم على مراكزهم في الخليج العربي، وعجز البرتغاليون عن منع تدفق السلع الشرقية على منافذ البحر المتوسط عبر الطريقين العربيين .

ومع إطلالة القرن السابع عشر ، سادت أوضاع دولية جديدة في بحر الهند وفي الخليج العربي ، شكلت خطراً حقيقياً على المصالح الاقتصادية العربية ، بل مثلت بداية الاستعمار الأوربي ، فقد جاء الانكليز والهولنديون إلى الخليج ، وتحالفوا مع شاه فارس عباس الأول وقضوا على البرتغاليين ، فساعدوا الشاه الفارسي على احتلال هرموز ، وصفوا مواقعهم الأخرى .

وثبت العثمانيون هيمنتهم على العراق ، وقسموه إلى ولايات عثمانية ، منها ولاية البصرة التي شملت عشرين سنجقاً ، وامتدت نظرياً حتى رأس مسندم ، وتضمنت البحرين والأحساء .

ولعبت عمان دوراً أساسياً في الإجهاز على المواقع البرتغالية في أراضيها .

وهكذا طوى التاريخ الحقبة البرتغالية ، وبدأت الحقبة الأوربية وإقامة ركائز الاستعمار الأوربي في المحيط الهندي وفي أنحاء العالم .

مـراجع مختـارة

مراجع عربية

- أحمد ، محمد عبد العال ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة ، الإسكندرية ، ١٩٨٠

- الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد ، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ١٩٨٠

- البازعريني ، المماليك ، بيروت ، ١٩٦٧

- سرهنك ، إسماعيل ، تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٨٨

- قلعجي ، قدري ، الخليج العربي ، بيروت ، ١٩٦٥ .

- النهروالي ، قطب الدين محمد بن أحمد ، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة المسمى البرق اليماني في الفتح العثماني ، الرياض ١٩٦٧ .

مراجع أجنبية

- Braudel , f . La Mediterranee at le monde mediterraneen a la époque de philippe 11 , Paris , 1982

- Da mes , M . L . , The book of daurte Barbosa , Nendeln , 1967

-Kammerer , A . , La Mer Rouge , 1 , Aoyssinie et l' Arabie depuis lU¢antiquite , 3 vols , le caire , 1947 - 1949

-Mills , j , v . G , The Overall Survey of the Ocean's Shores (1433) , Cambridge, 1970

- Planhol, Xavier de, les fondements geographiques de l'hisroire

de l'slam, Paris, 1968.

- Yule , sir Henry, cathay and the way thither , Nendeln , 1967.

المقاومة العربية الإسلامية للبرتغاليين في الخليج العربي

أ . د / محمد محمود السروجي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

اندفعت الموجة البرتغالية الصليبية من الأندلس في أعقاب العرب بعد طردهم منها في أواخر القرن الخامس عشر ، تتعقبهم في شمالي أفريقية لإبادتهم والقضاء عليهم ، بل بلغت بهم الحمية الدينية إلى محاولة تتبعهم في عقر دارهم في شبه الجزيرة العربية . ومن ثم بدأ الدوران حول أفريقية للوصول إلى الهند ، لانتزاع تجارة الأفاوية من يد العرب عن طريق السيطرة على مياه المحيط الهندي وبحر العرب ، والثغور المطلة عليهما . فهي في نظرهم الطريقة المثلى لإضعاف العرب ، والقضاء عليهم ، [1] أي محاولة الالتفاف حول قوة الإسلام البرية الجارفة في الشرق الأوسط [2] ، والإحاطة بالجناح الغربي للعالم الإسلامي الذي يمتد في شمال أفريقية ، ويسد كل الطرق الموصلة بين أوربا والهند .

فأهداف البرتغاليين كانت اقتصادية في المقام الأول ، وهي ضرب الاقتصاد العربي الإسلامي . وهذا بدوره سيؤدي إلى نتائج سياسية تتمثل في إضعاف العرب والسيطرة عليهم ، وإنشاء إمبراطورية برتغالية [3] . وصبغت هذه الأهداف بالصبغة الدينية ، مبعثها الكره للعرب والإسلام والحقد على معتنقيه . ويدل على ذلك ما ورد برسالة الملك عمانويل ملك البرتغال إلى البابا يوليوس الثاني

عام ١٥٠٥ حيث يقول : ((إنه ليس عازماً على المضي في قتل التجارة المملوكية فقط ، بل إنه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعه وجنوده [٤] .

كانت سياسة الشدة والبطش هي السياسة المقررة لفاسكوداجاما إزاء العرب لإلقاء الرعب في قلوبهم وشل حركتهم ، فكان يهاجم كل سفينة عربية ويقوم بتدميرها دون أي إنذار . بل ذهبت الوحشية إلى حد أنه ما استولى على سفينة عربية ، أمر بتفريغ حمولتها من البضائع ، ثم قام بإحراقها بمن فيها من بحارة ومسافرين.

وعندما وصل البرتغاليون إلى الهند نزلوا في قليقوت ، وكان يحكمها ملك يدعى الزامورين ، وهي المركز الأساسي لتجارة الأقاوية سواء الصادرة من الهند والوافدة إليها من جزر المحيط الهادي ، حيث يقوم التجار العرب بنقلها عن طريق الخليج العربي إلى ميناء البصرة ومنها إلى موانئ الشام فأوربا ، أو إلى البحر الأحمر فميناء السويس ، ومنها إلى الإسكندرية ودمياط حيث تنقلها سفن البندقية وجنوه إلى أوربا .

وكانت البيوتات العربية التجارية تتحكم في تلك التجارة ، ومن ثم كان لتلك البيوتات العربية علاقة خاصة بهذا الملك . كما كان لتجار قاليقوت العرب مستودعات لتجارتهم بالقاهرة والإسكندرية ، بل امتدت إلى مدينة فاس بالمغرب [٥] ولذا كان اختيار البرتغاليين ميناء قاليقوت للاستيلاء عليه مقصوداً لذاته؛ ليتمكنوا من ضرب التجار العرب والقضاء على تجارتهم .

كانت الهند إذن على علاقة تجارية وثيقة مع العرب في الجزيرة العربية بعامة والخليج العربي بخاصة قبل مجيء البرتغاليين بآماد طويلة . فانتشار الإسلام في جنوب وجنوب شرقي آسيا قد تم على يد التجار العرب المسلمين الذين وجد فيهم أهالي تلك البلاد الخلق الإسلامي الرفيع ، فكانوا خير دعاة للإسلام .

بعد وصول البرتغاليين إلى الهند أخذوا يدرسون طبيعة المنطقة المطلة على بحر

العرب والمحيط الهندي ، ووضعوا استراتيجية قائمة على تطويق الجزيرة العربية عن طريق ذراعيها المثلين في الخليج العربي والبحر الأحمر ، فكلا الطريقين كان يستخدم من قبل التجار العرب لنقل تجارة الشرق إلى أوربا ، فالسيطرة عليهما ، والاستيلاء على الموانئ المطلة على شواطئهما يمكّن البرتغاليين من سد طرق التجارة ومنافذها في وجوههم .

أما الجزء الثاني من المخطط البرتغالي فهو السيطرة على منافذ تجارة الشرق الأقصى ببسط نفوذهم على ملقا والجزر الأندونيسية لحرمان التجار العرب المسلمين من تلك الأسواق بعد حرمانهم من تجارتهم مع الهند . وبذلك يحكمون سد جميع المنافذ أمامهم ، ولتخلوا لهم وحدهم تجارة الشرق والهند .

وفي حقيقة الأمر فإن ظهور البرتغاليين في البحار العربية في مطلع القرن العاشر / السادس عشر الميلادي كان ملائماً لهم ، فالدول الإسلامية كانت في حالة تفكك وانقسام ، فالهند كانت منقسمة على نفسها ، فملوك (فيجاياناجار) الهندووكيين كانوا في عداء مستمر وحروب تكاد لا تنقطع مع حكام الدكن المسلمين . فلا غرابة إذا ما ارتبط البرتغاليون بصلات مودة مع هؤلاء الهندوكيين ، لأنه يجمعهم هدف واحد وهو كراهيتهم للعرب والإسلام .

كذلك كانت إمارات الخليج مفككة . أما الدول الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت ، فكانت دولة المماليك في مصر تشغلها الانقسامات الداخلية بين البيوتات المملوكية، إضافة إلى نقص مواردها المالية نتيجة تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح . أما الدولتان الإسلاميتان الأخريان وهما الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس ، فكانت بينهما علاقات عدائية أدت إلى قيام حروب بينهما ، بسبب اختلاف المذهب الديني وتعارض المصالح [١] .

وفي البداية تحرك فاسكوداجاما من البرتغال في ١٠ فبراير ١٥٠٢ في طريقه إلى المحيط الهندي ، وكان عليه في هذه الرحلة أن يبقي خمس سفن من أسطوله في

مياه المحيط الهندي لحماية المحطات التجارية البرتغالية في الهند ولمحاولة غلق مدخل البحر الأحمر الجنوبي عند باب المندب في وجه التجار العرب [٧] .

وعندما عجز البوكيرك في احتلال عدن ، وجه اهتمامه شطر الخليج العربي وهو -كما ذكرنا - أحد الطريقين اللذين كانت تسلكهما تجارة الهند والملايو إلى موانئ الشام ، لضرب القوى العربية وإضعافها ، وخصوصاً عمان التي كان لها التفوق البحري والتجاري في المحيط الهندي [٨] إضافة إلى الخليج العربي والبحار الشرقية بصفة عامة [٩] .

كان على البوكيرك قبل أن يقتحم الخليج العربي أن يحتل جزيرة هرمز في عام ١٥٠٧ ، تلك الجزيرة التي تتحكم في مدخل الخليج ، والتي كانت خاضعة لحكم صبي عربي يبلغ الثانية عشرة من عمره ، ويتولى الوصاية عليه خوجة عطار [١٠] وكان على درجة كبيرة من الحنكة ، قاومت الجزيرة مقاومة شديدة رغم عدم تكافؤ القوى واضطرت إلى الاستسلام في نهاية الأمر ، فخضعت لسيادة البرتغال، وتعهدت بدفع ضريبة سنوية للسلطات البرتغالية [١١] . ويرجع السبب في سقوطها إلى تقاعس البلدان الإسلامية المجاورة لها عن نجدتها ، وذلك للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً من تفكك العالم الإسلامي وقتذاك . وبهذا تمكن البرتغاليون من إغلاق الخليج العربي والقضاء على التجارة العربية مع الهند والملايو [١٢] .

خشي البوكيرك من إدراك الشاه إسماعيل الصفوي لأهمية جزيرة هرمز ، وتطلعه للاستيلاء عليها لما لموقعها من خطورة على الملاحة في الخليج ، لاسيما وأن حاكم الجزيرة كانت تربطه علاقات ودية بالشاه . فحاول البوكيرك من جانبه أن يخطب ود الشاه ، وأن يتقرب إليه ليأمن من جانبه ، وليخيف بهذا التقرب القوى العربية بالخليج فأرسل إليه مبعوثاً برسالة يقول فيها : ((إنني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند .

وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي ، وسأنفذ له كل ما يريد [١٣] .

وقد حدث بالفعل ما كان يخشاه ، ففي عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م اعترفت هرمز بالسيادة الفارسية تخلصاً من البرتغاليين ، ورفضت دفع الضريبة السنوية لهم [١٤] فعاود البركيرك غزوه للجزيرة مرة ثانية وقضى تماماً على سيطرة حكامها على مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر التي استمرت زهاء قرنين ونصف من الزمان [١٥].

بعد الاستيلاء على هرمز والتحكم في مدخل الخليج العربي اتجه البرتغاليون في عام ١٥٠٧ إلى سائر المدن العمانية مثل صور ، وقلهات ، ومسقط وصحار ، وقد تم الاستيلاء على صحار بمساعدة الشيخ عمير بن حمير مستغلاً ضعف النبهانيين وقتذاك . وسقطت جميع منطقة خور فكان في أيديهم [١٦] ، ثم أخذ البرتغاليون في تحصين البلاد بإقامة سلسلة من القلاع والحصون التي ما زال بعضها قائماً إلى اليوم .

وقد اشتد تسلط البرتغاليين على جزيرة هرمز في عهد الحاكم محمود بن سيف الدين ، فأرغموه في عام ٩٣١هـ / ١٥٢٤م على عقد معاهدة معهم تولى فاسكوداجاما بمقتضاها حكم الجزيرة على أن تبقى خاضعة للسيادة البرتغالية مدة قرن من الزمان [١٧] .

وعندما احتل البرتغاليون مسقط ((قبضوا على عدد كبير من أعيان المدينة ووجهائها ، فجدعوا أنوفهم ، وقطعوا آذانهم ، ونهبوا المدينة وحرقوها بالنار كما أحرقوا قلها (قلهات) وطيوي ، ودار شيت [١٨] ومدينة جلفار)) [١٩].

واصل البرتغاليون تقدمهم على الساحل الغربي للخليج العربي ، حيث تم لهم التعرف على البحرين عام ١٥١٤م ، لكنهم لم يقدموا على غزوها إلا بعد سبع سنوات ، حيث أعدوا لها قوة بحرية كبيرة بقيادة أنطونيو كوريا استطاعت

إخضاعها لهم [٢٠]

ومما يدعو إلى الدهشة عدم اهتمام المؤرخين العمانيين بذكر تفصيلات حركة المقاومة العمانية للغزو البرتغالي للخليج العربي، فمما لا شك فيه أن البرتغاليين وجدوا مقاومة من قبل السكان المحليين رغم تفاوت القوى من ناحية الأعداد والتسليح والتدريب، في الوقت نفسه الذي نجد هؤلاء المؤرخين يهتمون بذكر تفصيلات المعارك القبلية المحلية بكل دقة . ولو وجدت المقاومة العربية نفس الاهتمام من هؤلاء المؤرخين، لتوفرت لدينا مادة علمية غزيرة توضح لنا ما بذله الأجداد من جهود دفاعاً عن ديارهم وحماية لأعراضهم وأموالهم .

ويمكننا القول أن الاحتلال البرتغالي للبلدان العربية ظل يعاني من الانتفاضات التي قامت ضده في مختلف المناطق [٢١] .

وإذا كانت الأمور قد سارت وفق هوى البرتغاليين - رغم المقاومة العربية لهم في الخليج العربي - إلا أن الأمور لم تسر على هذا النحو بالنسبة للذراع الثاني للجزيرة العربية، ألا وهو البحر الأحمر، فالسيطرة عليه واحتواء موانئه هدف استراتيجي للبرتغاليين، للقضاء على التجارة العربية، وليمنعوا كل مساعدة تأتي من دولة المماليك، وهي أكبر دولة تطل بسواحلها الطويلة على هذا البحر، ومن بعدها الدولة العثمانية، وذلك للحيولة دون إنقاذ إخوانهم في الدين والعروبة في منطقة الخليج العربي بخاصة، والجزيرة العربية بعامة .

ففي عام ١٥٠٥ استطاع البرتغاليون دخول البحر الأحمر وتهديد ميناء جدة، بل استطاع نفر منهم أن يتسلل إلى مكة [٢٢] . ولهذا السبب، إضافة إلى ما لحق بالمماليك من أضرار اقتصادية، ولاستنجاد العرب بالهند والخليج العربي بهم، قام المماليك بإعداد حملة مكونة من سبع عشرة سفينة، تقل ألفاً وخمسمائة محارب تحت قيادة حسين الكردي، الذي تقابل مع البرتغاليين في شول بالقرب

من الساحل الغربي للهند في عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ، وانتصر عليهم . ولكن حسين الكردي لم يعزز نصره هذا بملاحقة الأسطول البرتغالي الذي تمكن من لم شتاته ، وتعزيز قوته وإنزال الهزيمة بالأسطول المملوكي في معركة ديو البحرية [٢٣] ٩١٥هـ / ١٥٠٩م . وبعد هذا الفشل الذي مني به المماليك بدأ البرتغاليون يضيقون الخناق على التجارة العربية ، فمنعوا السفن المحملة بالبضائع من الوصول إلى ميناء البصرة مما كان له أكبر الأثر في إلحاق الضرر بالطريق التجاري البري عبر العراق وسوريا [٢٤] .

وعندما حاول المماليك الاستعانة بالبنادقة لتعزيز قوتهم البحرية للتصدي للبرتغاليين مرة ثانية ، فشلت محاولتهم ، فيمموا وجوههم شطر الدولة العثمانية التي لم تتردد في تقديم العون لهم [٢٥] . وبالرغم من عدم وصول هذا العون فقد أرسل السلطان الغوري في عام ٩١٦هـ / ١٥١٤م ، حملة ثانية تحت قيادة مشتركة من حسين الكردي ، وسليمان العثماني ، اتجهت أولاً إلى جدة ، ومنها إلى اليمن ، فالهند ، ولكنها أخفقت في أداء مهمتها لنشوب الحرب بين العثمانيين والمماليك وسقوط مصر في قبضة العثمانيين في عام ١٥١٧ .

حاول البرتغاليون الاستيلاء على عدن أكثر من مرة ، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً ، وإن كانوا قد نجحوا في احتلال جزيرة سقطرة عام ١٥٠٦ ، التي تتحكم في مدخل البحر الأحمر عند باب المندب ، وبذلك قطعوا الطريق البحري المباشر بين مصر والهند [٢٦] .

وفي عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م حاول البوكيرك غزو عدن ، فامتنعت عليه لمناعة تحصيناتها ، ولمساعدة آل طاهر والمماليك لها ، فتركها واتجه شمالاً لغزو مدينتي مخا والحديدة ، فقوبل بمقاومة شديدة ردته على أعقابه إلى جزيرة كمران ، حيث أعاد الكرة مرة ثانية على عدن ولكنه فشل في هذه المحاولة أيضاً ، فقفل راجعاً إلى الهند [٢٧]

وبعد أن احتل العثمانيون مصر ، وجدوا أنفسهم يسيرون في الطريق نفسه الذي رسمه المماليك من قبل في كفاحهم ضد البرتغاليين ، ألا وهو تحصين سواحل البحر الأحمر ، ولاسيما سواحل الحجاز ، وإغلاق هذا البحر في وجه السفن البرتغالية حماية للأراضي المقدسة المستهدفة ، وإن كانوا قد نجحوا في ذلك ، إلا أنهم لم يوفقوا في تحرير البلدان العربية في الخليج من الحكم البرتغالي .

وباستيلاء العثمانيين على العراق بعد انتصارهم على الفرس حلفاء البرتغاليين وقتذاك،[٢٨] تمكنوا من الوصول إلى مياه الخليج العربي في يوليو ١٥٣٤ ، والاقتراب من قواعد البرتغاليين في الخليج والمحيط الهندي ، مما أتاح لهم اتخاذ قواعد عسكرية في الخليج لاستخدامها كنقاط انطلاق ضد البرتغاليين ، إلا أنهم لم يغيروا من استراتيجيتهم الثابتة التي ورثوها عن المماليك في اتخاذ السويس القاعدة الأساسية لعملياتهم الحربية ضد البرتغاليين بالتعاون مع القواعد العسكرية المساعدة في الطور [٢٩] ، والعقبة ، والقصير ، وجدة ، وزيلع ، وسواكن، ومصوع ، وعدن .

أما الخطوة الثالثة التي أقدم عليها البرتغاليون لضرب التجارة العربية الإسلامية فهي إغلاق آخر منفذ لها في الشرق الأقصى وذلك بالستيلاء على ملقا في عام ١٥١١ ، والسيطرة على الملايو والجزر الأندونيسية ، حيث كان التجار العرب يحملون تجارة تلك المناطق إلى موانئ الخليج العربي ولاسيما البصرة ، أو إلى البحر الأحمر . لإنزالها في جدة أو السويس ، ((ولم يكن في الإمكان السيطرة التامة على تجارة المحيط الهندي ، ما لم تتوطد الهيمنة على مضيق ملقا)) [٣٠] وفي خلال عملية الغزو ، خطب البوكيرك في جنوده يستحثهم على القتال قائلاً ((الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد بإطفائنا شعلة شيعة محمد ، بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب ...... وذلك لأنني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ، ومكة

أثراً بعد عين)) [٣١]

ولا تحسبن أن تعرضنا لنشاط البرتغاليين في جنوب شرقي آسيا سيبعدنا عن منطقة الخليج العربي ، بل العكس هو الصحيح فارتباط تلك المناطق بالخليج العربي بخاصة ، والجزيرة العربية بعامة قديم ، إذ كانت السفن العربية الإسلامية تفد من الخليج العربي ومن الشحر ، وجدة ، ومصر ، وتتنافس مع السفن التجارية الآتية من الصين والهند في جاوه والملايو ، وعندما تمكن البرتغاليون من السيطرة على تجارة أندونيسيا نتيجة الصراع المرير والعداوة المستحكمة ، والحروب التي لا تنقطع بين حكام جاوه من المسلمين حديثي العهد بالإسلام ، وبين الممالك الهندوكية القديمة لم يتعرض البرتغاليون للتجار الصينيين والهنود ، ولكنهم تعقبوا التجار العرب المسلمين ، حتى خلت الساحة منهم .

وقد استنزفت قوة البرتغاليين لكثرة الحروب التي خاضوها [٣٢] ، ولتعدد الانتفاضات العربية التي قامت ضدهم ، بحيث بدأ نجمهم في الأفول في الخليج العربي في عام ١٦٢٤ بسقوط هرمز نتيجة التعاون مع الفرس وبمساعدة العمانيين . وبذلك فقد البرتغاليون أهم وأقوى نقطة استراتيجية لهم في الخليج العربي [٣٣] .

وقد استغل العمانيون الذين كانوا يخضعون لسلطة البرتغاليين في جزيرة هرمز فرصة خروج الجزيرة من قبضتهم وأعلنوا استقلالهم عن البرتغال [٣٤] ، وأخذوا يعدون العدة لطردهم أيضاً من عمان ، وكانت هذه مهمة دولة اليعارية (١٠٣٤ - ١٥١١هـ / ١٦٢٤ - ١٧٣٨م) ، وعلى وجه الخصوص الإمام ناصر بن مرشد بن سلطان (١٠٣٤ - ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م) [٣٥] الذي أدرك أن تخليص عمان من الحكم البرتغالي ، لن يتم إلا بعد توحيد بلاده التي مزقتها صراعات الحكام على السلطة وقد تم له ما أراد .

هذه من الناحية الداخلية ، أما من الناحية الخارجية ، فقد كانت الأوضاع الدولية في الخليج العربي تتجه لصالحه ، فظهور هولندا كمنافس خطير للبرتغاليين في الخليج ، والتي لحق بها البريطانيون ، قد خلق مجالاً للمنافسة الشديدة بين القوى الأوربية الثلاث للسيطرة على الخليج العربي [٣٦] ، شغل البرتغاليين عن التفرغ لمواجهة حركة التحرير في عمان .

وقد أدرك الإمام ناصر مذ البداية أن الصراع بينه وبين البرتغاليين ، هو صراع بحري في المقام الأول [٣٧] ويستوجب هذا الاهتمام بناء أسطول عربي جديد يعتبر ((أول أسطول منظم أصبح في نهاية القرن السابع عشر القوة البحرية الأولى في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي [٣٨])) .

بدأ الإمام ناصر باستعادة صحار ، وجلفار من أيدي البرتغاليين [٣٩] ، ثم اتجه بعد ذلك إلى مسقط في عام ١٦٤٣م ، التي كانت أقوى المعاقل المنيعة ، فاستعصت عليه ، نظراً لقوة حصونها ، ولإمداد الأسطول البرتغالي لها بالمؤن والذخائر عن طريق البحر ، وكذلك الحال بالنسبة لمطرح ، وبالرغم من عدم استطاعة العمانيين استرجاع المدينتين ، إلا أن ضعف قوة البرتغاليين أجبرتهم على طلب الصلح ، وقبولهم دفع جزية سنوية للإمام ، مع هدم الحصون التي شيدوها في قريات وسمد ، وتعهدهم بعدم التعرض للنشاط التجاري العماني ، وكان التسليم بهذا الشرط أول انهيار لأهم هدف جاء البرتغاليون من أجله إلى البحار العربية ، ألا وهو القضاء على النشاط التجاري العربي الإسلامي .

وفي عهد خلفه الإمام سلطان بن سيف ، تم له تحرير مسقط من الحكم البرتغالي في عام ١٦٥٨م ، لتنطوي بذلك صفحة من صفحات أول موجه استعمارية شرسة في التاريخ الحديث ، لتبدأ أخرى جديدة مليئة بتنافس قوى أوربية أكبر وأشد ، ممثلة في هولندا ، وبريطانيا ، وفرنسا .

وإذا تأملنا الأسباب التي عجلت بنهاية النفوذ البرتغالي في الخليج ، نجد انه يمكن

إرجاعها إلى النقاط التالية :

أولاً : إدراك العمانيين منذ البداية إلى أن قوة البرتغاليين تكمن في قوتهم البحرية ، وأن عليهم إذا ما أرادوا طردهم من الخليج العربي ، أن يحاربوهم بنفس سلاحهم .

ومن ثم لم يدخروا وسعاً في إعداد أسطول بحري مدرب ومنظم ، ومزود بأقوى الأسلحة والعتاد . وقد مكنهم ذلك من التغلب على أهم نقاط القوة لدى البرتغاليين .

ثانياً : اختيار العمانيين للأوضاع الدولية المناسبة لإنزال ضربتهم القاضية ضد الوجود البرتغالي في عمان . فالتنافس الذي نشب بين البرتغاليين من جهة ، وبين الفرس والهولنديين والبريطانيين من جهة أخرى ، قد ساعد العمانيين على إنزال الهزيمة بالبرتغاليين .

ثالثاً : إنه نظراً لقلة عدد سكان البرتغال ، ولاتساع امبراطوريتهم أكثر من قدراتهم جعلت استعمارهم للمناطق العربية الإسلامية يرتكز على سلسلة من القواعد العسكرية البحرية ، دون أن يجرؤا على التعمق داخل البلاد ، ومن ثم كان بقاء تلك القواعد وحمايتها مرهون بقوتهم البحرية ، فلما ضعفت تلك القوة ودخلت حلبة المنافسة قوى أخرى أعظم شأناً ، وأصلب عوداً ، انهارت تلك الامبراطورية ، ولم تقم لها قائمة .

رابعاً : إن اتباع البرتغاليين سياسة الشدة والبطش في حكمهم لتلك البلاد إضافة إلى استنزافهم لمواردها الطبيعية والبشرية ، قد زاد في كراهية الشعوب الخاضعة لحكمهم لهم ، وجعلهم دائمي الانتفاضات ، يتحينون الفرص المناسبة للخلاص من نيرهم .

خامساً : إن زوال الوجود البرتغالي من الخليج العربي ، قد أتاح للقوى العربية أن تؤكد لنفسها زعامة الخليج [٤٠] . وهذا ما سنجده بشكل واضح في القرن الثامن

عشر .

وخلاصة القول ، فإن مقاومة الخليجيين ومن ساندهم من القوى العربية الإسلامية طوال فترة الاحتلال البرتغالي ، ومحاولاتهم المتكررة للخلاص منه، قد منحتهم خبرة ودراية مكنتهم من الوقوف على نقاط القوة والضعف في عدوهم ، فتجنبوا نقاط القوة ، واستغلوا نقاط الضعف ، فلم يهنوا ولا استكانوا إلى أن قيض الله لهم القيادة الحكيمة الواعية التي أخذت بيدهم إلى طريق النصر .

هذا وأسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويرزقنا السداد في القول والعمل والحمد لله رب العالمين .

الهوامش :

١- بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص١٠ .

٢- نفسه ص ١٥ .

٣- عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا - دراسة وثائقية ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ ص٢٥ .

٤- محمد مصطفى زيادة ، مصر والحروب الصليبية ، ص١٦ .

٥- بانيكار ، المرجع السابق ص٣٧ .

6) Fisher , S.N, The middle East - A history , N.Y. Alfred A . Knop , Inc , 2 nd ed . 1968 , P . I43

7) Strand , J , Portuguese Period in East Africa , P . 39

8) Philips , Wendell , Oman , A history , London . 1967

٩ جمال زكريا قاسم ، الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي ، أصول المشكلة وتطورها التاريخي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد العشرون ١٩٧٣م .

١٠- ويلسون أرنولد ، الخليج العربي ، ترجمة عبد القادر يوسف ، مؤسسة فهد المرزوق الحفية ، الكويت ص٢٠٨

١١- سيد نوفل ، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ط٢ ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦١ص٤٢ .

١٢- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٤٧ ص١٦

١٣- نفسه ص١٧ .

١٤- ويلسون ، المرجع السابق ص ٢١٣ .

١٥- سيد نوفل ، المرجع السابق ص٤٢ .

١٦- محمود علي الداود ، محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٤ ص١٨ .

١٧- ويلسون ، المرجع السابق ص٢١٨ .

١٨- صحتها (ريسوت) كما وردت بكتاب محمد السالمي ، وناجي عساف ، عمان ، تاريخ يتكلم ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م ص٨٨ .

١٩- عبد الله بن صالح المطوع ، عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان ، مخطوط ورقة ١٧ .

٢٠- سيد نوفل ، المرجع السابق ص٤٢ .

٢١- نفسه .

٢٢- ابن إياس ، محمد بن أحمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطابع الشعب - القاهرة ١٩٦٠ ١٩١/٤ .

٢٣- نفسه ٤ / ٣٠٨ .

٢٤- محمد عبد المنعم الراقد ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٦٨ ص١٢٢ .

25) Kammerer , La Mer Rouge , L'Abyssinie et L'Arabie Depuis :'An tiquite , 2 Vols . Le Caire 1920 . T . 2 . P . I44 62 Stripling , The Ottoman Twrks and the Arabs , Urbana Oxford , 1942 , P . 28

٢٧ غسان محمد الرمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، مطابع دار العلم ، جدة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ ص١٤٢ .

٢٨- صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص١٨ .

٢٩- وثائق دير سانت كاترين بسيناء ، وثيقة رقم ١٧٠ بتاريخ ٢٠ رجب ١١١٢هـ / ١٧٠٨م .

٣٠- بانيكار ، المرجع السابق ص٤٨ .

٣١- نفسه .

٣٢- محمود علي الداود ، المرجع السابق ص١٩ .

33) Foster , England's Question in the Eastern Trade , London , 1933 , P . 79 .

٣٤ جمال زكريا قاسم ، الادعاءات الإيرانية ... ص١٦٥ .

٣٥- حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين المبرهن سيرة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر محمد مرسي

، ص٢٥٠ .

٣٦- لوريمو ، دليل الخليج ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، ١٦/١ .

٣٧- جمال زكريا ، المرجع السابق ص١٦٥ .

٣٨- محمود علي الداود ، المرجع السابق ص١٨ ، ١٩ .

39) Badger , G . P , History of the Imans and Sayyids of Oman , by Salil Bin Razek from A. D. 66l - 1856 , P.

٤٠- جمال زكريا ، المرجع السابق ص١٦٨ .

الحملة العثمانية على شرقي الجزيرة العربية عام ١٨٧١م ودورها في تشكيل القوى السياسية في المنطقة

د . فائق حمدي طهبوب
جامعة الإمارات العربية المتحدة

استندت الدولة العثمانية في نزاعها مع بريطانيا في الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر، إلى حقوقها التاريخية بالسيادة الفعلية على مناطق الخليج العربي، وكانت الأهداف العثمانية في الخليج العربي تختلف اختلافاً كبيراً عن أهدافها في بقية أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، فقد احتفظت بقوة كبيرة في منطقة الخليج، لكنها لم تحتفظ بأسطول بحري ، وكان هدفها حماية المناطق المحيطة (باسطنبول) وهي البلقان ، وشرق أوربا ، أما بالنسبة للاقليم العربي في آسيا فكانت اهتماماتها موجهة إلى العراق ، وبلاد الشام ، بينما كانت الجزيرة العربية والخليج مناطق هامة للمحافظة على نفوذها في تلك المناطق من ناحية ، ومنطقة لإقلاق النفوذ البريطاني من ناحية ثانية .

وقد اعتمدت الدولة العثمانية بوجودها في منطقة الخليج على أسس تاريخية ترجع إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر ، حينما قام بعض القباطنة العثمانيين خلال صراعهم ضد البرتغاليين ، بمحاولة إقرار تلك السيادة [1] ، فبعد الانتصارات العسكرية التي حققتها الدولة العثمانية ضد الصفويين ، واحتلالها لمدينتي بغداد عام ١٥٣٤م ثم مدينة البصرة ، حدثت تطورات هامة شهدتها منطقة الخليج العربي ، إذ انتقلت المواجهة العثمانية البرتغالية إلى هذه

المنطقة ، ومع ذلك فإن الجهود العثمانية لصد البرتغاليين لم تسفر عن نتائج إيجابية [٢] ، فقد كانت اهتمامات الدولة العثمانية موجهة أيضاً إلى الحجاز ، حيث وضعت حامية في جدة إذ أن تواجدها معنوياً كان يهمها كثيراً أثناء صراعها مع البرتغاليين .

وكانت أهداف العثمانيين في منطقة الخليج تختلف عن أهداف بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الأخرى ، فلم يكن للعثمانيين المصالح الاقتصادية والاستراتيجية التي كانت لتلك الدول ، وإنما كانت هناك صلات بين العثمانيين وبين سكان هذه المناطق ، هذه الصلات هي الإسلام ، والنظرة الإسلامية العامة التي كان يعتنقها الناس ، فكانت هناك فكرة الأمة الإسلامية الواحدة ، بغض النظر عن الشعارات السياسية ، التي كان بعض السياسيين ، يحاولون استغلال هذه الفكرة التي كانت موجودة بالنسبة للحاكم والمحكوم [٣] .

وكان للانشقاق المذهبي بين القوتين الإسلاميتين - الدولة العثمانية والدولة الصفوية - وتفوق البرتغاليين في المجال البحري ، أثر كبير في إضعاف السيادة العثمانية في الخليج العربي ، وهذا ما أفسح المجال للانجليز منذ بداية القرن السابع عشر ، للتغلغل تجارياً ثم سياسياً وعسكرياً في سواحل الخليج ، وتمكنوا من تدعيم سيطرتهم ونفوذهم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فهزموا القواسم حلفاء الوهابيين عامي ١٨٠٥ ، ١٨٠٩ واستطاع الجنرال الإنجليزي جرانت كير أن يستأصل شأفة القواسم عام ١٨٢٠ وان يفرض على زعماء الساحل العماني - الذي عرف منذئذ - بالساحل المتهادن - أو الساحل المتصالح معاهدة السلام العامة في يناير ١٨٢٠ [٤] ، ثم راح النفوذ البريطاني يُحكِمُ تدريجياً قبضته على الخليج حين استطاع فرض معاهدة السلام البحري الدائم عام ١٨٥٣ [٥] ، وأصبحت أهداف بريطانيا في المنطقة ضرب القوى المحلية العربية ، وتفتيت شملها ، وضرب القوى الأخرى الواقعة على سواحل الخليج من فارسية وعثمانية،

وقد طبقت بريطانيا نظام الحماية ، الذي من أهم مظاهره الإشراف على السياسة الخارجية للمنطقة الموضوعة تحت الحماية ، ولكن بريطانيا لم تشأ أن تسمي هذه الاتفاقيات صراحة بهذا الإسم بل وصفتها بأنها الاتفاقات التي تجعل العلاقات مقصورة على بريطانيا (٦) .

وعندما ظهرت الحركة الوهابية في نجد أتت بمفاهيم جديدة تشكل خطراً على فكرة الخلافة العثمانية ، ومما زاد الأمر إثارة أن السعوديين استطاعوا إدخال منطقة الأحساء التي تطل على الخليج العربي ضمن أقاليم دولتهم عام ١٧٩٥ (٧)، مما أثار حفيظة الدولة العثمانية ، فحاولت استرجاعها من السعوديين أكثر من مرة ، ولكنها فشلت في ذلك . وفي عام ١٨١٨ لجأت الدولة العثمانية إلى عاملها في مصر (محمد علي باشا) الذي استطاع القضاء على السعوديين واحتلال عاصمتهم (الدرعية) كما احتل المصريون الأراضي السعودية المطلة على الخليج العربي والمعروفة بالأحساء ، إلا أن القوات المصرية اضطرت إلى الانسحاب في يوليو ١٨١٩ تحت ضغط الدولة العثمانية تاركة أمر الإقليم لشيوخ بني خالد . ثم شهدت المنطقة صراعاً عنيفاً بين القوى المحلية حتى عام ١٨٣٩ حين عادت القوات المصرية مرة ثانية فاحتلت الأراضي السعودية ، ووصل قائد الحملة (خورشيد باشا) إلى شواطئ الخليج العربي ، ومرة ثانية اضطرت القوات المصرية إلى الانسحاب في أكتوبر ١٨٣٩ (٨) تحت ضغط قوتين الأولى بريطانيا التي رأت في الوجود المصري تهديداً لنفوذها في المنطقة ، والثانية الدولة العثمانية بنداءاتها المتكررة باسم العلاقات الدينية إثر الهزيمة التي ألحقتها جيوش (محمد علي) بالجيوش التركية في معركة (نزيب) ، وكانت الدولة العثمانية تشعر بأن وجود القوات المصرية في الأحساء يشكل خطراً جسيماً على وجودها في العراق ، وقد أجبر فعلاً ((محمد علي)) على التخلي عن سوريا ، وعن توسعه في الجزيرة العربية (٩).

وكان العثمانيون قد بدأوا يدركون أن مستقبل وجودهم في البلقان أصبح مشكوكاً

فيه ، وأن الدول الأوربية مصممة على إخراج الأتراك نهائياً من هناك ، لذلك أخذوا في تحويل اهتمامهم إلى الولايات الشرقية في البلاد العربية ، وبدأوا من جديد يفكرون في العودة إلى المنطقة ، بعد غفلة طويلة ، فأصدر الباب العالي فرماناً بإسناد ولاية جدة وتوابعها نجد والأحساء إلى والي العراق ((علي رضا)) الذي لم يحاول تغيير الأوضاع المحلية داخل الجزيرة العربية ، فترك ((خالد بن سعود)) أميراً على نجد وترك ((أحمد بن مبارك)) يدير شئون الأحساء [10] ثم أصدرت الدولة العثمانية فرماناً سلطانياً عام ١٨٤٧ يسمح بتفتيش السفن التركية التي يشتبه بأنها تعمل في القرصنة ، كما أمرت واليها في العراق بتنفيذ القرار في منطقة الخليج ، لكن بريطانيا أدركت أن هذا التصرف سيؤثر حتماً على مركزها السياسي في المنطقة ، لذلك قررت أن تنتزع من الدولة العثمانية حقها في التفتيش ، واستطاعت تنفيذ ذلك ، حتى في المناطق التي تقع تحت السيادة العثمانية [11] واعتبرت بريطانيا أن النفوذ العثماني محدد فقط في الداخل دون الساحل وصرح ((هنل)) المقيم البريطاني في الخليج في ذلك الوقت أن الهدف الحقيقي من تصرف الدولة العثمانية هو توطيد نفوذها على ساحل الخليج أكثر منه على قمع تجار القرصنة [12] ، ويظهر هنا تراجع الدولة العثمانية عن اهتمامها بأمور بلدان الخليج في تلك الفترة فتركت لبريطانيا القيام بدور شرطي المرور في مياه الخليج العربي ، كما أنها تركت الباب مفتوحاً لتدخل الطامعين في شؤون المنطقة أمثال بريطانيا وفارس [13] ، ويمكن القول بأن التفكك السياسي على الساحل العربي للخليج قد ساعد على الإسراع في توطيد النفوذ السياسي البريطاني في المنطقة .

وبعد انسحاب القوات المصرية استطاعت الدولة السعودية أن تفرض سيطرتها على الخليج العربي ، إذ حقق الإمام ((فيصل بن تركي)) (١٨٤٣ - ١٨٦٦) نجاحاً كبيراً في استعادة جميع الممتلكات التي فقدها السعوديون ومنها الأحساء ، واتخذ

من الهفوف قاعدة للإغارة على بقية الإمارات العربية ، فهدد البحرين ، وأجبر شيوخها على دفع الجزية ، ثم توجه إلى قطر ، وهنا وقفت بريطانيا إلى جانب شيوخ البحرين لمساعدتهم ضد الإمام فيصل الذي حاول جهده ضم البحرين نهائياً إلى حكمه ، وبدأ النزاع السعودي البريطاني مما اضطر فيصل إزاء ذلك أن يعقد صلحاً مع شيخ البحرين عام ١٨٥١ ، وعندما عاد فيصل مرة ثانية لغزو الجزيرة منتهزاً فرصة الصراع الداخلي في البحرين ، عادت البحرية البريطانية لمعارضته ووجهت إنذاراً شديداً إلى قائد الجيش السعودي ، بل قامت فعلاً بضرب ميناء الدمام عام ١٨٥٩م ، ولما كان فيصل يعتبر نفسه في بعض المناسبات تابعاً للعثمانيين ، لذلك احتجت حكومة الأستانة على ضرب الأسطول البريطاني للدمام ، وتكرر الموقف مرة ثانية عندما قصفت السفن البريطانية موانئ ساحل الأحساء بالمدفعية في نوفمبر ١٨٦١ [١٤] ، مما أثار السلطات العثمانية في العراق على أساس أن الدمام تابعة للأمير فيصل ، الذي تعتبره قائمقام نجد وتابعاً من أتباع الباب العالي ، فأرسل أحمد توفيق باشا والي بغداد رسالة إلى ((كمبول)) القنصل البريطاني في بغداد يحتج فيها على تدخل السلطات البريطانية في الممتلكات العثمانية [١٥] .

وقد أثار اهتمام العثمانيين بالخليج مخاوف الإنجليز فقاموا بقصف قلعة الدمام في فبراير ١٨٦٦ احتجاجاً على سياسة الوهابيين في عمان [١٦] فلجأ الأمير السعودي ((عبد الله بن فيصل)) إلى والي العراق بدوره احتجاجاً إلى (كمبول) طلب إليه أن ينقل احتجاجه إلى حكومة الهند ، وأمره بعدم تكرار الاعتداء على الأراضي العثمانية [١٧] ، لكن بريطانيا رفضت الاحتجاج وادعت أنها تتعامل مع الأمراء السعوديين على أنهم أمراء مستقلون لا اتباع للدولة العثمانية ، وقد حذر ((كمبول)) في رسالته إلى سفير بريطانيا في الأستانة عن عزم الدولة العثمانية تنفيذ سياسة جديدة تهدف إلى تقوية الرابطة مع بعض الموانئ على الساحل

الغربي للخليج ، لكن هذا الموقف الجديد من بريطانيا يتناقض كلياً مع اعترافها السابق بأن الأمير السعودي تابع للدولة العثمانية ، فقد اعترف كمبول في رسالته إلى السفير البريطاني في الأستانة وإلى حاكم الهند بأنه لا يستطيع إنكار أن الأمير السعودي تابع للدولة العثمانية وأن المنطقة الممتدة من القطيف إلى الدمام تابعة للأمير فيصل [١٨] .

وكانت بريطانيا قد كلفت المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل ((بيلي)) بزيارة الإمام فيصل عام ١٨٦٤ في محاولة للتباحث حول المصالح الخاصة بكل من الطرفين في منطقة الخليج ، وإقامة علاقات صداقة مع الحاكم السعودي ، خاصة وأن قوة الإمام فيصل قد بلغت الذروة ، فقد ذكر ((بيلي)) أن أملاكه تضم أراضي جزيرة العرب من الكويت عبر القطيف ورأس الخيمة وعمان ورأس الحد، وقد ذكر ((بيلي)) في تقريره إلى حكومة بومباي بأن الدولة السعودية تسيطر على ساحل الخليج العربي ، وعلى ساحل خليج عمان ، وأنها تتلقى الأتاوات نقداً وعيناً من رؤساء البحرين ، وأبو ظبي ، ودبي ، وأم القيوين ، وعجمان ، والشارقة، ورأس الخيمة ، وسلطنة مسقط [١٩] . وقد توفي الإمام فيصل في ديسمبر ١٨٦٥ ، واستلم الأمير عبد الله الحكم مكانه ، وفي اعتقادي أن قصف الأسطول البريطاني للدمام عام ١٨٦٦ كان إنذاراً للسعوديين بأن بريطانيا تقف من سياستهم التوسعية في الخليج موقفاً معادياً ، وأنها على استعداد لتنفيذ معارضتها تلك القوة إذا لزم الأمر ، لذلك أسرع الأمير ((عبد الله)) لاسترضاء بريطانيا خاصة وأن والي بغداد (نامق باشا) لم يقدر المساعدة المطلوبة له للوقوف أمام اعتداءات الإنجليز، بعد أن أكد له بأنه يعتبر سواحل بلاده جزءاً من الدولة العثمانية ، لذلك يعلن ((عبد الله)) عن رغبته في صداقة بريطانيا وتعهده باحترام مصالحها في المنطقة ، وتم توقيع معاهدة صداقة بين الطرفين في ٢١ أبريل ١٨٦٦ [٢٠] .

وبعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ والتي تم بواسطتها إيجاد خط ملاحي مباشر

بين القسطنطينية والبصرة ، فسهل ذلك اتصال الأسطول العثماني بقطعاته في الخليج العربي [٢١] ، ورأى السلطان العثماني مدى اهتمام الدول الأوربية بدول المشرق العربي ، في الوقت الذي أعاد فيه العثمانيون بناء جيوشهم على أسس حديثة ، فأصبح الجيش العثماني جيشاً نظامياً مجهزاً بالأسلحة الحديثة ، واستطاع السلطان إخضاع معظم المقاطعات العثمانية التي خرجت عن ولائها للدولة ابتداء من عام ١٨٦١ [٢٢] ، بالإضافة إلى أن السلطان العثماني كان يعتبر نفسه وارثاً للخلافة العربية الإسلامية ، وهذا يعني ملكيته لشبه الجزيرة العربية ، لذلك أخذ يضاعف من حامياته في الحجاز وقام بحملة على اليمن ، وعين مدحت باشا والياً على العراق ، وأخذ يبسط نفوذه في مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية [٢٣] .

ولابد هنا من القول بأن حكومة بغداد العثمانية استمرت في اتباع سياستها السلبية المقصورة على الاحتجاجات الرسمية والمفاوضات ، مما أعطى لبريطانيا فرصة استغلال الظروف ، وتطبيق سياستها الرامية إلى استعمار ساحل عمان ، وتقسيمه إلى كيانات صغيرة هزيلة ، ويذكر جمال زكريا ((بأن الدولة العثمانية انصرفت عقب الأزمة المصرية إلى محاولة تقوية نفوذها داخل شبه الجزيرة العربية بينما ظهر إغفالها للساحل واضحاً ، كما يرجع تهاون الدولة العثمانية ، واعتمادها فقط على الاحتجاجات ، هو المركز القوى الذي كانت تتمتع به انجلترا في البلاط العثماني ، والذي تحصلت عليه نتيجة لما منحته للدولة العثمانية من قروض عقب حرب القرم [٢٤] ، وهذا الموقف ترتب عليه استمرار التفكك السياسي على الساحل الغربي للخليج بالرغم من وجود قوة عثمانية كبيرة بعد ذلك تمثلت في حملة مدحت باشا .

كان تعيين ((مدحت باشا)) والياً على العراق حدثاً هاماً بالنسبة للعلاقات العثمانية البريطانية في الخليج ، وكان ينتمي إلى دعاة الإصلاح في الدولة

العثمانية وعرف عنه محاولاته المتعددة لإصلاح نظام الدولة ودستورها ، وكان يمثل فريق المصلحين الذين يرون ضرورة تثبيت السلطة الفعلية في جميع المناطق التي تخضع للدولة إسمياً ، وإلى الاهتمام بالأقطار الأسيوية في الامبراطورية ، لكي يعوضوا ما خسرته الدولة من مناطق واسعة في البلقان ، لذلك أخذ (مدحت باشا) على عاتقه منذ توليه ولاية بغداد ، مدَّ سيطرة الدولة العثمانية على بلدان الخليج ، لتشمل الكويت ، وقطر ، والبحرين ، ولكي يحل النفوذ العثماني المباشر محل السعوديين في حكم الأحساء ، ونجد [٢٥] ومسقط ، والقبائل العربية في جنوب الجزيرة عموماً [٢٦] ، وكان يهدف أيضاً إلى منافسة النفوذ الإنجليزي في منطقة الخليج واضعاً في اعتباره مساندة سكان المنطقة له لأن معظمهم من المسلمين السنة ، فهم رعايا أصليين للخليفة العثماني [٢٧] .

وقد وضع ((مدحت باشا)) في اعتباره أن يتولى العراق مسؤولياته في الخليج العربي بأن يصبح قاعدة بحرية للسيطرة على مياه الخليج العربي الذي يتنافس عليه الفرس والإنجليز ، بينما كانت المشيخات العربية العديدة المطلة على الخليج لا تقوى على ردَّ عادية الإنجليز والفرس ، ومن هنا أصبحت منطقة الخليج العربي منذ قيام حملة مدحت باشا من أكثر المناطق إثارة للجدل بين بريطانيا والعثمانيين، باعتبار أنها تمثل المنطقة الفاصلة بين النفوذ البريطاني والعثماني [٢٨] .

وبعد وفاة الإمام ((فيصل بن تركي)) وقع خلاف كبير بين أبنائه الأربعة [٢٩]، وقد أدى ذلك إلى إضعافهم جميعاً ، وكانت هذه فرصة ذهبية استفادت منها بريطانيا ، فبعد أن كانت الدولة السعودية قوة يحسب لها حساب في السياسة العامة للخليج ، أصبحت نتيجة للحروب الأهلية بين ((عبد الله)) و ((سعود)) دولة ضعيفة لا أثر لها على ما يجري في منطقة الخليج ، ومضت بريطانيا في تطبيق سياستها في المنطقة وتحقيق أهدافها في السيطرة على ساحل الخليج من الكويت إلى مسقط [٣٠] ، وقد استغل ((مدحت باشا)) هذا الصراع على السلطة ،

وخاصة عندما استطاع (سعود) إقصاء أخيه عن عرش الرياض، فراح (عبد الله) يستنجد بوالي بغداد الذي بدأ على الفور بالاستعداد لإرسال حملة عسكرية إلى الأحساء ونجد، هدفها الظاهري إعادة عبد الله للحكم، فقد اعتبرت الدولة العثمانية (عبد الله) حاكماً شرعياً معيناً من قبلها كقائمقام لنجد وتوابعها، والمعروف أن فيصل بن تركي كان يعتبر قائمقام عثمانياً، وأن السلطات البريطانية اعترفت بذلك كما سبق وأن أشرنا إليه، وهكذا يمكن اعتبار ابنه (عبد الله) وريثه في الحكم تابعاً للدولة العثمانية من وجهة النظر العثمانية، كما أن فيصل كان يدفع مبلغاً من المال لشريف مكة الذي كان بدوره تابعاً رسمياً للدولة العثمانية، وأما عن تعيين (عبد الله) كقائمقام عثماني بفرمان رسمي فالمرجح أنه تم بعد مراسلته لمدحت باشا، وذلك لكي يبرر مدحت تدخله في نجد والأحساء لإنقاذ عامل من عمال الدولة استنجد به [٣١].

وترجع عوامل التغيير في السياسة العثمانية في منطقة الخليج العربي إلى عوامل أساسية متعددة منها زوال أقوى شخصية سعودية، وهي فيصل بن تركي [٣٢] ونشوب الخلاف بين أبنائه، وتصدع الدولة السعودية الثانية، مما شجع العثمانيين على استغلال فرصة ملئ الفراغ، لاسيما وأن بريطانيا أخذت تتبوأ مكانة مرموقة في أرجاء الخليج العربي، وأخذت تعمل على مد نفوذها إلى داخل شبه الجزيرة العربية [٣٣]، وهذا سيترك أثراً سيئاً على السلطة العثمانية في العراق والحجاز، ورأت الدولة العثمانية أن تسيطر على الممتلكات السعودية خوفاً من أن تعود الدولة السعودية الوهابية إلى سابق قوتها، وما قد يتبع ذلك من تهديد السعوديين للمقاطعات العثمانية في الحجاز والشام والعراق، وإخضاع سكان الخليج لدعوتهم، وكان مدحت باشا من دعاة الإصلاح، ويريد تثبيت سلطة الباب العالي في الولايات العربية، لأن ذلك يمثل عنصر استقرار لعظمة الدولة بحكم الرابطة الدينية [٣٤]، كما أن بسط نفوذ الدولة على المقاطعات التابعة لها

سيعوضها عن الخسائر الإقليمية التي توالت عليها في البلقان ، هذا بالإضافة إلى وجود جيش عثماني جديد مجهز بالأسلحة الحديثة .

علمت السلطات البريطانية بأن هناك استعدادات عسكرية عثمانية للقيام بعمليات بحرية في الخليج ، وكان مدحت باشا يستعد لحملته بتكتم شديد ، وحذر أتباعه من وصول المعلومات إلى الإنجليز ، إلا أن السلطات البريطانية أخذت تستقصي الأخبار ، ولكنها اقتنعت بأن لا أساس من الصحة لتلك الإشاعات ، وأكد هذه المعلومات كل من السفير البريطاني في القسطنطينية ((اليوت)) ، والقنصل البريطاني في بغداد ((هربرت)) ، وذكر السفير البريطاني في رسالته إلى وزير الخارجية بتاريخ ٢٢ فبراير ١٨٧١ بأنه تأكد من الصدر الأعظم ((عالي باشا)) بأنه لا نية للدولة العثمانية في احتلال أي مركز في الخليج ، أو القيام بأي حملة عسكرية ، وأن وجود سفينتين حربيتين عثمانيتين في مياه الخليج ليس لذلك أي علاقة بما يشاع من وجود حملة تعد في بغداد ، لإرسالها إلى الأحساء [٣٥] .

ولكن السلطات البريطانية تبين لها في أواخر شهر مارس ١٨٧١ أن الباب العالي يعتزم إرسال حملة إلى نجد لإعادة الأمير ((عبد الله)) إلى الحكم ، فأرسل (اليوت) برقية في أول أبريل ١٨٧١ إلى الخارجية البريطانية يعلمها فيها بأن الباب العالي وافق على طلب المساعدة التي كان قد تقدم به (عبد الله بن فيصل)، وفي نفس البرقية أكد ((اليوت)) أنه حصل من الصدر الأعظم على تأكيدات جديدة بأن العثمانيين لا ينوون القيام بعمليات بحرية في الخليج ، وأن الحملة ستنقل إلى وجهتها بحراً ، لصعوبة إرسالها عبر الصحراء [٣٦] .

وبمجرد أن عرفت أخبار الاستعدادات للحملة العثمانية ، انتاب السلطات البريطانية قلق شديد ، وأصبحت مهمتها أن تعرف قبل كل شيء ما إذا كانت الحملة ستتعرض لاحتلال البحرين ومسقط وساحل الجزيرة العربية ، خاصة ، وأن مدحت باشا كان قد صرح في مارس عام ١٨٧٠ تصريحاً خطيراً اعتبر فيه

البحرين تابعة لنجد ، وأنها بدورها تابعة للدولة العثمانية [٣٧] .

ويذكر ((كيلي)) أن مدحت باشا نشر في يونيو ١٨٧٠ في العدد الاخير من مجلة بغداد الرسمية أن البحرين ، وثماني مدن في ساحل عمان ، تعتبر جزءاً من إقليم نجد [٣٨] . ويظهر هنا أن ((مدحت باشا)) أراد أن يلفت انتباه الباب العالي إلى ما يجري في نجد وما وراءها من الأقاليم ، وأنه يرغب في بسط نفوذه الحقيقي على البحرين ومسقط والقبائل الأخرى تحت ستار المساعدة التي سيقدمها إلى الأمير عبد الله . الذي يعتبره قائمقام نجد . ويبدو أن الحكومة العثمانية لم تتحمس رغم ذلك لإرسال حملة كبيرة على نطاق واسع ، خشية أن تتحمل أعباء مالية بدون عائد ، لذلك أوضح مدحت باشا للباب العالي بأنه من الممكن تحصيل موارد كبيرة من الأحساء والقطيف تقدر وحدها بمائتي ألف ريال [٣٩] .

لقد أبرق القنصل البريطاني في بغداد إلى ((اليوت)) في ٢٢ أبريل ، محذراً من أنه لو نجحت حملة نجد فإنها ستسير لاحتلال البحرين ومسقط وساحل الجزيرة العربية [٤٠] إلا أن اتصال اليوت بالمسؤولين العثمانيين ، وبخاصة الباب العالي أكد له أن الحملة لن تتعرض لتلك البلدان [٤١] .

وكان مدحت باشا مقتنعاً بأن السلطات البريطانية تقدم المساعدات لسعود بن فيصل لتركيز أقدامه في نجد والأحساء ، حتى تسيطر سيطرة تامة على مياه الخليج خاصة بعد ان عقدت مع قطر معاهدة ١٨٦٨ ، وبذلك أصبحت مسقط ، وقطر ، والبحرين ترتبط بمعاهدات مع انجلترا ، ولم يبق أمامها إلا سواحل الأحساء ، وإمارة الكويت ، لكن الباب العالي لم يكن متأكداً من أن بريطانيا تقدم الأسلحة لسعود وليس لديه الأدلة الملموسة على ذلك ، ولهذا وحتى لا يعطي مدحت باشا الفرصة للإنجليز أعلن صراحة في أبريل ١٨٧١ أن حملة ستزحف لتثبيت ((عبد الله)) ، وإنهاء أعمال ((سعود)) العدوانية [٤٢] . وفي ظني أن مدحت باشا كان يفكر بأنه سيجدها فرصة مناسبة في المستقبل لتوسيع نفوذ بلاده

في الخليج عن طريق تثبيت سلطته في الأحساء أولاً ، فقد كان ينكر استقلال تلك الإمارات ويعتبر بلدان الخليج عثمانية وليس لبريطانيا الحق في السيطرة عليها، أما ((عالي باشا)) الصدر الأعظم فقد أكد ((لبيساني)) السكرتير الأول بسفارة الإنجليز في العاصمة العثمانية في ١٧ مايو ١٨٧١ أن ((عبد الله)) يحكم نجداً بصفته موظفاً عثمانياً (قائمقام) وبناء على فرمان سلطاني ، وأن هدف الحملة هو مصالحة الأخوين ((عبد الله وسعود)) [٤٣] ، وحتى يطمئن الإنجليز أوضح بأنه ليست هناك نوايا لمد السيطرة العثمانية على البحرين ومسقط . وقد تعمد الصدر الأعظم أن يحذف اسم قطر من بين الأقطار التي تنوي الحملة تجنبها ، وذلك على أساس أن قطر أكثر ارتباطاً بالمجموعة الداخلية التي تشمل نجد والأحساء [٤٤] .

ومما لا شك فيه أن السلطات البريطانية كانت تعمل جاهدة على فرض سيطرتها على شيوخ وحكام المنطقة ، منطلقة من مقولة أنها السلطة الوحيدة التي تستطيع حماية مصالحهم وبخاصة تجارتهم ، وموسم الغوص ، ومن جهة أخرى كانت تهدد هؤلاء الحكام وتخيفهم من الحكم العثماني الذي يتسم بالطابع العسكري ، وأنه حكم مستبد يثقل كاهلهم بالضرائب الباهظة ، لذلك وجد ((لويس بلي)) المقيم البريطاني في الخليج أن الفرصة سانحة لكي يطمئن شيوخ الإمارات المتعاهدة مع بريطانيا بأن الحملة العثمانية لن تتعرض لهم ، وراح يطلب منهم تزويده بالعقود المبرمة بينهم وبين بريطانيا ؛ لكي يطلع عليها الباب العالي ومدحت باشا ، ثم توجه ((بلي)) إلى البحرين ، وأكد لشيخها أن بريطانيا ستفي بتعهداتها بحماية البحرين ما دام شيخها مراعياً لمواد معاهدة ١٨٦١ [٤٥] ، وكانت البحرين هي محور النفوذ البريطاني في المنطقة ، ولذلك وفي مثل هذه الظروف أصبح من الضروري أن يحكم البحرين حاكم تطمئن إليه السلطات البريطانية ، لذلك قامت بالتدخل العسكري لتنحية الحاكم بحجة مخالفته للتعهدات السابقة

، وجاءت بالشيخ عيسى بن علي آل خليفة ليتولى الحكم [٤٦] . ولما علم ((مدحت باشا)) بالموقف البريطاني وبأن السلطات البريطانية أعلنت على لسان ((بلي)) بأنها مسؤولة عن حماية مصالح صيادي اللؤلؤ ، قال إن البحرين ليست الآن موضوع بحث ، وإنما الهدف هو استخلاص الأحساء من ((سعود)) ، وإعادتها إلى ((عبد الله)) ، وأضاف بأن من أهداف حملته أيضاً وواجباتها حماية مصالح صيادي اللؤلؤ [٤٧] محاولاً التقرب من شيوخ وحكام المنطقة .

بالغ الإنجليز كعادتهم في تصوير أطماع الدول الأخرى بالخليج حتى ولو كان الأمر متعلقاً بدولة غير أجنبية عن المنطقة كالدولة العثمانية ، إذ أن كثيراً من عرب الخليج كانوا يسلمون لهم بزعامة العالم الإسلامي ، وكان اهتمام السلطات البريطانية موجه إلى ضرورة امتناع رؤساء القبائل في الخليج ، والذين تشملهم معاهدة السلم البحري من الانضمام إلى أي من الفريقين المتصارعين ، وكان الصدر الأعظم قد اعلن أن الباب العالي لا يعترف بمعاهدة السلم البحري ، وهو غير ملزم بما جاء فيها ، ويمكن أن لا يتردد في قبول خدمات أي حاكم من حكام الخليج يعرض نفسه على العثمانيين [٤٨] ، ولذلك أسرعت وزارة الخارجية البريطانية بتزويد سفيرها في الأستانة بنسخ من الاتفاقيات المبرمة مع شيوخ الخليج ، وأوضحت للباب العالي بأن الحكومة البريطانية تنوي أن تلزم الشيوخ بتعهداتهم [٤٩] ، ويظهر هنا أن السلطات البريطانية كانت قلقة جداً من محاولات الدولة العثمانية تجديد نشاطها ومد نفوذها إلى أطراف امبراطوريتها ، وكانت قطر مثلاً واضحاً ، وخطراً ماثلاً أمام السلطات البريطانية ، فالشيخ محمد آل ثاني حاكم قطر كان يميل إلى التعاون مع الانجليز بينما ابنه قاسم المرشح لاستلام الحكم ، والمشارك فعلاً مع والده في إدارة السلطة كان يرحب بقدوم العثمانيين [٥٠] .

غادرت الحملة العثمانية البصرة في ٢٠ أبريل ١٨٧١ تحت قيادة ((نافذ باشا)) ، وتكونت من خمسة طوابير من الفرسان ورجال المدفعية ، وقد سعى ((مدحت باشا)) إلى استخدام القوى المطلة على الخليج في حملته فاصطحب معه شيخ المنتفق ناصر السعدون [٥١] وفرسانه الذين يقدرون بألف فارس ، واتجهت الحملة إلى الكويت فقدم لها شيخ الكويت ((عبد الله الصباح)) مساعدات سخية، وقد رافق الحملة الشيخ ((مبارك بن الصباح)) شقيق الحاكم على رأس قوات كبيرة، كما قدمت الكويت أكثر من ثمانين سفينة من سفنها لاستخدامها في الحملة [٥٢] لنقل المعدات إلى ساحل الأحساء ، بالإضافة إلى سفن الأسطول العثماني المسلحة بالمدافع الكبيرة . وقد وصلت الحملة إلى أول محطة إنزال وهي (رأس التنورة) في ١ مايو ١٨٧١ ، ثم بدأت القوات تتقدم نحو القطيف لكي تلتقي مع القوات الزاحفة براً ، وكان ((مدحت باشا)) قد طمأن سكان المنطقة وحدد لهم أهداف الحملة مما دفع السكان إلى التعاون مع قيادة الحملة ، بعد أن كانوا يضمرون العداوة لهم [٥٣] وقد حاول قائد الحملة إقناع القائد السعودي ((السديري)) بالاستسلام لكنه فشل في محاولته فحاصره في القلعة ، فانسحب القائد السعودي وترك المدينة تستسلم للقوات العثمانية التي تم رفع العلم العثماني عليها وأطلق عليها اسم لـواء نجد [٥٤] وبـعـد ذلك بـدأت المدن السـعـوديـة تسـقـط الـواحـدة تـلـو الأخـرى ، فاستولى العثمانيون على قلعة ((عنك)) ثم الدمام [٥٥] ، وأخذت القوات العثمانية تركز وجودها على الساحل قبل أن يتجهوا إلى الداخل (الهفوف والرياض) حتى يحافظوا على خطوط مواصلاتهم ومؤنهم . وهناك آراء متعددة حول الأسباب التي أدت إلى سرعة تقدم القوات العثمانية ، منها أن ((سعود)) اعتمد على أعوانه من العجمان في السيطرة على المدن الرئيسية في المنطقة ، وأن هؤلاء أساءوا معاملة السكان فكانت الكراهية مستحكمة بينهم ولذلك انضموا إلى العثمانيين ضد سعود وأعوانه [٥٦]، والرأي الثاني يقول بأن عدم رسوخ الدعوة السلفية بين

أهالي الأحساء كان من العوامل التي أضعفت مقاومتهم للعثمانيين وتذهب المصادر العثمانية إلى القول بأن بعض قبائل نجد قد رحبت بقدوم الحملة العثمانية لأن ذلك يساعد على الاستقرار ، وينهي المنازعات الداخلية (٥٧) ، لذلك يمكن القول بأن تعاطف بني خالد وهم سكان الواحات وإعلانهم الانضمام للسلطات العثمانية (٥٨) ساعد على سرعة تقدم الحملة هذا بالإضافة إلى خوف السكان من التهديد الموجه إليهم من قائد القوات العثمانية الذي توعد كل من يقف في وجه القوات الغازية بالموت والدمار . كما وعدهم بحسن معاملتهم في حالة تعاونهم معه (٥٩) فسقطت الهفوف عاصمة الإقليم في ١٩ ربيع الآخر ١٢٨٨هـ .

ويظهر أن سعود كان يهدف من انسحابه ، إلى استدراج القوات العثمانية إلى داخل البلاد حيث الصحراء وندرة الماء وقطاع الطرق ، وإلى إبعادهم عن مراكز تموينهم على الساحل ، وحرمانهم من مساعدة مدافع قطعهم الحربية المرابطة في مياه الخليج (٦٠) ، وبهذا يستطيع القضاء على القوات المتقدمة بالتعاون مع أتباعه من بدو العجمان ، وإلا لماذا استسلمت القوات السعودية في الدمام بهذه السهولة رغم وجود ذخائرها وتحصيناتها المنيعة ؟

وكان الإنجليز يرقبون هذه الأحداث عن كثب ، وهم يتوقعون أن تواجه القوات العثمانية مصاعب جمة في الاستقرار داخل شبه الجزيرة سواء بسبب قسوة المناخ وصعوبات التموين أو تقلب القبائل ، ولذلك انتظروا ما تتمحض عنها من نتائج، أما مدحت باشا ، فكان ينكر دائماً استقلال الإمارات المطلة على الخليج ويعتبر بلدان الخليج عثمانية ليس لبريطانيا الحق في السيطرة عليها ، ولكي يمهد (مدحت باشا) لتوسيع حملته أعلن في جريدة الزوراء الرسمية - وكانت تصدر باللغتين التركية والعربية - أن سواحل الخليج تخضع للسيادة العثمانية (٦١) ، ثم أضاف أنه لا يوجد في نجد قبائل مستقلة وأن هناك ثمانية بلدان تابعة لنجد منها الشارقة ، دبي ، أبو ظبي ، قطر ، والبحرين (٦٢) ، ولذلك احتجت السلطات

البريطانية على ذلك الإعلان ، وطلب حاكم الهند من ((هربرت)) إبلاغ مدحت باشا أن معالجة هذه القضايا يجب أن تسوى بين الباب العالي ووزارة الخارجية البريطانية [٦٣] . ولكن مدحت باشا لم يهتم بالأمر ، وبدأ بتوسيع عملياته إلى الجنوب والشرق حتى وصلوا إلى قطر لحماية طرق مواصلاتهم ، وخوفاً من عمليات البدو الذين كانوا يغيرون على قوافل التموين براً ، وقد ساعد العثمانيون في السيطرة على قطر شيخ الكويت ((عبد الله الصباح)) الذي استطاع إقناع شيخ قطر ((قاسم بن ثاني)) إعلان تبعيته للباب العالي ، وكان الفريق ((نافذ باشا)) قائد الحملة قد كلف الشيخ عبد الله الصباح في مهمة رسمية إلى قطر حاملاً فرمانات وأعلاماً عثمانية [٦٤] . ولا شك أن تقدم القوات العثمانية نحو قطر سيخلق نوعاً من الصراع مع بريطانيا ، لأنها تعتبر ذلك تهديداً لنفوذها في بلدان الخليج ، لذلك احتجت بريطانيا على ذلك العمل وأبلغت حاكم قطر بالتعهدات البريطانية وبخاصة معاهدة ١٨٦٨ ، وأكدت له بأنها تحمي استقلال الحكام العرب المرتبطين معها بمعاهدات ، والمعروف أن قطر كانت آخر إمارة عربية توقع التعهدات الخاصة باحترام الهدنة بموجب اتفاقية عقدت عام ١٨٦٨ [٦٥] ، فارتباطها مع بريطانيا حديث جداً ، ويختلف عن نوع ارتباط البحرين اختلافاً كبيراً ، بالإضافة إلى أن القطريين كانوا يعانون من استغلال الهنود لهم في تجارة اللؤلؤ وهؤلاء كانوا يتمتعون بالرعاية البريطانية ، لذلك اعتبروا الوجود العثماني سنداً لهم لتعريب الغوص على اللؤلؤ ، من جهة أخرى كانت التدخلات الإنجليزية المباشرة في شئون الحكم والإدارة في البحرين وتدميرها للسفن البحرينية الكبرى لترسيخ احتكاراتها التجارية في المنطقة مثلاً واضحاً للجشع والاستغلال البريطاني [٦٦] .

فضلاً عن ذلك فإن نظرة الشيخ قاسم إلى دولة الخلافة كانت ممتزجة بفكرة التضامن الإسلامي [٦٧] . ولذلك لم يكن للتبليغ البريطاني أثر يذكر . وقد رفع

العلم العثماني على الدوحة ووافق الشيخ ((قاسم بن ثاني)) على إعلان التبعية للدولة العثمانية ، وكانت خطته تأكيد استقلال دولة قطر عن البلدان المجاورة وقبوله الحماية العثمانية ليقطع السبيل على شيوخ البحرين أو نجد في ادعاء أي حقوق لهم في قطر .

وقد عين ((مدحت باشا)) الشيخ ((قاسم)) قائمقام لقطر ، وأجرى له راتباً شهرياً على أن يعاونه موظف في إدارة شئون القضاء عينه له ، والحقيقة أن الدور الذي لعبه في الاقتراب من العثمانيين كان فيه مجازفة كبيرة ، لأن الموقع متقدم جداً ، ذلك أن قطر كانت تقع على حافة المنطقة التي يلتقي بها النفوذ البريطاني بالعثماني على الساحل الغربي للخليج ، وكان ذلك بمثابة أول احتكاك بين الإنجليز والعثمانيين ، فالأولون يساندون شيخ البحرين ، والآخرون يساندون حاكم قطر وهنا بدأت الاتصالات البريطانية بين ((هربرت)) و (مدحت باشا) وقد أوضح الأخير بأن تأكيدات الباب العالي للبريطانيين لم تشمل قطر ، ولا مانع من أن تتقدم إليها القوات العثمانية ، [٦٨] ، بل أضاف ((مدحت)) أيضاً أن البحرين كانت تدفع الزكاة للوهابيين ، ولذلك فهي من توابع نجد ، وهو هنا يلمح إلى أن من أهداف الحملة ضم البحرين إلى منطقة نفوذها [٦٩] وذلك ليتخذ منها قاعدة عسكرية لوقف عمليات سعود حاكم الرياض الذي أخذ يهدد العثمانيين في الأحساء .

كان الإنجليز يرجون أن يقف الزحف العثماني عند الأحساء ، وكانوا يخشون من توسع العثمانيين في جميع بلدان الخليج فيسيطرون بذلك على سواحل الخليج العربي ويصلونها بسواحل البحر الأحمر ، ويكونون بذلك قد أحكموا الحصار على شبه الجزيرة العربية ، وزاد من خوف الإنجليز التصريح الذي أدلى به ((عارف بك)) قائد الأسطول العثماني في عدن بتاريخ ٢٧ أغسطس حين ذكر بأن السلطات العثمانية سترسل عشر سفن أخرى لتعزيز وجودها في مياه الخليج ،

وقد أثار ذلك حاكم الهند الذي أبدى شديد أسفه للسياسة التي تنتهجها الدولة العثمانية التي تدين في بناء أسطولها وإعادة تقوية جيوشها للدولة البريطانية ، وأكد أن وجود الأسطول العثماني يشكل تحدياً للنفوذ البحري البريطاني في مياه الخليج [٧٠] . أما مدحت باشا فتأكيداً لإجراءاته في قطر أرسل قوة عثمانية يصحبها عبد الله الصباح شيخ الكويت على الباخرة العثمانية ((آشور)) لزيارة الدوحة ، والملاحظ أن إجراءات ((مدحت باشا)) قد أكدت علاقة الدولة العثمانية بكل من الكويت والأحساء وقطر ، وأصبحت تلك المناطق جزءاً من ولاية البصرة ، عدا البحرين وإمارات الساحل العماني التي لم يستطع فرض السيطرة عليها .

ويبدو أن ((مدحت باشا)) كان مدفوعاً بحملته أكثر مما كان يريد منه الباب العالي ، وكانت بريطانيا ترى أن نظرته تمتد لتشمل كل من قطر والبحرين وبلدان الساحل المهادن وحتى مسقط ذاتها [٧١] ، وأبدت تخوفها من أن يسبب ذلك التدخل تغييراً في أوضاع الإمارات المستقلة وتعكيراً للسلام في مياه الخليج ، مع أنها لا تعترض على التدخل العثماني لإنهاء النزاع بين الأخوين ((سعود وعبد الله)) لأنها تعتبر نجداً من الإمبراطورية العثمانية . ومع أن السلطات العثمانية أكدت عدم رغبتها في السيطرة على أي إمارة لها علاقات ببريطانيا [٧٢] ، إلا أن حكومة الهند راحت تهدد بزيادة أسطولها في الخليج مما سيبعث الطمأنينة في نفوس القبائل العربية المتعاهدة معهم ويشجعهم على مقاومة توسع العثمانيين وبخاصة شيخ البحرين الذي أبدى خشيته من التوسع العثماني لأنه كان يعتبر نفسه من المعسكر المعادي للعثمانيين لما قدمه من مساعدات لسعود ضد شقيقه عبد الله ، بل طلب الشيخ ((عيسى بن علي)) حاكم البحرين من السلطات البريطانية أنه يرغب في الوقوف على الحياد من الصراع العثماني السعودي ، خاصة وأنه يرى أمامه سقوط قطر تحت السيطرة العثمانية دون أن

تستطيع السلطات البريطانية التدخل عملياً لإنقاذها ، بل يرى بنفسه أن الدولة العثمانية أرسلت سفينتين حربيتين إلى الخليج لحماية قطر .

وبعد احتلال ((مدحت باشا)) لقطر أخذ يضايق السلطات البريطانية عن طريق توسيع سلطاته في المنطقة ، فأخذ حليفه ((قاسم بن ثاني)) يرسل مندوبين يحملون أعلام الدولة العثمانية إلى شيخ القبيسات ليرفعها على منطقة العديد التي كانت تتبع شيخ أبو ظبي الذي انتهج منذ البداية سياسة ترمي إلى مساعدة ((سعود)) نكاية في ((عبد الله)) الذي كان يحاول استعادة البريمي من سيطرة شيخ أبو ظبي عليها [٧٣] ، من جهة ثانية كان (يوسف أفندي) المساعد العثماني لقائد الحملة قد بعث برسائل إلى شيوخ أبو ظبي والشارقة ودبي، وأعرب لهم عن اهتمامه بتلك المناطق ، واقترح عليهم أن يعززوا ارتباطهم بالدولة العثمانية عن طريق اتصالهم بالقائد العثماني في الدوحة . وهنا شعرت بريطانيا بالخطر المحدق بها ، فقطر أصبحت قضاءاً عثمانياً والنفوذ العثماني بدأ ينتشر في المنطقة ، وحدود قطر الجنوبية غير محددة ، لذلك اتجهت كعادتها لإيجاد مشكلة جديدة في المنطقة وخلق نزاعٍ إقليمي حاد ، فراحت تشجع توسيع حدود مشيخة أبو ظبي المجاورة لقطر ، فجعلتها تمتد شمالاً لتشمل خور العديد وذلك بناء على نصيحة المقيم البريطاني في الخليج ((لويس بلي)) [٧٤] مما سيثير حروباً طويلة بين الإمارتين العربيتين .

والقبيسات فرع من قبيلة بني ياس التي تشكل العمود الفقري لإمارة أبو ظبي [٧٥] وقد نزلوا منطقة العديد بعد انفصالهم عن بني عمومتهم عام ١٨٣٥ ، وكانت الخلافات تسوى بين أبناء العمومة بطريقة أو بأخرى ، واستمر القبيسات يتركون ((العديد)) ويرجعون إليها ، فقد سكنوا المنطقة عام ١٨٤٩ [٧٦] ، ثم تجدد الخلاف فتركوها ، ثم رجعوا إليها عام ١٨٦٩ ، وما كان ذلك لينشأ عنه مشكلة أو خطر لولا تواجد العثمانيين في قطر اعتباراً من عام ١٨٧١ ، مما وضع القضية في

منظور نزاع دولي بين العثمانيين والإنجليز . ويبدو أن شيخ القبيسات ((بطي بن خادم)) تطلع إلى تكوين إمارة مستقلة أسوة بجيرانه ، فكتب إلى المقيم البريطاني عام ١٨٦٩ شارحاً موقفه على النحو التالي :

((لقد جئنا في الأصل من أبو ظبي ، غير أننا منذ أيام جدى صرنا تابعين لقطر، ونحن نريد الآن أن نضع هذا المكان تحت الحماية البريطانية ، فنرجو أن ترسلوا لنا راية وكتاباً لكي تكون دليلاً على ذلك . (٧٧)

وهنا أصبح موقف القبيسات مضطرباً فهم أصلاً من أبو ظبي ، وثبت أنهم كانوا يدفعون ضرائب لقاسم حاكم قطر (٧٨) ، ثم يطالبون بالاستقلال ، وهنا استغل الإنجليز الموقف ، فقدم المقيم البريطاني مذكرة قرر فيها تبعية منطقة العديد لأبوظبي (٧٩) ، وكان الهدف من ذلك عدم ترك منطقة العديد مشيخة صغيرة مجاورة للعثمانيين ، لأنها في هذه الحالة قد تطلب حمايتهم كما فعل آل ثاني في قطر ، وبهذا استطاعت أيضاً الحكومة البريطانية الحيلولة دون امتداد التوسع العثماني إلى الساحل المهادن حيث الإمارات العربية التي كانت ترتبط مع بريطانيا بمعاهدات حماية ، وذلك عن طريق مد سلطة شيخ أبو ظبي إلى خور العديد . (٨٠)

ومن المشاكل الهامة التي أضعفت موقف العثمانيين في الخليج وشغلتهم عن تحقيق الهدف الرئيسي للخلافة الإسلامية ، وهو تحرير المنطقة من الاستعمار - هذا الشعار الذي تبنته منذ تصديها للاستعمار البرتغالي - هي مشكلة الخلافات السعودية على الحكم وتدخل العثمانيين كطرف فيها . فمنذ وصول مدحت باشا إلى الأحساء تحول النزاع في المنطقة إلى تنافس بين العثمانيين والسعوديين ، حتى أن الأمير ((عبد الله)) أراد التعاون مع العثمانيين ، لكنه اكتشف أن مدحت باشا أخذ يتدخل في شئون نجد الداخلية ، ويدبر إبقاء البلاد تحت السلطة المباشرة للعثمانيين ، ولذلك دبر أمر فراره إلى الرياض (٨١) ، وندم

على استنجاده بالعثمانيين لأن ذلك أضاع هيبته لدى الوهابيين المتمسكين بمبادئ الإصلاح الديني ، وأغلب الظن أن ((عبد الله)) حاول الرجوع إلى الرياض مستغلاً إبعاد الشعب لأخيه سعود عن الحكم ، ومع ذلك أصدر مدحت باشا قراراً بتعيين ((عبد الله)) قائمقام في منطقة الرياض فقط ، وهذا يعني أن القائد العثماني سلخ الأحساء عن منطقة الرياض ، لذلك رفض ((عبد الله)) وأصر أن تعود إليه جميع الممتلكات ، وأن يبقى إماماً للمسلمين لا تابعاً مجرداً من السلطة ، وهنا اتخذ ((مدحت باشا)) من هذا الموقف ذريعة لتحقيق هدفه وهو إعادة الأحساء إلى السيادة العثمانية المباشرة ، وأصدر أوامره بإنهاء حق ((عبد الله)) والسعوديين في السيادة على الأحساء [٨٢] . وفي اعتقادي أن هذا التصرف كان من سلبيات الحملة العثمانية ، لأن العداء استحكم بين السعوديين والعثمانيين مما أعطى فرصة ذهبية لبريطانيا لتحقيق أطماعها . ثم أصدر القائد العثماني تشكيلاً إدارياً جديداً للإقليم أصبحت الأحساء بموجبه متصرفية يطلق عليه اسم لواء نجد وجعلها تابعة لولاية بغداد ، كما جعل من قطر قضاء تابعاً للواء نجد ، ويذكر نوار في كتابه ((تاريخ العراق الحديث)) أن مدحت باشا جعل الأحساء لواء عثمانياً تتبعه أقضية الهفوف ، والقطيف ، وقطر، فضلاً عن الكويت ، التي جعلها قضاء تابعاً للبصرة[٨٣] . أما زويمر فقد اوضح تشكيل حكومة الأحساء في العهد العثماني فذكر ((أنها تنقسم إلى ثلاثة أقضية، ويقيم الحاكم الذي يطلق عليه الباشا المتصرف ، في العاصمة الهفوف ، بينما يقيم قائمقامان عنه في كل من قطر والقطيف [٨٤] .

وكانت من النتائج السلبية للسياسة العثمانية في الخليج وتشجيعها للخلافات بين السعوديين أنفسهم أن لجأ ((سعود)) أيضاً إلى المقيم البريطاني في الخليج يطلب إليه العون والمساعدة للتدخل لدى السلطات العثمانية للإفراج عن أخيه ((عبد الرحمن)) ووكيله ((فهد)) [٨٥] وعلى الرغم من إحجام السلطات

البريطانية عن تقديم المساعدة خوفاً من أن تدع للعثمانيين الفرصة للتدخل في مناطق نفوذها [٨٦] ، فإنها وجدت الفرصة مناسبة وسانحة لها للتدخل بين الأخوين ((عبد الله وسعود)) ، فكانت تحبذ الصلح بينهما ليس لخدمة الطرفين ولا لمصلحة السعوديين في المنطقة ، ولكن حتى تضمن أن يعمل الأخوان سوياً من أجل إضعاف قبضة العثمانيين على الأحساء ، التي أصبحت قاعدة عثمانية تهدد النفوذ البريطاني في المنطقة ، وهذا يدل على فشل السياسة العثمانية وعلى النتائج السلبية التي ترتبت على الحملة العثمانية على شرقي الجزيرة العربية ، وقد أدرك الأمير ((عبد الله)) بعد أن تعاون مع أخيه عبد الرحمن في استرجاع الرياض عام ١٨٧٥ وطرد أبناء سعود منها وتمت مبايعته بالإمامة [٨٧] . إن نجدا قد أصبحت إمارة مغلقة ولابد من مواصلة الكفاح ضد العثمانيين في الأحساء لكي يجد لإمارته منفذاً على الخليج ، واستمرت هذه الفكرة في أذهان حكام نجد وحاولوا تنفيذها مرات عديدة لكنها كانت تفشل دائماً ،إلى أن جاء الأمير عبد العزيز فطرد العثمانيين من الأحساء عام ١٩١٣ [٨٨] وحقق حلم الأمراء السعوديين الذي لم يتحقق خلال أربعين عاماً .

لقد ترتب على الوجود العثماني في الأراضي السعودية ، إضعاف قوة السعوديين في المنطقة ، وبدلاً من أن تتعاون السلطات العثمانية مع السعوديين ضد عدو مشترك يهدد الجميع في منطقة الخليج وهي بريطانيا ، أخذت السلطات العثمانية تفتش عن قوى أخرى في الأراضي السعودية تتعاون معها وتنافس بهم السعوديين ، فقد عينت في مارس ١٨٧٤ ((براك بن عريعر)) [٨٩] أحد شيوخ بني خالد متصرفاً على إقليم الأحساء ، وهنا تحرك السعوديون فقام عبد الرحمن بن سعود بالزحف على مدينة الهفوف حيث حاصر المتصرف وكاد أن ينجح ، لولا أن سارعت الدولة العثمانية بإرسال مساعدتها بقيادة ((ناصر السعدون)) متصرف البصرة ، الذي استطاع أن يلحق الهزيمة بجيش ((عبد الرحمن)) . واستمرت

الدولة العثمانية في سياستها السلبية لضرب القبائل بعضها ببعض ، فلما أدركت أن مقاومة السعوديين قد طالت وكلفتها الكثير من التضحيات والنفقات ، أخذت تشجع العداء بين آل رشيد في حائل ، وآل سعود في الرياض ، واستطاع محمد بن الرشيد شيخ جبل شمر الاستيلاء على الرياض عام ١٨٧٧ وقام حاكم الرياض الجديد بإعدام أبناء سعود الثلاثة ((ونفي عبد الله وعبد الرحمن)) إلى حائل، وانتهى الحكم السعودي في نجد حتى عام ١٩٠٢ حينما قدر ((لعبد العزيز بن عبد الرحمن)) استعادتها من آل رشيد [٩٠] .

لم يستطع الحكم العثماني إقرار السلم في المناطق التي يسيطر عليها ، فقد كانت طرق القوافل غير آمنة ، وأخذت القبائل تتمرد على قوانين الدولة ، وانتشر السلب والنهب ، وبدأت القرصنة البحرية بالسطو على السفن ، وكثر النزاع حول مصائد اللؤلؤ ، وفشلت الدولة في وضع قوانين تقضي على ثورات القبائل ، وعجزوا تماماً عن إشاعة الأمن ، فلم تكن سيطرتهم تتعدى أسوار المدن التي يقيمون فيها ، بل كانوا يتعرضون هم أنفسهم إلى غارات رجال القبائل [٩١] ، وهذا ما دفع لوريمر واصفاً الحكم العثماني بالأحساء بقوله ((إن ضم الإقليم وحده إلى دولة مثل تركيا كان في حد ذاته شراً يزيد من صعوبة ضمان الدستور البحري في مياه الخليج [٩٢] . كل ذلك حدث لأن الدولة العثمانية فشلت في السيطرة على المنطقة ، وسحبت كثيراً من قواتها من الإقليم وفقدت الدولة العثمانية هيبتها حتى عند أصدقائها مثل حاكم قطر ، الذي أبى على العثمانيين تدخلهم المباشر في شئون القضاء الداخلية ، فقدم استقالته أولاً ثم أعلن الحرب ضدهم [٩٣] .

ويمكن القول أن الطابع العثماني في المناطق التي احتلها العثمانيون ظل طابعاً عسكرياً ، وكانت نفقات الحاميات تستأثر بالقسم الأكبر من ميزانية الإقليم ، التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على الضرائب التي كانت تجمع من الأهالي [٩٤] . فكان حكماً استبدادياً متسماً بالظلم والجور ، وبالرغم من أن ((مدحت باشا)) حاول

علاج تلك المشكلة فقرر استثناء القبائل من دفع الضرائب فيما عدا ضريبة العشور، فإن الموظفين العثمانيين قد تمادوا في تعسفهم، وهذا ما جعل السلطات البريطانية تستغل مثل هذه الظروف، فتصور الأوضاع بشكل سئ جداً وتتخذ منه حجة ضد الدولة العثمانية وسياستها الفاشلة، بل وتضخم ذلك أمام القوى السياسية الأخرى في المنطقة لتجعلها تنقلب على الدولة العثمانية، وهذا ما نلمسه في التقارير البريطانية، ولو أضفنا إلى ذلك تعدد حكام الدولة العثمانية وقصر مدة كل منهم في المنطقة، بحيث أصبح من الصعب على أي منهم أن يتبنى سياسة إصلاحية، كل ذلك يؤيد سوء إدارة الدولة العثمانية بعد احتلالها لشواطئ شرقي الجزيرة العربية (٩٥). ولا أجدني في هذا الموقف أوافق الدكتور جمال زكريا قاسم على تبريره للإدارة العثمانية السيئة حينما عزا ذلك إلى عدم تعاون القبائل وإلى انشغال الدولة العثمانية في حروبها ضد روسيا (٩٦). فالمفروض أن الدولة العثمانية جاءت إلى المنطقة لتحريرها من الاستعمار وهي مركز الخلافة الإسلامية وعليها وضع القوانين والنظم التي تتناسب مع ظروف سكان هذه المنطقة، لا ضد رغباتهم، فالأوضاع كانت مستتبة إلى حد ما قبل توجه الحملة العثمانية إلى الأحساء وبخاصة أثناء فترة حكم ((فيصل بن تركي)) وبالرغم من وجود الخلافات بعد ذلك بين الشقيقين ((عبد الله وسعود)) إلا أن واجب السلطة العثمانية كان علاج الموقف بشكل يجعل جميع القوى في المنطقة تقف إلى جانبها، وليس ضدها كما حصل مع بعض بلدان الخليج حيث نرى السعودية بكل قبائلها وحكامها، وآل ثاني في قطر، وحكام أبو ظبي أصبحوا يقفون ضد الدولة العثمانية، ويقاومون بالقوة وجودها في المنطقة، مما أتاح الفرصة للسلطات البريطانية لتأكيد تقسيم المنطقة إلى كيانات سياسية ضعيفة، وربطها بمعاهدات جعلتها تابعة للسياسة البريطانية، بل إن هذه الظروف سمحت لبريطانيا بتركيز سيطرتها مستقبلاً على مناطق أخرى مثل الكويت كما

سنرى ، وهذا ما دفع المؤرخ السوفيتي لوتسكي إلى القول : ((إن فتح الأحساء وتنكيل مدحت باشا الضاري بالبدو المتمردين هما من الأمور التي تشير إلى أن طلائع ممثلي الطبقة الحاكمة العثمانية في البلدان العربية تصرفوا بأنفسهم كخائنين للحركات الشعبية (٩٧) .

ومع أنني أعارض حكم لوتسكي الشامل ، وأعترف بأن للدولة العثمانية إيجابيات كثيرة جداً لا تحصى ليس على بلدان الخليج العربي وحسب بل على الوطن العربي عامة، إلا أن تصرف الولاة العثمانيين ، وسوء إدارتهم وعلى رأسهم (مدحت باشا) كانت من الأسباب الرئيسية لتقسيم المنطقة إلى قوى سياسية ضعيفة ، فسحت المجال لبريطانيا للسيطرة التامة على مقدرات وموارد المنطقة.

والملاحظ أن الكويت قبلت التبعية العثمانية منذ البداية ، بل شاركت مشاركة فعالة في حملة الأحساء وكان لها دوراً هاماً في نجاحها (٩٨) ، وقد اختلف المؤرخون في أسباب قبول الكويت هذه التبعية ، فذكر البعض بأن شيوخ الكويت كانوا يملكون أراضي في البصرة ، وكان العثمانيون يهددون بقطع إيراداتها عندما تتعارض سياسة شيوخ الكويت مع سياستهم ، والبعض الآخر يذكر أن شيوخ الكويت كانوا لا يرغبون في الانفصال عن الرابطة الإسلامية التي كانت تتمثل في الدولة العثمانية ، أما الرأي الثالث فيذكر بان الكويت لم تكن مرتبطة مع دولة كبرى بمعاهدة حماية ، فكانت تخشى معارضة الدولة العثمانية (٩٩) ، ويمكن أن نضيف رأياً آخر وهو أن النفوذ البريطاني لم يكن قد وصل إلى الكويت بعد ، فقد كانت الكويت أقرب إمارات الخليج العربي لممتلكات الدولة العثمانية في العراق ، ولكن لم يثبت وجود سيطرة عثمانية فعلية على هذه الإمارة قبل عام ١٨٦٩ أما من ناحية شكلية فقد رفع الشيخ جابر بن الصباح عام ١٨٢٩ العلم العثماني على قصره نتيجة لمحاولة قام بها الإنجليز للنفوذ إلى إمارته . وفي عام ١٨٤٥ طلبت الدولة العثمانية من حاكم الكويت حماية ميناء البصرة لقاء راتب كان يدفع له من

خزانة الولاية (١٠٠) .

وقد أدرك ((مدحت باشا)) أن لموقع الكويت أهمية كبرى لأية قوة متجهة من العراق براً إلى الأحساء ، كما لفت انتباهه امتلاك الكويت لعدد كبير من السفن التي يمكن استخدامها في النقل والتموين ، ويضيف صلاح العقاد بأن اشتراك أمير عربي في الحملة - يعني عبد الله الصباح - سيحدث أثراً معنوياً ويدفع قبائل المنطقة التي تدين بالولاء لحاكم الكويت للانضمام إلى صفوف العثمانيين (١٠١) .

وقد برز دور الكويت في السياسة الخارجية عندما أوفدت الدولة العثمانية حاكم الكويت لإجراء أول اتصال جرى مع قطر ، وقد نجح في دوره ، وتم رفع العلم العثماني فوق مدينة الدوحة (١٠٢) ، وقد منح ((مدحت باشا)) حاكم الكويت لقب باشا وأغدق عليه مساحات واسعة من مزارع النخيل على شاطئ الفرات معفاة من الضرائب . وعندما توجه مدحت باشا لزيارة الأحساء في أوائل نوفمبر ١٨٧١ توقف بالكويت حيث تفاهم مع الشيخ عبد الله ومنحه لقب قائمقام ، ومع ذلك فإن تبعية الكويت للدولة العثمانية كانت غير مباشرة فشيخها يصرف الأمور الداخلية حسب تقاليد البلاد ، واستمر أمراء آل صباح يتقاضون من الدولة العثمانية الرواتب السنوية ويتبعون اسمياً والي البصرة دون وجود قوات أو موظفين عثمانيين حتى عام ١٨٩٦ (١٠٣) . ولما كان مدحت باشا يقدر موقف حكام الكويت ، وجنوحهم للاستقلال عمل على إعفائهم من الجزية ، واستمر في صرف الرواتب السنوية لهم ، وهنا يحضرني تسجيل إحدى سلبيات الحملة العثمانية فلو أن مدحت باشا طبق هذه السياسة مع الحكام السعوديين لاستطاع العثمانيون السيطرة على الخليج العربي ولما تجزأت هذه المنطقة إلى كيانات سياسية ضعيفة حققت آمال الإمبراطورية البريطانية في السيطرة على منطقة الخليج العربي ، لفترة طويلة من الزمن ، فالعداء العثماني السعودي كان كارثة على المنطقة .

صدر فرمان بتعيين مبارك الصباح ((قائمقام)) على الكويت عام ١٨٩٧ بعد أن

اختلف مع أشقائه ودبر مؤامرة لقتلهم (١٠٤) وكان مبارك قلقاً يخشى أن يحتل الأتراك أراضيه ، فأجرى اتصالات ودية متكررة عام ١٨٩٧ من أجل طلب حماية بريطانية ، ولكن الحكومة البريطانية كانت لا تحبذ هذا الأمر لضرورة حفظ السلام في مياه الخليج ، غير أن نشاطات الروس عام ١٨٩٨ (١٠٥) حفزت بريطانيا على أن تعيد النظر بموقفها وتتخذ إجراءات لمجابهة النفوذ الأجنبي في الكويت ، فأسرعت بعقد اتفاقية سرية مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ (١٠٦) ويذكر جمال زكريا قاسم بأنه حتى بعد توقيع المعاهدة لم تمانع الحكومة البريطانية أن يرفع شيخ الكويت الراية العثمانية ، كما استمرت السفن الكويتية ترفع الراية العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى (١٠٧) .

وفي ظني أن سبب ذلك يعود إلى فشل حملة مدحت باشا وفشل السياسة العثمانية في الخليج العربي ، مما جعل السلطات البريطانية مسيطرة سيطرة تامة على منطقة الخليج ، ومنها الكويت ، وأصبح رفع العلم العثماني أو عدمه لا يثير اهتمامها كثيراً فهو مظهر شكلي واسمي فقط ، كما أن السلطات البريطانية كانت تعلم بأن السلطة العثمانية لن تغامر في إرسال جنودها إلى الكويت أملاً في إخضاع ((مبارك)) لها ، كما أن ((مبارك)) لم يشأ أن يجاهر بعدائه ، للدولة العثمانية، وحرص أن تكون علاقته مع الدول الأوربية سرية (١٠٨)

وإذا كانت حملة مدحت باشا قد وثّقت الصلات بين الكويت والدولة العثمانية فإن الموقف بالنسبة للبحرين كان مختلفاً تماماً ، فقد استطاعت بريطانيا وضع اللبنة الأولى في جدار الحماية البريطانية على البحرين في معاهدة عام ١٨٦١ ، ثم فرضت عليها الحماية عام ١٨٨٠ لتصبح البحرين مستعمرة بريطانية (١٠٩) ، وكان الخطر الأساسي الذي يهدد البحرين خلال حكم الإمام (فيصل بن تركي) هو الخطر السعودي ، لذلك كان شيخ البحرين يلجأ غالباً لطلب الحماية من السلطات الفارسية أو العثمانية وكانت السلطات البريطانية قبل حملة ((مدحت

باشا)) تبدي اهتماماً أكثر بمقاومة الأخطار الفارسية وادعاءاتها على الإمارة [١١٠] وبالرغم من أن الحكومة العثمانية كانت تطمئن وباستمرار بريطانيا بأن الحملة المرسلة إلى شرقي شبه الجزيرة العربية لن تمس البحرين ، إلا أن (مدحت باشا) كانت له أهداف أخرى ، وقد صرح بها مراراً كما ذكرنا سابقاً [١١١] ، وقد شعرت السلطات البريطانية بالخطر المحدق بها عندما رأت القوات العثمانية في الأحساء تحتل قطر ثم تحاول السيطرة على قاعدتهم الهامة في البحرين . وتأكد ذلك لبريطانيا عندما تحالف ((قاسم بن ثاني)) حاكم قطر مع (ناصر بن مبارك) [١١٢] ألد أعداء آل خليفة حكام البحرين .

وبدأ التعاون والتخطيط لغزو البحرين ، ووجد العثمانيون الفرصة سانحة أمامهم ، حيث التقت مصالحهم مع مصالح الطرفين ، فناصر بن مبارك يريد السيطرة على حكم البحرين بينما ((قاسم بن ثاني)) حاكم قطر يريد التخلص من الضريبة التي كان يدفعها لحاكم البحرين بموجب معاهدة ١٨٦٨ ، أما العثمانيون فيريدون التخلص من ((عيسى بن علي)) حاكم البحرين الذي كان يقاوم السياسة العثمانية في المنطقة ، وقد حدث أن قتل أحد أعوان ((ناصر بن مبارك)) على شاطئ البحرين [١١٣] ، وعثر معه على رسائل تفيد بان العثمانيين يخططون لاحتلال البحرين ، وقد اطلع شيخ البحرين الكولونيل (بيلي) على تلك الرسائل ، ووصلت الأخبار إلى حكومة الهند التي سارعت بالإبراق إلى ((هربرت)) في ١٧ أكتوبر ١٨٧١ تأمره أن يخبر ((مدحت باشا)) دهشة الحكومة البريطانية وحكومة الهند لمحاولة تدخل الأتراك في البحرين بعد أن أكد العثمانيون مراراً عدم اهتمامهم بالتوسع فيها [١١٤] . ثم أوضحت حكومة الهند بأنها تعتبر ذلك خرقاً لوعود الحكومة العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية سوف تهتم اهتماماً شديداً بهذا الموضوع [١١٥] ، وأصدرت حكومة الهند أوامرها إلى ((بيلي)) بالتوجه إلى البحرين ، وطلبت إليه أن يعمل على منع العثمانيين من

التدخل في شؤون البحرين ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة ، وهذا ما حصل في شهر نوفمبر من نفس العام عندما حاول ((مدحت باشا)) التوجه من القطيف إلى البحرين مصطحباً معه السفينتين الحربيتين (الإسكندرية)، و (لبنان) فوجد أسطولاً بريطانياً يتعقبه في عرض البحر ، فعدل عن الذهاب بنفسه إلى البحرين ، لأنه أدرك أن ((بيلي)) لن يسمح له بالتدخل في شؤونها [١١٦].

ولما فشل ((مدحت باشا)) في ضم البحرين بالدخول في دائرة النفوذ العثماني ، أرسل ((عارف بك)) للتحقيق في مصرع أحد شيوخ بني هاجر ، ثم عرض هذا المندوب موضوع التعاون العثماني البحريني ، تمهيداً لخضوع البحرين للنفوذ العثماني ، وقد أحسن الشيخ عيسى استقبال مبعوث مدحت باشا وسمح برسو سفن التموين العثمانية ، وجامل المبعوث منطلقاً من احترامه للخليفة العثماني المسلم فقال :

((إنه لم ير سفناً عثمانية منذ زمن طويل)) [١١٧] ، قاصداً المجاملة ، ثم قدّم شيخ البحرين اعتذاراً لمقتل الرجل على أرض بلاده ، وتبرع للسلطات العثمانية بقطعة أرض وسمح لهم بإقامة مستودعات للوقود اللازم لسفنهم . ولقد كثر تردد السفن العثمانية على البحرين بعد ذلك بحجة التزود بالماء والوقود ، الأمر الذي أزعج السلطات البريطانية فطلبت من شيخ البحرين الحد من نشاط العثمانيين في الجزيرة .

أخذت حملة ((مدحت باشا)) تضايق السلطات البريطانية ، خاصة بعد توسعها في قطر ، وراح ((قاسم بن ثاني)) حاكم قطر يرسل بأعلام الدولة العثمانية إلى شيوخ القبائل ، وظل خطر التوسع العثماني في قطر يخيف السلطات البريطانية، ويهدد قاعدتهم الهامة في البحرين ، لكن السلطات البريطانية كانت حذرة ، واتخذت جميع الوسائل لإضعاف شيخ البحرين ، حتى يبقى دائماً بحاجة إلى مساعدتها ، وقد طبقت هذه السياسة منذ عام ١٨٦٦ ، عندما ثبت للمقيم

البريطاني في الخليج ، أن حاكم البحرين كان يدفع جزية مقدارها أربعة آلاف دولار لأمير الوهابيين في مقابل الحماية ، ويقول لوريمر ((لما حامت الشكوك حول وجود تفاهم بين شيخ البحرين والوهابيين تمت عملية إغراق سفينة البحرين المعروفة باسم ((دنيار)) وذلك لقص أجنحة شيخ البحرين حتى لا يربط مصيره بأمير الوهابيين [١١٩] ، وفي عام ١٨٦٨ أحرقت السلطات البريطانية أكبر سفينتين للحاكم كما أحرقت القلعة ، وفرضت على الحاكم دفع غرامة مقدارها ١٠٠ ألف درهم [١٢٠] . ثم أخذت السلطات البريطانية تهدد حاكم البحرين بإلغاء المعاهدة ، هذا بالإضافة إلى أن الأسطول البريطاني كان متواجداً في المنطقة لحماية البحرين القاعدة الرئيسية للنفوذ البريطاني في المنطقة ، وكانت جميع هذه الاستعدادات جاهزة خوفاً من أن تنجح السلطات العثمانية في التأثير على حاكم البحرين فينضم إليها وبهذا تفقد بريطانيا مركزاً هاماً لأسطولها وسيطرتها . وفي عام ١٨٧٤ حاولت الدولة العثمانية أن تزيد من قوة حامياتها العسكرية في قطر ، ورأت أن تعيد بناء ميناء ((الزبارة)) على الساحل ، وكانت (الزبارة) تحت سيطرة قبائل ((بني نعيم)) الموالية لشيخ البحرين ، ويبدو أن ذلك العمل كان بتحريض من الشيخ ((قاسم بن ثاني)) المعادي لشيخ البحرين، لذلك قامت بريطانيا بتقديم احتجاج رسمي للدولة العثمانية في ١٩ ديسمبر ١٨٧٤ [١٢١] أكدت فيه أن (الزبارة) تابعة للبحرين ولا زالت ، وستمنع إقامة أي مركز عليها معادياً لسلطاتها في الخليج ، والملاحظ هنا أن بريطانيا تنظر بالدرجة الأولى لمصالحها في المنطقة فهي في هذه المشكلة تعتبر البحرين ، وجزءاً من قطر ، إمارة واحدة ، في حين شجعت عام ١٨٦٨ على انفصال قطر كلياً عن البحرين واعتبرتها إمارة مستقلة .

ولما فشلت خطط العثمانيين السابقة ، اتجهوا إلى تشجيع القبائل البدوية في الاحساء وبخاصة ((بنو هاجر)) على مهاجمة البحرين . وتزعم الحملة (ناصر

ابن مبارك) وهو أحد المطالبين بعرش البحرين ، لكن السلطات البريطانية كانت لهم بالمرصاد سواء حين اتجهوا إلى البحرين أو إلى الزبارة حيث لاحقتهم السفن البريطانية ، مما أدى إلى انسحابهم [١٢٢] . وقد اتخذت بريطانيا هذا الموقف بناء على طلب الشيخ عيسى حاكم البحرين بعد أن وصلته الأخبار بأن بني هاجر يجمعون جموعهم لغزو البحرين ، أما الحكومة العثمانية فقد قدمت احتجاجاً إلى الحكومة البريطانية توضح فيه أنها هي التي انتدبت بني هاجر لمطالبة قبيلة بني النعيم ، والتي هي من رعاياها ، بدفع الضرائب [١٢٣] ، لكن السلطات البريطانية ادعت أن المبعوث العثماني كان وراء تحريض بني هاجر لذلك قام السفير الإنجليزي في الأستانة بتقديم بلاغ إلى الحكومة العثمانية يرفض فيه تعرض استقلال البحرين للخطر [١٢٤] .

والحقيقة أن الإنجليز لم يكونوا مرتاحين لدفع البحرينيين الأمور إلى ذلك المستوى من التأزم ، إذ لم يكونوا على استعداد للتصادم مباشرة مع العثمانيين ، ولذلك طلبوا من شيخ البحرين عدم تأييد حلفائه من بني نعيم المقيمين في الزبارة ، وهددته السلطات بأنها لم تتحمل أي نتائج تترتب على أعماله .

وقد أدرك قاسم بن ثاني حاكم قطر هذا الموقف ، فراح يحث السلطات التركية على الوقوف في وجه البحرينيين ، واتجه هو بنفسه مع قبائل قطر وبني هاجر بقيادة ناصر بن مبارك لمحاصرة بني نعيم في الزبارة وذلك في نوفمبر ١٨٧٥ . أما الشيخ عيسى حاكم البحرين فقد شعر بالخطر الكبير المحدق به ، وأوضح للإنجليز بأن العثمانيين لو نجحوا في تثبيت ((ناصر بن مبارك)) في الزبارة لأصبحت البحرين عرضة لغاراتهم وتهديداتهم ، وهنا وجدت بريطانيا أن سياسة المهادنة لا تفيد ، ولذلك تصدى الإنجليز لحلفاء العثمانيين [١٢٥] وهاجموا الزبارة مدعين بأن ما تقوم به السلطات البريطانية ، إنما هو حفظ الأمن في الخليج ، ونفت أن تكون قد تدخلت في شئون جزيرة قطر .

وقد تكررت محاولات ناصر بن مبارك العودة إلى البحرين ، وأزعج بحملاته الشيخ ((قاسم بن ثاني)) الذي راح يخبر المقيم البريطاني بتحركه ، وأعلن أنه غير مسئول عن أعماله ، وذكر أن ناصر يتلقى راتباً شهرياً من العثمانيين ، وأنهم يحرضونه على مهاجمة البحرين .

ويظهر هنا أن ((قاسم بن ثاني)) بدأ يضيق بتصرفات العثمانيين في بلده سواء بتدخلهم المباشر في إنشاء الدائرة الجمركية [١٢٦] بناء على طلب تجار بلاد فارس وشكواهم من ارتفاع الضرائب على تجارتهم ، أو بمساعدتهم المستمرة ((لناصر بن مبارك)) ومحاولاته المتكررة لاحتلال الزبارة ، أو الرويس ، أو ساحل البحرين، لذلك حاول جهده إنهاء السيطرة العثمانية على البلاد بمحاولة إثارة القبائل ضدها ، وفي نفس الوقت اتجه إلى السلطات البريطانية يطلب حمايتها ، ثم حاول أن يتودد إلى الشيخ عيسى في أكثر من رسالة [١٢٧] ، وفي ظني أن هذا مظهر من مظاهر فشل السياسة العثمانية في الخليج العربي ، ونتيجة سلبية من نتائج الحملة العثمانية على شرقي الجزيرة العربية .

وعندما حاول شيخ البحرين انتهاز الفرصة ، وأبدى رغبته للسلطات البريطانية بضم قطر إليه ، رفضت ذلك ، وهذا - كما أرى شيء طبيعي ، فالسياسة البريطانية في منطقة الخليج أخذت تخطط بأسلوب جديد بعد فشل الحملة العثمانية ، ووجدت أن في تقسيم المنطقة إلى كيانات سياسية ضعيفة هي الوسيلة الوحيدة للسيطرة التامة على الخليج ، كما أنها أتبعت أسلوباً جديداً في عقد الاتفاقيات مع شيوخ المنطقة ، عرفت بالاتفاقيات الخاصة ، وهي معاهدات صارمة تصبح بعدها الإمارة عبارة عن مستعمرة بريطانية ، وقد فرضت بريطانيا على البحرين معاهدة ١٨٨٠ [١٢٨] والتي تنازل فيها الشيخ عيسى عن سيادة بلاده الخارجية ، واضعاً الجزيرة من الناحية الواقعية تحت الحماية البريطانية .

لقد ضعفت السلطات العثمانية أمام تحدي بريطانيا لها في الخليج ، وذلك يرجع

إلى المساعدات التي منحتها بريطانيا للدولة العثمانية والقروض التي قدمتها لها عقب حرب القرم ، مما أدى إلى عدم حدوث تعارض كبير بين الدولتين في تلك الجهات ، فالنزاع بين الطرفين اقتصر على الرسائل والتهديد والاحتجاج وتقديم المذكرات فقط ، ولم تحصل معارك كبيرة بين الطرفين ، وكانت القوة العثمانية هي الضعيفة دائماً في المنطقة ، وحتى عندما أصبحت قوية وقامت بحملة (مدحت باشا) كانت الفرصة قد ضاعت منها ، وعلى الرغم من الإمكانيات الكبيرة التي جندها ((مدحت باشا)) أثناء حملته لمحاولة كبح جماح النفوذ البريطاني وفي محاولة إحلال النفوذ العثماني مكانه في بلدان الخليج العربي ، فإنه لم ينجح في ذلك لأن العثمانيين جاءوا متأخرين في محاولتهم تلك بعد أن كان الإنجليز قد وطّدوا أقدامهم في المنطقة في غفلة من الدولة العثمانية آنذاك . ومع أن الدولة العثمانية كان بإمكانها متابعة مجهودات مدحت باشا ، خاصة بعد توطيد علاقاتها مع الأحساء وقطر والكويت ، وأن تكون نداً للبريطانيين في هذه المنطقة، إلا أنها بسياساتها الطائشة فتحت أمامها جبهات وصراعات كانت في غنى عنها ، وبخاصة نزاعها مع السعوديين الذي كان سبباً في إضعاف موقف العثمانيين أمام الإنجليز في المنطقة ، كما كان بعد ذلك سبباً في إضعاف السعوديين والإمارات العربية جميعها أمام الإنجليز ، كذلك فشلت الدولة العثمانية في المحافظة على أصدقائها مما أدى إلى الصدام بين العثمانيين وحلفائهم مثل (قاسم بن ثاني) حاكم قطر ، وهذا بدوره دفع بريطانيا لأن تفرض الحماية البريطانية على قطر وتفصلها عن البحرين ، ثم خرجت إمارة أبو ظبي من دائرة النفوذ العثماني ، وأخيراً تخلت الكويت عن الدولة العثمانية وارتبطت مع بريطانيا بمعاهدة ، وهكذا أتت الحملة بعكس ما هدفت إليه .

وبالرغم من أن ((مدحت باشا)) كان يركز في رسائله على الزعامة الروحية للدولة العثمانية وعلى العامل الديني القوي بين سكان المنطقة والخلافة

العثمانية ، إلا أن واقع سياسته وأعماله كانت تدل على عكس ذلك ، فلم يتعامل مع القبائل والحكام من منطلق ديني كمسلمين تربطهم خلافة إسلامية واحدة ، بل كان له دور في إثارة المشاكل بين قبائل المنطقة ولذلك انقلبوا عليه ، بل وتعاونوا مع بريطانيا ضد السلطة العثمانية دون أن يكون للعامل الديني أي أثر يذكر ، وترتب على ذلك سقوط المنطقة بكاملها تحت السيطرة البريطانية . وبهذا فشلت الحملة في توحيد القوى السياسية في المنطقة ، بل كان لها دوراً مباشراً في تشكيل هذه القوى وتركيزها وزيادة عددها ، مما أدى إلى استمرار بقاء المنطقة ، وحتى الآن ، غير موحدة ومقسمة وضعيفة أمام القوى الطامعة فيها .

المصادر والمراجع

١- جمال زكريا قاسم : النزاع البريطاني العثماني في الخليج العربي قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . المجلة التاريخية المغربية ، ص٣٥٥ السنة العاشرة ، العدد ٣٠ ، ١٩٨٣ .

٢- المصدر السابق ، ص ٣٥٦ .

٣- أبحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسة الخليج العربي والجزيرة العربية ، مركز الدراسات والوثائق - أبو ظبي نوفمبر ١٩٧٩ ص ٢٤٤ ، تعليق عبد الله أبو عزة .

4) Aitchison . C . U . , A Collection of treaties, Engagements and Sanads, relating totodia & Neighbouring contries Vol. XI. pp. 245-8.

5) Curzon, G, N. Persia and the Persian question, Vol. II p. 451.

انظر النص الكامل للمعاهدة في ((سيد نوفل)) الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي ، بيروت ١٩٦٩ ، ص٤١١ .

٦- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص١٦٩ ، القاهرة ١٩٦٥ .

٧- أحمد أبو حاكه : تاريخ شرقي الجزيرة العربية ، ترجمة محمد أمين ص٦٠ ، بيروت ١٩٦٥ .

٨- وثائق عابدين ، محفظة ٢٦٧ ، صورة الإرادة رقم ٢١ بتاريخ ٢ رجب ١٢٥٥هـ .

9) Kelly, Britain and the persian Gulf, P. 342, London 1965.

١٠ عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ، ص ٢٣٣ ، القاهرة ١٩٦٨ .

١١- جمال زكريا قاسم : المصدر السابق ص٣٦٠ .

12) Aitchison : Op . Cit . , Vol . , PP 16 18 .

١٣ عبد العزيز نوار : المصدر السابق ص٣٩٥ .

١٤- لوريمر : دليل الخليج ، ج٣ ، ص١٤٥ ، ترجمة ديوان حاكم قطر .

15) I. O. R . : R15 / 1 / 03101 , 25 th jamada Lawal 1278. from Ahmad Tawfik Pasha Governer of Baghdad to : Colonel Kembal, Counsil General at baghdad.

١٦ فائق طهبوب : تاريخ البحرين السياسي ، ص٢٧٥ ، الكويت ١٩٨٣ .

17) FO. 195 803A. letter No. 15 of 1866 from British Consul General Baghdad. To Lord Lyons H. B. M. S., Ambassador in Constintinople, dated 18th April 1866.

18) I.O.R. : R15/1/0/161 No. 46. 4th december, 1861. from Kemball Consul General at Baghdad. To Secretary of the Govenment of India.

١٩) جمال زكريا قاسم : دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤) الكويت ط٢ ، ١٩٧٤ ، ص ٨٠ . =

= يذكر جمال بأن شيخ البحرين كان يدفع ٤٠٠٠ ريال سنوياً وسلطان مسقط ستة آلاف ورؤساء الساحل المهادن ١٢٠٠٠ ريال .

أنظر أيضاً ، أبحاث الحلقة الرابعة ، مركز الدراسات والوثائق ، أبو ظبي ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

- كان من ضمن شروط المعاهدة أن يتعهد الأمير بالمحافظة على الرعايا البريطانيين المقيمين في الأراضي السعودية وأن لا يهاجم أو يلحق الأذى بأراضي القبائل المتحالفة مع الحكومة البريطانية .

20) Kelly, Op. cit., pp. 131 - 132.

٢١- عبد العزيز نوار : المصدر السابق ص٥١ .

٢٢- جمال زكريا قاسم : النزاع البريطاني العثماني ، المصدر السابق ص٣٥٨ .

٢٣- محمد عرابي نخلة : تاريخ الاحساء السياسي (١٨١٨ - ١٩١٣) ص ١٤٩ ، الكويت ١٩٨٠ .

- أنظر أيضاً : ديكسون هـ . و : الكويت وجاراتها ، ج١ ، ص١١٧ .

٢٤- جمال زكريا قاسم : دراسة لتاريخ الإمارات العربية ، المصدر السابق ص١٧٢ ، ١٧٤ .

٢٥- محمد عرابي نخلة : المصدر السابق ، ص١٥٢ .

٢٦- لوريمر. ج . ج . : دليل الخليج ، ترجمة ديوان حاكم قطر ، ج١ ، ص ٣٨٣ .

٢٧- جمال زكريا : النزاع البريطاني العثماني ، المصدر السابق ص ٣٥٨ .

28) F . O . : 195 / 944 No . 44, from Herbert to the Secretary of Government of India, Nov. 7th, 1971.

٢٩) للتعرف على تفاصيل الخلافات بين أبناء الأمير فيصل أنظر جمال زكريا ، دراسة لتاريخ الإمارات ، ص ١٧٧.

٣٠) فائق طهبوب : المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

31) L/P - S/18 Vols. 91 - 160. Paragraph (10). P. 7 - 8.

أنظر أيضاً : لوريمر ، المصدر السابق ، جـ ٣ ص ١٦٨٠.

32) Philpy, H. ST. Jone : Saudia Arabia PP. 192 - 193. London, 1968.

٣٣) عبد العزيز نوار : المصدر السابق ، ص ٤١٣ ، ٤١٧.

٣٤) صلاح العقاد : حملة مدحت باشا، لجنة تدوين تاريخ قطر ، جـ ٢ قطر ١٩٧٦ ، ص ٤١٧.

35) F.O : 78/2173. Letter No. 98. From H. Elliot to Lord Granville dated 22nd Feb. 1871.

36) F.O : 78/21734. Telegram No. 141. From Sir H. Elliot to Lord Granville dated April 3rd 1871.

37) IOR : L/P - S/18 Vols. 91 - 160. Najed Expedition Precies =
= Paragraph IO. P. 6.

= Paragraph IO. P. 6.
38) Kelly : Op. Cit., P. 729

٣٩) صلاح العقاد : المصدر السابق ، ص ٩١٨.

40) IOR : Najed Expedition, Op. Cit., P. 6.
41) FO. : 78/2174, Reg. No. 171, From H. Elliot to Lord Granville dated 20th April 1871.
42) F.O. : 78/2176 From Medhat to Herbert dated 1st June 1871.
43) IOR : Najed Expedition, Op. Cit., Paragraph 10. P. 6.

٤٤) صلاح العقاد ، المصدر السابق ، ص ٩٢٩.

45)IOR : Najed Expedition, Op. Cit., Paragraph 14. P. 9.

انظر أيضاً : فائق طهبوب ، المصدر السابق ، ملحق (١٤) ، نص المعاهدة ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ، ص ٢٦٨ : كان سبب فرض المعاهدة أن محمد بن خليفة قام بهجوم على موانئ السعوديين وحاصرها وضيق الخناق على التجارة وصيد اللؤلؤ ، فهاجم الأسطول البريطاني ساحل الاحساء واستولى على أفضل سفن البحرين ، وفرض المقيم البريطاني (فلكس جونز) معاهدة جديدة على حاكم البحرين وطلب منه توقيعها تحت التهديد باستعمال القوة.

٤٦) لوريمر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٦. يذكر لوريمر أن عيسى بن على نصب حاكماً على البحرين دون تدخل من السلطات البريطانية.

انظر أيضاً :

IOR : L/Pand S/18, Memorandum on the separate claims of Turkey and Persia to sovereignty over the Island of Bahrain, P. 19.
47) FO. : 78/2176, From Medhat to Herbert dated 1st June 1871.
48) F.O : 78/2175 Letter No. 225. From Elliot to Herbert, dated 8th June 1871.
49) IOR : Najed Expedition, Op. Cit., Paragraph 17. P. 11.

٥٠) أبحاث الحلقة الرابعة ، مركز الدراسات والوثائق ، أبوظبي ، ص ١٩٧. دراسة مقارنة بين الوثائق التركية والبريطانية، أحمد العناني.

٥١) أحمد حيدر مدحت : مذكرات مدحت باشا . تعريب ، يوسف كمال ، القاهرة ١٣٢٥هـ ، ص ١٧٦.

52) Kelly : Op. Cit., P. 720.
53) F.O : 78/2176, Letter No. 28. From Herbert to Secretary to Government of India, 21st June 1871.

٥٤) عبد العزيز نوار : المصدر السابق ، ص ٥٣.

55) FO. 78/2176, Letter No. 28. From Herbert to Elliot, 21st June 1871.

٥٦) محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود ، ص ١٨٨ ، بيروت ، ١٩٦٢.

٥٧) صلاح العقاد : حملة مدحت باشا ، المصدر السابق ، ص ٩٢١.

٥٨) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص ٢٣٨ ، القاهرة ١٩٦٧.

٥٩) محمد عبد القادر الأنصاري : تحفة المستفيد في تاريخ الاحساء ، ص ١٧١ ، الرياض ١٩٦٠.

60) Kelly L Op. Cit., P. 726.

٦١) جمال زكريا قاسم : النزاع البريطاني العثماني ، المصدر السابق ، ص ٣٥٨.

٦٢) محمد عرابي نخلة : المصدر السابق ، ص ١٦٧.

63) IOR : Najed Expedition, Op. Cit., Paragraph 21. P. 2.

٦٤) صلاح العقاد : المصدر السابق ، ص ٩٣١.

٦٥) أبحاث الحلقة الرابعة ، مركز الدراسات والوثائق ، أبوظبي ، المصدر السابق، أحمد العناني ص ٢٠٢.

فرض (بيلي) المقيم البريطاني في الخليج على حاكم قطر اتفاقية السلام البحري في ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ تعهد فيها الشيخ محمد بن ثاني الإقامة الدائمة في الدوحة والمحافظة على السلام البحري ودفع الضريبة السعودية إلى البحرين عن طريق المقيم البريطاني وفرض غرامة تدفع للهنود الذين نهبت محلاتهم.

انظر أيضاً : لوريمر ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٥ - ١٣٥١.

٦٦) أبحاث الحلقة الرابعة ، المصدر السابق ، ص ١٩٥.

٦٧) صلاح العقاد المصدر السابق ، ص ٩٣٥.

68) I.O.R. L/P-S/18 Vols. 90 - 160, Najed Expedition, Para. 21 P. 12.

69) Kelly : Op.Cit., P. 730.

٧٠) المصدر السابق ، ص ٧٣١.

71) I.O.R. L/P-S/18 Vols. 90 - 160 Para. 10. Najed Expedition Precies, P. 7.

٧٢) محمد عرابي نخلة : المصدر السابق ، ص ١٧٠.

٧٣) عبد العزيز نوار : المصدر السابق ، ص ٤٢٩.

74) F.O. 78/2176, No. 374, From Sindy Smith Acting Resident in P. Gulf to Pelly, dated 21 July, 1971.

٧٥) أبحاث الحلقة الرابعة ، مركز الدراسات والوثائق ، أبوظبي ، المصدر السابق، ص ٢١٥.

انظر أيضاً لوريمر : المصدر السابق جـ ٣ ، ١٣٤٥ - ١٣٥١.

٧٦) المصدر السابق ، ص ٢١٥.

٧٧) شركة الزيت العربية الأمريكية : عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي ، ص ٢٥٥ ، القاهرة ١٩٥٧.

٧٨) أبحاث الحلقة الرابعة ، مركز الدراسات والوثائق ، أبوظبي ، المصدر السابق، ص ٢١٥. أحمد العناني.

٧٩) المصدر السابق ، ص ٢١٥.

80) F.O. 78/2176, From Pelly to Political Secretary to Govt. of India, dated 11 March 1971.

٨١) للتعرف على تفاصيل الأحداث انظر : محمد عرابي نخلة ، المصدر السابق ، ١٧٤.

٨٢ عبد العزيز نوار : المصدر السابق ، ص ٤٣١.

٨٣) المصدر السابق ، ص ٥٢.

انظر أيضاً : صلاح العقاد ، حملة مدحت باشا ، المصدر السابق ، ص ٩٣٤.

٨٤) جمال زكريا قاسم : دراسة لتاريخ الإمارات العربية ، ص ٢٠٢.

٨٥ لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٦٨٦.

86) I.O.R. : Najed Expedition, Op. Cit., Par. 9 P. 6.

٨٧) محمد عبد القادر الأنصاري : المصدر السابق ، ص ١٧٦.

انظر أيضاً : ديكسون ، الكويت وجاراتها ، ص ١١٩.

يذكر ديكسون أن عبد الرحمن استلم إمارة الرياض في يناير ١٨٧٥ لكن لم يستقم الأمر له إذ تمرد عليه أبناء أخيه سعود فترك الرياض والتحق بأخيه عبد الله.

88) Philpy, J : Op. Cit., P. 266.

٨٩) السيد / رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١٦٦ ، القاهرة ١٩٧٠.

٩٠) وثائق سعودية : التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين أبوظبي ومسقط والمملكة العربية السعودية جـ ١ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

٩١) محمد سعيد المسلم : المصدر السابق ، ص ١٩٢.

٩٢) لوريمر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٨٣.

٩٣) عبد العزيز نوار : المصدر السابق ، ص ٦٣.

انظر أيضاً : لوريمر جـ ٣ ص ١٢٢٧.

٩٤) للتعرف على التنظيمات الخاصة بالضرائب راجع : أبحاث الحلقة الرابعة ، مركز الدراسات والوثائق ، أبوظبي ، المصدر السابق، وثيقة رقم (٣) ملحق المادة ٢-٩. انظر أيضاً : محمد عرابي نخلة ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦.

٩٥) الأنصاري : المصدر السابق ، ص ١٨٠ ، انظر أيضاً لوريمر ، المصدر السابق ن جـ ٣ ، ص ١٤٧٧.

٩٦) جمال زكريا قاسم : المصدر السابق ، ص ٢٠٠.

٩٧) عبد العزيز نوار : المصدر السابق ، ص ٥٧.

٩٨) دائرة المعارف الإسلامية : مادة الكويت ، انظر أيضاً جمال زكريا ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧.

٩٩) محمد عرابي نخلة : المصدر السابق ، ص ١٧٧.

١٠٠) جمال زكريا قاسم : المصدر السابق ، ص ٢٥٦.

١٠١) صلاح العقاد : المصدر السابق ، حملة مدحت باشا ، ص ٩٢٣.

102) Kelly: Op. Cit., P. 730.

١٠٣) أحمد حيدر مدحت : مذكرات مدحت باشا ، المصدر السابق ، ص ١٨١.

١٠٤) عبد الله فليبي : المصدر السابق ، ص ٢٧٣.

للتعرف على تفاصيل مؤامرة مبارك في قتل شقيقه ، انظر جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ - ٢٦١.

١٠٥) أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٤٠٤ ترجمة عبد القادر يوسف ، الكويت ، بدون تاريخ.

106) Hurwitz, J. C. : Diplomacy in the Near & Middle East, A Documentary Record. Vol. 1, P, 218.

١٠٧) جمال زكريا قاسم : المصدر السابق ، المتن ، ص ٢٦٥.

١٠٨) لوريمر ، المصدر السابق / جـ ٣ ، ص ١٥٣٤.

انظر أيضاً :

Aitchesson : A Collection of treaties, Op. Cit., Vol. XII, P. 262

١٠٩) أرنولد ويلسون : المصدر السابق ، ص ٣٩٧ ، ٣٩٨.

١١٠) فائق طهبوب : المصدر السابق ، الفصل السادس.

111) Kelly : Op. Cit., P. 730.

١١٢) ناصر بن مبارك هو زعيم عائلة (عبد الله بن أحمد) المطرود من البحرين ، وقد عرضت خدماته على الدولة العثمانية منذ اللحظات الأولى لنزول الحملة على شواطئ الاحساء. انظر محمد عرابي نخلة ، المصدر السابق ص ١٧١.

113) Kelly : Op. Cit., P. 733.

114) I.O.R. : L/P - S/18 : Op. Cit., P.33.

115) Najed Expedition, Op. Cit., P. 33.

116) Curzon : Op. Cit., Vol. 11, P. 545.

١١٧) صلاح العقاد : المصدر السابق ، ص ٩٢٧.

١١٨) ابحاث الحلقة الرابعة : المصدر السابق ، ص ١٩٨.

١١٩) لوريمر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٦.

١٢٠) فائق طهبوب : المصدر السابق ، ص ٢٨٢.

121) F.O : 78/5108. Turkish jurisdiction along the arabian Coast, Part. 11., P. 31 - 32.

١٢٢) سالدانها ، جي أي : الشؤون القطرية ، ص ٢٠. ترجمة أحمد العناني ، الدوحة ، ١٩٧٦.

١٢٣) أبحاث الحلقة الرابعة : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧.

يذكر أحمد العناني أن مشيخة البحرين هي التي راصلت هجماتها بدعم من بريطانيا ضد بني هاجر بل أنها لاحقتهم إلى قرب شواطئ الشارقة.

124) F.O. : 78/5108 Turkish Jurisdiction, Op. Cit., P. 32.

125) F.O. : 78/5108 Turkish Jurisdiction, Op. Cit., P. 32.

١٢٦) أبحاث الحلقة الرابعة : المصدر السابق ، ص ٢٠٨.

127) F.O. : 78/5108. From Jasim Bin Muhammed Bin Thani to Shaikh Esa - Bin Ali Al - Khaleefah, 28th Aug. 1887.

١٢٨) أرنولد ويلسون : المصدر السابق ، ص ٣٩٨.

العلاقات العثمانية - البحرانية

للباحث :
عثمان زكي صوى يغيت
الأرشيف العثماني باستانبول

تناولنا في هذا البحث ((مسألة جزر البحرين)) كيف نشأت وتطورت أيام العثمانيين ، واعتمدنا في إعداده على تقرير لوزارة الخارجية للباب العالي (الحكومة العثمانية) عن البحرين بتاريخ ٨ يناير (كانون الثاني) ١٩١٧ وتوقيع محمد نابي السفير الكبير لدى روما للدولة العثمانية .

وهذا التقرير عرض موجز لتاريخ الصلات والعلاقات بين البحرين والدولة العثمانية . ولكونه صادراً عن مصدر موثوق مسؤول اعتمدناه في بحثنا عن البحرين ، وحرصنا كل الحرص على نقل جميع ما جاء فيه لاطلاع حضراتكم على تاريخ هذا الجزء الهام من الخليج العربي ، البحرين في الحكم العثماني لفترة غير قصيرة ، إلا أنها لم تكن بصورة دائمة ومستمرة ، بل تخللتها فترات انفصال بين حين وآخر ، وكان الشيخ اللاحق للبحرين من أسرة ((الخليفة)) .

وفي أوائل عام ١٨٧٠ قدمت إلى مياه البحرين أربع سفن بريطانية ، فقام الإنكليز بعزل الشيخ وإبعاده إلى بومباي ، ونصب شيخ آخر محله . ولما تم إشعار ذلك إلى الباب العالي من قبل ولاية بغداد أصدرت الحكومة العثمانية تعليمات إلى سفارتها بلندن حول طلب إيضاح من الحكومة البريطانية في ذلك ، فقامت السفارة السنية بإبلاغ استانبول ببرقية جوابية بتاريخ ١٥ يناير (كانون الثاني)

١٨٧٠ أن اللورد ''كلار أندون'' وزير خارجية انجلترا ليست لديه أية معلومات عما وقع مؤخراً في البحرين وأنه يعزو تواجد السفن البريطانية في البحرين إلى اتخاذ قراصنة البحر هذه الجزر وكراً لهم ، أما تبعيتها للدولة العثمانية فأمر لم يسمع به من قبل ، وكل ما يعرفه عنها أن إيران تدعي حق الحاكمية عليها . كما أشار السفير العثماني في برقيته الجوابية إلى انه قام بتبليغ اللورد (كلاراندون) أن جزر البحرين تابعة للبصرة منذ القديم ، ومن ثم فهي تابعة للدولة العثمانية منذ الفتح العثماني لبغداد والبصرة . واعتباراً من هذا التاريخ ظهرت من جهة ، وتزويد الباحثين في الموضوع بإشارات تدلهم على الطريق وتمكنهم من تعميق وتوسيع دائرة بحوثهم من جهة أخرى .

وكما جاء في التقرير أن جزر البحرين تقع على مدخل خور كبير في نهاية قطعة الأحساء على الساحل الغربي لخليج البصرة ، وتحتل موضعاً بين خطي الطول ٤٠ و ٥٠ وعلى خط العرض ٢٦ .

والبحرين عبارة عن عدد من الجزر ، بينها جزيرة واحدة أطلق عليها جزيرة البحرين لضخامتها بشكل لا يقبل القياس مع بقية الجزر الصغيرة ، وطول هذه جزيرة إحدى عشرة ساعة ، وعرضها أربع ساعات ونصف ساعة ، ويقدر عدد سكانها بحوالي ٢٥ ألف نسمة ، وهم ينتمون إلى المذهب الجعفري ، والمورد لرئيسي لتعيشهم هو ما يصطادونه من لآلئ وأصداف من البحر بمالهم من نحو ألف سفينة .

وكان البرتغاليون قد استولوا على جزر البحرين عام ١٥٠٧ ، وحكموها إلى أن أجلاهم عنها الشاه عباس الصفوي عام ١٦٢٢ ، ولكن النزاع العربي - الإيراني عليها ظل قائماً ومستمراً حتى تم ضبطها وتسخيرها في ١٧٨٤ من قبل قبيلة

عربية تدعى ((عطربي)) وفي أعقاب الفتح العثماني لبغداد والبصرة دخلت جزيرة مسألة البحرين ، ومن يتمتع بحق الحاكمية فيها .

وبعد مضي عام واحد على نشوء المسالة البحرانية ادعت الحكومة البريطانية أن المرحوم عالي باشا أدلى بتصريح في ١٥ أبريل (نيسان) ١٨٧١ للترجمان الأول ((بيراني)) للسفارة البريطانية لدى استانبول ، قال فيه إن الدولة العثمانية غير راغبة في المضي في دعوى تبعية البحرين لها ، إلا أن هذا الادعاء البريطاني لم يستند إلى أية وثيقة تحريرية فرفضته الحكومة العثمانية في كل مناسبة ، كما قام السفير العثماني بلندن في ١٦ يوليو (تموز) ١٨٧٢ بتبليغ اللورد (غرانويل) أن البحرين من مضاقات نجد ، وأنها جزء من الأجزاء المتممة للدولة العثمانية. والترجمان الأول هذا سبق أن ارتكب قبل أعوام أغلاطاً خطيرة في ترجمة معاهدة تجارية عقدت بين الدولتين العثمانية والبريطانية إلى الإنكليزية فوقع من جراء ذلك خلاف وتباين خطير بين النصين التركي والانكليزي للمعاهدة بشكل يتنافى مع المصالح العثمانية ، ويعرضها للضياع ، مما حمل الباب العالي على مطالبة الحكومة البريطانية عن طريق سفيرها ((كانين)) باستانبول بالموافقة على تعديل بعض موادها كما في ملف (انجلترا دولة مسائل متنوعة) (مسائل متنوعة مع دولة انكلتره) الرقم ٨٠٥ من وثائق الأرشيف العثماني باستانبول .

وبناء على إشعار ما ورد إلى استانبول من المأمورين العثمانيين في نجد ، من أن الانكليز أقاموا أبنية لهم في البحرين ، ووضعوا ٢٠ جندياً من عساكرهم النظامية حرساً على باب مقر الحكومة لشيخ البحرين ، بناء على هذا الإشعار قامت الحكومة العثمانية بمحاولات لدى وزارة الخارجية البريطانية فرد عليها اللورد ((غرانويل)) وزير خارجية بريطانيا بمذكرة بتاريخ ٨ أغسطس (آب) ١٨٧٢ جاء فيها بالحرف الواحد :

((أثناء حديثنا عن جزيرة البحرين ، كنتم قد ذكرتم وصول تعليمات لكم من

حكومتكم ، تقضي ببذل جهود ومحاولات ودية لدى الحكومة البريطانية ، إزاء كل اعتداء تتعرض له أراضي جلالة السلطان ، وكنت وعدت معاليكم بإجراء التحقيقات اللازمة ، ويشرفني الآن أن أعرض على معاليكم أن وزير شؤون الهند، طلب من حكومته بياناً حول محاولات سفارتكم البهية ، ومع الانتظار لنتائج التحقيق في هذا الباب ، فلتكن الحكومة العثمانية السنية مطمئنة من أن الحكومة البريطانية غير راغبة في التدخل في مسائل خليج البصرة ، ما لم تتعلق بالخصوصات التي التزمتها بموجب المعاهدات المعقودة الخاصة بالحفاظ على أمن الخليج)) .

ونظراً لأهمية المسألة وخطورتها ، كان على السفير العثماني بلندن تقديم احتجاجه على المحاولات البريطانية في البحرين بوثيقة خطية ، ولكنه اكتفى بالمشافهة في ذلك ، وكذلك الحكومة العثمانية ، أولت كل ثقتها واعتمادها بما جاء في مذكرة وزير خارجية بريطانيا اللورد غرانويل ، وظنت أن بريطانيا تخلت عن التدخل في خليج البصرة ، وإجراء نفوذ فيها بالكلية .

ولم يمض على ذلك غير عامين وإذا بالقنصل البريطاني في البصرة يطالب بإعفاء البحرانيين من الخدمة العسكرية ، ويطرح من جديد مسألة البحرين على بساط البحث ، وما بذلته الدولة العثمانية من محاولات سياسية في هذا المضمار ، رد عليها اللورد ((دربي)) بتقرير أرسله إلى السفارة العثمانية بلندن بتاريخ ١٤ أبريل (نيسان) ١٨٧٤ ، وذكر فيه أن تبعية البحرين للدولة العثمانية أمر لا تستطيع انكلتره قبوله والاعتراف به ، وفيما يلي أهم ما اشتملت عليه هذه المذكرة من نقاط :

- البحرانيون الداخلون في القرعة العسكرية هم ممن هاجروا إلى البصرة قبل ست وأربعين سنة وتوطنوا فيها ، وتصرفوا في أملاك لهم ، فلا مجال للاعتراض على دخول أعضاء هذه الأسر في القرعة العسكرية ، وسيتم تزويد القنصل

البريطاني في البصرة بتعليمات في ذلك .

- أما غير هؤلاء من البحرانيين فليس للدولة العثمانية أن تعاملهم كما تعامل رعاياها ، وإن هي فعلت فالقنصل البريطاني في البصرة سيحتج على ذلك .

- يبدو أن الحكومة العثمانية تدعي حق الحاكمية على جزر البحرين رغم إعطاء راشد باشا ضمانات للسير ((اليوت)) في أن الباب العالي لا ينوي اعتبار البحرانيين من رعايا الدولة العلية ، وأن تعليمات خاصة بذلك صدرت إلى ولاية بغداد .

- لا يمكن لحكومة بريطانيا أن تقبل وتصدق ما تدعيه الدولة العلية من أن البحرين من الأجزاء المتممة للممالك العثمانية .

- إن سكان البحرين هم أتباع حاكم صديق للدولة البريطانية ، ومن أجل ذلك فإنهم إذا راجعوا القنصل البريطاني عند الحاجة فلن يكون هناك تقصير في مد يد المساعدة لهم .

- وبعد شهرين من تاريخ هذه المذكرة تسلمت الحكومة العثمانية برقية جوابية من ((موسوروس)) باشا بتاريخ ١٣ يوينو (حزيران) ١٨٧٤ يذكر فيها ما أدلى به اللورد دربي من بيانات حول تزويد الحكومة البريطانية قنصلها في بغداد بتعليمات تقضي ببذل الحماية للبحرانيين الذين يأتون إلى الممالك العثمانية بصورة مؤقتة فقط دون الذين يقيمون فيها بصورة دائمة ، وأن الحكومة البريطانية لا تعتبر البحرين إلا ذات سيادة واستقلال ، ولا تبيت أبداً الاستيلاء عليها .

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أهمية هذه المذكرة البريطانية وخطورتها البالغة، ولكنا لم نعثر على أية وثيقة عثمانية تدل على الرد عليها في حينها ، وبعد سنوات عديدة ، أي اعتباراً من سنة ١٨٩٢، تبلورت دعوى الحماية البريطانية هذه على البحرين واشتدت ، فقدمت الحكومة السنية مذكرة احتجاج بتاريخ ٤ أبريل

(نيسان) ١٨٩٢ إلى السفارة البريطانية باستانبول أعلنت فيها رفضها لدعوى الحماية هذه وما جاء في المذكرتين البريطانيتين اللتين سبق أن أشرنا إليهما آنفاً وكانت أولاهما بتاريخ ٨ أغسطس (آب) ١٨٧٢ والثانية بتاريخ ١٤ أبريل (نيسان) ١٨٧٤ فردت السفارة البريطانية عليها بمذكرة جوابية بتاريخ ٩ مايو (أيار) ١٨٩٢ ذكرت فيها أن حكومة الهند اعتبرت البحرين مستقلة منذ عام ١٨٢٠ ، ودخلت في علاقات مع شيخها وفق معاهدات عقدتها معه ، ومن أجل ذلك فلا مجال لقبول وتصديق ما تدعيه الحكومة السنية من حق الحاكمية على جزر البحرين . المتعلقة بخليج البصرة ، وأبلغت السفارة البريطانية باستانبول مشافهة أن هذه المسألة ينبغي دمجها بين المسائل الأخرى للخليج ، وإيجاد حل لها .

وخلال الفترة التاريخية الواقعة بين ١٨٢٠ - ١٨٩٨ عقد شيوخ البحرين مع انكلترا تسع معاهدات ، منها :

- معاهدة بتاريخ ٥ فبراير (شباط) ١٨٢٠ تعهد بموجبها شيخ البحرين بمنع بيع الأموال المحصلة بأعمال النهب والقرصنة في بلده .
- معاهدة بتاريخ ١٠ مايو (أيار) ١٨٥٦ تقضي بإلغاء تجارة العبيد في البحرين .
- معاهدة بتاريخ ٣١ مايو (أيار) ١٨٦١ تعهد بموجبها شيخ البحرين بعدم الخوض في حرب في البحر ، والقرصنة ، وتجارة العبيد مقابل الحماية الانكليزية له .
- معاهدة بتاريخ ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٨٦٨ تتلعق بتنازل كل من علي بن خليفة، ومحمد بن خليفة عن مشيخة البحرين .
- معاهدة سياسية بتاريخ ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٠ ، وفي بحر هذا العام طالب القنصل البريطاني في البصرة الحكومة المحلية برد بعض رسوم كانت قد استوفتها من بعض البحرانيين ، فقدمت الحكومة العثمانية الشكوى في ذلك إلى السفارة البريطانية باستانبول ، فجاء في مذكرتها الجوابية المؤرخة

١١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٩٢ بيان هذه الحماية الانكليزية على البحرين بالشكل التالي:

((إن جزيرة البحرين واقعة اليوم تحت الحماية الانكليزية ، والسفارة تلقت من حكومتها تعليمات في تبليغ ذلك إلى الحكومة السنية ، وبناء على ذلك لا يمكن قبول أي تدخل من المأمورين العثمانيين في الشؤون الخاصة بالبحرانيين)) .

ثم هيمنت على مسألة البحرين فترة جمود وركود دامت تسع سنوات ، وفي أوائل عام ١٩٠١ تم توقيف عدد من البحرانيين من قبل مأموري البصرة ، فقامت السفارة البريطانية باستانبول بتقديم مذكرة فيهم إلى الباب العالي ، وطلبت إخلاء سبيلهم كما أكدت من جديد الموقف السياسي لانكلتره من البحرين .

وأثناء بدء المذاكرات مع الانجليز في مشروع خط بغداد الحديدي لم تلاحظ الحكومة العثمانية فائدة في الخوض في نقاش مع الانكليز في مسألة البحرين فاعتبرتها من جملة الخصوصات التي عقدها الشيخ عيسى شيخ البحرين مع الانكليز وجاء فيها : ((أنا شيخ البحرين عيسى بن علي الخليفة أتعهد للحكومة البريطانية باسمي وباسم الذين يرثون الحكم بعدي من أخلافي بعدم إجراء مباحثات ، وعقد معاهدات مع دولة أو حكومة أخرى قبل الحصول على موافقة في ذلك من الحكومة البريطانية ، كما أتعهد بعدم منح رخصة لغيرها في تعيين مأمور سياسي ، أو فتح قنصلية ، أو بناء مخزن للفحم لها في البحرين ، ولا تشمل هذه المعاهدة عدا ذلك من الأمور والخصوصات والاتصالات الودية المعتادة مع المسؤولين المحليين للحكومات المجاورة)) .

- معاهدة خاصة بتاريخ ١٣ مارس (آذار) ١٨٩٢ عقدها شيخ البحرين مع الانكليز وجاء فيها :

((أنا شيخ البحرين عيسى بن علي الخليفة أتعهد أمام المأمور السياسي الانكليزي آ . اس . اليوت ، المقيم في خليج البصرة ، باسمي وباسم ورثتي وأخلافي من بعدي،

بمراعاة الشروط التالية :

أولاً عدم إجراء تعهدات واتصالات مع دولة أخرى غير البريطانية بوجه من الوجوه .

ثانياً : عدم السماح لدولة أخرى بإقامة ممثل لها في بلدي ما لم توافق على ذلك الحكومة البريطانية .

ثالثاً : عدم التخلي عن أي جزء من أجزاء بلدي ، أو بيعه ، أو رهنه ، أو السماح باحتلاله لحكومة أخرى غير الحكومة البريطانية)) .

- معاهدة بتاريخ ٣٠ أبريل (نيسان) ١٨٩٨ تعهد بموجبها شيخ البحرين بمنع دخول أسلحة إلى بلده وخروجها منه .

وكما هو معلوم ، فإن انكلتره أقدمت خلال القرن التاسع عشر على احتلال بعض المواقع العسكرية الهامة في البحر الأحمر ، وبحر عمان ، وخليج البصرة شيئاً فشيئاً لفرض سيطرتها على الطرق المؤدية إلى الهند ، وتقوية نفوذها في البحار المجاورة لها ، ومن أجل ذلك تعرضت جزر البحرين لتأثيرات هذه السياسة البريطانية .

وقد أجرى حقي باشا مذكرات بلندن حول عدد من المسائل ، كانت بينها مسألة جزر البحرين ، وتمخضت هذه المذكرات عن توقيع اتفاق بين الطرفين بتاريخ ٢٩ يوليو (تموز) ١٩١٣ ، يتعلق بمسألة الكويت ، وخليج البصرة ، وقطر ، والقسم الثالث من هذا الاتفاق يتعلق بالبحرين ، وجاء فيه :

المادة ١٣ - الحكومة العثمانية تتخلى عن جميع مطالبها في جزر البحرين بما فيها الجزيرتان الصغيرتان لبنان العلية ، ولبنان السافلة ، وتعترف باستقلال البحرين كما أن الحكومة البريطانية لا تبيت إلحاق جزر البحرين بممتلكاتها .

المادة ١٤ - تتعهد الحكومة البريطانية للحكومة العثمانية بحمل شيخ البحرين على تحصيل أخف الرسوم من صيادي اللؤلؤ من الرعايا العثمانيين .

المادة ١٥ - الدولة العثمانية تعامل البحرانيين في الممالك العثمانية ، مثل رعايا الدول الأجنبية وتجري حمايتهم من قبل القناصل البريطانية فيها وفق قواعد الحقوق الأوربية الدولية ، وذلك لأن رعايا شيخ البحرين لا يتمتعون بحق الاستفادة من الامتيازات الممنوحة بموجب معاهدات قديمة لرعايا بعض دول أجنبية .

وهذا الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين حقي باشا وسير أدوار غراي ، عارضته كل من حكومتي ألمانيا وروسيا لبعض المواد الواردة فيه ، ومنها ما يتعلق بتشكيل لجنة تتولى الإشراف على إصلاح الملاحة في شط العرب ، وأدى ذلك إلى دخول انكلتره في مذاكرات معهما ، فتأخر التصديق على الاتفاق ، وأثناء ذلك اندلعت الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية وانقراضها .

باب عالی

خارجیه نظارتی

بحرین آطه‌لری مسئله‌سی

استانبول — مطبعهٔ عامره

١٣٣٤

بحرين آطه‌لری مسئله‌سی

بحرين آطه‌لری بصره كورفزينك ساحل غربيسنده‌كی «احسا» قطعه‌سنك منتهاسی اولان بيوك كورفزك مدخلنده قزيلجه والليجی طول دائره‌لری آره‌سنده ويكرمی‌التنجی عرض دائره‌سنك همان كذركاهنده برقاچ آطه‌دركه ايچلرندن يالكز بری ديكرلرينه نسبت قبول ايتمز مرتبه جسيم اولمسيله ساده‌جه «بحرين» جزيره‌سی دنيلور . بو آطه‌نك طولی اون‌بر وعرضی درت بچق ساعتلك مسافه تشكيل ايدر . نفوسی يكرمی بش بيك تخمين اولنمشدر . جعفری مذهبنده اولان اهاليسنك باشلوجه مدار تعيشلری بيك قدر كميلريله صيد ونقل ايتدكلری اينجو وصدفدر .

بحرين اطه‌لری ٩٥٠٧ تاريخنده پورتكيزلرك تحت تملكلرنده ايديسه‌ده بونلر ١٦٢٢ تاريخنده شاه عباس صفوی طرفندن دفع وطرد ايدلمشلردر . بعده جزاير مذكوره عجملر ايله عربلر آره‌سنده منازعاتی موجب اولمش ونهايت ١٧٨٤ تاريخنده (عطربی) نام عرب قبيله‌سی طرفندن ضبط وتسخير اولنمشدر .

بغداد وبصره‌نك فتحندن صكره دولت عليه‌نك برصورت متماديه ومستمره‌ده اولماقله برابر ايچه‌زمانده «بحرين» اوزرنده اجرای حكمرانی ايلديكی اكلاشيلور . اجرای حكومت ايتمكده اولان بحرين شيخ لاحقی («الخليفه») عائله‌سندندر .

درت انكليز كميسنك ١٨٧٠ اوائلنده بحرين صولرينه كله‌رك شيخك عزليله بومبايه اعزامی ويرينه آخرك نصبی خبری بغداد ولايتندن اشعار اولنمسی متعاقب لوندره سفارت سنيه‌سينه بوبابده انكلتره حكومتندن ايضاحات طلب ايلمسی اشعار قلنمشدر . سفارت مشار اليهانك ١٥ كانون ثانی سنه ١٨٧٠ تاريخلو تلغرافنامه جوابيسنده لورد قلاراندونك بو وقعه‌دن اصلا معلوماتی اولمديغنی مع مافيه بحرين آطه‌لری رمدتدنبری قورصان يتاغی اولديغندن انكلتره كميلرينك اوواده بولنمسی بوندن نشأت ايتمه برحال اوله‌جغنی وبحرين آطه‌لرينك حكومت سنيه‌يه عائديتی ايلك دفعه اوله‌رق ايشتديكنی وجزاير مذكوره اوزرنده ايران طرفندن حقوق حكمرانی ادعا ايدلمكده اولديغنی سؤيلمسيله سفيرمزك ايرانك عربستان اوزرنده اصلا حقوق حكمرانيسی اولميوب بحرين آطه‌لری من القديم بصره‌يه تابع اولديغی

جهتله بصره وبغدادك فتحندنبرو بو آطه‌لرك حكومت سنیه‌یه عائدیتی دریان ایلدیکی محرردر. بحرینده حکمرانلق حقنك کیمه عائد اولدیغی ایشته بو تاریخده ظهور ایتمشدر.

مرحوم عالی پاشانك ١٥ نیسان سنه ١٨٧١ تاریخنده درسعادت انکلتره سفارتی باش ترجمانی (پیزانی) یه بحرین اطه‌لری اوزرنده حکومت سنیه‌نك حکومت ادعاسی آرزوسنده بولنمدیغنی سویلدیکی انکلتره حکومتنجه ادعا اولنقده ایسه‌ده بو ادعا هیچ بر وثیقه تحریریه‌یه مستند اولمدیغندن باب عالیجه صره‌سی کلدکجه تکذیب ایدلمش و بحرینك (نجد) مضافاتندن و بنابرین ممالك عثمانیه‌نك اجزای متممه‌سندن بولندیغی لوندره سفیرمز ١٦ تموز سنه ١٨٧٢ تاریخنده لورد غرەنویله شفاها تکراردن خالی قالمامشدر.

مسئله‌نك اهمیتنه مبنی بو خصوصك اوزمان سفیرمز طرفندن ناظر مشارالیهه تحریراً تبلیغی اقتضا ایدر ایدی.

انکلیزلرك بحرینده ابنیه انشاسی وشیخك مقر حکومتی قپوسنه دخی نوبتجی مقامنده یکرمی نفر نظامیه عسکری اقامه ایتدیرمش اولدقلری تجدده‌کی مأمورین عثمانیه طرفندن اشعار ایدلمسی اوزرینه انکلتره خارجیه نظارتی نزدنده اجرا قلنان تشبثاته ٨ اغستوس سنه ١٨٧٢ تاریخلی نوطه‌سیله لورد غره‌نویل شو یولده جواب اعطا ایلمشدر:

« بحرین آطه‌سی حقنده وقوعبولان مکالمه‌مزده ذات شاهانه‌یه عائد اراضی‌یه وقوعبوله‌جق
« هر درلو تجاوزه قارشو تشبثات دوستانه‌ده بولنمق ایچون حکومت متبوعه‌کزدن تعلیمات
« آلدیغکزی افاده ایتمکزه مقابل بنده تحقیقات لازمه‌ده بولنه‌جغمی ذات اصیلانه‌لرینه وعد
« ایلمشیدم. شمدی ذات عالی سفیرانه‌لرینه عرض معلومات ایتمکله مفتخرم‌که هندستان
امور ناظری تشبثات سفارتپناهیلری حقنده ایضاحات ویرلسنی حکومت متبوعه‌سندن
« رجا ایلمشدر. مع مافیه بو بابده اجرا قلنه‌جق تحقیقات نتیجه‌سنه انتظاراً حکومت سنیهٔ
« عثمانیه مطمئن اوله‌بیلورکه انکلتره حکومتی بصره کورفزنده آسایشك ادامه‌سی ضمننده
« عقد ایدیلن معاهداتك کندیسنه تحمیل ایلدیکی خصوصاته تعلق ایتمدکجه سالف البیان
« کورفز مسائلنه مداخله آرزوسنده دکلدر. »

فرانسزجه اوله‌رق ترجمه‌سی آتی‌یه ذیلاً نقل اولنان اشبو نوطه‌نك محتویاتنك صمیمیتنه طرفمزدن فضله بر صورتده اعتماد ایدیله‌رك انکلتره‌نك بصره کورفزی داخلنده اجرای نفوذ ومداخله‌دن کلیاً فراغت ایلدیکی ظن ایدلمشیکن ایکی سنه صکره دولت عثمانیه تبعه‌سندن بحرینلیلرك خدمت عسکریه‌دن معاف طوتلری ایچون بصره‌ده‌کی انکلیز قونسلوسنك

ادعاسی بحرین مسئله‌سی یکیدن موقع بحثه قونمشدر. بومناسبتله اجرا ایلدیکمز تشبثاته جواباً لورد دربی‌نك لوندره سفارت‌سنیه‌سنه ۱٤ نیسان ۱۸۷٤ تاریخیله کوندردیکی تقریرده بحرینك دولت علیه‌یه عائدیتی انکلتره دولتنجه قبول ایدیله‌میه‌جکی یکیدن درمیان ایدلمشدر. مذکور نوطه‌نك شایان اهمیت کوریلان نقاطی شونلردر :

« قرعهٔ عسکریه‌یه ادخال اولنان بحرینلیلر قرق التی سنه مقدم هجرت و بصره‌ده
« توطن واقامتکاه اتخاذیله املاکه متصرف فاملیا اعضاسندن اولوب بصره‌ده تولد ایتدکارینه
« دائر بغداد والیسی جانبندن ویریلان تأمینات اوزرینه بونلرك داخل قرعه اولملرینه
« ممانعته محل قالمامش اولدیغندن بصره قونسلوسنه بوبابده تعلیمات ویریله‌جکدر. انجق
« بحرین اهالیسنه ممالك عثمانیه اهالیسی کبی معامله اولندیغی کورلدیکی تقدیرده قونسلوس
« مومی‌الیه بوخصوصی پروتستو ایده‌جکدر. باب عالینك بحرینلیلره تبعهٔ عثمانیه نظریله
« باقمق نیتنده بولنمدیغنه وبغداد ولایته تعلیمات اعطا قلندیغنه دائر راشد پاشا طرفندن
« (سیر الیوت) ه تأمینات ویرلمش ایکن باب عالینك الیوم بحرین اطه‌لری اوزرنده حقوق
« حکمرانی ادعاسنده بولندیغی کوریلیور. دولت متبوعه‌م بحرینك ممالك عثمانیه‌نك
« اجزای متممه‌سندن اولدیغنه دائر دولت‌علیه طرفندن درمیان اولنان ادعائی
« قبول وتصدیق ایده‌مز. بحرین اهالیسی انکلتره دولتنك دوستی اولان برحاکمك
« تبعه‌سندن بولندقلری جهتله لدی‌الحاجه انکلتره قونسلوسنه مراجعتلرنده حقلرنده
« معاونت لازمه ایفاسنده قصور اولنمیه‌جقدر. »

آتیده فرانسزجه‌سی ذیلاً مندرج بوتقریرك ارسالندن ایکی آی صکره موسوروس پاشانك ۱۳ حزیران ۱۸۷٤ تاریخنده باب عالی‌یه کشیده ایلدیکی تلغرافنامهٔ جوابیده حمایه وتوسطی موقتاً ممالك عثمانیه‌یه کلان بحرینلیلره حصر ایله صورت دائمه‌ده متوطن بولنان بحرینلیلری حمایه‌دن توقی ایتمسی ایچون بغداد قونسلوسنه تعلیمات اعطا ایدیلوب انکلتره‌نك بحرین اوزرنده اصلا اجرای حاکمیت نیتنده بولنمدیغی واوراسنی مستقل عد ایلدیکنی لورد دربینك بیان ایلدیکی محرردر. انجق اهمیتی درکار اولان اشبو نوطه‌یه جواب ویرلدیکنه دائر دوسیه‌ده هیچ بروثیقه‌یه تصادف اولنمامشدر. برخیلی سنه صکره یعنی ۱۸۹۲ سنه‌سندن اعتباراً بحرین جزیره‌سنك انکلتره‌نك تحت حمایه‌سنده بولندیغی اورته‌یه

سوروملش وخصوصیله بصره انكلیز قونسلوسنك حكومت محلیه‌جه استیفا قلنمش اولان بعض رسومك اعاده‌سنی طلب ایلمسندنطولایی طرفمزدن واقع شكایانه جواباً انكلتره سفارتی ۱۱ تشرین ثانی ۱۸۹۲ تاریخلی تقریریله بوحمایه مسئله‌سنی شو صورتله تذكار ایلمشدر :

« بحرین جزیره‌سی الیوم انكلتره‌نك حمایه‌سی تحتنده بولندیغنك حكومت
« سنیه‌یه تبلیغی ضمننده سفارت تعلیمات اخذ ایلمش اولدیغندن مأمورین عثمانیه‌نك بحرینلیلره
« عائد خصوصاتده مداخله‌لری شایان قبول كوریله‌مز . »

درسعادت انكلتره سفارتنه باب عالی جانبندن ٤ نیسان ۱۸۹۲ تاریخنده مرسل تقریرده اشبو مدعیاتك شایان قبول اوله‌میه‌جغی بیلدیریله‌رك بالاده معروض ۸ اغستوس ۱۸۷۲ و ۱٤ نیسان ۱۸۷٤ تاریخلریله لوندره سفارت سنیه‌سنه كوندرلمش اولان نوطه‌لرك محتویاتی ذكر ایدلمشدر .

اشبو تشبثاتمزه انكلتره سفارتنك اعطا ایلدیكی ۹ مایس ۱۸۹۲ تاریخلی تقریر جوابیده هندستان حكومتنك ۱۸۲۰ سنه‌سندن بری بحرینی مستقل عد ایده‌رك بحرین شیخی ایله بامقاوله مناسباته كیرشدیكندن حكومت سنیه‌نك بحرین آطه‌لری حقنده‌كی ادعای حاكمیتی قبول وتصویب ایدیله‌میه‌جكی تأكیداً بیان قلنمشدر .

طقوز سنه قدر بحرین ایشنه دائر مخابره جریان ایتمیوب ۱۹۱۱ اوائلنده برقاچ بحرینلینك بصره مأمورینی طرفندن توقیف ایدلمسی اوزرینه بونلرك تخلیه‌سی طلبنی حاوی انكلتره سفارتنك باب عالی‌یه ارسال ایلدیكی تقریرده انكلتره‌نك بحرینه عائد نظریات سیاسیه‌سی یكیدن تأكید وتأیید قلنمشدر .

بغداد شمندوفری مذاكراتنه بدأ اولندیغی هنگامده انكلتره ایله بومسئله‌دنطولایی مناقشاته كیرلمسی تصویب اولنمیوب بونك بصره كورفزینه عائد خصوصات جمله‌سندن عدیله مسائل سائره ایله حل ایدلمسی لازمكله‌جكی انكلتره سفارتنه شفاهاً بیلدرلدیكی دوسیه‌ده بولنان وثیقه‌نك مطالعه‌سندن اكلاشلمشدر .

بحرین مشایخی انكلتره ایله ۱۸۲۰ تاریخندن ۱۸۹۸ تاریخنه دكین یدی قطعه مقاوله‌نامه عقد ایلمشلردر :

١ ــ بحرين شيخلك (بحرين) ده يغماگرلكله وياخود قورصانلقله استحصال اولنان اموالك فروختنه مساعده ايتميه‌جكنى متضمن ٥ شباط ١٨٢٠ تاريخلى مقاوله‌نامه ؛

٢ ــ اسير تجارتنك الغاسى ايچون عقد اولنان ١٠ مايس ١٨٥٦ تاريخلى مقاوله‌نامه ؛

٣ ــ بحرين شيخلك انكلتره‌جه حمايه اولنمق شرطيله بحراً محاربه‌دن قورصانلقدن واسير تجارتندن توقى ايده‌جكنى متضمن ٣١ مايس ١٨٦١ تاريخلى عقدنامه ؛

٤ ــ على بن خليفه‌نك ، محمد بن خليفه‌نك بحرين شيخلكندن فراغت ايتديكنه دائر ١٦ ايلول ١٨٦٨ تاريخلى مقاوله‌نامه ؛

٥ ــ بحرين شيخى شيخ عيسى‌نك ٢٢ كانون اول ١٨٨٠ تاريخلى مقاوله‌نامه‌سيدركه اهميت سياسيه‌سنه مبنى عيناً نقل اولنور :

« بن بحرين شيخى عيسى بن على الخليفه كرك نامه وكرك بحرين حكومتنه توارث
« ايده‌جك خلفلرمك نامنه اوله‌رق انكلتره حكومتنك موافقتنى استحصال ايتمه‌دن انكلتره‌دن
« ماعدا ديگر بر دولت وياخود حكومتله بركونا مذاكرات و معاهداته گيرشميه‌جكمى
« ومملكتمزده انكليز حكومتندن باشقه برحكومت مأمور سياسيسى بولندرمق ويا شهبندرخانه
تأسيس ايتمك وياخود كومور دپوسى انشا ايلك ايچون مساعده اعطا ايتميه‌جكمى انكلتره
« حكومتنه تعهد ايدرم . اشبو مقاوله‌نامه دون مرتبه‌ده حائز اهميت اولان امور
« وخصوصات حقنده حكومات متجاوره مأمورين محليه‌سيله اجرا قلنان مخابرات معتادهٔ
« دوستانه‌يه مابه‌التطبيق اوله‌ماز واجراى تأثير ايده‌مز . »

٦ ــ بحرين شيخلك ١٣ مارت ١٨٩٢ تاريخنده انكلتره حكومتيله عقد ايلديكى خصوصى مقاوله‌نامه‌در :

« بن بحرين شيخى عيسى بن على بصره كورفزنده مقيم انكليز مأمور سياسيسى
« قائمقام (آ . س . اليوت) ك حضورنده بولنديغم حالده كرك نامه وكرك وارثلرم ايله
« خلفلرمك نامليرنه اوله‌رق آتيده‌كى شرائطه رعايت ايده‌جكمى عهد وميثاق ايلرم :

« اولا انكلتره دولتندن بشقه بر دولتله هيچ بر وجهله بركونا تعهدات ومخابراته
« گيرشميه‌جكم

« ثانياً انكلتره حكومتنك رضاسی اولمدقجه دیكر بردولت وكیلنك مملكتمده اقامت ایتمسنه موافقت ایتمیه‌جكم .

« ثالثاً انكلتره حكومتندن ماعدا دیكر برحكومته مملكتمك هرهانكی برقسمنی ترك، بیع، ترهین ایتمیه‌جكم ویاخود حكومتك برجزؤنی آخربرصورتله اشغال ایتمسنه مساعده ایتمیه‌جكم . »

۷ ــ بحرین شیخنك، كندی مملكتنه اسلحه ادخالنی ویاخود اورادن اسلحه اخراجنی منع ایده‌جكنی متضمن ۳۰ نیسان سنه ۱۸۹۸ تاریخلی مقاوله‌نامه‌سی .

انكلتره دولتی هندستان یوللرینی طوتمق ومستملكاته مجاور ابحارده محافظهٔ نفوذ ایلك املیله كچن عصر ظرفنده بحر احمر وعمان دكزنده وبصره كورفزنده كائن بعض نقاط مهمهٔ بحریه وعسكریه‌یی بیدریی ید ضبط و تصرفه كچورمكه جهد واقدام ایلمش اولدیغندن بحرین آطه‌لری دخی بالاده‌كی محررات وتفصیلاتدن اكلاشلدیغی وجهله اشبو تأثیراته دوچار اولمشدر .

حقی پاشا حضرتلرینك لوندره‌ده مذاكره‌سنه مأمور بیورلدقلری مسائل میاننده بحرین آطه‌لری مسئله‌سیده موجود اولوب ۲۹ تموز سنه ۱۹۱۳ تاریخنده كویت بصره كورفزی والقطر مسئله‌لرینه دائر امضا قلنان (٥) نومرولو مقاوله‌نامه‌نك قسم ثانی بوكا عائد بولندیغندن عیناً آتی‌یه نقل اولندی :

« بند ۱۳ ــ حكومت عثمانیه (لبنان‌العلیه) و (لبنان‌السافله) اسمنده‌كی ایكی كوچك آطه داخل اولدیغی حالده بحرین آطه‌لری حقنده‌كی كافهٔ مطالبندن فراغت ایدر. وبحرینك استقلالنی تصدیق ایلر . انكلتره حكومتی دخی بحرین آطه‌لرینی اصلا كندی ممالكنه الحاق ایتمك نیتنده بولنمدیغنی بیان ایلر .

« بند ۱٤ ــ انكلتره حكومتی بحرین شیخی طرفندن انجوبی محتوی استریدیه‌لرك صیدندن طولایی تبعهٔ عثمانیه‌دن الك زیاده مظهر مساعده اولان دیكر علاقه‌داراندن زیاده برورسم اخذ واستیفا ایدلمامسنه دقت ایده‌جكنی حكومت عثمانیه‌یه قارشو تعهد ایلر.

« بند ۱٥ ــ بحرین شیخنك توابعنه ممالك عثمانیه‌ده تبعهٔ اجنبیه نظریله باقیله‌جق وبونلر انكلتره قونسلوسلری طرفندن حمایه ایدیله‌جكدر . مع‌مافیه بحرین اهالیسی عهود عتیقه ایله بعض دولتلر تبعه‌سنه بخش اولنان امتیازاتدن استفاده حقنی حائز بولنمدقلرندن اشبو حمایه اوروپا حقوق دولی قواعدینه توفیقاً اجرا ایدیله‌جكدر .

بحرين مسئله‌سی سالف العرض مقاوله‌نامه‌نك قسم ثالثنی تشکیل ایتدیکندن سیر ادوار غره‌ی ۲۹ تموز سنه ۹۱۳ تاریخلی کویت لایحه‌سنك صوك قسمنده مندرج اولان بیاننامه‌سیله بعض قیود احترازیه درمیان ایلمش و حقی پاشا حضرتلری اشبو مقاوله‌نامه‌نك مرعی الاجرا اوله‌بیلمسی بونلرك برطرف اولمسنه متوقف بولندیغنی ینه یوم مذکورده جواباً ناظر مشارالیهه بیلدیرمشلردر .

مع مافیه شط العربده سیرسفائن شرائطنی اصلاح ایچون برقومیسیون تشکیلنه متعلق مقاوله‌نامه‌نك بعض موادینه آلمانیا و روسیه حکومتلرینك معترض بولنملرندن طولایی انکلتره حکومتی بونلرله مذاکره‌یه کیرشمش و بو اجلدن معامله‌ٔ تصدیقیه بالطبع تأخر ایدرك حقی پاشا حضرتلریله سیر ادوار غره‌ی آره‌سنده اشبو تأخیری متضمن امضا قلنان صوك مقاوله‌ٔ منضمه‌نك تاریخی ایسه ۲۱ تشرین اول سنه ۱۹۱٤ تاریخنده منقضی اولدیغندن حرب عمومینك ظهوریله تصدیق معامله‌سی ایفا ایدیله‌مامشدر .

باب عالی : ـــا ۸ کانون ثانی سنه ۱۹۱۷

روما سفیر کبیری	سفرای سلطنت سنیه‌دن
محمد نابی	روم‌بك اوغلی فخرالدین

ذيل : ١

Traduction de la dépêche adressée par Lord Derby à l'Ambassade Impériale Ottomane à Londres sub N° 5457/107, en date du 814 avril 17

Monsieur l'Ambassadeur,

Le Gouvernement de Sa Majesté avait pris en considération la dépêche télégraphique de Rachid Pacha que Votre Excellence a bien voulu communiquer à mon prédécesseur le 8 janvier dernier relative aux droits de la Porte d'appliquer la loi de conscription envers quelques natifs de Bahrein résidant à Bassorah.

J'ai maintenant l'honneur de prier Votre Excellence de rappeler à Rachid Pacha que d'après les assurances données par le Gouverneur Général de Bagdad, les personnes soumises à la conscription appartenant à des familles ayant émigré à Bassorah il y a 46 ans s'y étant établies et ayant acquis des propriétés foncières et que ces individus eux-mêmes étaient nés dans la ville susmentionnée, l'Ambassadeur de Sa Majesté à Constantinople répondit à la Sublime Porte que dans ce cas le Gouvernement de Sa Majesté ne voyait aucune juste raison pour soulever des objections sur l'enrôlement de ces hommes et que le Consul Général de Sa Majesté à Bagdad avait reçu des instructions visant cela, mais Son Excellence ajouta que si le Colonel Herbert ne voyait aucune raison de traiter les Bahreinistes comme natifs

d'une possession Ottomane il serait alors de son devoir de protester.

Rachid Pacha répondit en assurant Sir H. Elliot que la Porte ne nourissait aucune intention de considérer les Bahreinistes comme ses sujets et se chargea d'écrire au Vali de Bagdad en ce sens.

Cependant, en dépit de ces assurances Son Excellence signifie dans son télégramme susmentionné à vous adressé que la Porte revendiquait encore ses droits de souveraineté sur les îles de Bahrein.

Le renouvellement de cette réclamation de la part de la Sublime Porte, m'oblige, à reporter Votre Excellence vers les communications faites à Votre Gouvernement en 1851 et 1870, déclarant distinctement que le Gouvernement de Sa Majesté n'admettait aucune prétention de la Turquie considérant Bahrein comme faisant partie de l'Empire Ottoman et que si quelques natifs de l'Ile en question se sont adressés aux Consuls Britanniques en Turquie pour demander protection c'est parceque ces derniers ne leur pouvaient refuser leurs bons offices à l'égard de sujets d'un Chef avec lequel le Gouvernement de Sa Majesté est en relations amicales.

(Signé): DERBY.

ذيل : ٢

Traduction de la dépêche adressée par Lord Granville à l'Ambassade Impériale Ottomane à Londres sub N° 4965/176, en date du 8 août 1878.

Monsieur l'Ambassadeur,

Dans une conversation que j'ai eu avec Votre Excellence au sujet de l'Ile de Bahrein, vous m'aviez déclaré que vous étiez chargé par votre Gouvernement de faire de représentations amicales à l'égard de tout empiétement sur le territoire appartenant au Sultan, et j'avais alors promis à Votre Excellence que je ferai des investigations là-dessus. J'ai maintenant l'honneur d'informer Votre Excellence que le Secrétaire d'Etat pour les Indes a prié Son Gouvernement de lui fournir des explications sur les procédés faisant l'objet des démarches de Votre Excellence.

Cependant, en attendant le résultat de ces enquêtes le Gouvernement du Sultan peut être assuré que ce n'est point le désir du Gouvernement de Sa Majesté d'intervenir dans les affaires du Golfe Persique à moins qu'elles ne concernent ce qui est imposé par le Traité conclu en vue de maintenir la paix dans ces eaux.

J'ai l'honneur d'être avec la plus haute considération etc.,

(Signé): GRANVILLE.

المصادر التاريخية المغربية
وأحداث الخليج العربي في ظل الحكم العثماني

الدكتور عبد الكريم كريم
رئيس جمعية المؤرخين المغاربة - الرباط

أولاً : معالجة بعض المصادر التاريخية الخليجية لموضوع عوامل انهيار الاحتلال البرتغالي بالخليج العربي في ظل الحكم العثماني :

إن إلقاء نظرة عامة على الأدوار الرئيسية التي قام بها جناحا الوطن العربي في المشرق والمغرب عند مطلع العصور الحديثة بوجه خاص ، تؤكد لنا الحقائق التالية :

١- لأول مرة يرتبط الجناحان مباشرة عن طريق الرحلات البحرية التي قام بها الرحالة الأوربيون ، والبرتغاليون ، والأسبانيون بصفة خاصة .

٢- لقد تعرض جناحا الوطن العربي في المغرب والمشرق لأخطار خارجية بسبب الموقع الجغرافي ، وغنى المنطقة ، واستهدفت الحملات العسكرية البرتغالية عند احتلال مدينة سبتة سنة ١٤١٥م ، ومهاجمة الخليج العربي سنة ١٥٠٨م التوغل في قلب الوطن العربي ، لاستغلال الأرض واستعباد السكان ، وتهديد المنطقة في مقوماتها الدينية والروحية والقومية .

٣- ظلت جبهتا الوطن العربي قلعتين حصينتين في مواجهة التحديات الاستعمارية الخارجية وبذلتا من التضحيات بالنفس والمال والأهل والولد ما خلده تاريخنا العربي في صفحات مشرفة ناصعة .

٤- لقد أفسد صمود الجبهتين العربيتين في المشرق والمغرب على الغزاة كل محاولة للتدخل والتمركز والاحتلال ، فكان أن نجا الوطن العربي من أخطار كانت تهدده في وجوده ومصيره .

٥- نجاح المجاهدين المغاربة في القضاء على الحملة البرتغالية التي قادها الملك البرتغالي (دون سباستيان Don Sibastian) بوادي المخازن قرب مدينة القصر الكبير يوم الاثنين ٣٠ جمادى الأولى عام ٩٨٦ هـ ، الموافق ٤ أغسطس ١٥٧٨م أراح الخليج العربي والجزيرة العربية من عدو خطير ظل يتوعد المنطقة ويهددها طوال ثلاثة أرباع القرن السادس عشر ، ومكن المجاهدين في الخليج العربي من القضاء على قواعد احتلاله وتصفية وجوده .

والمؤرخ المغربي المعاصر عبد العزيز الفشتالي في كتابه ((مناهل الصفا في مواليناا الشرفا)) خير من يتحدث إلينا عن معركة وادي المخازن ، وأهم نتائجها ، وكيف انتهى الأمر بعد القضاء على الحملة البرتغالية ، ومقتل الملك البرتغالي بتدخل الملك الأسباني فيليب الثاني خال الملك البرتغالي على رأس حملة عسكرية ، وضم الإمبراطورية البرتغالية ، وتوحيد شبه جزيرة أيبريا عام ١٥٨٠م .

ن لمعركة وادي المخازن صدى كبير في المشرق العربي ، وقد دون الرحالة المغربي لعاصر أحمد بن القاضي في مخطوطه ((المنتقى المقصور)) جانباً من ذلك :

((ومما شاهدته من سيرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ ،ذ لما انتهى إليهم خبر الغزوة العظيمة ما يكل عن وصفه اللسان قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة بما لا يدركه إلا من شاهد ذلك ، وصار لنا بذلك بينهم حظ عظيم)) (ص١٠١) .

ويضيف قائلاً :

((إن أمرها عظيم على الترك (العثمانيين) جدا غيرة منهم أن يكون مثلها على يد أمير عربي فامتلأوا منها غيظاً ، وامتلأ العرب منها فرحاً وسروراً)) (ص١٠١) .

ومن جهة أخرى فقد سجل أحد الشعراء المعاصرين بالمغرب الكثير من هذه الأحداث السياسية ، والآمال التي أصبح عرب المشرق يعلقونها على الخليفة المولى أحمد المنصور السعدي ، بطل معركة وادي المخازن :

١) إن شرق البلاد يرجوك شوقاً   مثلما يرتجي طلوع الهلال

فأدرك مصـــر والعـــراق ويمّـم   حرم الحي الكريم خير آل

(الشاعر عبد العزيز القشتالي : مناهل الصفا ص ١٥٧)

٢) وهذي الشآم وهذي العراق   ستمسي لكم وهي دار القرار

(الشاعر علي بن أحمد المسفيوي : مناهل الصفا ص ١٦١)

٣) وتخفق بالوادي المقدس راية   عليك وتلوي فيه الوية حمر

(الشاعرمحمد علي الهوزالي : مناهل الصفا ص ١٤٢)

٤) ومما يؤكد صدى معركة وادي المخازن في الخليج العربي البيت الشعري التالي للشاعر المغربي عبد العزيز الفشتالي يخاطب الخليفة المنصور السعدي :

فكم هنأت أرض العراق بك العلا   ووافت بك البشرى لأطراف عمان

إن الدافع الذي جعلني أتعرض لذكر معركة وادي المخازن ونتائجها ، والصدى الذي أحدثته في الشرق العربي خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر ، هو أنني وقفت على مصدرين تاريخيين يتحدثان عن الاحتلال البرتغالي للخليج العربي وعوامل انهياره :

الأول لصديقنا الأستاذ الدكتور مصطفى عقيل الخطيب ، الأستاذ بجامعة قطر وعنوانه ((التنافس الدولي في الخليج العربي)) وقد أهداني إياه لما حضـــر

((ندوة الملك محمد الخامس الدولية)) في الرباط بالمغرب (نوفمبر ١٩٨٧) ، والثاني للأستاذة بالمملكة العربية السعودية نوال حمزة يوسف ، نالت به درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي وعنوانه ((النفوذ البرتغالي في الخليج العربي)).

جاء في كتاب ((التنافس الدولي في الخليج العربي)) (ص٤٥ - ٤٦) عند التحدث عن أسباب تحرير هرمز ، ذكر للعوامل التي أدت إلى نهاية الإمبراطورية البرتغالية في الشرق بصفة عامة ، منها : ((أن الشعب البرتغالي كان محدود العدد .... وأن شعوب المستعمرات كانت تكن لهم الكراهية ... وأن عامل الوقت لعب دوراً هاماً في انهيار الإمبراطورية الشرقية ..... ومنها أن البرتغال فقدت استقلالها عام ١٥٨٠ وانضمت إلى العرش الأسباني)) .

فكيف فقدت البرتغال استقلالها ، وما أسباب ذلك ؟ إنها معركة وادي المخازن .

وبالنسبة لمؤلف الأستاذة نوال ((النفوذ البرتغالي في الخليج العربي)) (ص ١٨١) عند التحدث عن ((بداية التنافس بين القوى الأوربية للسيطرة على تجارة الخليج العربي)) أوردت مراحل هذا التنافس ، وكيف ظهرت قوى جديدة أوربية منافسة للبرتغال في الخليج العربي دون تعليل أسباب ضعف الوجود البرتغالي في الخليج العربي ((ففي سنة ٩٨٨هـ - ١٥٨٠م استولى فيليب الثاني ملك أسبانيا على البرتغال بعد وفاة ملكها هنري)) .

فما الأسباب التي جعلت الملك البرتغالي يستولي على البرتغال ويوحد الإمبراطوريتين الأسبانية والبرتغالية ؟

إنها مرة ثانية معركة وادي المخازن التي تحطمت فيها القوات العسكرية البرتغالية وقتل فيها الملك البرتغالي دون سباستيان والآلاف من وجهاء القوم البرتغال .

والملك هنري هو الكاردينال هنري عم دون سباستيان الذي تركه نائباً عنه في لشبونة عند قيادته للحملة العسكرية ضد المغرب .

ثانياً : أوضاع الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر كما جاء في مصدر تاريخي مغربي معاصر :

من المصادر التاريخية المغربية التي انفردت بتدوين معلومات هامة عن الخليج العربي في مطلع القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي كتاب :

١- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً .

٢- مخطوط (الترجمان المعرّب على دول المشرق والمغرب) - دار الوثائق بالرباط (د ٦٥٨) وهما لأبي القاسم الزياني (١١٤٧ - ١٢٤٩هـ) (١٧٣٤ - ١٨٣٥م) .

فقد ساعدته الظروف كسفير للسلطان محمد الثالث لدى السلطان العثماني في اسطنبول على الوقوف على كثير من أخبار المشرق العربي ، ومنطقة الخليج العربي بوجه خاص ، والذي يقول :

(واعتمدت فيما سطرت على ما طالعته من مصادر التاريخ ... وعلى ما طالعته بالقسطنطينية العظمى أيام سفارتي لها من سلطان المغرب ، بحضرة السلطان العثماني عبد الحميد رحمة الله عليه .... فقد أمر الوزير قيمها أن يفتح لي الباب ويطلعني على دفتر الكتب ، وكل كتاب تعلقت به همتي ، ينزله لي أطالع فيه وأقيد ..... وقد طالعت منها تواريخاً متعددة ، كل واحد يشتمل على عدة مجلدات) . (الترجمان ص ٢-٣) .

يضاف إلى ذلك مشاهداته وما سمعه ممن التقى بهم من الحجاج في موسم الحج حيث يقول :

((وإنما رسمت فيها ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتها وغيره نقلته ممن اجتمعت بهم بالحرم الشريف ومكة)) . (الترجمانة ص ٣٣) .

فما أهم المعلومات التي دونها المؤرخ الزياني عن الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر ؟

يمكننا أن نرتب هذه المعلومات كالتالي :

١- معلومات عامة عن طبيعة المنطقة .

٢- وصف عام لعمرانها وعناصر سكانها وبعض مذاهبهم .

٣- جوانب اقتصادية .

٤- الأوضاع السياسية .

١- طبيعة المنطقة :

كان الخليج العربي يعرف بالخليج الأخضر ، وكان ينقسم إلى بحار داخلية ، عديدة تحمل أسماء المناطق التي تجاورها (الخليج الأخضر ، وهو بحر فارس ، والأبله ، ومكران ، وكرمان إلى ، أن ينتهي إلى الأبله حيث عبادان فهناك ينتهي آخره ثم ينعطف راجعاً إلى جهة الجنوب ، فيمر ببلاد البحرين ، واليمامة ، ويتصل بعمان... وهناك اتصاله بالبحر الهندي ، وطول هذا البحر أربعمائة فرسخ وأربعون فرسخاً) (١) .

وهذا الخليج (بحر مبارك كثير الخير ، دائم السلامة ، وطي الظهر ، قليل الهيجان بالنسبة إلى غيره) ويتميز بكثرة الجزر (وفيه جزائر كثيرة معمورة مسكونة) (٢). وبارتفاع الحرارة (مدينة البحرين كثيرة المياه شديدة الحر كثيرة الرمال) (٣) . كما توجد به مناطق تتصف بالخصب وغزارة المياه (مدينة لار وهي حسنة كبيرة كثيرة المياه والبساتين) (٤) . ومدينة (قيس وهي المسماة سيران ...... مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع ..... ثم مدينة هجر .... وهي كثيرة الأنهار والأشجار) (٥) .

٢- عمران منطقة الخليج العربي :

وصف المؤرخ الزياني عمران حوض الخليج العربي ، وأورد ذكر عدد من المدن الواقعة على ضفافه فقال :

((وقاعدة أرض عمان مدينة نزوا .... ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر، ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة ، وبها حرون يسكنها سلطان عمان ..... وبعد مدينة هرمز مدينة جنح بال على ساحل البحر أيضاً .... وبعدها مدينة قيس وهي المسماة سيران مدينة عظيمة .... ثم بعدها مدينة البحرين ...... وبعدها مدينة القطيف ...... ثم مدينة هجر وتسمى اليوم الحسناء)) [٦] .

ويضيف في مكان آخر عند حديثه عن العمران في الخليج العربي :

((ثم مدن جزيرة العرب أولها الأحساء ، ثم مدينة الأحقاف ، ثم مدينة أصحاب الأخدود ... ثم مدينة أرام ذات العماد ، ثم مدينة أراص .... ثم مدينة البحرين ، ثم مدينة جوهي اليمامة ، ثم مدينة الحجر .... ثم مدينة حارك، بها مدن أيضاً ثم مدينة الخط قرب عمان ، ثم مدينة الرس قرب قلاقل ، ثم مدينة سليمان ، ثم مدينة سلجين ، ثم مدينة سويقة ، ثم مدينة الشحر بعمان ، ثم مدينة هجر قرب عمان)) [٧] .

وعن أجناس السكان بالخليج العربي أكد الزياني عروبة المنطقة حين قال :

(فهذه عمائر جزيرة العرب من اليمن إلى القادسية ومدائنها وهي باب العرب) . [٩]

((مدن جزيرة العرب أولها الأحساء ......)) [١٠]

((مدينة هجر يسكنها عرب بني حنيفة وهي بلدهم من قديم الزمان)) [١١] .

((بمدينة قيس .... العرب هم الذين يغوصون على اللؤلؤ فيما بينها وبين البحرين)) [١٢]

كما أورد عنصر التركمان والعجم ((ومدينة جنح بال على ساحل البحر أيضاً وسكانها تركمان وهم الذين يعمرون تلك المفاوز وهم أهل شجاعة وقسوة)) . [١٣]

((ومدينة قيس .. سكانها عجم وبها بعض العرب)) [١٤] .

ومن بين هؤلاء السكان من هو على مذهب الأباضية ((وقاعدة أرض عمان مدينة

نزوا وأهلها أباضية)) ، ((ومدينة القطيف يسكنها العرب)) . [١٥] وهذه البلاد كلها تسودها الوهابية [١٦] .

٢- الناحية الاقتصادية :

وصف أبو القاسم الزياني في ((الترجمانة الكبرى)) ما حبته الطبيعة من خيرات لمنطقة الخليج العربي ، فهو ((بحر مبارك كثير الخير ، دائم السلامة ...... به مغاص اللؤلؤ الذي يخرج منه الحب البالغ الكبير ، وربما وقعت الذرة اليتيمة التي لا نظير لها)) [١٧]

((وفي جزائره معادن أنواع اليواقيت ، والأحجار الملونة النفيسة ، ومعادن الذهب، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والسنبادج ، والعقيق ، وأنواع الطيب، والأفاوية)) [١٨] .

((وفي جزيرة هرمز الجديدة ... معدن الملح الأندراني في سباخ بها)) [١٩] .

وعن الظروف التي يتكون فيها الدر واللؤلؤ بمياه الخليج العربي ذكر :

((يزعم البحرينيون أن الصدف الدري لا يكون إلا في بحر تصب فيه الأنهار العذبة فإذا أتى الربيع كثرت هبوب الريح في البحر ورفعت الأمواج ، ويضطرب البحر فإذا كان الثاني عشر من نيسان خرجت الأصداف من قعور هذه البحار ولها أصوات وقعقعة وبوسط كل صدفة دوبية صغيرة ، وصفاقتي الصدف لها كالجناحين وكالسور ، تتحصن بها من عدو متسلط عليها ، وهو سرطان البحر....... وفي اليوم الثاني عشر من نيسان لا تبقى صدفة في قعور هذه البحار المعروفة بالدر واللؤلؤ ، إلا صارت على وجه الماء ، وتفتحت حتى يصير وجه الماء أبيض كاللؤلؤ ، وتأتي سحابة بمطر عظيم ثم تنقشع السحابة ، وقد وقع في جوف كل صدفة ما قدره الله تعالى واختار ...... وأفضل الدر المتكون في هذه الأصداف القطرة الواحدة والاثنتان ، والثلاثة ، وكلما قل العدد كان أكبر جرماً ، وأعظم

قيمة والمتكونة من القطرة الواحدة هي الدرة اليتيمة التي لا قيمة لها)) [٢٠] .
ويبدو أن الولاة كانوا يتعاطون تجارة اللؤلؤ :
((وعندهم مغاصات اللؤلؤ تحت حكم سلطانها)) [٢١]
وفي المجال الاقتصادي نجد أيضاً إشارات إلى بعض المزروعات في المناطق الخصبة:
(مدينة قيس وهي المسماة سيران .... مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع) [٢٢]
((مدينة هجر ... كثيرة الأنهار والأشجار بها من التمر الآن محجي)) [٢٣] .
وإلى المبادلات التي كانت تتم بين مناطق الخليج ((جزيرة هرمز الجديدة .....
يجلب لأهلها التمر من عمان والبصرة لأكلها مع السمك)) [٢٤] .

٤- الأوضاع السياسية في الخليج العربي :

من دراستنا لما ورد في الترجمانة الكبرى للزياني نلاحظ :

١- وجود وحدات سياسية مثل سلطنة عمان (ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة وبها حرون ، يسكنها سلطان عمان) [٢٥]

٢- قيام بعض الجماعات المحلية بفرض نفوذها (مدينة جنح بال على ساحل البحر، وسكانها تركمان ، وهم الذين يعمرون تلك المغاوز وهم أهل شجاعة وقسوة . [٢٦] ومدينة القطيف [٢٧] .

٣- سيطرة الوهابيين على مناطق واسعة من البلاد ((وأما إقليم الشرق من سواد إلى العراق إلى مغايص الفرات ، إلى البحرين ، إلى عمان ، إلى نجران ، إلى اليمامة ، إلى حدود اليمن فقد تبعث الوهابية .... فالوهابي اليوم هو صاحب الأمر بجزيرة العرب)) [٢٨]

٤- ضعف السلطان العثماني في منطقة الخليج العربي ((ولما زاحمتهم الروم ببلاد الشمال وحاربوها .... وضعفت دولتهم عن مقاومة أجناس الروم وشغلوا

بحربهم ، استبد على السلطان العثماني ملوك العجم ، وكل واحد منهم ضبط إقليمه ، وقطع نظره عن العثماني ، وعن الباشا الذي يأتي من عنده ، ولم يبق إلا ذكره في الخطبة ورسمه على السكة .... والممالك البحرية وممالك العرب وكل الممالك التي ذكرنا في بلاد العجم فقد خرجت عن ملكهم)) (٢٩) .

٥- تحريض السلطان العثماني لوالي مصر محمد علي على محاربة الوهابيين :

((قلت وهذه البلاد كلها استتبعت الوهابية .... وقد بلغنا أن والي مصر من أمراء الدولة العثمانية تصدى لهذا المسمى ، وقام له بخيله ورجاله ومهد درب الحجاز، وعمر الحرمين بجنده وهيأ له جرائد من العساكر تبعده إلى أقصى بلاده ، وأخرجوه عن قرار عزمه والأمور مستمرة على ذلك)) (٣٠) .

الهوامش

١- الزياني - الترجمانة	ص	٢٩٣
٢- = =	ص	٢٩٧
٣- = =	ص	١٩٠
٤- = =	ص	١٩٠
٥- = =	ص	١٩٠
٦- = =	ص	١٩٠
٧- = =	ص	٤٩٢
٨- = =	ص	١٩٠
٩- = =	ص	١٩٠
١٠- = =	ص	١٩٠
١١- = =	ص	١٩٠
١٢- = =	ص	١٩٠
١٣- = =	ص	١٩٠
١٤- = =	ص	١٩٠
١٥- = =	ص	١٩٠
١٦- = =	ص	٤٩٤
١٧- = =	ص	٢٩٧
١٨- = =	ص	٢٩٧
١٩- = =	ص	١٩٠
٢٠- = =	ص	٣٤٦
٢١- = =	ص	١٩٠

٢٢- الزياني - الترجمانة ص ١٩٠

٢٣- = = ص ١٩٠

٢٤- = = ص ١٩٠

٢٥- = = ص ١٩٠

٢٦- = = ص ١٩٠

٢٧- = = ص ١٩٠

٢٨- = = ص ٣٥٥

٢٩- = = ص ٣٥٥

٣٠- = = ص ٣٩٤

العثمانيون والروس في الخليج العربي
دراسة في العلاقات السياسية بينهما ١٨٧٨ / ١٩٠٧ م

الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد / كلية التربية
قسم التاريخ

العلاقات الروسية ـ العثمانية بعد عام ١٨٧٨

كان لروسيا ، شأنها في ذلك شأن كثير في الدول الأوربية الأخرى . مصالح استراتيجية وسياسية واقتصادية في الدولة العثمانية ، مستغلة في ذلك ضعف هذه الأخيرة ، وحالة التنافس التي قامت حولها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، واجهت المطامع الروسية في الدولة العثمانية . كما واجهت مطامع الدول الأخرى ، أشكالاً في المعارضة والرضوخ ، وذلك تبعاً لطبيعة السياسية الروسية وتطورها تجاه الدولة العثمانية من جهة ، وتمشياً مع حالة هذه الأخيرة من جهة أخرى .

ومن المعروف أن روسيا خلال القرن التاسع عشر ، وبالذات خلال النصف الثاني منه ، كانت تسعى وراء تحقيق أهداف معينة في سياستها الخارجية ، فقد قال أحد وزراء خارجيتها لافردورف : إن السياسة العامة لروسيا القيصرية هي أولاً وقبل أي شيء سياسة آسيوية .(١) أن هذا القول يكشف طبيعة المجال الحيوي الذي كانت تفكر فيه روسيا والذي كان يتضمن بشكل رئيسي آسيا الوسطى وإيران والقفقاس والشرق الأقصى ، بخاصة بعد فشل سياستها التوسعية في أوربا

الشرقية والبلقان ، لقد استقر النفوذ الروسي في القفقاس منذ بداية القرن التاسع عشر ، مكان اشتداد الصراع بين روسيا وبريطانيا في الشرق الأوسط قد دفع روسيا إلى الإسراع في ضم مقاطعات آسيا الصغرى مثل طاشقند في ١٨٦٥ ، وبخارى وسمرقند في ١٨٦٨ ، وضيفا في ١٨٧٣ ، وتركستان وعشق أباد ومرو في ١٨٧٣ . لقد سيطرت روسيا على مساحات واسعة في آسيا الصغرى ، ولكن توغل الجيوش الروسية إلى ما وراء بحر قزوين واقترابها من حدود أفغانستان ، أثار قلق بريطانيا باعتباره أن ذلك يهدد أمنها في الهند ، فجرت المفاوضات بين بريطانيا وروسيا وانتهت بعقد معاهدة ١٨٨٥ التي ثبتت الحدود بين آسيا الوسطى وأفغانستان . [٢]

وإذا كانت هذه المعاهدة قد أنهت النزاع بين الدولتين المذكورتين في آسيا الوسطى ، فإن مجالاً آخر للنزاع قد استجد بينهما في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وذلك في بلاد فارس والخليج العربي ، بعد بروز الأهمية الاقتصادية لتلك المناطق ، فضلاً عن أهميتها الاستراتيجية والعسكرية ، ولم ينتهي هذا النزاع إلا بعد معاهدة ١٩٠٧ .

وفي الوقت نفسه فإن الدولة العثمانية . خلال الفترة ذاتها . كانت قد وصلت إلى مرحلة الانحطاط ، إذا كانت تراقبها الدولة الاوربية باهتمام ، وتسعى لاقتطاع أجزاء منها ، وكانت روسيا من بين هذه الدول تنتظر انهيارها ، وتساعد في بعض الأوقات على ذلك ، أما بريطانيا فقد كانت تتبع سياسة حماية الدولة العثمانية والمحافظة على تكاملها السياسي ، لاعتقادها بأن في بقاء هذه الدولة بشكلها الضعيف حماية لوجودها في الهند ، وذلك وفقاً للشعار القائل " بأن الدفاع عن الهند يبدأ من القسطنطينية " . [٣]

لقد كانت أهداف روسيا في أراضي الدولة العثمانية ترمي إلى تحقيق أمرين : أولهما توسيع الحدود الروسية باتجاه الجنوب على حساب الدولة

العثمانية متى سنحت الفرصة ، ثانيهما ضمان حرية المرور لسفنها الحربية في البحر الأحمر عبر المضائق ، ولتحقيق هذين الامرين استعمل القياصرة الروس سياسة الضغط والقوة ، حيث أطلقوا التهديدات ضد القوى الأخرى للحصول على امتيازات في عبور المضائق ، والتأثير على السياسة العثمانية ، وبرزت ، تلك الأهداف في حادثتين مشهورتين هما حرب القرم ١٨٥٤ والحرب الروسية التركية عام ١٨٧٦ .

كانت روسيا تعلق آمالاً كبيرة في الوصول إلى المياه الدافئة على البحر الأبيض المتوسط ، عبر البحر الأسود والمضائق ، أو الخليج العربي ، وهي الآمال التي كانت محط تخوف بريطانيا ومعارضتها ، وذلك لأن نمو اسطول روسي قوي في البحر المتوسط يمكن أن يهدد مصر ، ويهدد مرور البواخر البريطانية المتجهة للهند عبر قناة السويس بعد ١٨٦٩ ، فضلاً عن أهمية ذلك الوصول بالنسبة للطرق التجارية ، وتبادل السلع والبضائع مع بلدان الشرق الأوسط ، ويبدو أن روسيا قد انتهزت فرصة حروبها مع الدولة العثمانية عام ١٨٧٧ لتحقيق ذلك الهدف ، ولكن الحكومة البريطانية عارضت ذلك بشدة ، ويتضح ذلك من تحذير بعث به اللورد دربي Derby إلى شفيلوف Shevlov . السفير الروسي في لندن ، بأن لا تنتهز روسيا فرصة حربها مع الدولة العثمانية للقيام بأي عمل عدائي ازاء قناة السويس والخليج العربي . [4] وبالنظر لما لاقته روسيا من مقاومة ، فقد وجهت جل اهتمامها نحو فارس ، وذلك لما تمتعت به البلاد من مكانة استراتيجية واقتصادية في نظر السياسة الروسية ، بخاصة وأن كثيراً من موانيها تقع على الخليج العربي.

إلا أن الوضع تغير بصورة جذرية منذ ثمانينات القرن التاسع عشر ، ذلك أن بريطانيا لم تلبث أن تخلت بصورة واضحة عن سياستها التقليدية ازاء الدولة العثمانية ، حيث تسلمت قبرص من العثمانيين في مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، واحتلت

مصر عام ١٨٨٢ . وعلى أساس ذلك تغيرت سياسة الدولة العثمانية تجاه بريطانيا، لأنها اعتبرت بأن احتلال مصر يمثل اعتداء على ممتلكاتها ، فراحت تحارب المصالح البريطانية . وخاصة الاقتصادية ، في العراق وفي الخليج العربي . (٥)

ومع هذه التغيرات انتهجت روسيا سياسة جديدة تختلف عن سياستها السابقة تجاه الدولة العثمانية ، وهي تتمثل بالوقوف إلى جانب الأخيرة والتصدي للمشروعات التي تهدف إلى تقسيمها . من ذلك أن بريطانيا عرضت على روسيا مشروعاً لاقتسام الدولة العثمانية أثناء زيارة القيصر الروسي نيقولا الثاني لها عام ١٨٩٦ بحيث تسيطر روسيا على مضيقي البسفور والدردنيل مقابل سيطرة بريطانيا على أغلبية المناطق العربية . (٦)

وفي عام ١٨٩٨ رفضت الحكومة الروسية هذا الاقتراح ، ولعل السبب في ذلك هو سيطرة بريطانيا على قناة السويس واستبعاد النفوذ الروسي عن المنطقة التي كانت تعدها روسيا إحدى منافذها الرئيسية نحو الشرق ، وهذا ما أشار إليه وزير خارجية روسيا لوبانوف روستوفيسكي بقوله : " ان عقدة جميع الصعوبات الشرقية قائمة في مصر عن قناة السويس " (٧) وهكذا نلاحظ الأهمية الكبيرة التي وجهها الروس نحو قناة السويس باعتبارها كما سنلاحظ ، كانت احدى الطرق التي استخدموها للوصول إلى الخليج العربي ، مما جعلهم يعارضون بشدة سيطرة بريطانيا التامة عليها .

ومع أن السياسة الروسية هذه لا تمثل نهجاً ثابتاً ازاء الدولة العثمانية ، ولكن مثا هذا النهج قد أعطى روسيا صوتاً مسموعاً أكثر من ذي قبل في العاصمة العثمانية ، وكان قناصلها يعملون في كل من طهران واستنبول ، بالتعاون مع فرنسا، لاثارة كل من فارس والدولة العثمانية تجاه المصالح البريطانية في الدولة العثمانية عامة وفي الخليج العربي خاصة . (٨)

ونظرا لتطور النفوذ الروسي في الدولة العثمانية ، فقد تقدم الكونت

فلاديمير كابنست Count Valadimir Kapnist وهو من رجال الأعمال والاقتصاديين الروس، وشقيق السفير الروسي في فينا ، وأحد الشخصيات ذات النفوذ في البلاط الروسي، إلى السلطان عبد الحميد الثاني بمشروع لمد خط حديدي من ميناء طرابلس السوري على البحر الأبيض المتوسط وعلى أية حال ، فقد استطاع الروس أن يضمنوا توسعهم حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر في المناطق التي تمتد عبر أراضي الدولة العثمانية وفارس فافغانستان ، فهيئوا بذلك القواعد الأساسية لإمكانية تقدم كبير في المستقبل . وفي المرحلة التالية ، وبسبب وقوف الدول الاوربية الجدي أمام التطلعات الروسية في الدولة العثمانية في مؤتمر برلين عام ١٨٩٨ ، فقد اتجهت روسيا بشكل واضح نحو فارس، وكان نجاحها السياسي والاقتصادي في هذه البلاد سببا في تطلعها نحو الخليج العربي .

ومن المعلوم أن التطلعات الروسية في الأقسام الشمالية من فارس قد خرجت من حيز النظريات ، وأصبحت واقعاً عملياً ، بفعل سيطرة روسيا على هذه المناطق . أما في مناطق الخليج العربي ، بساحليه الشرقي والغربي ، فقد ظلت معظم التطلعات الروسية مشاريع نظرية ، نظرا لأن قدرات روسيا الذاتية وأوضاعها الداخلية المضطربة ، لم تكن تتناسب مع تطلعاتها تلك ، هذا فضلاً عن أن منطقة الخليج العربي كانت قد أصبحت حكراً للنفوذ البريطاني منذ عام ١٨٢٠ .

ومهما يكن الأمر ، فان التطلعات الروسية النظرية ، أو النشاطات الفعلية لها في الخليج العربي في اواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، قد كانت انعكاسا للسياسة الروسية التي هدفت إلى إقامة نفوذ سياسي واقتصادي لروسيا في المنطقة ، ووتبلورت في إطارات مختلفة ، استراتيجية ، وسياسية ، واقتصادية .

١ـ الاطار الاستراتيجي :

هدفت الاستراتيجية الروسية في اطارها النظري . منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى ايجاد منافذ لها للوصول إلى المياه الدافئة ، ولكي يتحقق ذلك شرعت روسيا في البحث عن قاعدة استراتيجية . بحرية في الخليج العربي ، وقد أدركت أن تلك القاعدة لن تكتسب أهميتها المرجوة ما لم يتم الاتصال بينها وبين روسيا نفسها عن طريق مد السكك الحديدية عبر الأراضي الفارسية . وتتوضح الاستراتيجية هذه فيما أعلنته الحكومة الروسية خلال مفاوضاتها مع بريطانيا لعقد اتفاقية ١٩٠٧ بشأن تقسيم فارس (بأنه كان على روسيا ، حتى وقعت قريبا جدا .أن تضغط باستمرار للوصول إلى الخليج العربي ، مما كان يستلزم إنشاء سكة حديد عبر فارس ، وإنشاء محطة نهائية محصنة على شواطئ هذا الخليج) . [١٣]

وعلى كل حال ، فقد بدأت الدعوة لربط الخليج العربي واقامة قاعدة فيه إلى عام ١٨٨٦ ، حيث قدم أحد المواطنين الروس . سباينيزا Sapienza مشروعا لربط بحر قزوين بالخليج العربي عن طريق السكك الحديدية ، وقد ضخمت السلطات البريطانية في الخليج العربي هذا المشروع الروسي ، حتى اشيع في عامي ١٨٨٧ / ١٨٨٨ أن شاه فارس سيتنازل لروسيا عن أحد جزر الخليج العربي ونفى الشاه هذه الاشاعة بشدة .[١٤]

لقد انتشرت شائعات عديدة خلال السنوات العشر التالية عن المناطق التي تسعى روسيا للحصول عليها ، حتى ظهرت مقالة هامة عام ١٨٩٩ في جريدة ز فيدوموستي ز التي تصدر في سان بطرسبرغ بقلم أحد المسؤولين الروس ، تطالب صراحة بالحصول على ميناء بندر عباس إلى جانب قشم وهنجام ولارك وهرمز لتكون نهاية خط حديدي في روسيا عبر فارس . [١٥]

وأشار كاتب المقال بشكل خاص إلى المزايا الكامنة لهذه المناطق ، مما يكشف عن أن المقال كان يستند إلى معلومات محلية دقيقة ، وقد تأكدت تلك المعلومات

فيما أعلنته احدى الصحف الصادرة في استنبول ، وفي الدوائر السياسية في العاصمة العثمانية عندما ابلغ وزير الخارجية التركية السفير البريطاني هناك: (أنه واثق من أن مفاوضات تدور بين الحكومة الروسية والحكومة الفارسية بشأن حصول روسيا على ميناء على الخليج يصبح هو النهاية لخط حديدي فارسي . روسي) . (١٦) ومع أن الحكومة الفارسية أنكرت وجود مثل هذه المفاوضات، إلا أن الاحداث التالية تجعل في تأكيدات الحكومة الفارسية موضع شك .

تعززت التطلعات الروسية نحو الخليج العربي عن طريق إرسال العديد من الروس إلى المنطقة للتعرف على أصلح المناطق التي يمكن لروسيا ان تتخذها قواعد للنفوذ الروسي . وظهر أول دليل على اهتمام روسيا بالخليج العربي ، الزيارة التي قام بها ضابط مهندس روسي إلى هرمز عن طريق كرمان وبندر عباس . في ربيع عام ١٨٩٥ ، حيث قام قام خلالها بمسح جزيرة هرمز ، وصرح قبل عودته منها أن روسيا ستقيم مستودعا للفحم هناك . (١٧)

على أن التوجهات الروسية لم تكن قاصرة على الساحل الشرقي من الخليج العربي ، وإنما كان هناك ما يماثلها في الجانب الغربي منه ، ففي عام ١٨٩٨ اتخذ القنصل الروسي في بغداد اجراء فيما يخص مشروع بناء قاعدة بحرية روسية في الخليج ، وكانت الكويت على ما أظهرته الوقائع التاريخية ، هي المنطقة التي وقع عليها اختيار الروس في الجانب الغربي . (١٨)

ظلت التطلعات الروسية طوال السنوات القادمة تقوم على وصول النفوذ الروسي إلى الخليج العربي ، الا أن اتفاقية عام ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا حول فارس ، قد أنهت إمكانية قيام الروس بإنشاء مراكز لهم في الخليج العربي ، تلك المراكز التي كانت جزء من التطلعات الروسية التقليدية . فقد صرح وزير المالية الروسية كوكو فتسوف عام ١٩٠٦ فكرة الوصول إلى منفذ على الخليج العربي. (اذا كانت فيما مضى فوق طاقتنا ، فهي الآن مستحيلة اطلاقا) . (١٩) ومع ذلك

كله لم يوقع وزير الخارجية الروسي (ازفولسكي) على البند الخاص بالخليج العربي ، الذي ارادت الحكومة البريطانية ادراجه في المعاهدة . وجاء التحفظ الروسي بحجة ان الاتفاقية بشكلها الحالي امر لا يخص روسيا وبريطانيا وحدهما ولكنه يخص دولاً اخرى مثل الدولة العثمانية وفرنسا وألمانيا .

٢ ـ الاطار الدبلوماسي :

إلى جانب التطلعات الروسية في إقامة قواعد لها في الخليج العربي ، فقد قامت روسيا بنشاطات دبلوماسية من أجل إقامة قنصليات عديدة في مناطق الخليج العربي ، واستخدامها وسيلة للاتصال بالقوى المحلية والتأثير عليها ، ففي العراق مثلاً كان افتتاح اول قنصلية روسية في بغداد هو سنة ١٨٨١ . ثم ما لبثت أن اغلقت بعد فترة قصيرة ، واعيد فتحها مرة اخرى عام ١٨٨٩ . وأنشأت لها في الوقت نفسه قنصلية في البصرة ، وفي عام ١٩٠١ رفعت درجة التمثيل الدبلوماسي في بغداد إلى قنصلية عامة .[٢٠]

لقد عمل القنصل الروسي في بغداد كروجلو Krouglow بصورة جدية لتحقيق السياسة الروسية في منطقة الخليج ، وقد قام بنفسة بزيارة الكويت خلال الأزمة التي حدثت بين شيخ الكويت والسلطات العثمانية عام ١٩٠١ وذلك على ظهر الباخرة الروسية (جيلياك Gilyak) ، حيث قابل الشيخ مبارك بن صباح، وحاول التفاهم معه بهذا الشأن ، ولكنه فشل في هذا المسعى بسبب الاتفاقية التي عقدها الشيخ مع بريطانيا .[٢١]

وفي الوقت الذي كانت تتطور فيه النشاطات السياسية للقناصل الروس في الساحل الغربي من الخليج ، بذلت الحكومة الروسية اهتمامات مماثلة لانشاء قنصليات لها في الساحل الشرقي للخليج . ففي عام ١٨٩٩ حاول دابيجا Dabiga، القنصل الروسي في أصفان وبوشهر ، أن يؤسس وكالات قنصلية في بندر عباس

ومسقط والحمرة . واشيع في الوقت نفسه أن دابيجا هذا سيقوم بمسح هرمز ليرى إمكانية صلاحيتها مخزناً للفحم الروسي في الخليج العربي . وحذرت بريطانيا الروس مغبة الأمر ، وهذا ما دفع الحكومة الروسية إلى ابلاغ السفير البريطاني في بطرسبرغ في ١٨ نيسان عام ١٨٩٩ ، (بأنه ليس لها أي مخططات لبلوغ الخليج العربي ، وانها لا تنوي باي حال من الأحوال أن تضيف إلى أعبائها ومسؤولياتها الحالية مسؤولية حيازة ميناء بعيد أو محطات يتطلب الدفاع عنها في أوقات الحرب جهدا اسطوليا) . (٢٢)

وعلى أية حال ، فإن نفي روسيا محاولة إنشاء قاعدة بحرية لها في الخليج العربي . سواء في هذا الوقت أو بعده . لم يكن يعني نهاية لنشاطهم السياسي ، ذلك لأن القنصليات الروسية في الجانب الشرقي للخليج هي التي كانت تقوم بالدور الأكبر في التحرك السياسي ، حتى نرى أن القنصل الروسي في بوشهر يقوم في عام ١٩٠٢ باستخدام إحدى السفن الروسية لزيارة الكويت ولنجة ، على الساحل الشرقي للخليج ، وبندر عباس لاقامة قنصلية روسية في تلك الموانئ . (٢٣)

٢ـ الاطار الاقتصادي :

عملت روسيا على إيجاد مصالح اقتصادية ثابتة لها في الخليج ، غير أن هذا الأمر لم يكن بالإمكان تحقيقه دون إقامة قواعد ووكالات تجارية ، وهذا ما سعت إليه في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، واتخذت هذه الرغبة . في بادئ الامر . شكل الدعوة إلى ايجاد اسواق للبضائع الروسية في المنطقة، ومنافسة القوى الاخرى . وخاصة بريطانيا . في هذا الميدان ، وارسال البعوث التجارية إلى موانئ الخليج العربي المختلفة من أجل إقامة العلاقات التجارية معها وتحسينها .

ففي الميدان الأول ، أخذت الصحف والمجلات الروسية تركز اهتمامها على

منطقة الخليج العربي في العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، باعتبار ان روسيا لها مصالح اقتصادية فيها . ووجهت في الوقت نفسه النقد اللاذع للسياسة البريطانية ، لعقد معاهدة مع الكويت عام ١٨٩٩ ، فقالت مجلة " روسكي مسك " الآتي : (ان لروسيا مصالح تجارية مهمة في الخليج العربي ، ولهذا فان مثل هذه المواقف وضرب المصالح العثمانية والالمانية والروسية في المنطقة يجب أن تجابه بالمقاومة الشديدة) . [٢٤] وأشارت صحيفة روسية أخرى ، إلى أن الحكومة الروسية ستتخذ خطوة مباشرة عن طريق ارسال سفينة حربية إلى بندر عباس . ألا أن ناطقا باسم وزارة الخارجية الروسية أعلن بان حكومته ز ليس لها أي نية أو رغبة في اتخاذ أي عمل في الخليج العربي او جنوب فارس ، وانها تحاول فقط ايجاد اسواق للبضائع الروسية ز ، وهي غير مسؤولة عن التصريحات المثيرة للصحف الروسية . [٢٥]

أما في الميدان الثاني ، فقد جرى إرسال عدة بعوث تجارية ، علنية وسرية ، إلى منطقة الخليج العربي فأعدت التقارير عن الأوضاع التجارية فيها ، وطبيعة النشاطات الاقتصادية التي تنوي السياسة الروسية تحقيقها في المنطقة ، وفي ذلك لبعثة التي اوفدت إلى الخليج العربي عام ١٩٠٠ ، لدراسة تنشيط التجارة الروسية لمنطقة ، وكانت برئاسة كل من مستر سيروميانتيكوف Saromitikoff ومستر بيلنبرغ Pellenberg ، اللذين وصلا من بومبي إلى بوشهر ، وزارا بندر عباس والحمرة والبصرة وبغداد ، وجاء في التقارير بأن (سيروميانتيكوف) جاء إلى هذه المناطق بهدف دراسة امكانية الاتجار مع مواني الخليج . [٢٦] وقد صدرت التعليمات إلى مستر سيروميانتيكوف باعداد تقرير عن رحلته تلك ، وقام بتنفيذ المهمة ، حيث قدمه إلى مستر ز ديويت ز وزير المالية الروسي وجاء فيه الآتي :

(إن ثمة مجالاً لتصريف المنتجات الروسية في جنوب ايران ، كالسكر

والصوف والحبوب والمشروبات الروحية ، غير أنه في رأيه أن تحظى هذه التجارة بعون رسمي لتستطيع منافسة التجارة البريطانية المزدهرة ، كما يمكن رجوع السفن إلى روسيا محملة بالأرز والتمر ، واقترح مستر سيروميانتنيكوف فتح مصرف روسي في أحد موانىء الخليج ، وإقامة مخازن للفحم في بوشهر والبصرة، وافتتاح وكالات قنصلية روسية هناك ، على أن تحرس بقوة كبيرة وأن تبقى على الأقل سفينة حربية روسية بشكل دائم في منطقة الخليج) . [٢٧]

وعين وزير المالية الروسي لجنة خاصة لدراسة التقرير تضم ممثلين عن مختلف الأجهزة الإدارية والهيئات التجارية ، وأقرته في السنة نفسها مع بعض التعديلات الطفيفة . ومنذ ذلك الوقت لم تعد السياسة الروسية مجرد أفكار نظرية ، وانما تبلورت بصورة فعلية حيث ازداد النشاط الروسي البحري. التجاري منه والعسكري . واصبح وصول السفن الروسية إلى الخليج العربي ، كما سترى، أمرا تنظمه الحكومة الروسية وتدعمه .

السياسة العثمانية إزاء الخليج العربي وعلاقتها بالقوى الاجنبية :

١- السياسة العثمانية في الخليج العربي وموقفها من بريطانيا :

اتسمت سياسة الدولة العثمانية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بمحاولة استعادة نفوذها الاسمي على السواحل الشرقية للجزيرة العربية ، بعد أن فقدته منذ القرن السابع عشر . وقد اقترنت تلك السياسة بمحاولة تقوية النفوذ العثماني الاداري والعسكري والسياسي في المنطقة، حيث اختار العثمانيون ولاة من ذوي الكفاءة العالية في البصرة ، ومنحوهم صلاحيات واسعة بحيث يكونوا مسؤولين في اكثر الاحيان مسؤولية

كاملة عن شؤون الخليج ، واصبحت البصرة وفقا لذلك القاعدة السياسية والعسكرية للنشاط العثماني في المنطقة . ومع ذلك كله ، فان سلطات والي البصرة، كما تؤكده وثائق قصر يلدز العثمانية ، كانت تتعرض لتقلبات كثيرة وشديدة . فأحيانا نراه مسيطرا على قطر ويتدخل في البحرين ويصدر الأوامر إلى الإحساء، واحيانا يتقلص نفوذه إلى حد كبير جدا . (٢٨)

أظهر العثمانين اهتماما جديا بالخليج العربي من خلال حملة مدحت باشا عام ١٨٧١ ، التي استهدفت عودة النفوذ العثماني إلى المنطقة ، وأدى ذلك إلى تدخل ولاة بغداد والبصرة باحداث الخليج وتحدثت الوثائق العثمانية عن (قطع خليج البصرة) بدلا من الأقاليم والأقطار واعتبرتها جزءا من ولاية البصرة ، كما هو الحال بالنسبة لقطر ودبي مثلا . (٢٩)

غير أن الوجود العثماني الفعلي في مناطق خارج ولاية البصرة لم يكن سهلاً ، بخاصة وان بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا في الخليج العربي منذ عام ١٨٢٠ ، وأن الإمارات العربية على الساحل الغربي للخليج ، مثل الكويت وقطر والبحرين ، التي ادعى العثمانيون حقوق السيادة عليها ، كانت تمارس نوعا من السياسات التي تهدف إلى الحفاظ على استقلالها ، مستغلة في ذلك الخلافات الدولية الموجودة في الخليج العربي ، ومن بينها الخلافات العثمانية . البريطانية . (٣٠)

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك غير السيادة الإسمية على مناطق الخليج العربي ، غير أن بريطانيا سعت منذ القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩١٣ إلى تجريدها من هذه السيادة ، وما اتفاقية عام ١٩١٣ المعقودة بين بريطانيا و الدولة العثمانية إلا صيغة لتنازل الأخيرة عن سيادتها الاسمية عن مناطق قطر والبحرين ، وبذلك استطاعت بريطانيا تحويل طابع السيادة العثمانية لصالحها في صيغة الأمر الواقع de fact إلى صيغة الطابع الشرعي de jure . (٣١)

وفي ضوء ذلك لم تكن السياسة العثمانية على وفاق تام مع السياسة البريطانية ، وهذا ما سنحاول التعرض له من خلال ايراد بعض الحوادث التاريخية . ففي عام ١٨٨٧ ، أعلن نظيف باشا والي البصرة الجديد ، أثناء مقابلة المستر روبرتسون Robertson ، الوكيل السياسي البريطاني في البصرة بان مهمته هي تقوية العلاقات التركية مع امارات الخليج العربي بدون استثناء بما في ذلك ال خليفة في البحرين الذين لم يترددوا في رفع العلم العثماني فوق جزيرتهم . [٣٢] وبعد حوالي عشر سنوات من ذلك صرح رئيس الوزراء التركي في تموز عام ١٨٩٨ بان السيادة التركية على مناطق الخليج العربي تمتد جنوبا إلى القطيف ، وهدد الرئيس التركي بان أي ادعاءات انجليزية مماثلة ستؤدي إلى مصاعب دبلوماسية على النطاقين الإقليمي والدولي . [٣٣]

رافق هذه التصريحات التركية استعدادات عسكرية ، حيث تم تعزيز القوات العسكرية العثمانية في البصرة ، وارسال الطراد (زحاف) إلى ساحل القطيف ، الذي اجبرته السفن البريطانية على التراجع إلى مياه البصرة .

لم تمر حادثة (زحاف) دون أن تترك تاثيرات عديدة على سياسة القوى المختلفة في الخليج العربي . فمن ناحية احتج السفير العثماني في لندن على الاجراءات الحربية التي اتبعها الاسطول البريطاني في الخليج . ومن ناحية اخرى ، فقد أجرى ينوفيوف . السفير الروسي في استنبول . اتصالا مع توفيق باشا، وزير الخارجية التركية ، وطلب منه أن يقنع السلطان عبد الحميد بخطورة ارسال الطراد "زحاف" إلى الخليج العربي في الظروف الراهنة . [٣٤]

وعلى أية حال ، فالذي يبدو أن الحكومة العثمانية لم تأخذ برأي السفير الروسي بمسألة إرسال الطراد التركي إلى الخليج العربي ، الذي أصبح عرضة للتهديد البريطاني . وهنا تدخلت روسيا في الأمر حيث صرح مسؤول في السفارة الروسية في استنبول : "بأن بلاده تستنكر الاعتداءات البريطانية على ممتلكات

السلطان ، سواء في مصر او في قبرص أو في الخليج العربي''. وقد قامت السفارة الروسية. كما يقول الدكتور الداود. بتوجية نظر السلطان إلى الخطر البريطاني في منطقة الخليج . (٣٥)

وأظهرت حادثة أخرى ، وهي حادثة الكويت عام ١٩٠١ ، وقوف الروس إلى جانب العثمانيين ، بوجه النفوذ البريطاني ، ففي تلك السنة قام أحد الضباط الانجليز بإنزال العلم التركي من مقر الشيخ مبارك ونصب علماً جديداً محله سمي بعلم الكويت ، والقيام باعلان الحماية على ممتلكاته مما أدى إلى انتشار حملات السخط في الصحافة الروسية ، حتى أن زينوفيوف السفير الروسي في استنبول ، اشار على الباب العالي بمراجعة محكمة لاهاي الدولية . (٣٦)

وعلى كل حال ، لم تشجع روسيا مرة أخرى السلطات العثمانية على القيام بإجراءات عسكرية ضد الكويت ، وذلك خشية ازدياد النفوذ البريطاني في الكويت، ولهذا طلب السفير الروسي في استنبول من السلطان عبد الحميد أن لا يقوم باي عمل يؤدي إلى تعكير الجو السياسي في هذه المنطقة ، ويظهر أن السلطان العثماني لم يأخذ بنصيحة السفير الروسي هذه . (٣٧)

تأتي هذه التحذيرات لاعتقاد الروس بأن اثارة قضية الكويت تؤدي إلى تقوية النفوذ البريطاني ، وإضعاف علاقة الكويت بالدولة العثمانية ، ويمكن أن نلمس هذا في التقرير الذي بعث به السفير الروسي من استنبول إلى القنصل الروسي في البصرة (أداموف) في ٣١ آب سنة ١٩٠١ والذي جاء فيه :

(إن من واجباتنا الاساسية مساندة الحالات التي تثير المتاعب لبريطانيا، وتؤدي إلى اضعاف موقفها ، وإذا اتيحت لكم الفرصة يجب أن تفهموا وتوضحوا للحكام المحليين في المنطقة بأن من مصلحتهم أن لا يتأثروا أو يهتموا بالمساندة الخارجية وأن لا يثيروا المشاكل والمصاعب أمام السلطة العثمانية في شبه الجزيرة العربية . وإذا كان بامكانك. يقصد أداموف. مقابلة الشيخ مبارك يجب أن توصيه

بان لا يسيء علاقتة بالدولة العثمانية ولا يعطي مجالا لتدخل بريطانيا لان ذلك التصرف يفسح لها المجال لأن تضع يدها على كل سواحل الخليج العربي . إن ضعف الدولة العثمانية يعتبر خطرا كبيرا بالنسبة للمقاطعات العربية المستقلة وأن هذا يساعد بريطانيا على تحقيق مشاريعها التوسعية في بسط نفوذها على أكبر جزء ممكن من هذه المنطقة). (٣٨)

لقد تطور النفوذ الروسي والألماني في الباب العالي على حساب النفوذ البريطاني ، وهذا ما تكشف عنه تقارير السفارة البريطانية في استنبول ، بحيث أدى الأمر إلى حدوث تنافس شديد بين هذه القوى الثلاث ، ومهما يكن من أمر، فقد نظر العثمانيون بحذر شديد تجاه النفوذ البريطاني المتزايد في الخليج العربي والمناطق المتاخمة له ، غير انهم لم يظهروا عداءهم الصريح له ، لعدم امتلاكهم من الوسائل السياسية والعسكرية ما يمكنهم مواجهته وهذا ما ينطبق أيضاً على ادعاءاتهم بالسيادة على الإمارات العربية الواقعة على الخليج ، دون ان يفرضوا نفوذهم الفعلي عليها . ففي رسالة بعث بها السلطان عبد الحميد الثاني في ٤ أيلول ١٨٩٩ إلى السفير البريطاني في استنبول ، جاء فيها : "بأن تركيا سوف لن تسمح لي دولة اوربية (ما عدا بريطانيا) بالحصول على امتيازات في مياه الخليج العربي ، ولكنها غير مستعدة للتنازل عن البصرة أو الكويت أو البحرين أو القطيف" . (٣٩)

وعلى أية حال ، فإن نفوذ مراقبة النفوذ الأجنبي في منطقة الخليج العربي لم تكن مقتصرة على السفن البريطانية ، بل هناك ما يشير إلى نشاط السلطات المحلية في ولاية البصرة لمراقبة تحركات السفن الأجنبية في المنطقة ومن بينها السفن الفرنسية والروسية فقد أوردت وثيقة عثمانية خبر وصول احدى السفن الروسية إلى الكويت ، وقالت : (إن ظهور السفن الحربية الجّنبية في ساحل الكويت من الامور غير العادية لهذا يرجى اجراء التحقيقات اللازمة حول

التحركات البحرية الأخيرة في المنطقة .[40]

٢ـ السياسة العثمانية والنشاط الروسي في الخليج العربي :

بدأ الروس يتحركون نحو الخليج العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مستغلين في ذلك الروح العدائية التي تولدت لدى السلطان عبد الحميد الثاني ضد البريطانين وقد شجعهم على ذلك ادعاءات العثمانيين بالسيادة على كثير من المناطق في الخليج العربي .

بذلت السلطات العثمانية في العراق بعض التسهيلات للروس ، من ذلك أنها اختصرت فترة نظام الحجر الصحي للطراد الروسي (جليباك) الذي وصل البصرة في أذار عام ١٩٠٠ في عشرة أيام إلى خمسة أيام تكريماً له. وعندما اعترض البريطانيون على ذلك وسع هذا الاستثناء ليشمل جميع السفن الحربية الأجنبية المتجهة إلى البصرة. [41]

وترددت كثير من الشائعات عن التسهيلات التي منحتها الدولة العثمانية للروس بشأن التنازل لهم عن بناء خط حديدي من طرابلس على الكويت وإقامة محطة للتزود بالفحم على الخليج العربي وربما الكويت أيضا من ذلك ما أشار إليه أحد التقارير البريطانية التي رفعها المقيم السياسي في المنطقة في ٢٢ كانون الأول ١٨٩٧ ، حيث قال :

وهناك ، على أية حال مسألة لفتت نظري في الأونة الأخيرة ، فمنذ عدة أشهر تروج الشائعات حول نشاط روسيا وعملائها في الخليج ... الأمر الذي يؤكد هذه الشائعات إلى حد ما ، وزيادة على ذلك فقد أدركت من المعلومات التي حصلت عليها أن الكويت هي الموقع الذي تتركز عليه أعني روسيا [42] ولما كان الروس تواقين لمعرفة المزيد عن الكويت ، فقد لجأوا إلى السلطات العثمانية في البصرة أو السلطات المركزية في استنبول ، وذلك من أجل السماح لمبعوثيهم بزيارة المنطقة

فغلّفوا مهمتهم بنوع من الكتمان والسرية ومتظاهرين بالرغبة في التجارة أو مكافحة الطاعون [٤٣] وتشير الوثائق البريطانية أن هؤلاء المبعرثين الروس لم يكونوا تجاراً في معظمهم، إنما جاءوا لمهمات استطلاعية وسياسية، ومع ذلك فقد حصلوا على إذن السلطات العثمانية في العراق بالمرور إلى الكويت . في ذلك أن روسيين هما أفانيسون وعباس عليوف ، وقد ذهبا إلى الكويت عام ١٨٩٩ عبر البصرة، وهما يحملان أمراً من الحكومة التركية إلى الشيخ مبارك بأن يمنحهما كل مساعدة ممكنة [٤٤] وتشير تلك الوثائق أيضاً، بأن روسيا أخرا قد عبر لثورة في البصرة إلى الكويت)) وهو يحمل توصية من الوالي العثماني بشراء الجلود وذكر بأنه أرمني ويعمل تاجراً في بغداد [٤٧] فالظاهر أن هؤلاء المبعوثين كانوا على علاقة وثقى بالمشروعات الروسية التي ترمي إلى إيجاد قاعدة للروس في الخليج العربي ، ومحطة للتزود بالفحم في المنطقة ، وقد أظهر القناصل البريطانيون تخوفهم من أن تنازل الدولة العثمانية لهم عن ذلك [٤٨] ومن الدلائل على وجود تسهيلات عثمانية للروس في الخليج العربي مسألة الحجر الصحي، التي حاولت كل من الدولة العثمانية وروسيا للاستفادة منها . فالنسبة للدولة العثمانية حاولت اتخاذ بعض التدابير لأحكام سيطرتها على مداخل الخليج العربي ، بينما حاولت روسيا الاستفادة من الأمر لزيادة نشاطها في أجزاء فارس الجنوبية ، فضلاً عن الجزء الغربي في الخليج .

وأصل مسألة الحجر الصحي تبرر لانتشار وباء الطاعون في الهند عام ١٨٩٦ ، وامتداده إلى بلدان أخرى ، وانعقاد عدة مؤتمرات عالمية لبحث الأمر، وفي المؤتمر الصحي الذي عقد في فينيسيا عام ١٨٩٧ طرحت مقترحات لإقامة مركز صحي بالقرب من البصرة وآخر في جزيرة هرو أو قسم عند مدخل الخليج العربي ، على أن تكون هذه المراكز تحت سيطرة مكتب الصحة في العاصمة العثمانية . وقد واجهت هذه المقترحات معارضة البريطانيين ، وذلك لاعتقادهم بأن إقامة مثل

هذه المراكز سيمنح الدولة العثمانية سيطرة بحرية في الخليج العربي ، ومهما يكن من أمر ، فقد قبله البريطانيون قسماً في تلك المقترحات في العام التالي ، على الرغم من إبداء بعض التحفظات حولها (٤٧) .

وقد لا نجانب الصواب إذا مكنا بأن مسألة الحجر الصحي بدأت تأخذ طابعاً سياسياً ، وذلك لأن روسيا بدأت منذ عام ١٨٩٧ إرسال عدد من الأطباء لدراسة الطاعون في منطقة الخليج ، هذا مع العلم بأن المرض لم يظهر في المنطقة إلا في عام ١٨٩٩ ، وقد قام هؤلاء الأطباء بزيادة متكررة لبندر عباس والبصرة ، ولكن تقارير المقيمات البريطانية في المنطقة كانت تستبعد عنهم هذه الصفة فقد أشار لوتش ، المقيم السياسي البريطاني في الجزيرة العربية ((أن المدعو موف)) الذي اصطحب طبيبين روسيين في مهمة خاصة بمكافحة الطاعون في العام الماضي ، زار بغداد في شهر آب بعد أن قام بجولة في الخليج ، ولكن أدمون هذا ليس طبيباً)) (٤٨). والظاهر أن جميع هؤلاء الأطباء كانوا يقومون بزيارات استطلاعية لمنطقة الخليج ، وأن زياراتهم تلك كانت مرتبطة بالمخططات الروسية الخاصة بالكويت ، إلا أن الحكومة العثمانية لم تعط هذا الأمر أية أهمية ، على الرغم من الزيارات تكررة التي كانوا يقومون بها للبصرة ، وكان هذا المنحنى عاملاً مشجعاً للنشاط رسي في المنطقة .

ذا كان العثمانيون قد قدموا التسهيلات للروس في منطقة الخليج العربي ، فإن لأخيرين كانوا يدعمون المواقف السياسية العثمانية ، سواء في العاصمة العثمانية أو في منطقة الخليج نفسها .

من ذلك أن السفارتين الروسية والألمانية في العاصمة استنبول كما لح الوثائق البريطانية - كانتا تشجعان الحكومة العثمانية على اتخاذ عمل ما ضد الشيخ مبارك ، باعتبار أنها تمتلك حقوق السيادة على الكويت)) (٤٩) .

غير أن الأهم من ذلك أنه بدأت تظهر عام ١٩٠١ في الأوساط الروسية بعض

الآراء الداعية إلى ضرورة المساهمة في المشكلة الكويتية عندما اشتد الخلاف بين شيخ الكويت والسلطات العثمانية ، ومحاولته الأخيرة إرسال جيوشها إلى المنطقة . وأصبحت هذه النظرة موضوع مطالبة الصحف الروسية آنذاك . وعلى أية حال ، فقد شعر القياصرة الروس بأن زيادة النفوذ البريطاني في الخليج العربي من شأنه أن يقوي ذلك النفوذ في جنوب فارس أيضاً . ولذلك فقد اقترح زينو فيوف - السفير الروسي في استنبول ، بأنه في حالة إقدام الحكومة البريطانية على احتلال الكويت أو أي جزء يقع بالقرب من الخليج العربي ، فإن روسيا القيصرية بدورها تكون غير ملزمة أو أنها تعلن بطلان مفعول المعاهدة الروسية البريطانية حول أفغانستان [٥٠] عام ١٨٨٥ .

وعلى هذا فإن إرسال الطراد الروسي ((فارياج)) إلى المياه الكويتية ، وفتح قنصلية روسية في البصرة وفي ميناء بوشهر وتأسيس شركة للملاحة البحرية بين موانئ البحر الأسود - خاصة ميناء أوديا - وموانئ الخليج العربي ، تقع جميعها ضمن إطار الخطة الروسية الجديدة لا خارجها .

وفي ناحية أخرى قام الروس بدور الوساطة في خلال الأزمة التي حدثت بين شيخ الكويت والسلطات العثمانية عام ١٩٠١ . ففي هذا العام اتصل الشيخ مبارك مع القنصل الروسي العام في بغداد ، لأمر يصفه لوريمر ((بأنه مجهول)) [٥١] إلا أن الوثائق البريطانية تكشف عن طبيعة هذا الأمر ، مؤكدة بأنه تم عن طريق بعض المواطنين الروس الذين كانوا يترددون ما بين بغداد والكويت ، وبالذات عن طريق أوفانيسوف وعباس عليوف ، اللذين وصفتهما تلك الوثائق في عدة مواضع ((بأنهما رجلان مثقفان ثقافة جيدة ، ويعرفان الروسية والتركية والعربية ، غير أنهما يظهران ارتباطهما بالأعمال التجارية [٥٢] .

أما غرف الاتصال فتشير إلى وثيقة بريطانية أخرى قائلة : ((أن عباس عليوف، الموجود الآن في البصرة (١٩٠١) ، يحمل رسالة موجهة من القنصل الروسي العام

في بغداد إلى الشيخ مبارك ، مفادها أن السفير الروسي كان قد اتصل بالسلطان عبد الحميد بشأن علاقته مع الدولة العثمانية)) [٥٣] .

ومما لا شك فيه ، فإن الروس كانوا قد اتصلوا بالشيخ مبارك عدة مرات ، وعرضوا عليه تقديم مساعدتهم لتحقيق استقلاله إلا أنه رفض تلك العروض ، كما سنرى . وجددوا اتصالهم به في ١٢ أيلول ١٩٠٤ ، إلا أنهم في هذه المرة عبروا عن استعدادهم لضمان مكانته في الكويت ((إذا ما تصالح مع الأتراك واستقبل القناصل الروس والفرنسيين)) [٥٤] .

وصفوة القول ، أن السلطات العثمانية في البصرة ساعدت إلى حد كبير تحركات الروس في منطقة الخليج العربي ، وقد عمل هؤلاء - وفقاً للسياسة الروسية العامة - على التوسط في بعض القضايا التي تخص العثمانيين ، بخاصة فيما يتعلق بالكويت ، مما أفسح المجال في النشاط الروسي قبل عام ١٩٠٧ .

الطرق التي اتبعتها روسيا للوصول إلى الخليج العربي :

لم يسلك الروس طريقاً واحداً للوصول إلى الخليج العربي ، وإنما سلكوا عدة طرق كان قسم منها يقع ضمن مناطق النفوذ العثماني الإسمي ، مثل طريق العراق ، وطريق الكويت ، وطريق قناة السويس . ويوجد هناك طريق آخر مهم سلكه الروس ألا وهو طريق فارس ، الذي تقع ضمنه منطقة الأحواز التي ظلت موضع نزاع بين الدولتين العثمانية والفارسية طيلة الفترة التي نقوم بدراستها .

ولما كان الروس قد اطمئنوا إلى جانب الدولة العثمانية كما أسلفنا ، فقد سلكوا هذه الطرق جميعها من أجل زيادة نشاطهم ونفوذهم في الخليج العربي ، كما سنوضح ذلك أدناه .

١- طريق فارس - الخليج :

يعد طريق فارس من أقدم الطرق التي وصفها الروس نصب أعينهم باعتباره

يمثل أقصرها في الوصول إلى الخليج العربي ، وقد سبق لنا أن بينا بأن الروس قد وضعوا فارس ضمن مخططاتهم الاستراتيجية قبل عام ١٩٠٧ ، وحاولوا أن يتخذوا أحد موانيها قاعدة لوجودهم في الخليج العربي ، ومحاولة ربطها بخطوط السكك الحديدية القادمة من الشمال .

على أن ما ذكرناه يمثل أفكاراً نظرية ، سرعان ما تحولت إلى واقع عملي حينما أوفد الروس ، ومنذ عام ١٨٨٧ ، عدداً في ضباطهم إلى أماكن معينة في فارس مثل أصفهان وشيراز وبوشهر وبندر عباس لدراسة إمكانية اتخاذها محطة للتزود بالفحم [٥٥] .

تركزت أنظار الروس منذ عام ١٨٩٩ نحو ميناء بندر عباس ، بما فيه الجزر الواقعة في مضيق هرمز ، من أجل أن يكون المحطة التي ينشدها الروس ، وقد عزز الروس ذلك عن طريق إرسال الطراد ((جيلياك)) الذي زار ميناء بندر عباس عام ١٩٠٠ ، وتكررت زيارات السفن الروسية الحربية لهذا الميناء في السنوات التالية ، مما يدل على أنها استهدفت أغراضاً سياسية في المنطقة [٥٦] .

كانت مسألة مد السكك الحديدية عبر الأراضي الفارسية مهمة للروس بقدر أهمية إيجاد قاعدة بحرية لهم على الخليج العربي . ذلك لأن السكك الحديدية كانت هي أداء الربط بين الأراضي الفارسية من جهة ، والقاعدة المنشودة في الخليج من جهة أخرى غير أن هذا الأمر لم يكن من الأمور السهلة ، بخاصة وأن البريطانيين في فارس كانوا يقفون بوجه هذه المشروعات ، لأنها تشكل في نظرهم ، تهديداً لوجودهم السياسي والتجاري في المنطقة .

يعد عام ١٩٠٠ نقطة انطلاق لمشروعات الاستطلاع الروسية الرامية إلى معاينة المناطق التي يمتد إليها مشروع الخط الحديدي الذي يربط بين الأقسام الشمالية في بلاد فارس وموانئ الخليج العربي بخاصة بو شهر وبندر عباس ، فقد وصت بعثة روسية إلى طهران في أزار ١٩٠٠ م ومنها اتجهت إلى أصفهان وشيراز ،

ثم ما لبثت أن اتجهت إلى أربعة مواقع مختلفة على الخليج ، وهي بو شهر والمحمرة وبندر عباس وشاهبار .

وقد وصف القناصل الروس هذه البعثة بأنها ((بعثة جغرافية)) ولكن الصحف الروسية وصفت رئيس البعثة بأنه ((مدير السكك الحديدية)) ، وأثبتت الدلائل بأن رجال هذه البعثة كانوا في الميمني بالسكك الحديدية ، وقد أوفدوا إلى فارس لاختيار أفضل الطرق لمد خط حديدي عبر القوقاز يقطع فارس في اتجاه الخليج ، لكن أعضاء البعثة أظهروا تخوفهم من أن يتقاطع الخط الحديدي هذا مع الخط الألماني في بغداد ، ومع شبكة السكك الحديدية الهندية [٥٧] وعلى أية حال ، فقد كانت مشاريع السكك الحديدية الروسية تثير المتاعب لبريطانيا ، لأنها كانت مشغولة آنذاك بحرب البوير في جنوب أفريقيا (١٨٩٩ - ١٩٠٢) ، إلا أن بريطانيا استطاعت أن تضع حداً لتلك المشروعات باتفاقية عام ١٩٠٧ .

وفي الجدير بالذكر ، أنه رافق هذه المشروعات الروسية جهود كبيرة لإقامة قنصليات روسية في بلاد فارس ، وقد أثمرت تلك الجهود عن فتح وكالة قنصلية في بند عباس ، وقنصلية عامة في بو شهر منذ عام ١٩٠١ ، وعين لها أوفسينكو ، الذي قام بدور كبير في النشاطات الروسية على الساحل الشرقي للخليج وغربه .

٢ - طريق العراق - الخليج :

كان العراق الطريق الآخر المهم الذي عمل الروس على استخدامه للوصول إلى الخليج ، وذلك عبر وسائل مختلفة . فقد سعت روسيا إلى تأسيس مصالح ملاحية لها في العراق ، إذ بذل سفيرها باستنبول - بحكم العلاقة الطيبة مع الدولة العثمانية ، جهوداً للحصول على امتيازات مماثلة لتلك التي كانت تتمتع بها شركة لينج البريطانية ، ويعتقد أن القرار الذي اتخذته الحكومة العثمانية في سنة ١٨٨٣ ، القاضي بإيقاف الشركة البريطانية عن العمل ، كان بتحريض من روسيا [٥٨] .

ووقع العراق في حيز السكك الحديدية ، التي كان الروس يزعمون مدها في الدولة العثمانية . فقد حصل تانكريد على امتياز من الحكومة العثمانية في أذار ١٨٨٣ لمد سكة حديدية في طرابلس على البحر المتوسط عبر حلب - حماة - بغداد - فالبصرة غير أن هذا المشروع لم يخل من الأحلام السياسية ، فقد أراد تانكريد أن يخرج اليهود من روسيا ويوطنهم على جانبي السكة ، لكن معارضة الحكومة العثمانية لمثل هذا المشروع ووفاة تانكريد نفسه أديا إلى قبر المشروع [٥٩] كما ان مشروع كابنست ، الذي سبق ذكره ، كان من المسؤول أن يبدأ في ميناء طرابلس في بلاد الشام حتى الكويت ، على أن تمر أحد فروعه ببغداد وخانقيني ، وأخر بكر بلاء ، غير أن مشروعاً كهذا كان مصيره الفشل أيضاً ، ذلك لأن روسيا لم تكن تمتلك الوسائل المادية الكافية التي يمكنها في إنجاز مثل هذا المشروع ، فضلاً عن معارضته بريطانيا وألمانيا [٦٠] .

وعلى الرغم من الإحباطات التي تعرضت لها روسيا في هذه المجالات فقد استمرت في سعيها لتطوير مصالحها التجارية في العراق ، فذلك عن طريق تعريف بضائعها فيه واستيراد بعض السلع العراقية . إذ تشير تقارير القناصل البريطانيين إلى أن روسيا تقوم بتصريف كثير من بضائعها في العراق مثل البترول (الكيروسين) والأخشاب والأقمشة والأواني الزجاجية والخزفية . وقد بلغت واردات العراق في تلك السلع عام ١٩٠٧ كالآتي :

(٥١,٠٠٠) صندوق من البترول

(٣١,٨٢١) قدماً مكعباً من الأخشاب

(١٢٦) بالة أقمشة .

(٣٧٠) صندوقاً من الأواني الزجاجية .

(٢١٥) صندوقاً من الخزفيات [١١] .

وفي الوقت نفسه ، فقد كانت روسيا تستورد بعض المنتجات العراقية ، بخاصة

التمور والجلود .

وقد بلغت صادرات العراق إلى روسيا سنة ١٩٠٧ (٤,٤٥٣) طناً من التمور [٦٢] .

ولعل من بين المجالات التي حقق الروس فيها نجاحاً هو زيادة نشاطهم القنصلي في العراق ، والدور السياسي الفعال الذي قاموا به من خلال قناصلهم في المنطقة، بخاصة الاتصال بشيخ الكويت لعدة مرات ، وتحريض السلطات العثمانية ضد النفوذ البريطاني المتزايد في العراق وفي الأحواز . وفي المجال الأخير بالذات ، قامت كل من بريطانيا وروسيا بدور غير قليل في مسألة الحدود القائمة بين العراق وفارس ، حيث كانت الأخيرة تخترق سيادة إمارة الأحواز . ونظراً لأن كلاً من بريطانيا وروسيا كانت لهما مصالحهما الخاصة ، السياسية والاقتصادية ، في هاتين المنطقتين فقد حاولتا وضع حد للمنازعات بين العراق وفارس ، وذلك ابتداء من معاهدة أرضروم الثانية عام ١٨٤٧ لغاية بروتوكول الاستانة عام ١٩١٣ [٦٣] .

٣- طريق الكويت والسواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية :

يعد الكويت من الطرق الرئيسية التي راد الروس النفاذ منها إلى الخليج العربي، بخاصة وأن هذه المنطقة كانت محط أنظارهم كقاعدة للتزود بالفحم ، ونهاية المشروعات سكك الحديد الروسية إلى الخليج ، وهي الموضوعات التي سلفنا الإشارة إليها ، على أن المخططات الروسية هذه كانت الأساس لكثير من الاتصالات التي أجراها الروس مع شيخ الكويت من أجل عقد معاهدة معه ، وإن لم تصب هذه الاتصالات نجاحاً .

وفي هذه النقطة بالذات سوف لا يكون اعتمادنا على الوثائق والمصادر البريطانية التي استخدمها الباحثون كثيراً ، وإنما على بعض المؤلفات الروسية التي اعتمدت الوثائق الروسية ذات الصلة بالموضوع .

فبالنسبة لمعاهدة ١٨٩٩ المعقودة بين حكومة الهند البريطانية والكويت ، أشارت المصادر الروسية ، بخاصة مؤلفات بوندار يغسكي إلى الظروف التي اتخذتها بريطانيا وسيلة لعقد هذه المعاهدة ، والتي كان من بينها تخويف حاكم الكويت الشيخ مبارك بالخطر العثماني من جهة والخطر الروسي الرامي إلى إخضاع مشيخة الكويت من جهة أخرى (٦٤) .

وازاء ذلك ، فإن هذه المصادر أرادت التشهير بالمؤلفات التي كتبها المؤرخون البريطانيون الذين يعدون بأن المبادر لعقد معاهدة ١٨٩٩ ليس بريطانيا ، بل مبارك ، شيخ الكويت الذي كان يبحث عن وسيلة تحميه من (الخطر الروسي) (٦٥).

وفي الوقت الذي تأزمت فيه العلاقة بين الدولة العثمانية والكويت ووصلت عام ١٩٠١ حداً عرفت فيه من المصادر الروسية ((بمشكلة الكويت)) قام الروس بدور واضح في التأثير على سياسات الدولة العثمانية من جهة ، ومحاولة تحقيق ما يماثلها في مشيخة الكويت من جهة اخرى . ففي هذه الأزمة أرسل الطراد الروسي ((فارياج)) إلى موانئ الخليج العربي فيبداية شهر كانون أول عام ١٩٠٠، مما دعا ((أداموف)) القنصل الروسي في المنطقة ، إلى أن يبعث برسالة إلى ((زينو فيوف)) - وزير خارجية روسيا - أظهر فيها تخوفه لمثل هذا الإجراء لاعتقاده أن إثارة المشكلة الكويتية مجدداً غير ملائم في هذه الفترة . بيد ان ((زينو فيوف)) لم يأخذ بنده الاقتراحات وأصر على تنفيذ رحلة الطراد إلى موانئ الخليج العربي ، كما أبرق إلى ((أوفسينكو)) ، القنصل الروسي في بوشهر ، طالبا منه أن يكون على ظهر الطراد وأن ينزل إلى الأراضي الكويتية ويقابل الشيخ مبارك ويلفت نظره في أن بريطانيا أكثر خطراً على الكويت من الدولة العثمانية ولهذا فعليه أن يحسن علاقته مع الأخيرة (٦٦) ومع أننا لا نعلم إذا كان القنصل الروسي قد نفذ تلك التعليمات أم لا ، ولكن يستنتج من التقرير الذي قدمه إلى ((زينو فيوف)) بعد زيارته للكويت بأن المقابلة كانت جيدة وأن شيخ

الكويت لم يكن مرتاحاً جداً إلى الطلبات والتسهيلات التي أرادها البريطانيون منه [٦٧] .

ولكن الوضع الجديد لم يخل من مفاجآت ، وهذا ما يشير إليه المؤرخ الروسي ((بوندار يفسكي)) حيث يقول بأنه عثر على النسخ الأصلية لثلاث رسائل كان قد وجهها مبارك في نيسان ١٩٠١ إلى ((كرو غلوف)) القنصل الروسي العام في بغداد ، وتضمنت هذه الرسائل ((طلباً ملحاً إلى الحكومة الروسية بان تحمي الكويت في دسائي الإنجليز ، حتى أن مبارك اقترح رفع العلم الروسي فوق الكويت [٦٨] .

ومع أننا لسنا بصدد إنكار صحة هذه الرسائل ، ولكن الذي يمكن قوله ، أنه في ظل التنافس الدولي حول الكويت ، فإن الشيخ مبارك لم يحدد موقفه تماماً من الأطراف المتنازعة في بادئ الأمر ، ولهذا استقبل قناصل بريطانيا وروسيا وألمانيا، وقد قبل صداقة هؤلاء جميعاً دون قيود [٦٩] .

وصفوة القول ، فإن المصادر الروسية أرادت الوصول إلى نتيجة رئيسية وهي ان الروس في اتصالاتهم المستمرة مع شيخ الكويت لم يرغبوا في استقلال هذه القضية لصالحهم ، ولكنهم أرادوا اتخاذها وسيلة للوقوف في وجه الزحف بريطاني في الأقسام الشمالية في الخليج العربي ، غير أنهم فشلوا في هذا ضمار لتركز النفوذ البريطاني هناك .

م تقتصر اتصالات الروس على الشيخ مبارك لوحده ، إذ اتصلوا بالأمير عبد العزيز بن متعب بن الرشيد أمير نجد ، كما اتصلوا بالأمير عبد العزيز بن سعود عقب نجاحه في استرجاع الرياض من عامل بن الرشيد عليها . وكانت اتصالات الروس متزامنة مع رغبة العثمانيين في استعادة نفوذهم من الجزيرة العربية ، وذلك من خلال تقديم العون لابن الرشيد ضد ابن سعود . ولعل من أقدم هذه الاتصالات ، تلك الزيارة التي قام بها ((ادوارد نولدي)) ، الموظف الروسي الذي كان في الأصل ألمانيا من ساحل اليلطيق .

وقد توجه عن طريق بيروت ودمشق إلى حائل ، وزار مخيم مشيخة ابن الرشيد في شمالي الرياض ، ثم توجه إلى طرابزون عن طريق العراق (كربلاء - بغداد - الموصل) والأناضول الشرقية . ولمذكرات هذا الموظف الروسي أهمية كبيرة جداً ، ذلك لأنه يشير فيها إلى الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية وزيارته لابن رشيد ، الذي كان في حالة عداء مع السعوديين (٧٠) .

ومهما يكن هنالك من تفسير لهذه الزيارة ، فإنها كانت في الواقع ذات أغراض سياسية .

بخاصة وأن الشخص الذي قام بها كان موظفاً لدى الحكومة الروسية ، وقد زار أحد الأطراف المتنازعة في الجزيرة العربية وترك لنا انطباعاته ، عن الأوضاع في المنطقة . ومما يدل على ذلك ، أن الروس وبعد أن أصيبوا بخيبة أمل في اتصالاتهم مع الشيخ مبارك لغاية عام ١٩٠١ فقد حاولوا أن يقيموا علاقات مع عدوه الرئيسي ابن رشيد (٧١) . وعلى هذا النحو أراد الروس أن يتدخلوا في النزاعات القائمة في شمال وشرق الجزيرة العربية . فعلى اثر الزيادة التي قام بها ((اوفيسنكو)) القنصل الروسي العام في بو شهر ، لشيخ الكويت مبارك الصباح ، التقى بأحد امراء ابن سعود ، الذي تصادف وجوده وقتذاك بالكويت ، حيث تؤكد الوثائق البريطانية بأن القنصل الروسي قد عرض عليه تقديم المساعدات من مال وسلاح (٧٢) وفي الوقت نفسه تحتفظ الوثائق البريطانية بنسخة من رسالة عبد الرحمن بن فيصل بن سعود ، الموجهة إلى المقيم السياسي في الخليج مؤرخة في ٥ صفر ١٣٢٠هـ / ١٤ مارس ١٩٠٢ ، وهي تشير إلى الاتصال الذي أجراه الأمير السعودي مع الروس في الكويت إلى أن تقول ((مطلب مني رأي عبد الرحمن - أن أكتب له رسالة واصفاً فيها المعاملة السيئة التي وجهها الأتراك لي ، والمساعدة التي قدموها لابن رشيد ضدي

تلك هي الظروف التي أطاحت بالاتصالات الروسية مع ابن سعود ، التي دأبت

الوثائق البريطانية على تصديقها ، ولكنها اعتبرتها ((تكتيكاً)) أراد الطرفان استغلالها لتحقيق مصالحها الخاصة ، فابن سعود أراد إثارة البريطانيين للوقوف إلى جانبه ضد ابن رشيد في حين أرادها الروس وسيلة لإظهار نشاطهم ومطامعهم في المنطقة التي كانوا تواقين للوصول إليها (٧٤) .

وتطلع الروس نحو البحرين حيث زار بعض مواطنيهم هذه البلاد عام ١٩٠٢ ، وكان من بينهم المدعو سربيا نيكوف الذي ادعى أنه أتى للمنطقة سائحاً ، فالتقط عدة صور لأماكن متفرقة في البحرين ، وقال بأنه سيرسل هذه الصور وسيكتب انطباعاته للصحافة الروسية (٧٥) .

وفي العام نفسه ، زارها المستر ((بوغوما فلينكسي)) العالم الروسي المتخصص في الأحياء المائية حيث أمضى فيها أسبوعين في مهمة علمية ، التقيخلالها بشيخ البحرين ويؤكد لوريمر ، بان هذا الشخص كان عالماً بالفعل لا شان له بالمصالح السياسية (٧٦) إلا أن المعلومات التي تحفظها الوثائق الروسية تظهر عكس ذلك ، إذ أنها تشير إلى بعض كتابات هذا العالم ، وبعض التصريحات التي نقلها عن حاكم البحرين ، وجميعها تدل على اهتماماته السياسية ومن بين تلك الكتابات قوله هناك رغبة قوية عند شعوب المنطقة في إيجاد علاقة متينة مع روسيا''. (٧٧)

ا أنه ينقل لنا تصريحاً لشيخ البحرين عند زيارته له جاء فيه : ''ليس هناك ي شك في أن العرب يخشون (الأصل يخافون) الإنجليز. الإنجليز هنا منذ مائة عام، والكل يعلم أنهم يملكون المدافع والبواخر الحربية، وليس هناك دولة أوروبية جاءت إلى هنا يمكنها أن تساعد العرب فيما إذا رفضوا العمل وفق رغبة الإنجليز. فإذا استمر الروس في المجيء إلى هنا فإن العرب ستقل مخاوفهم بصورة تدريجية من الإنجليز'' (٧٨)

فلا غرو بعد هذا، أن يستبعد المرء طبيعة المهمة السياسية، وربما العملية أيضا، التي هدف إليها ''بوغو بافلينسكي'' من زيارة البحرين، بخاصة وأنها جاءت في

وقت زاد فيه النشاط السياسي الروسي في المنطقة.

٤- طريق قناة السويس الخليج :

يعد طريق قناة السويس من أكثر الطرق أهمية، إذ وصلت بواسطته كثير من السفن الروسية الحربية والتجارية من أجل إرساء النفوذ الروسي في الخليج العربي، وتم هذا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩.

يرتبط هذا الطريق مع مجمل النشاطات الروسية الأخرى، ذلك لأنه في الوقت الذي كان يجري فيه البحث عن نهاية للسكة الحديدية المزمع إقامتها في الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ظهر في الوقت ذاته الدعوة لإنشاء خطوط ملاحية تربط البحر الأسود بالخليج العربي، عبر قناة السويس، وإقامة المحطات التجارية المناسبة في المنطقة، وعلى هذا الأساس ، زارت البعوث التجارية مختلف موانئ الخليج العربي لفتح الوكالات فزارت الكويت والبحرين ومسقط وقطر والمحمرة، وأخيراً اتخذت الشركة الملاحية مركزاً لها في بوشهر بعد أن رفضت الموانئ العربية قبولها، غير أن الروس حاولوا افتتاح وكالات لهذه الشركة في كل من مسقط وجاسك وبندر عباس ولنجة والمحمرة والبصرة.(٧٩)

زاد الروس نشاطهم السياسي والتجاري في الخليج العربي عن طريقين وهي المظاهرات البحرية الروسية التي استهدفت أغراضاً سياسية، وإنشاء الشركات الروسية للملاحة البخارية، فبالنسبة للطريق الأول، نظمت عددا من الطرادات الحربية الروسية في بداية القرن العشرين - موانئ الخليج العربي، مثل (جيلياك) عام ١٩٠٠ و(فارياج) عام ١٩٠١ واسكوالدي عام ١٩٠٢ و (بوياربن) عام ١٩٠٣.

ويمكننا أن ندرج أهداف هذه الزيارات كالآتي:

١- الحصول على معلومات هامة حول الوضع بالخليج والمناطق التي يستحسن للبواخر الروسية ارتيادها والتماثل فيها.

٢- إلفات نظر الدوائر السياسية البريطانية، والتلويح بأن بريطانيا هي ليست صاحبة النفوذ لوحدها في المنطقة.

٣- إظهار الاتفاق بين السياستين الروسية والفرنسية تجاه الخليج العربي، وهذا ما تعكسه زيارة الطراد الروسي (بويارين) بصحبة الطرادة الفرنسية (لانفرتيه) لمسقط وقيام قائدا الطرادتين بمقابلة السلطان سوية.[٨٠]

٤- تعريف سكان المنطقة بالروس ونشاطهم إذ كان يسمح للمواطنين أحياناً بالصعود إلى السفن الروسية ومشاهدتها، وقد أثارت هذه السفن، وبالذات (فارياج) سكان موانئ الخليج وذلك لاستخدامها الإنارة الكهربائية الحديثة التي تفتقر إليها السفن الحربية البريطانية الموجودة في مياه الخليج العربي، ولكي يغطي البريطانيون على ذلك فقد جاءوا بالمولدات الكهربائية إلى جميع قواعدهم في الخليج، كما أرسلوا إلى مياه الخليج الطراد الحديث (مفيتريد) الذي يشبه الطراد الروسي (فارياج) في أجهزته الكهربائية.[٨١]

ويبدو أن زيارات السفن الروسية تركت أثراً كبيراً في نفوس الناس الموجودين في المنطقة، بحيث أثار الأمر انزعاج القنصل البريطاني في البصرة، وفقد لوريمر صوابه بحيث وصفها بعبارات لاذعة حيث يقول: (وكان يميز زيارات هذه السفن المتتابعة لموانئ الخليج حفاوات زائدة، وتحيات رسمية وبحرية، ومجاملات واسعة، بل وأحياناً كانت السفن نفسها تسمح للدهماء - كذا - في العرب والإيرانيين بالصعود إليها ومشاهدتها).[٨٢]

ولكي يقيم الروس لهم مصالح ثابتة ومستقرة في الخليج العربي، فقد عملوا على تسيير خط في البواخر الملاحية إليه، وهذا ما أوحت به اللجنة التي ألفها دي ويت وزير المالية الروسية، حيث دعت في تقريرها الذي أصدرته في أواخر عام ١٩٠٠ إلى

إقامة خط ملاحي في ميناء أوربا على البحر الأسود إلى كل من البصرة وبوشهر خلال شهرين ، وكان وصول الباخرة الروسية، (كورنيلوف) Iconiloff إلى الخليج العربي في آذار ١٩٠١ بمثابة تدشين لهذا الخط، إلا أن الظاهر أن هذه الباخرة كانت قد فشلت في بيع بضائعها الآن للسلطات البريطانية كانت تتربص لمثل ذلك النشاط وحاولت خنقه وهو في مهده، فأبحرت إلى أوربا، إذ خفضت شركة الملاحة البريطانية، بعد وصول (كورنيلوف) إلى البصرة، أجرة النقل البحري من موانئ الخليج العربي إلى أوربا بنسبة ٧٠٪ [٨٣] ومهما يكن من أمر ، فإن الحكومة الروسية كانت ترفع لهذه الباخرة (كورنيلوف) مبلغ خمسة آلاف باوند استرليني للرحلة الواحدة، وكانت تقوم بواقع ثلاث رحلات سنوياً إلى الخليج العربي، كما أشار إلى ذلك القنصل البريطاني في البصرة.[٨٤]

لم يتوقف الروس عن إرسال سفنهم إلى الخليج، وعادت (كورنيلوف) للمرة الثانية في أواخر عام ١٩٠١ ، وعليها حملة كاملة في أوربا ولهذا اضطرت إلى رفض عروض أخرى قدمت إليها في استنبول وبورسعيد، إلا أنها في رحلة العودة حملت في البصرة رسائل المكدسة هناك إلى مصر واستنبول. [٨٥] وفي الوقت الذي كانت فيه الباخرة (كورنيلوف) تقوم برحلتها الثانية في الخليج كانت ثمة باخرة أخرى منهمكة أيضاً في العمل بالخليج وهي الباخرة (سيجريد) Sigrid التي لم تكن الحكومة الروسية تدعمها كما هو الحال مع (كورنيلوف) غير أن الحكومة كانت تدفع عنها رسوم المرور في قناة السويس،[٨٦] ثم لم تلبث أن أعقبتها (ازوف) و (تراوفير) ، وقد أمن هذا الخط الجديد نقل السلع والمسافرين بين موانئ الخليج العربي وبلاد الشام والبحر الأسود دون مشقة.

حدث تطور مهم في مجال الخدمات الملاحية الروسية إلى الخليج في آذار عام ١٩٠٣، وذلك عندما تم الإنفاق بين الحكومة الروسية والشركة الروسية للتجارة والملاحة البخارية، لإقامة رحلات بخارية منتظمة، على أن تدفع الحكومة

الروسية سنوياً مبلغ ٢٠٠ ألف روبل -لمدة ١٢ سنة، في مقابل تسيير الحكومة الروسية أيضاً الرسوم المستحقة عن بواخر الشركة في قناة السويس.[٨٧]

لقد صار للحكومة الروسية يد كبيرة في توجيه نشاط هذه الشركة، إذ احتفظت لنفسها بحق الإشراف على اختيار كبار ممثلي الشركة في الخليج وفي الوقت نفسه أعلنت الحكومة الروسية أنها سبتني سفينتين تخصصان لخدمات الخليج، وفي تشرين الثاني عام ١٩٠٣ جاء قرارها بوضع سفينة روسية حربية بشكل دائم في منطقة الخليج، ووضعت الخطة لإنشاء قارب مسلح للغرض نفسه في برنامج البحرية الروسية لسنة ١٩٠٦.[٨٨]

اتخذت الشركة بوشهر مقراً لها، غير أنها اتجهت إلى فتح وكالات لها في كل من مسقط وجاسك وبندر عباس ولنجة والمحمرة والبصرة، وقد استطاعت عن طريق هذا الخط الملاحي أن تنقل السلع والمسافرين ما بين موانئ الخليج، وكثيراً من الموانئ الأخرى، ومن بينها موانئ الدولة العثمانية، ابتداء من موانئ عدن وجيبوتي وجدة والسويس وبورسعيد ويافا وبيروت وازمير والدردنيل واستنبول.

لقد توسعت التجارة الروسية في الخليج العربي بسرعة كبيرة حتى تقدر عدد السفن التي أرسلت خلال الأعوام في ١٩٠٣-١٩١٤ بحوالي ستين باخرة روسية كبيرة محملة بالأخشاب والنفط والخزف الصيني والزجاج والقند والسكر والطحين والمكائن والأقمشة والكبريت والمشروبات والمربيات وفي طريق عودتها إلى روسيا كانت تنقل التمور والتبغ والسمسم والجلود.[٨٩]

وهكذا يبدو لنا أن الروس، منذ مؤتمر برلين عام ١٨٧٨، بدأوا ينتهجون سياسة المحافظة على الدولة العثمانية بدلاً من اقتسامها، على العكس من السياسة البريطانية التي بدأت تنتهج سياسة مغايرة، وعلى هذا الأساس، ولما كان للعثمانيين نفوذ اسمي في منطقة الخليج العربي، سواء في البصرة أو في الإمارات العربية ، فقد حاول الروس الاستفادة من هذا النفوذ بخاصة وأن العثمانيين سعوا

إلى إحيائه في سبعينات القرن التاسع عشر وكرروا الامر في أواخر القرن المذكور وأوائل القرن العشرين، لقد عمل الروس على إيجاد قواعد بحرية لهم في الخليج سواء في الجانب الشرقي منه أو الغربي، ولقي الروس العون من السلطات العثمانية المركزية منها والمحلية في ولاية البصرة، ومع ذلك ظلت المشروعات الروسية هذه معظمها نظرية ولم تخرج إلى حيز الوجود، رغم الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية التي اتبعتها روسيا، ويعود سبب ذلك إلى استقرار النفوذ البريطاني في المنطقة منذ عام ١٨٢٠ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وعلى أية حال، فإن المخططات الروسية تجاه الخليج العربي قد انتهت باتفاقية عام ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا ، ذلك لأن الأخيرة قد احالت فيها بين الوجود الروسي في شمال بلاد فارس، وبين الأماكن التي كانت محط أنظار الروس في الخليج، على أن قبول روسيا بهذا الأمر لم يكن طوعاً ، وإنما بفعل الأوضاع المضطربة التي كانت عليها روسيا بسبب ازدهارها في الحرب مع اليابان عام ١٩٠٥، وقيام الثورة الروسية في العام نفسه.

ولكن الأهم في ذلك كله، أن الروس إذا كانوا قد فشلوا في تحقيق نفوذ سياسي مستقر لهم في الخليج، بسبب النفوذ البريطاني القوي، فإنهم نجحوا في المحافظة على تجارتهم في المنطقة دون انقطاع ، بخاصة عن طريق ميناء البصرة ومنه إلى بقية أنحاء العراق، والأقسام الداخلية في فارس.

هوامش البحث :

١- دريك هولدر، السياسة السوفيتية تجاه الشرق الأوسط في :دراسات في الاقتصاد والسياسة والقانون، مجموعة المحاضرات التي ألقيت في الندوة الدبلوماسية التي نظمتها وزارة خارجية دولة الإمارات العربية المتحدة في أبوظبي لعام ١٩٧٨، ص١٥٤.

٢- روتشين، العلاقات الدولية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين موسكو،١٩٦٠، ص٥٧٩ (باللغة الروسية) ، نقلاً عن : الدكتور نوري عبد البخيت، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مجلة الخليج العربي، (جامعة البصرة) العدد السادس (١٩٧٦) ص٥٧.

٣- بونداريفسكي، سياستان إزاء العالم العربي ، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥،ص٥٦.

٤- الدكتور جمال زكريا قاسم، دراسة لتاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة ١٧٤٠-١٩١٤ ، دار البحوث العلمية، الكويت، ط٢ ١٩٧٤، ص ٣٩١.

٥- الدكتور عبد الكريم غرايبة، وثائق يلدز كمصدر لتاريخ البصرة وخليجها والنشاط الأوربي في تلك المناطق بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ (مطابع دار الحرية، بغداد، ١٩٧٥) ، ص٦٩٥.

6- W.L. Langer. The diplomacy of imperalism (newyork , 1956), pp. 466-467

٧) بونداريفكس ، المصدر السابق، ص٥٧.

٨- قاسم ، المصدر السابق، ص٣٩٩

9- Edward Mead Earle, Tuvlcey , the great powers , and the Baghdad Railway (Russell and Russell, New Yourk, 1966) p.58.

١٠ محمد عدنان مراد، صراع القوي في المحيط الهندي والخليج العربي، جذوره التاريخية وأبعاده (دار دمشق للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤) ص٣٤٠.

١١- انظر نص الوصية في كتاب برسي سايكس :

- Sri Percy Sykes, A history of Persia (macmillan and Co. L+D, London, =

= 1963), Vol. 11, pp. 244 - 246.

١٢- الدكتور زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري (مطبعة العاني ، بغداد، ١٩٦٨) ص١٤٣.

١٣- روز لويس كريفس، المعاهدة الإنكليزية الروسية ١٩٠٧-١٩١٤ بعض وجوهها ومدى تأثيرها في فارس، ترجمة الدكتور محمد وصفي أبوفعلي ، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، السلسلة الخاصة- ٣٩ (١٩٨٤) ص٩.

14- India Office , L/P + S/20/C.277 Russian activities, in P,G.

نقلاً عن : د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي ١٨٥٨ -١٩١٤ : دراسة وثائقية (مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٢، ص٢٨٧).

١٥- ج.ج لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، مطبوعات علي بن علي الدوحة، قطر، ط٢ - د.ت، ج١ ص٥٢٣.

١٦- المصدر نفسه.

١٧- سير أرنولد ويلسون ، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة ، ط٢، ١٩٨٥، ص١٨٥.

١٨- المصدر نفسه.

١٩- كريفس، المصدر السابق ص٨.

٢٠- لوريمر، المصدر السابق، ج١ص٥٧٦، وج٧ ص٣٩٥٤.

٢١- المصدر نفسه، ج١ ص٥٧٥.

٢٢- د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي ١٨٩٩-١٩٤٧: دراسة وثائقية (دار المريخ ، الرياض، ١٩٨١) ص٨١.

٢٣- لوريمر، المصدر السابق، ج١ ص٥٧٥.

٢٤- البروفيسور بونداريفكس، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١، ترجمة وتعليق الدكتور نوري عبد البخيت، مجلة كلية الآداب، (جامعة البصرة)، العدد ١٢ السنة العاشرة ١٩٧٧ ص ١٣٠.

25- Sri C.Scoth to the Marquess Lansdwon St. Petersburg, Dec. 25 =

= 1907, Quated in: Robian Bidwell, the Affarirs of Kuwait 1896-1905, Vil,1 1896-1907 (Frank cass and company , London , 1971 vol.1. p. 163.

٢٦ إبراهيم السلام البريطاني في الخليج العربي - ص٨٢.

٢٧- لوريمر، المصدر السابق، ج٥٣١.

٢٨- غرايبة، المصدر السابق، ص٦٩٣.

٢٩- عبد الكريم غرايبة، الخليج العربي في العهد العثماني في : دراسات في التاريخ والسياسة والقانون والاقتصاد، مجموعة محاضرات الندوة الدبلوماسية التي نظمتها وزارة خارجية دولة الإمارات العربية المتحدة في أبوظبي (١٩٨٠،ص١٦٨).

٣٠- أحمد العاني، دراسة مقارنة بين الوثائق التركية والبريطانية، الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني ومشكلات الزعامة المحلية في الخليج خلال القرن التاسع عشر، أبحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية (مناقشة الدكتور محمود علي الداود)، (أبوظبي، ١٩٧٩)ص٢٣٧.

٣١- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث (دار التقدم، موسكو، د.ت) ص٤٢٤.

32- From Robertson to the political Resident in Twicish Arabian , No.207.14 Dec 1887. F.O. 78/5108

نقلاً عن د. محمود علي الداود، الخليج العربي والعلاقات الدولية ١٨٩٠-١٩١٤ (دار المعرفة ، القاهرة، د.ت) ص١١١

٣٣- الداود ، المصدر نفسه، ص١١٨.

٣٤- بونداريفكس، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١، ص١٢٣.

٣٥- العلاقات الدولية في الخليج العربي، ص١١٤.

٣٦- لوتسكي، المصدر السابق، ص٤٢٣-٤٢٤.

٣٧- بونداريفسكي، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت ، مقتبس من أرشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية، وثيقة ١٦١٥، ورقة [illegible]

٣٨- الداود، المصدر السابق، ص١٢٣ مقتبس من

- Enclosed in O'conor to Foreign office , No 4424, September.1899 F.O.78/5114.

٣٩ الباب العالي /نظارة الشؤون الخارجية، برقية من توفيق باشا لي مغيربك، باريس، الرقم ٤٥٦١٥/٧ في ٨ يناير ١٩٠٢ نقلاً عن: د. نجاة عبد القادر القناعي، أهمية الوثائق العثمانية في دراسة تاريخ الخليج العربي الحديث وشبه جزيرة العرب الحديث، دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الثلاثون، السنة الثامنة،(إبريل ١٩٨٢، ص١٨٠).

٤٠- لوريمر ، المصدر السابق، ص٢٢٥٣.

٤١- الدكتورة فتوح الخترش، التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك: دراسة وثائقية مقارنة بالمؤرخين المحليين، تأليف ج.ج سلدانها،عن كتاب شؤون الكويت ١٨٩٦- ١٩٠٤ (الكويت، ط١، ١٩٨٥) ص٦٢.

٤٢- د. بدر الدين الخصوصي، النشاط الروسي في الخليج العربي ١٧٨٧-١٩٠٧، دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الثامن عشر السنة الخامسة (نيسان، ١٩٧٩) ، ص١١٩.

43- Government of India to Lord G. Hamilton. Feb. 14, 1899, Bid well, op. cit., Vol. 1, P. 40.

44- Sir N. O'conor to the marquess of Salisbury, Constantinople, Feb. 25, 1899, Bid Well, op. cit., Vol. I, p. 44.

٤٦- للمزيد عن مسألة الحجر الصحي تلاحظ الوثائق البريطانية التي جمعها بدويل Bedwell ، وانظر أيضاً : القناعي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ - ٠٦٦

٤٧- الخترش ، التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك ، ص ٦٣ ، ولكنها تذكر اسم الروسي الذي اصطحب الطبيبين خطأ باسم "أدامون" انظر نص التقرير أيضاً في :

- Bidwell, The Affairs of Kuwait, Vol. 1, 1896 - 1901, Government of India to Lord G. Hamilton, Feb. 9, 1898, P. 27.

48- Forign Affairs (Confidential), October, 30, 1901, p. 13, N. O'conor =

= to the marquess of Lansdowne, Therapia, August 21, 1901, Quoted in : Bidwell, Op. cit., Vol. 1, P. 78.

٤٩- أرشيف سياسة روسيا الخارجية ، وثيقة ٣٦٤ ، ورقة ٣٣ ، نقلاً عن : بونداريفسكي ، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١ ، ص ١٢٧ – ٨ .

٥٠- دليل الخليج ، ج١. ، ص ٥٧٥ .

51- Sir N. O'conor to the marquess of Salisbury, Constantinople, March 18, 1899, Quoted in Bid Well, op. cit., Vol. I, p. 47.

52- Consul Wratislaw to Sir N. O'conor, Bussorah, may 15, 1901, Quoted in Bidwell, op. cit, Vol. 1, p. 54.

53- Bidwell, op. cit., Vol. 1, (Introduction), p. XIV.

٥٤- الدكتور بدر الدين الخصوصي ، الخليج العربي والمطامع الاستعمارية ، مجلة كلية الآداب والتربية (جامعة الكويت) ، العددان الثالث والرابع ، حزيران وكانون الأول (١٩٧٣) ص ٢٤٣ .

٥٥- لمزيد عن زيارات السفن الروسية الحربية لمنطقة الخليج العربي يلاحظ: لوريمر، المصدر السابق، ج١ص ٥٢٣-٥٢٥.

٥٦- المصدر نفسه ، ج١ ص٥٢٧-٥٢٩.

٥٧- المصدر نفسه ص٢٢٥٢.

٥٨- الدكتور لؤي بحري، سكة حديد بغداد (شركة الطبع والنشر الأهلية، بغداد، ١٩٦٧) ص٢٠.

٥٩- المصدر نفسه، ص١٨-١٩.

60- British Parlaiamentary Papers, reporton the trade of the wilayet of Basra, 1908, Cx, v1,p. 8.

نقلاً / عن جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي.

١٨٧٦-١٩٠٩ رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة بغداد (١٩٧٥) ص٤٠٢.

٦١- المصدر نفسه.

٦٢- انظر الدكتور جابر إبراهيم الراوي، الحدود الدولية ومشكلة الحدود العراقية - الإيرانية: دراسة قانونية وثائقية (مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٥، ص٢٤٨).

٦٣- بونداريفسكي، سياستان إزاء العالم العربي، ص٦٦.

٦٤- المصدر نفسه ص٦٧.

٦٥- ارشيف سياسة روسيا الخارجية، وثيقة ٣٦٥، ورقة ١٣، نقلاً عن بونداريفسكي، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١، ص١٢٩.

٦٦- المصدر نفسه.

٦٧- بونداريفسكي، سياستان إزاء العالم العربي، ص٦٧، المؤلف نفسه، التوغل البريطاني في جنوب وادي الرافدين ومحاولات احتلال الكويت في بداية القرن العشرين وترجمة نوري السامرائي، مجلة الخليج العربي، (جامعة البصرة)، العدد الثالث(١٩٧٥-ص٩٣).

٦٨- قاسم المصدر السابق، ص٢٦٧.

٦٩- ب. م. دانتيغ، الرحالة الروسي في الشرق الأوسط، ترجمة وتعليق الدكتور، معروف خزنة دار المركز العربي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١ص٣٣٨.

70- Bidwell, op. cit, vol.1. x17 (introduction)

٧١- في برقية للأدميرال داي .هـ. بوسانكويت، سلدانها، عن شؤون الكويت، ١٨٩٦-١٩٠٤،ص١٦٦.

72- Foreign office, from C.A. Kemball officiating political resident in the Gulf to the secretary of the Government of India.

73- Consul wratislaw to siv N.O. corner (confidenul) Busnesarah June 1901, Quoted in Budwell, op. cit, vol1. p.61.

٧٤- إبراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي ص ١٠٠.

٧٥- دليل الخليج، ج١ ص٥٦٨.

٧٦- عبد البخيت، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي، ص ٦٢.

٧٧- أرشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية، نقلاً عن عبد البخيت، المصدر نفسه، ص٦٢.

٧٨- مراد، المصدر السابق ، ص٣٤٥.

٧٩- الوثائق الفرنسية، جمع الآنسة إيزابيل بالوه، عمان وفرنسا صفحات من التاريخ، ترجمة السيد خزعل، (طبع بمطابع شركة تيب، د.ت، ص٢٢٢).

٨٠- أرشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية، F.550,L.16 نقلاً عن عبد البخيت، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي، ص ٦٢.

٨١- دليل الخليج ج١ ص٥٢٧.

٨٢- بونداريننسكي، سياستان إزاء العالم العربي، ص٢٦٦-٠٧

83- Edward Brawne, the presian revolution (London, 1910), pp.108-9.

٨٤- لوريمر، المصدر السابق، ج١ص ٥٣٤ - ٥.

٨٥- المصدر نفسه ، ج١ ص٥٥٣، انظر ايفا ابراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي، ص٩٠.

٨٦- لوريمر المصدر السابق ، ج١ ص٥٣٦.

٨٧- المصدر نفسه، ج١ ص٥٣٧.

88- Charles Issawi, the economic history of the middle east, 1800-614 (Chicago, 1966) p.352.

الفهرس



هذا الكتاب

ظلت المعلومات التاريخية عن العلاقات بين منطقة الخليج العربي والدولة العثمانية محاطة بالغموض، لذلك رأينا من المفيد ونحن بصدد إعادة كتابة تاريخ الخليج العربي من منطلقات وثائقية، فكانت دعوتنا لنخبة من علماء التاريخ الأتراك والعرب وبعض المهتمين الأوروبيين بتاريخ المنطقة للمشاركة في ندوتنا التاريخية الثانية لإلقاء الضوء على الوثائق العثمانية ذات الصلة بالخليج العربي من خلال مساهماتهم. لذا جاءت أبحاث وأوراق الندوة التي ضمها هذا الكتاب حاوية لمختلف أشكال الرؤى والنظريات التي دارت حول قيام الدولة العثمانية ومن ثم العلاقات التي نشأت بين إمبراطورية بني عثمان والعرب وخاصة في بلدان الخليج العربي.